

مكتبة

يان ليانكه

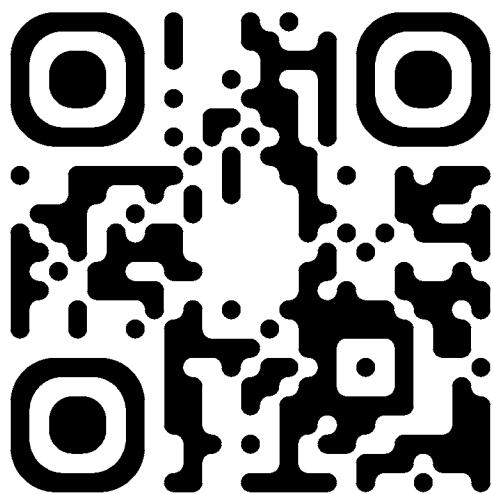
يوم ماتت الشمس

ترجمة

حيدرة أسعد

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING





سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة

SCAN QR

يومَ ماتتِ الشمسُ

الكاتب: يان ليانكه
عنوان الكتاب: يوم ماتت الشمس
ترجمة: حيدرة أسعد

العنوان باللغة الأصلية: (日地) The Day the Sun Died

الكاتب: Yan Lianke (阎连科)

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-22-8
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2025
1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
© YAN LIANKE 2015

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: + 965 98 81 04 40

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: + 964 78 11 00 58 60

✉ takween.publishing@gmail.com f takweenkw
📷 takween_publishing 📺 TakweenPH
🌐 www.takweenkw.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

يان ليانكه

مكتبة

t.me/soramnqraa

يوم ما تـ الشمش

رواية

ترجمة

حيدرة أسعد

مرايا

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



ملاحظة

السرنة أو السير النومي أو السير في أثناء النوم:
حالة مرضية يفعل فيها النائم ما يفعله المستيقظ،
كالمشي والكلام والكتابة، كأنه يؤدي حلمًا بالفعل
ولا يكتفي بمشاهدته.

مُفتَّتَح

دعوني أبرطم قليلاً!

مكتبة

t.me/soramnqraa

مرحباً... أأنتن هنا؟... هل تُنصتن إليّ؟

مرحباً... أيتها الأرواح! هل لي بدقيقة من وقتكن؟... ها أنا أجثو فوق أعلى قمم جبالنا، جبال فونيو، ولا بدّ أنكن قادرات على سماعي. أيعكّر مزاجكنّ صراخ طفلٍ؟

مرحباً... لقد أتيتُ نيابةً عن قريتي... عن قرية صغيرة... نيابةً عن سلسلة جبلية، وعن العالم بأسره. أجثو هنا في مواجهة السماء، راغباً في أن أخبركنّ شيئاً واحداً. آمل أن يتسع صبركنّ للإصغاء إليّ، لسماع صراخي وحديثي. لا تعكّرن صفوكنّ ولا تقلقن. الأمر كبيرٌ، بحجم الأرض والسماء.

مات كثرٌ في قريتنا من جرّاء هذا الأمر. مات كثرٌ في بلدتنا أيضاً. في جبال فونيو وفي العالم الخارجي وفي أحلام تلك الليلة، مات أناسٌ بعددِ سويقات القمح المحصودة. يعادلُ عددُ الباقيين على قيد الحياة في الجبال، بشكلٍ مثير للشفقة، عدد حبوب القمح المتبقية في الحقول. ما بين القرى والأطفال، وما بين الجبال والعالم هناك شيءٌ مشترك؛ أحشاء

كُلٌّ من هذه الأشياء أشبهُ بأكياس ورقية ملأى بالماء المدمى، إن لم تتوخَّ معها الحذر فقد تتمزق الأكياس الورقية وينسكب ما بداخلها. لكأنَّ القدر أصبح كقطرة ماء تنهمر في البرية، أو كورقة تسقط في غابة خريف قارسة البرودة.

أيتها الأرواح... يا أرواح الناس! ليس بمقدور هذه القرية وهذه البلدة وهذه الجبال وهذا العالم مكابدة أهوال كابوسٍ آخر. أيتها الآلهة... أيتها المستنيرون... أيتها الكهنة... يا أباطرة اليشم... أتضرع إليكم أن تحموا هذه القرية وهذه البلدة. أتضرع إليكم أن تحموا هذه الجبال وهذا العالم. نيابةً عن الثرية والبلدة والناس جئتُ لأجثو على قمة هذا الجبل. وأملًا في أن يبقى الأحياء منهم أحياءً جئتُ لأجثو على قمة هذا الجبل. نيابةً عن المحاصيل والتراب والبذور وأدوات الزراعة والشوارع والأسواق والصخب والضجيج جئتُ لأجثو هنا على قمة هذا الجبل. نيابةً عن الليل والنهار جئتُ لأجثو هنا على قمة هذا الجبل. نيابةً عن الدجاج والكلاب جئتُ لأجثو هنا على قمة هذا الجبل. بكلِّ صدقٍ أخبركم تفاصيل ما جرى في ذلك النهار وتلك الليلة. إن أخطأتُ فذلك ليس خداعًا مني أو كذبًا، إنما سببه عظيم تأثري. دائمًا ما أشعرُ بتشوُّشٍ وارتباكٍ في ذهني وهذا ما يجعلني أبرطم طوال الوقت. أحبُّ أن أتحدَّث إلى نفسي ولا يهمني إن كنت وحيدًا أو مع آخرين. أحبُّ أن أغغم جملةً تلو أخرى، جملاً لا يمتُّ بعضها لبعض بصلة. ينعتني أهل القرية وسكَّان البلدة بالأحمق... الأحمق. ولأنني أحمق فلا صبر لديَّ للإمساك برأس الخيط في هذه الفوضى المتشربكة. ونتيجة لذلك،

لا خيارَ أمامي سوى أن أسرد كلَّ شيءٍ بطريقة مبعثرة، على نحوٍ يزيل اللبسَ عن حقيقة حماقتي. وعلى أيِّ حال يا أيتها الأرواح... يا أيُّها الكهنة والمستنيرون... لا ينبغي أن تنظروا إليَّ على أنني شخصٌ مطلق الحماقة. ففي بعض الأحيان يكون ذهني أصفى من قطرة ماء... أصفى من سماء زرقاء. كأنَّ نافذة انفتحت في سقفِ ذهني وسمحت لي برؤية السماء والأرض ومجريات تلك الليلة. كلُّ ما جرى أراه واضحًا تمام الوضوح بعين عقلي، حتَّى إنَّ بوسعي العثور على إبرة ضائعة أو حبة سمسمٍ ساقطة في الظلام.

السماء شديدة الزرقة والسحبُ شديدة القرب، وعندما أجتو هنا أسمعُ رفيفَ شعري في الريح، بل يمكنني حتَّى أن أسمع احتكاك خصلات شعري بعضها ببعض. يمكنني سماع السحب التي تعوم في السماء فوق رأسي، يمكنني رؤية الهواء يمرُّ أمامي، مثل خيطٍ يُسحب من جوف عينيَّ. الشمس مشرقة وكلُّ شيءٍ ساكن. يفوح الهواء والغيمُ برائحة الندى تحت شمس الصباح. أجتو، أجتو بسلامٍ على قمّة هذا الجبل. وحيدًا هنا. ليس ثمة سواي في العالم كلاً. ليس هناك سواي، برفقة العشب والصخر والهواء. العالمُ في سكونٍ تامٍّ. كلُّ شيءٍ تحت السماء في سكونٍ تامٍّ... أيتها الأرواح، اسمحن لي أن أجلس هنا وأروي كلَّ ما جرى في تلك الليلة. أعلم أنَّكن مشغولاتٌ، ولكن ألا يمكن لإحداكنَّ أن تأتي وتستمع إليَّ! أعلم أنَّكنَّ تسكُنَّ في السماء القابعة فوق رأسي وفي الجبال الممتدة خلفي. في قمم الجبال المعزولة وبين هذه الشجيرات والأعشاب البريَّة والضفادع وأشجار الدردار العتيقة...

جاث أنا في مواجهة السماء، قلبي صافٍ كالماء النقيّ، سأروي كلّ ما سمعته وخبرته. سأروي أحداث تلك الليلة، كأنني أحرق عودَ بخور أمامكم، وتحت هذه السماء... إثباتًا لصحة كل ما سأقوله. كما يشهد العشب المتمايل في مهبّ الريح على وجود الأرض، وأيضًا على القدر الذي منحته من أجله.

سأروي الآن قصّتي.

من أين أبدأ؟

سأبدأ من هنا.

اسمح لي أن أبدأ بالحديث عن نفسي وعن عائلتي وعن جارنا آنذاك. لم يكن هذا الجار جاريًا عاديًا، لدرجة يصعب معها تصديق أنّه كان يعيش معنا في القرية نفسها. لكنّه، على الرغم من كلّ شيء، جارنا. لقد كان جارنا.

لم تكن عائلتنا من رغب في جيرته، بل لعلّ الأمر كان بترتيبٍ وتدبيرٍ من أسلافنا والربّ. اسمه يان ليانكه، الكاتب يان ليانكه، الذي كان يؤلّف ويرسم. اكتسب هذا الكاتب شهرة كبيرة. ففي بلدتنا فاقت شهرته شهرة عمدة البلدة. بل عمدة المقاطعة حتّى. كانت شهرته هائلة لدرجة أنّ مقارنته بسواه تشبه وضع البطيخة مقابل بذور السمسم على كفتي ميزان، أو وضع جملٍ يرعى بين قطعٍ أغنام.

أمّا أنا فشهرتي في غاية الضآلة، كذرة غبارٍ تائهة بين كومةٍ من بذور السمسم، أو كقملة متوارية على ظهر جملٍ أو ثورٍ أو شاة... عمري أربعة عشر عامًا واسمي لي نيان نيان، لكنّ الجميع ينادونني شانيان نيان، أي:

«نيان نيان الأحق». العمّ ليانكه هو الوحيد الذي يناديني نيان نيان أو «نيان نيان الصغير». ليس الانتماء إلى القرية نفسها ما يجمعنا فحسب، بل أننا جيران أيضًا. تُدعى قرينتا غاو تيان، ولأُتُها تضمُّ شوارع وسوقًا ومكتبَ بلدية ومصرفًا ومكتبَ بريدٍ ومخفر شرطة؛ فينبغي من الناحة الفنية اعتبارها بلدة. وعلى الرغم من ذلك، تدعى القرية قرية غاو تيان، وكذلك البلدة التي تتبع لها القرية تُدعى بلدة غاو تيان. تتبع قرينتا إلى مقاطعة تشاو نان ولا داعي للقول إنَّ سبب تسمية الصين بهذا الاسم هو نظرة الشعب الصيني، منذ زمن سحيق، إلى بلادهم باعتبارها مركز العالم ووسطه، لهذا أطلقوا اسم الصين على البلاد والذي يعني حرفيًا: المملكة الوسطى. وبالمثل تُسمَّى السهول الوسطى بهذا الاسم لأنَّ سكَّانها اعتقدوا أنَّهم يقطنون وسطَ الصين، أي وسطَ المملكة الوسطى. هذه الكلمات ليست كلماتي بل ممَّا كتبه العمّ يان ذات مرَّة في أحد كتبه. تقع مقاطعتنا وسط السهول الوسطى، وتقع قرينتا وسط المقاطعة. وبعبارة أخرى تقع قرينتا وسطَ الصين ووسطَ العالم. لا أدري إذا ما كان العمّ يان محقًّا في هذا أم لا، لكنَّ أحدًا لم يحاول أن يصوِّب أقواله. قال أيضًا: لقد كتبتُ كلَّ ما كتبتُه لأبرهنَ لكلَّ العالم أنَّ تلك القرية وتلك الأرض هي مركز العالم. لكنَّه الآن ما عاد يكتب. لم يكتب شيئًا منذ سنوات. لقد نصبَ إلهامه تمامًا واستنزفت روحه حتَّى الرmq الأخير. يزعم أيضًا أنَّ انزعاجه من هذا العالم سببه كتاباته. لذا يريد أن يرحل بحثًا عن شيءٍ من الهدوء والسلام. وبعد مكابذته أهوال تلك الليلة وعجزه عن كتابة شيءٍ عنها، تبدَّى موته الفعليّ باعتباره كاتبًا، أمَّا بصفته كائنًا فقد حارَ في وجهة رحيله. لذلك، ها أنا أجثو هنا، أتضرَّع إليكنَّ أيُّتها الأرواح،

أَتَضَرَّعُ إِلَى الكَهَنَةِ وَالْمُسْتَنِيرِينَ، إِلَى الْجُنَرَالِ غَوَانِ يُوَ وَإِلَى كُونُغِ مِينِغْ، إِلَهَ
الْأَدَبِ، وَإِلَى الشَّاعِرَيْنِ لِي بَايَ وَدُو فُوَ وَإِلَى الْمَوْرِّخِ الْعَظِيمِ سِيْمَا تَشْيَانِ
وَإِلَى الْفِيلَسُوفَيْنِ تَشْوَانِغْ تَزِي وَلاو تَزِي وَإِلَى وَإِلَى وَإِلَى... أَتَضَرَّعُ إِلَيْكُمْ
جَمِيعًا أَنْ تَعِيدُوا لِلْعَمِّ يَانِ إِلْهَامَهُ. أَنْ تَمْطُرُوهُ بِالْإِلْهَامِ. أَنْ تَسْمَحُوا لَهُ بِأَنْ
يَسْتَمِرَّ حَيًّا بِصِفَتِهِ كَاتِبًا. رُبَّمَا يَتَسَنَّى لَهُ، فِي غُضُونِ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، أَنْ
يَكْمَلَ رِوَايَتَهُ «لَيْلَةُ الشَّعْبِ».

أَيْتَهَا الْأَرْوَاحُ! أَيْتَهَا الْأَرْوَاحُ الْبَشَرِيَّةُ! أَتَوَسَّلُ إِلَيْكُمْ حِمَاةَ قَرِينَتِنَا.
أَحْمِيْنَ بِلَدْتِنَا. أَحْمِيْنَ ذَلِكَ الْكَاتِبَ؛ يَانِ لِيَانِكِهِ. لَقَدْ قَرَأْتُ عَدَدًا مِنْ كُتُبِهِ.
وَلَأَنَّهُ جَارٌّ لِعَائِلَتِي، فَالْكَتَبُ الَّتِي يَنْشُرُهَا فِي الْخَارِجِ تُشْحِنُ إِلَى بَيْتِهِ وَأَنَا
أَسْتَعِيرُهَا مِنْهُ؛ الْوَقْتُ يَفُتُّ، صَلَابَةُ الْمَاءِ، قُبَلَاتُ إِلَى لِينِينِ، قِصَائِدُ وَتِرَانِيمِ
وَأَغَانِ، قَرْيَةُ حَلَمِ دِينِغْ، الْكُتُبُ الْمَيْتَةُ وَغَيْرُهَا. لَقَدْ طَالَعْتُهَا وَالتَهَمْتُهَا جَمِيعًا.
لَكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ بِالْحَقِيقَةِ؛ عِنْدَمَا أَقْرَأُ كُتُبَهُ أَشْعُرُ بِأَنِّي أَرْغَمُ عَيْنِي عَلَى
التَّهَامِ الْفَاكِهِةِ مُتَعَفِّئَةً أَوْ عَلَى حِصَادِ مَحَاصِيلِ الشِّتَاءِ الْمَتِيَّسَةِ. وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ
ثَمَّةُ كُتُبٍ أُخْرَى فِي مَتَنَاوُلِ يَدَيَّ، وَاضْطَرَرْتُ لِلتَّلَذُّذِ حَتَّى بِالْفَاكِهِةِ الْمُتَعَفِّئَةِ
وَبِالْمَحَاصِيلِ الْمَتِيَّسَةِ. مَا ذَنْبِي إِنْ كُنْتُ غَبِيًّا بِعُضِّ الشَّيْءِ، قَلِيلَ الْفَهْمِ،
وَلَيْسَ لَدَيَّ شُغْلٌ شَاغِلٌ بَعْدَمَا أَنْهَيْتُ دِرَاسَتِي الْإِبْتِدَائِيَّةَ؟ سَوَاءٌ أَكَانَتْ
كُتُبُهُ جَيِّدَةً أَمْ رَدِيئَةً فَهِيَ فِي النِّهَايَةِ نَصُوصٌ مَطْبُوعَةٌ وَمَنْشُورَةٌ، وَمَهْمَا كُنْتُ
غَبِيًّا فَأَنَا أَحَبُّ الْقُرَاءَةِ. لَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَ «تَارِيخِ أَلْفِ عَامٍ» عِدَّةَ مَرَّاتٍ،
لِدَرَجَةِ أَنَّي أَحْفَظُ كُلَّ تَفَاصِيلِ التَّوَارِيخِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَتَقْسِيمَاتِ التَّقَاوِيمِ.
فِي بَوَاكِرِ الْخَرِيفِ، قَرَّرَ الْعَمُّ يَانِ، مِنْ أَجْلِ تَدْوِينِ قِصَّةِ مَا حَدَثَ
بِلَدْتِنَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، أَنْ يَسْتَأْجِرَ بَيْتًا مَكُونًا مِنْ ثَلَاثِ غُرَفٍ، يَقَعُ

جنوب البلدة بجوار الحوض. في فناء البيت الجديد انعزل العمُّ كأنه رهن السجن. بقي حبيس الفناء مدّة شهرين كاملين، لكن في النهاية، وعلى الرغم من امتلاء الأرض بأوراق المسودات المهملة وزجاجات الحبر الفارغة، لم يتمكّن من إنهاء مطلع القصّة. حين واجه حقيقة ما حدث في ذلك العام، في ذلك الشهر، في تلك الليلة، وجد نفسه حائرًا مشوشًا، لا يعرف إطلاقًا من أين يبدأ.

شعرَ إزاء الكتابة بمطلق اليأس.

الشعور ذاته راوده لدى تفكيره بحياته على هذه الأرض وهو عاجزٌ عن سردِ القصص. رأيتُه ذات مرّة يلوك قلمه حتّى هرسه تمامًا. صدر صرير عالٍ من فمه وبصق قطع البلاستيك يمّنة ويسرة، على الأرض والطاولة وأكوام الورق المهملة المحيطة به من كلّ جانب. ثم أخذ يضرب رأسه بالجدار كأنّ صداً شديداً ألمّ به جعله يتمنّى الموت. بعدها راح يدقُّ صدره بقبضة يده كأنه أراد أن يفجّر الدم من قلبه. تساقطت الدموع على وجهه، ولكنّ إلهامه، كعصفورٍ ميت، ظلّ رافضاً أن يطير.

في أثناء تلك الفترة، اعتدتُ أن أتجول بين يومٍ وآخر حول الأنقاض المحيطة بمحرقة الجثث، بحثًا عن الصغيرة جيوان تزي التي اختفت. وفي الطريق كنت أعرج على العمّ يان ليانكه وأعطيه بعض الخضروات والمكرونة أو بعض الفاكهة والزيت والملح. وكنت أستعير منه بعض الكتب بين حين وآخر. في ذلك اليوم تحديداً، عندما رأيته واقفاً بالمدخل، مواجهًا الحوض، وجهه جامدٌ كحجر تداعى من جدارٍ قديم، كنت قد جلبت له بعض السبانخ وصلصة الصويا:

«ضع الخضر وات بالداخل من فضلك».

لم ينظر إليّ. شعرتُ أنّ صوته يشبه غبارًا تطاير من حجرٍ. دخلتُ لأضع كيس السبانخ في المطبخ. وحين توجّهت إلى الغرفة التي اتخذها حجرةً للنوم والكتابة، كي آخذ نسخةً من «الكتبُ الميتة» رغبتُ باستعارتها، رأيتُ أكوام الورق تغطي الأرض، ورقٌ كتبَ عليه ثمّ مرّقه؛ بدا المشهد كأنّ مريضًا تقيًّا في أنحاء الغرفة كلّها. في تلك اللحظة أدركتُ أنّه فقد إلهامه إلى غير رجعة. لقد جفّ خياله. لم يستطع كتابة القصّة التي أراد وسخط سخطًا شديدًا من جرّاء ذلك، لدرجة الرغبة في الموت. خرجتُ من غرفته مذهولًا ورأيتُه يسير نحو البحيرة كشبح يطوفُ نحو قبرٍ. حينذاك، قررتُ أن أمشي هذا الطريق الذي يبلغ طوله خمسين لي⁽¹⁾ وحدي، وأتسلّق قمة الجبل نيابةً عن قريتنا. من أجل بلدتنا، من أجل أرضنا، من أجل الناس الذي يعيشون عليها، ومن أجل العمّ يان ليانكه، أريد أن أخبرك ما جرى في تلك الليلة. أتوسّل إليك... أيتها الأرواح... احمين قريتنا وأهلنا. أتوسّل إليك أن تحمين ظلام الليل وإشراق النهارات. أن تحمين قطط البلدة وكلابها، أن تحمين ذلك الكاتب الذي جفّ الخبر في قلمه. أتضرّع إليك أن تمنحني إلهامًا سماويًا، امنحني مددًا لا ينضب من الخبر السماويّ والصفحات السماويّة. أرجوكنّ اسمحنّ له أن يواصل الكتابة، أن يواصل الحياة. أرجوكنّ اسمحنّ له أن يكمل روايته «ليلة الشعب» في غضون يومين أو ثلاثة، لعلّه يذكر عائلي في سياق قصّته ذكرًا حميدًا.

(1) وحدة قياس صينية للمسافات، تعادل تقريبًا نصف كيلومتر.

الكتاب الأول

الهزيع الأول: الطيور البرية

تدخل رؤوس الناس

1. (17:00 – 18:00)

من أين أبدأ؟

سأبدأ من هنا.

كان ذلك في أوج حر الصيف، يوم عيد التين الذي صادف سادس أيام الشهر السادس من التقويم القمري. بلغت شدة الحر حدًا جعل عظام الأرض تلتوي وتشقق وشعر الأرض يتطاير كالغبار، ذبلت الأغصان والأوراق وتساقطت الثمار والأزهار على الأرض، وظلت اليرقات معلقة في الهواء يابسة متحنطة.

هناك سيارة في الشارع تهدر بقوة، تبين أنها اصطدمت بمطب في الطريق فانفجر إطارها وانحرفت عن مسارها. نادرًا ما يستخدم أهل القرية الخيول والثيران حاليًا لنقل الأحمال؛ فقد صار اعتماد معظمهم على الجرارات، أمّا الأثرياء فيستخدمون السيارات خلال مواسم الحصاد. عندما تدهورت السيارة كان هناك شاحنة متهاكة تتجه نحو حقل قمح. فاحت من الجرارات رائحة الطلاء الأحمر. بين حين وآخر

تظهر عربة يجرّها حصان أو ثور. وفي الوقت ذاته، اعتمد كثيرون على قواهم البدنيّة حاملين القمح حزمًا حزمًا على أكتافهم. تراحوا حول الحقل حتّى سدّوا الطريق ونشب فيما بينهم شجار عنيف. مات على إثرها أحد الرجال، بل ربّما أكثر من رجلٍ.

مات البعض عشية عيد التّين من جرّاء الحرّ الشديد لدرجة أنّ متجر الجناثر، الذي تملكه عائلتي، باع كلّ مخزونه من أكفان الدفن. كلّ البضائع القديمة، المكدّسة في الخزائن، التي تكاثر فيها العثّ بيعت.

جاء الناس وطرقوا بابنا واشتروا كلّ شيء. الأكاليل وأوراق النقود والمجسّمات الورقيّة الصغيرة لأولادٍ وبناتٍ والأواني الذهبيّة والفضيّة وتلك المصنوعة من الخيزران ومجسّمات الجبال والخيول الذهبيّة والفضيّة وقصاصات الورق بكلّ أصنافها. كانت الغرفة ممتلئة بأوراق القرايين، وبدأت كمصرفٍ تلقى للتو شحنة ضخمة من رزم النقود. لو أنّك دخلت إلى متجرنا هذا، المسمّى بالعالم الجديد، قبل بضعة أيّام لفوجئت بوفرة البضائع الفخمة فيه. ولكن لم يبق شيء الآن. عشية عيد التّين بلغت مبيعات متجرنا أوجها، وفي غمضة عين بيع كلّ شيء. تمامًا كما هو الحال حين يُعلن عن تضخّم وحشيٍّ في الأسعار فيهرع الناس إلى المصارف لسحب أموالهم من أجل إنفاقها. تراهم يفرغون حساباتهم، حتّى أدنى فئة نقدية متبقية، ثم ينقضّون على المتاجر الموجودة في الشوارع ويشترون كلّ ما بداخلها.

حلّ الغسق.

احتضنه الهواء العابق بالحرّ والرطوبة. لا نسمة تهبُّ. جدران المنازل وأعمدتها مكسوّة بالرماد. لقد احترق العالم إلى حدّ الموت تقريباً، وكذلك كانت قلوب الناس؛ احترقت إلى حدّ الموت تقريباً.

بعد كدّ في الحقول طوال اليوم، كان الجميع منهكين... منهكين تمام الإنهاك. غفا بعض الناس في أثناء الحصاد وغفا آخرون في أثناء الدرس. كان محصول القمح ممتازاً في ذلك العام، الحبوب كبيرة بحجم حبات الفاصولياء؛ كبيرة لدرجة أنّ حبة واحدة كفيلة بإنتاج حفنة من الدقيق. غطّت سنابل القمح الذهبية الطريق وتعثّر الناس بالحبوب المتناثرة في الأرض. توقّعت نشرة الطقس هبوب عاصفة رعدية في غضون ثلاثة أيام ستتلبّد بعدها السماء بالغيوم؛ فمَن لا يسارع لحصاد حقوله سيستيقظ ليجدها متعفنة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لذا سارع الناس إلى حصاد حقولهم.

تاهتوا للحصاد والدرس.

كلّ مناجل القرية كانت قيد الاستخدام، كلّ الناس منكّبون على أحجار الشحذ لسنّ مناجلهم. ما بين السماء والأرض، ما بين الحقول والغابات، كان الناس في كلّ مكان وكانت الأصوات في كلّ مكان. في كلّ أنحاء العالم وفي كلّ أنحاء الحقول كان الناس في كلّ مكان وكانت الأصوات في كلّ مكان. يحنّك كلّ صوت بالآخر، فيما يحنّك الناس بعضهم ببعض والأحمال على كاهلهم فتنبش بينهم الملاسنات.

تشاجرت عائلتان على آلة الدّرس فيما، بعيداً، تشاجر ثالث أعمامي مع خامسهم على حجر الرّحى.

كنتُ جالساً عند مدخل متجرنا أقرأ رواية يان ليانكه «الوقت يفرُّ». كان والدائي قد وضعاً سريراً من الخيزران عند الباب وجلسا يستنشقان بعض الهواء النقيّ. وفيما المصباح يتأرجح فوقيّ رأيتُ عبارة «العالم الجديد» المكتوبة على لافتة المتجر. العبارة مكتوبة بأحرف ذهبيّة على خلفيّة سوداء، وفي الظلام المتزايد بدت الأحرف الذهبيّة صفراء باهتة. بعد تناول العشاء، أحضر أبي كوباً من الماء وجلس يشربه على السرير بجانب الشارع. تهادت أمي وناولته مروحة ورقيّة، وحينها تقدّم رجلٌ ووقف أمامه. رجل طويل القامة يرتدي قميصاً أبيض مشمّر الكُمَيْن. كانت رائحة العرق والقمح تفوح من رأسه وجسده. وجهه محمّرٌ وشعره قصير وهناك بعض القش العالق بين خصلات شعره كأعلام صغيرة. كان يلهث بشدّة كأنّ حبلاً يخترق حلقة. قال:

«أخي تيان باو، أريد ثلاثة أكاليل وخمس مجموعات من القصاصات الورقيّة من أجل والدي».

«ماذا حلّ بأبيك؟»، سأله أبي ذاهلاً.

«لقد مات. خلد إلى فراشه ظهرًا كي ينام... بعد أن عمل في الحقل على مدار اليومين الماضيين بلا توقّف، طلبتُ منه أن يأخذ قيلولة. خلد للنوم لكنّه فجأة جلس في فراشه وأمسك بالمنجل وقال إنّّه إذا لم يحصد المزيد من القمح فستعفن المحاصيل في الحقول... إن لم يحصد فستعفن الحبوب في سنابلها؛ لذا نهض من سريره وتوجّه نحو الحقل».

لم يستجب لنداء أيّ منا، لم يلقِ بالآ لأيّ أحد. مضى قدمًا غير مكترث سوى بنفسه. حين رآه الناس بدا لهم كالمسرنم⁽¹⁾، وحين تحدّثوا إليه بدا كأنه لا يسمعهم؛ كأنه غارق في النوم ولا يمكن لأحد إيقاظه. ظلّ يكلم نفسه، كأنه يمشي في عالم آخر ويتحدّث إلى نسخة أخرى منه. عندما وصل إلى حقول القمح قال إنّه عطشان ويريد شرب الماء، فتوجّه إلى القناة الواقعة عند سفح التلّ الغربيّ وشرب منها. وبعد أن شرب -وهو ما يزال نائمًا- سقط في القناة وغرق.

ينحدر هذا الرجل الذي أخبرنا أنّ أباه سقط في القناة وغرق من عائلة شيا القاطنة في الجانب الشرقيّ من البلدة. علمت لاحقًا أنّه ينبغي لي أن أناديه العمّ شيا. وصف لنا كيف غرق أبوه في أثناء نومه وقال إنّ أباه ذو حظوة؛ فلم يسبق للعمّ شيا أن رأى شخصًا مسرنمًا منذ سنوات كثيرة، لكنّه فجأة وجد أباه كذلك، وبما أنّه مات في أثناء نومه فلا بدّ أنّه لم يكابد آلام الاحتضار على الإطلاق. بعد أن فرغ من قول هذا، تعثّر العمّ شيا وهو يسير مبتعدًا وقد شحب وجهه. كان ينتعل زوجًا من الأحذية القماشية البيضاء، وكان كعباه ينزلقان داخل الحذاء تارة وخارجه تارة أخرى.

شاهدت العمّ شيا وهو يغذّ خطاه مسرعًا كشخصٍ تذكّر أنّه نسي مفتاحه فهرع إلى البيت ليجلبه. كنتُ جالسًا تحت ضوء المدخل أتصفّح

(1) المسرنم هو السائر نائمًا، اعتمد المترجم -اختصارًا- المصطلح المنحوت (السرنة) باشتقاقاته المختلفة (تسرنم، مُسرنم...)، للتعبير عن هذه الحالة الجوهرية في الرواية (عُد إلى الملاحظة في بداية الكتاب).

كتابًا. كنت أقرأ رواية يان ليانكه «الوقت يفتر» التي تدور حول الثورة، الثورة التي تشبه إعصارًا استمرَّ طوال عام، حيث يركض الثَّوار في شتَّى الاتجاهات كالمجانين. المحيطات الأربعة تزيد والغيوم تستخدم؛ القارات الخمس ترتجج والبرق يلعب ويمضج. وكما تعتمد الكائنات الحيَّة على الشمس لتتموَّلا بُدَّ من الاعتماد على رُبَّان سفينة لخوض غمار البحر. كانت هذه الجمل تتفرَّق كحزمة من الألعاب الناريَّة، كقصفٍ عاصفة رعدية في حرِّ الصيف؛ كثيفة وموحلة، مدويَّة ومزعزعة. تتلخَّص الحكمة العامَّة للرواية في عزم مجموعة من السكان المحليين على الذهاب إلى الاتحاد السوفيتي لشراء رفات لينين المحفوظ. من الواضح أنَّ هذه الفكرة من نسج الخيال إلا أن يان ليانكه كتبها كما لو أنَّها حقيقة. لم تعجبني القصة ولا النبذة التي رواها بها. وفي الوقت ذاته لم أفهم لماذا كانت هذه القصة بالتحديد مغرية إلى هذا الحد. بينما كنت أقرأ جاء العمّ شيا مرَّة أخرى وقال شيئًا ثم غادر. نظرتُ نحو أبي الجالس على سريره ولاحظت أنَّ ملامحه غدت أشدَّ قتامة من ملامح العمّ شيا؛ قائمة كجدار إسمنتِيّ. وإذا كان العمّ شيا يبدو كمن فقد مفتاحه فإنَّ والذي بدا كمن عثر للتو على حزمة كبيرة من المفاتيح - مفاتيح مفيدة وأخرى بلا فائدة - ولكن لم يكن متأكدًا إذا ما كان عليه أن يتخلَّص منها أو ينتظر مجيء الشخص الذي أضاعها. تردَّد أبي ثم نهض. سألتُه أُمِّي من داخل المتجر: «هل مات شخص آخر؟». لقد مات شخص آخر. التفت أبي قائلاً: «العجوز شيا، الذي يسكن شرقي البلدة، غرق في القناة الغربيَّة... سقط فيها وهو يسير نائمًا».

سؤال وجواب؛ تمامًا كما تهتزُّ أوراق الشجر حين تهبُّ عليها الريح.

نهض أبي ببطءٍ ودخل متجر الجنائز... لكن قبل أن أكمل هناك بضع كلمات عن متجركنا أودّ أن أقولها. المتجر عبارة عن بناء ذي طابقين، مبني بالطوب الأحمر، يشبه المباني الذي تراها على امتداد كامل الشوارع الشماليّة في البلدة. اتخذنا الطابق الثاني مسكنًا أما الأوّل فللأعمال التجاريّة. في واجهة المبنى صالتا مبيعات مملوءتان بالقصاصات الورقيّة وأكاليل الزهور... بما في ذلك رسوم الثيران والخيول ومجسمات الجبال الذهبيّة والفضيّة وتمائيل الصبية والفتيات. كلّها منتجات شعبيّة تقليديّة. أمّا المنتجات الحديثة فتتضمّن أجهزة التلفزيون والثلاجات والسيارات وماكينات الخياطة المصنوعة من الورق. كانت أمّي امرأة عرجاء يصعب عليها التنقل لكنّها برعت في صناعة القصاصات الورقيّة النابضة بالحياة؛ قصاصات ورقيّة لأزهار النوافذ ولطيور العققق والميّنة التي تشتمّ سنابل القمح وتهمّ بالشدو. قصاصات الجرّارات التي تبدو كأنّها تنفث أعمدة الدخان في الهواء فعلاً. اعتمدت زيجات القرية على القصاصات الورقيّة الاحتفاليّة التي صنعتها، وحتى زعيم القرية أشاد بمهارتها وإتقانها لفنّ قصّ الورق. لكنّ لوازم حفلات الزفاف هذه لا تدرّ مالا، لأنّ أحدًا لم يكن يدفع ثمنها. في وقت لاحق افتتح والدائي متجرنا الجنائزيّ المسمّى «العالم الجديد». كان أبي يصمّم إطارات الخيزران وأمّي تصنع القصاصات الورقيّة. وحين دُججت القصاصات مع الخيزران كانت النتيجة أشياء جنائزيّة تؤتي ثمرها ربّحًا.

كان الناس على استعداد لشراء لوازم الجنائز، لا لوازم حفلات الزفاف؛ أمر في غاية الغرابة.

أمن الجميع بالأحلام، لا بالواقع؛ أمر في غاية الغرابة.
وبالحديث عن أبي، فقد كان قصير القامة جدًا؛ لا يتجاوز طوله
مترًا ونصف المتر. بخلاف أمي التي كانت طويلة جدًا، أطول من
أبي بكثير. كانت تفوقه بطول رأسٍ على الرغم من أنَّ ساقها اليمنى
أقصر من اليسرى. وكان ذلك نتيجة كسر ساقها في حادث السيارة
الذي تعرّضت له في صغرها. بعد الحادث أصبحت عرجاء؛ عرجاء
للأبد. ولذلك، قلما كان أبي وأمّي يخرجان معًا للمشي. كان أبي قصيرًا
وحين يمشي يبدو كأنه يطير. كان قصيرًا ولكنَّ صوته، حين يتحدث،
يدوي كالرعد. وحين يغضب كان البيت يهتزُّ بقوة ويتطاير الغبار عن
العوارض الخشبيّة وتتساقط البتلات من أكاليل الزهور الورقيّة. ومع
كل ذلك كان أبي رجلًا طيبًا. نادرًا ما يغضب، وحين يغضب لا يضرب
أحدًا. وخلال أربعة عشر عامًا عشتها، لم أره يضرب أمي إلا مرة واحدة
ولم يشتمها إلا قرابة عشر مرّات فحسب.

في المرة الوحيدة التي ضربها فيها جلست أمي وتركته يفرغ غضبه.
وعلى الرغم من كل شيء كان أبي رجلًا طيبًا، وحين يضربها كان سرعان
ما يكفُّ عن الضرب.

وفي كلّ مرة شتمها بها كانت تجلس وتتركه ينهي شتائمها. لقد كانت
أمي امرأة طيبة، وحين يشتمها كان سرعان ما يكفُّ عن الشتم.
كان أبي وأمّي من الناس الطيبين ولم يضرباني أو يشتماني قطّ.

افتتحت عائلتي متجر «العالم الجديد» للجنائز الذي يبيع أكاليل
الزهور والأكفان والمشغولات الورقيّة. عاشت عائلتي حياة كريمة

قائمة على استثمار الموتى. حين يموت شخصٌ ما فهو يوم السعد لعائلتي. لكنَّ والديَّ لم يتمنِّيا الموت لأحدٍ على الإطلاق. في الحقيقة، ما كانا يتمنِّيان شيئاً على الإطلاق. وعندما كانت تجارتنا على قدمٍ وساق كان أبي يسأل أمي: «ماذا يجري برأيك؟ ماذا يجري؟»، وكانت أمي تسأله بدورها: «ماذا يجري؟ ماذا يجري؟».

سمعت والدي داخل المتجر يتساءل: «ماذا يجري؟ ماذا يجري؟». وحين التفتُ لألقي نظرة رأيت أنَّ اللوازم الجنائزيَّة، التي كانت مكدَّسة جبَّالاً جبَّالاً، قد اختفت كلَّها. جلست أمي في المكان الذي كانت فيه كومة من أكاليل الزهور سابقاً، وأمامها أكوام الورق الأصفر والأحمر والأزرق والأخضر. كانت تمسك مقصّاً بيمنها، وفي يسراها كومة من الورق الأحمر المطوي. كانت الأرضيَّة مغطّاة ببقايا الورق المقصوص. وسط تلك الكومة من الورق الملون... استمرَّت... استمرَّت أمي في القصّ حتى غفت.

غفت متكئة على الجدار.

أنهكتها صناعة زينة الجنائز حتّى غفت.

وقف أبي أمامها وسألها: «ماذا يجري؟ ماذا يجري؟ هناك من أوصى على ثلاثة أكاليل وخمس مجموعات من القصاصات الورقيَّة وسيأتي صباح الغد لاستلامها».

نظرت إلى الداخل، وحين رأيتُ أمي تذكّرت كيف مات العجوز شيا مسرّناً. تذكّرتُ كيف أنَّ ما يسمّى السرنمة، في الواقع، هو نتاج الحقيقة القائلة إنَّ ما يراودك من أفكار خلال نهارك محفورٌ في أعماقك

حتى النخاع، وحينما تخلد للنوم ليلاً فإنّ هذه الأفكار تظلّ تسكنك
فترأها في أحلامك. هذا ما يسمّيه البيروقراطيون «التنفيذ»، أو ما يسمّيه
عامّة الناس «الإنجاز الملموس». يحاول الناس في أحلامهم أن يضعوا
أفكارهم موضع التنفيذ. عند هذه النقطة بدأت أتساءل عمّا سأفعله إن
غداً أبي وأمي مسرّمين. ما الأفكار التي قد تكون محفورة في أعماقهما؟
بدأت أتساءل عمّا إذا كانت السرّمة ستصيّني أنا أيضاً. وإن حدث
ذلك حقّاً فماذا سأفعل؟ كيف سأتصرّف وأنا أحلم؟

3. (18:31 - 19:30)

لسوء الحظّ، لم أكن كثير النوم، ولم أشعر يوماً بإرهاقٍ جعلني أغطّ
في نوم عميق، ولا كانت لديّ هواجس ملّحة محفورة في أعماقي. كنت
عاجزاً عن السرّمة عجزَ الرجل عن الحُمْل، أو عجز شجرة الخوخ عن
إنتاج أزهار المشمش. لكنني رأيت الناس مسرّمين وفاجأتني السرعة
التي بدأ فيها كلّ شيء. لم أتوقّع أن يتهافتوا سريعاً، كأنّهم مُستدعون
لتلبية نداء؛ لم أتوقّع أن العشرات بل المئات، من أهل القرية والبلدة، من
سكّان جبال فونيو، بل حتى من العالم بأسره، سيغدون مسرّمين بين
عشيّة وضحاها.

غدت العائلة تلو العائلة مسرّمةً.

غدا الآلاف والآلاف من الناس مسرّمين.

غدا العالم بأسره مسرّماً.

كنتُ ما أزالُ أطلعُ كتابَ يان ليانكه. الرواية غريبة غرابة شجرة
خوخ ملأى بأزهار الشمس، أو شجرة مشمش ملأى بثمار الكمثرى.
حتى لو لم تعجبك القصة فإنّها ستمسك بيدك وتجرك إليها.

التقط غاو آي جيون فينا⁽¹⁾ واحدًا وجدّه في الشارع وقرر الذهاب إلى
المتجر وشراء بعض الحلوى. ثمن القطعة الواحدة من الحلوى فيئتين، وبذا
فهو لا يملك ما يكفي من المال. قرّر أن يبيع قبعته القشّية. حصل لقاءها
على خمسين فينا وقرر أن يشتري بها نصف جين⁽²⁾ من لحم الخنزير المطهّو.
كان اللحم المطهّو شهّي الرائحة للغاية، إلا أنّ نصف جين منه يكلف
عشرة يوانات، وبذا فهو لا يملك ما يكفي من المال. قرّر أن يبيع ثيابه
تاركًا لنفسه سروالًا داخليًا يستر عورته. استطاع بيع ثيابه مقابل مقدار
كبير من المال، خمسين يوانًا. وبعد أن صارت الخمسون يوانًا في جيبه عزف
عن التفكير بشراء نصف جين من لحم الخنزير المطهّو. مملوءًا بالحماسة،
ذهب إلى صالون الحلاقة الواقع في الجانب الآخر من القرية وتسكّع
أمامه. كانت الفتيات الشابات العاملات في المحلّ من بائعات الهوى وما
كان الصالون سوى بيت دعارة. قال الجميع إنّ فتيات الصالون الجديدات
من حسناوات سوتشو وهانغ تشو ويتمتّعن بأجساد رقيقة وبشرات عذبة
كالماء. لكنّ ارتياد بيت الدعارة هذا ومداعبة حسناواته بأجسادهنّ العذبة
عذوبة الماء ليس بوسعه فعله بخمسين يوانًا فقط. الحصول على غرفة
وسرير يكلف مئة وخمسين يوانًا. وإن لم يرغب في المغادرة بعد الانتهاء

(1) واحد فين يعادل 0.01 يوان.

(2) وحدة قياس صينية للوزن، تعادل تقريبًا ما بين 500 إلى 600 غرام حسب المكان.

وأراد قضاء الليلة هناك فالتكلفة ستصبح خمسمئة يوان. ففكر ملياً، وفي النهاية رأى أنَّ الخيار الوحيد لديه هو توضحية كبيرة يحقق بها مرامه. كثر على أسنانه عازماً على العودة إلى البيت وبيع زوجته شيئاً هونع فيه.

لماذا تبدو هذه القصة، هذه الرواية، حقيقة على هذا النحو؟ لماذا تبدو حقيقية؟ فكَّرتُ في ذلك ووجدتني راغباً في الضحك. وفيما أوشكت على القهقهة بصوت عالٍ ظهرَ أمامي ما هو أكثر سخافة. وقَّع خطوات في الشارع يشبه قرع عدَّة أيادٍ على طبلَةٍ في آن. التفتُ ورأيتُ حشداً من الأطفال -بعضهم في السابعة أو الثامنة وبعضهم الآخر في العاشرة أو أكثر- يتبعون رجلاً في الثلاثينيات من عمره. الرجل عاري الصدر يحمل مجرفة خشبيَّة تستخدم لدرس القمح. كان الرجل يتمتم مع نفسه. «عمًا قريب سيهطل المطر رذاذاً. نعم سيهطل المطر بلا أدنى شك. أنتَ لستَ كالآخرين، لستَ تتاجر، أنتَ تزرع وإن لم تحصد القمح فسيصيبه العفن وسيذهب محصول الموسم بأكمله سدى. جهِّدك وتعبك لموسم بأكمله سيضيع سدى!». كانت عينا الرجل نصف مغمضتين، كأنَّه نائم. كان يمشي بسرعة لدرجة أنَّ ريحاً كانت تهبُّ من تحت قدميه مع كلِّ خطوة. مشيُّه تشي بأنَّ هناك مَنْ يدفعه من الخلف. كان الحرُّ خانقاً للغاية ولا أثرَ لرطوبةٍ أو برودةٍ في هواء الليل.

قدم الرجل من الغرب وعبرَ الشارع كمن يثقُبُ كيساً من الخيش. كانت مصابيح الشارع بلون الطين كأنَّ الرماد يطفو في الهواء. بدا الأمر كأنَّ ذلك الرجل يمشي في الرماد. ومن بين الأطفال الذين يطاردونه كان هناك طفل عارٍ تماماً، قضيبه يتأرجح بين فخذه كطيرٍ بريٍّ. «إنَّه

مسرّهم... إنّه مسرّهم»، تهامس الأطفال بفضول كأثّهم يخشون إيقاظه إذا ما قالوا ذلك بصوت أعلى، ناهيك عن أثّهم لم يرغبوا في إفساد سحر هذه المعجزة الفريدة الحادثة أمامهم.

مشى المُسرّهم بسرعة كبيرة كأنّه يلتهم الطريق الممتدّ أمامه.

ركض الأطفال خلفه وظلّوا على بعد بضعة خطوات منه لكيلا يوقظوه، لكيلا يتسبّبوا في انتهاء مفاجئ للمشهد.

رأيت الحشد أمامي.

لقد تبَيّن أن الرجل هو العمّ تشانغ الذي كان يقطن في البيت القديم المقابل لنا. كان العمّ تشانغ مبدّرًا سيئ السمعة في بلدتنا. لم يكن بوسعه جني المال ولا المواظبة على عمل. ولذلك كانت زوجته تضربه، بل كانت ترافق رجلاً بمقدوره جني المال إلى الجانب الشرقيّ من النهر وتنام معه على مرأى الجميع. غادرت بيتها مع ذلك الرجل ورحلا إلى المدينة، إلى لو يانغ أو تشنغ تشو. لكنّ ذلك الرجل سئم من النوم معها وما عاد راغبًا بها لذا عادت مطرودةً إلى بيتها وبمجرّد أن وطئت قدمها فناء البيت خاطبها العمّ تشانغ: «لقد عدتِ إذًا، لم يطل غيابك، هيّا اغسلي وجهك وتعالِ كُلّي». طها لها الطعام وحضّر بعض الكعك. كان العمّ تشانغ ديوثًا بحقّ، أمّا الآن فغدا مسرّهمًا. وقفتُ حيث كنت جالسًا وصرختُ: «العمّ تشانغ...». فرقعت صيحاتي كحبّات الذرة، صيحاتي التي دفعت الهواء الخانق بعيدًا. «يا أبي... ها هو العمّ تشانغ يسير نائمًا... ها هو يعبر أمام بيتنا!». صرخت نحو داخل المتجر ثم وضعت كتابي ومشيت نحو العمّ تشانغ وحشد الأطفال الذين يتبعونه.

عندما لحقّت بهم شققتُ طريقي بين الأطفال كأنني أجتاز غابة صغيرة.
تحت مصباح الشارع أمسكتُ ذراع العمّ تشانغ وصرختُ: «أيها العم
تشانغ! استيقظ! استيقظ! أنت تسير نائمًا!».

«أيها العم تشانغ! استيقظ! استيقظ! أنت تسير نائمًا!».

تجاهلني العمّ تشانغ. دفعني جانبًا وقال: «بعد المطر سيتعفن القمح
في الحقول. ماذا بوسعنا أن نفعل؟ ماذا بوسعنا أن نفعل؟». هرعت وراءه
وسحبتُ ذراعه لكنّه دفعني مرة أخرى وقال: «لقد فسد المحصول.
عندما تعود زوجتي وأطفالي سيتضوّرون جوعًا. وإن جاءت زوجتي
فستهرب مرة أخرى مع رجل آخر». قال العمّ تشانغ ذلك وقد خفت
صوته، كأنّه يهمس خشية أن يسمعه أحد.

وقفتُ وراءه أحدّق مدهوشًا وقد ارتعدت ساقي. بعد توقّف
دام لحظة سارعت للاقتراب منه ورأيتُ وجهه الذي بدا كطوبّة رماديّة
عتيقة وجسده المتيّس كشجرة دردار معمرة. كان وقع خطاه يدوي
كزوج مطارق. اتسعت عيناه كأنّه في تمام يقظته وحين تحدّث لم يكن
ينظر إلى وجه محدّثه، وكانت ملامحه المتحدّجة كالطوب دليلاً دامغاً على
غرقه في النوم.

عندما وجّهتُ ناظريّ نحو السماء، من شارع البلدة، رأيتها ملبّدة
كأنّ سحبًا من ضباب تطفو في الليل الشاحب فوق رأسي. وعندما
أمعنتُ النظر لاحظتُ ضوءًا أو اثنين، صغيرين، يحومان في الضباب
كيراعات الصيف. هناك صالون الحلاقة ومتجر البقالة الذي يبيع
المستلزمات اليوميّة وأدوات المطبخ والأواني الفخاريّة. هناك أيضًا

متجر الملابس التابع للقطاع الخاص ومتجر الأجهزة الإلكترونية التابع للقطاع العام. كلّ المتاجر المصطفة على الجانب الشرقي للشارع الرئيس في البلدة مفتوحة النوافذ بصرف النظر عمّا إذا كان هناك أحد بالداخل أم لا، أو إذا كانت المصابيح مضاءة أم لا. كان بعض مالكي المتاجر قد أغلقوا أبوابهم وعادوا إلى منازلهم متفرّغين لحصاد القمح، فيما لازم آخرون متاجرهم، مستلقين أو جالسين، أمام المراوح الكهربائية. على الرغم من هدوء الشارع المطبق بدا الليل مُتَأَجِّجًا وكان الخمول وعدم الاكتراث يخيّمان على الجميع. عندما مرّ العمّ تشانغ أمام هذه المتاجر، حدّق بعض الموجودين فيها إليه بينما لم يكلفّ بعضهم الآخر عناء الالتفات حتّى، مستمرّين في فعل ما كانوا يفعلونه.

صرخ الأطفال: «إنّه يسير نائمًا! إنّه يسير نائمًا! انظروا إليه... انظروا إلى الرجل المسرّم!». كانت الليلة مظلمة عابقة بالضباب. ربّما تناهت أصواتهم إلى مسامع البعض وربّما لا. ربّما من سمعهم تصرّف كأنّه لم يسمع شيئًا. أولئك الذين سمعوا حقًا خرجوا وألقوا نظرة، وقفوا على قارعة الطريق وابتسموا. وبعد أن ابتعد العمّ تشانغ اقتربوا من الأطفال وسألوهم: «ماذا تفعلون؟ ماذا تفعلون؟». كان السير في أثناء النوم حدثًا مهمًّا، إلا أنّه، في الوقت ذاته، ليس بهذه الأهميّة الفريدة. فعلى مدار القرون الماضية، جرت أحداث من هذا القبيل كلّ صيف تقريبًا، وتكرّرت أحيانًا في الصيف نفسه. لا أهميّة تكمن في سير أحدهم وهو نائم. من منا لم يكابد هذا الأمر ولو مرّة على الأقلّ في حياته؟ حتّى لو اقتصر ذلك على التدحرج عن السرير وركل البطانيّة؟ شأن ذلك شأن

التحدُّث في أثناء النوم الذي يحدث في حياة المرء مئات المرَّات. التحدُّث في أثناء النوم شكْلٌ طفيف من أشكالِ السرنمة، أمَّا إذا نهض المرء من سريره وأخذ يقوم بأشياء إضافية فهذا من أشكال السرنمة العميقة. كلُّ من يعيش على وجه هذه الأرض سيجرَّب في حياته حتمًا عدَّة أشكال من السرنمة.

كَانَ اللَّيْلُ عَابِقًا بِالضَّبَابِ.

كَانَتْ السَّمَاءُ خَانَقَةً.

انكبَّ المشغولون على أشغالهم وتفرَّغ العاطلون لعطالتهم. أمَّا مَنْ ليسوا مشغولين ولا عاطلين فقد ظلُّوا غير مشغولين وغير عاطلين.

اتَّجِهَ العَمَّ تشانغ خارج البلدة نحو حقله. اقترب من بقعة الدَّرْس الصغيرة الواقعة أمام حقل القمح الناضج. كان المشهد خارج البلدة يختلف كليًّا عن المشهد داخلها. ففي الحقول هناك نسَمَات من الريح تهبُّ بين حين وآخر. ثَمَّة حقول صغيرة تتقاسم كلاً منها عائلتان، وحقول متوسطة الحجم، بمساحة نصف مو⁽¹⁾ تقريبًا، تتقاسم الواحد منها عدَّة أسر. هناك أيضًا بعض الحقول الكبيرة، بمساحة تتجاوز موًا واحدًا، التي لم تتقاسمها ألوية الإنتاج. كانت هذه الحقول تصطفُّ على جانبي الطريق الذي بدا كنهْرٍ متلألئٍ في الليل فيما حقول القمح بدت كبحيرات. تناهى من الحقول الكبيرة البعيدة هديرُ آلات الدرس فيما ضجَّت الحقول الصغيرة القريبة بصهيل الخيول وخوار الأبقار التي تجرُّ أحجار الرّحى. تناهت أيضًا أصوات الفرقة الناجمة عن سحق الحبوب

(1) وحدة قياس صينية للمساحة، تعادل تقريبًا 666.67 مترًا مربعًا.

في أثناء رفع حزم القمح المرصوفة واحدة تلو الأخرى. وعند امتزاج كل هذه الأصوات معًا، بدا المشهد كأنَّ قاربًا -أو عدّة قوارب، بل عشرات القوارب- يخوضُ في بحيرة.

سواء الليل شاسعة، حقول القمح ضئيلة، والأصوات المتناثرة من الأنحاء يتشرّبها الظلامُ. في النهاية عمّ شيءٌ من الهدوء. أضواء المصابيح الصفراء في الحقول تشعُّ بلونٍ أصفر موحد والعمّ تشانغ يهتدي بهذا النور الأصفر الموحد في طريقه لمغادرة البلدة إذ يتجه شمالًا. توقّف الأطفال عن مطاردته بعدئذٍ ووقفوا عند مدخل البلدة. لكنني واصلتُ ملاحظته. أردتُ أن أراقبه وهو يصطدم بشجرة أو بعمود كهرباء، لأنّه حين يحدث ذلك سيسيل الدم من أنفه ويستيقظ مطلقًا صرخة. أردتُ أن أرى ردّة فعله الأولى عندما يستيقظ من سرنمته. أردتُ أن أعرف ماذا سيقول وماذا سيفعل.

لحسن الحظّ، لم يكن حقل عائلة العمّ تشانغ بعددًا جدًّا، فقد وصل إليه بعد أن سار شمالًا مسافة نصف لي تقريبًا. ولكي ينتقل من الطريق إلى طرف الحقل عليه أن يعبر خندقًا مملوءًا بمياه المطر. وإذا همّ بفعل ذلك انزلق وسقط في الخندق. ظننتُ أنّه سيستيقظ على إثر ذلك، لكنّه صعد من جديد. «عارٌّ على الرجل أن يدع زوجته وأطفاله يتضوّرون جوعًا. عارٌّ على الرجل أن يدع زوجته وأطفاله يتضوّرون جوعًا». دون أن يستيقظ، ظلّ يردّد هذه العبارة لنفسه مرارًا. اسنمّر على هذا المنوال حتّى عبر الخندق وبلغ طرف الحقل. بدا كلُّ شيءٍ بألوفًا بالنسبة له ولم يواجه المصاعب. أشعل مصباحًا كهربائيًا معلقًا بشجرة حور تجاوز

الحقل. وحالما انتشر النور، وضع مجرفته الخشبيّة وأخذ يتلفّت حوله. جرّ إطار الدّرّاسة الحديديّ إلى منتصف الحقل ثم حمل رزمة من القمح. فكّها وأمسك حزمةً من سنابل القمح بكلتا يديه وضغطها بشكلٍ أفقيّ على الإطار المعدنيّ.

وقفتُ بجانبه، وعلى الرغم من أنّه كان قادرًا على رؤية الحقل بأكمله لم يستطع أن يراني، كأنني لم أكن موجودًا بالنسبة له. المسرّح لا يرى سوى ما يهّمه من أشخاص وأشياء كأنّ كلّ شيء، سوى ذلك، لا وجود له. تطايرت حبوب القمح من الإطار المعدنيّ كأنّها شظايا انفجار ورافقتها صوت هسهسة خفيف. فاحت رائحة القمح الناضج النفاذة كأنّها منبعثة من قدرٍ ساخنٍ. بدت السماء مغمورة بالنجوم وبعيدًا ارتفع لغط المتجادلين حول الترتيب الصحيح لاستخدام آلة الدّرس. في مكان قريب، كان شذو العندليب الآتي من شجرة مجاورة مسموعًا بين حين وآخر. وباستثناء ذلك كان الصمت يعمّ كلّ شيء. كان كلّ شيء ساكنًا هادئًا. كان كلّ شيء أسود رماديًا ملبدًا بالضباب. وفيما كانت قطرات العرق تتصبّب على وجهه أمسك حفنة من حبات القمح التي سقطت على الأرض. لا شيء آخر؛ كان كلّ شيء ساكنًا هادئًا. عندما انتهى من دّرس هذه الكميّة من القمح، أحضر رزمة أخرى. لا شيء آخر؛ كان كلّ شيء ساكنًا هادئًا. لم أرغب في متابعة مراقبته؛ لم أرغب في مشاهدة ما سيفعله بعد ذلك.

أردت العودة، وحالما أوشكت على الالتفاف حدث شيء ما، شيءٌ أشبه بتحطّم قارورة زجاجيّة على نحو صارخ؛ أنهى العمّ تشانغ درس الرزمة وذهب لإحضار رزمة ثالثة. وحين همّ بالتقاط الرزمة الجديدة،

توجّه -لسببٍ ما- إلى منطقة خلف الرزم المكوّمة، وفي هذه الأثناء قفزت قطعة من خلف الكومة وحطّت على كتفه قبل أن تهوي على ظهره. خشية أن تخدشه مخالب القطّة، غطّى وجهه بيديه على نحو غريزيّ، وقف متجمّداً تحت وطأة الصدمة وبدأ ميتاً كعمودٍ خشبيّ، وبعد لحظة أخذ يلوم نفسه. بدا ذاهلاً مرتبكاً وتساءل: «ماذا أفعل هنا؟ ماذا أفعل هنا؟». نظر حوله وقال: «هذا حقل عائليّ، ولكن لماذا أنا هنا أدرس القمح؟ لماذا أدرس القمح؟».

استيقظ، أو على الأقلّ بدا كأنّه مستيقظ، «لقد كنتُ نائماً. كيف انتهى بي المطاف هنا أدرس القمح؟ كيف صرْتُ هنا؟». بدا أنّه استيقظ، نظر إلى السماء ذاهلاً ومرتبكاً، استدّار بجسده كأنّه يبحث عن شيء ما، وعندما استقرّ بصره على المجرفة الخشبيّة التي أحضرها بدا كما لو أنّه تذكّر شيئاً على نحو مفاجئ، جلس القرفصاء، وراح يصفع وجهه. «يا لك من خسيس بلا شرف! يا لك من خسيس بلا شرف! لقد هربت زوجتك مع رجلٍ آخر وأنت مشغولٌ بالعمل وها أنت قد جئت تدرس القمح من أجلها. إنّها تنام مع رجلٍ آخر وها أنت قد جئت تدرس القمح من أجلها».

صفع وجهه كأنّه يخبط جداراً. «يا لك من خسيس بلا شرف! يا لك من خسيس بلا شرف!».

حين فرغ من الضرب، بدأ يخلّق الأعذار لنفسه.

«لم آتٍ لأدرس القمح من أجلها بل من أجل طفلي... بالتأكيد لم آتٍ لأدرس القمح من أجلها بل من أجل طفلي».

في نهاية المطاف، توقّف عن صفع نفسه وعن التحدّث إلى نفسه. انهار مثل كيس دقيق. ثم غرق في النوم وهو متكئ على رزمة قش. بدا الأمر كأنه استيقظ لوهلة ثم عاد ليستأنف نومه. بدا الأمر كأن فترة يقظته كانت مجرد فاصل موسيقيّ ضمن حلم أكبر، وبعد انتهاء الفاصل عاد لمتابعة حلمه الأصليّ. لقد ذهشت، ذهشت على نحو استثنائيّ، وقفت أمامه وشعرت بأنّه يقدّم عرضاً من أجلي. لم أستطع الجزم إذا ما كان عليّ أن أثق بما قاله أم إنّهُ مجرد هذيان تفوّ به خلال نومه. حين اقتربت ودفعته شعرت بأنني أدفع عموداً حجريّاً، وعندما حاولت أن أهزّه شعرت بأنني أهزُّ قربة ماء. تمايل جسده وسرعان ما عاد ليشبه قربة ماء. صرخت: «أيها العمّ تشانغ! أيها العمّ تشانغ!». كنتُ كمن ينادي كُجّة على الرغم من أنّه ما يزال يتنفّس ويشخر بهدوء: «لقد عادت زوجتك. لقد عادت زوجتك». توقّفت عن هزّه لأنّه لن يستيقظ حسب اعتقادي. كان قد غطّ في نوم عميق، ككُجّة، لذا صرختُ على جسده البادي ككُجّة: «لقد عادت زوجتك. عادت برفقة ذلك الرجل. وبينما كنتُ نائماً كانت هي برفقة ذلك الرجل».

بعدها لم يكن الوضع كما كان من ذي قبل.

لقد اختلف تماماً.

كأنّ الشمس طلعت في منتصف الليل.

كأنّ ناراً اندلعت على جلد العمّ تشانغ. راح وجهه الغافي، الذي يشبه وجنة متسخة أو طوبة مُعبرة، يتحرّك استجابة لصرخاتي. جلس وارتجف خداه وبدا وجهه بالكامل شاحباً. بذل جهداً لفتح عينيه وحدّق

بي ولكنني شعرتُ بأنه لم يكن ينظر إلى الطريق من خلفي. كان الطريق
كنهرٍ يتدفَّق من بعيد؛ يتدفَّق من بعيد ثمَّ يتدفَّق إلى بعيد مرّة أخرى.
من الشمال إلى الجنوب. كلّ أشكالِ الأصوات تطفو على ضفتيه وتمتزج
بخير الماء الجاري. حدّق العمّ تشانغ إلى الطرف الشماليّ من الشارع؛
الطريق الذي اتخذته زوجته حين غادرت البلدة، حين ذهبت إلى لويانغ
أو تشنغ تشو، وعلى أيّ حال فقد غادرت برفقة رجلٍ من قرية أخرى،
رجلٍ قادر على كسب قوت يومه.
لقد غادرت نحو العالم.

حدّق إلى الطريق المفضي إلى العالم الخارجي. تحت ضوء المصباح
عَضَّ شفتيه، ندَّ صوتُ صرير في أثناء احتكاك أسنانه العلويّة مع
السفليّة؛ كحجرين من الغرانيت الأخضر الداكن يحتكّ بعضهما ببعض،
كان الصوتُ أخضرَ داكنًا كالليل. الجوُّ عابق بالرطوبة ونسيمٌ عابرٌ يهبُ
من جهة الحقول. كانت رائحة القمح تقتحم الأنوف وتعبر إلى الحناجر
لتستقرّ في الرئات والبطون. كانت بعض السيارات تعبر الطريق من
الشمال إلى الجنوب، أنوار مصابيحها تتقطع كما بفعل سكين. راقب العمّ
تشانغ الأضواء وهي تتوارى. وفيما تبتعد السيّارات حلَّ صوتُ عَضِّ
محلَّ صوت الصرير الصادر عن أسنانه. صوتُ أخضرٍ داكنٍ يندُّ من
الشقوق بين أسنانه كأوراق يكسوها الصقيع لكنّها لم تسقط على الأرض.
كانت تلك الأوراق المكسوّة بالصقيع تتأرجح، وبعد فترة،
انفصلت عن الأغصان وانجرفت نحو الأرض. كان الهراء باردًا
كنظراته وبدا الأمر كأنّ الصوت يخرج من بين أسنانه.

نهض فجأة كأنَّ السيَّارة التي مرَّت منذ هنيهة جرَّته ليقف على قدميه. وقف ونظر إلى اتجاه مرور السيارة. انخمست عضلات وجهه وسمع صرير أسنانه من جديد. وقف هناك كأنَّ طاقة ستفجّر في مفاصله. لم يقل شيئاً، بدا كأنَّه بات شخصاً آخر؛ كأنَّه ما عاد الشخص ذاته الذي كان يخشى قبل برهة فساد محاصيل حقله، كأنَّه ما عاد الشخص ذاته الذي كان قلقاً قبل برهة من جوع زوجته حين تعود إلى البيت. لقد بات شخصاً آخر تماماً.

لم ينظر إلَيَّ ولا إلى العالم من حوله، بدت نظرائه زائغة، كأنَّه يحدّق في شيء ليس بوسعي أن أراه، كأنَّه ينظر نحو عالم آخر ومشهد آخر. ولا بُدَّ أن ذلك العالم وذلك المشهد ينتميان إلى حلمه، إلى هواجسه. بدا كأنَّه يرى ذلك المشهد الآخر بوضوح شديد، متجليّاً أمامه بكلّ تفاصيله. شحب وجهه وظهرت طبقة من العرق على جبهته، كان من المستحيل معرفة ما رآه أو ما واجهه أو ما جرى أمامه بعد أن غطّ في النوم. لم يقل شيئاً. ظلَّ صامتاً والصرير ينبعث من أسنانه. بدا الوريد في عنقه سميكاً متنفخاً كأنَّه ثعبانٌ يزحف نحو وجهه.

وريده الآخر أخذ ينبض تحت ضوء المصباح.

كأنَّ ثعبانين يزحفان على عنقه.

ظهرت ثلاثة أو أربعة أوردة أخرى كثعابين تزحف على عنقه. ترك كومة القشّ ومشى نحو إطار الدرس. ركل المجرفة الخشبيّة على الأرض كأنَّه يركل حفنة عيدانٍ أو أغصانٍ في الطريق. كان يسير في حلمٍ آخر؛ غير الحلم السابق. في هذا الحلم، توجّه نحو إطار الدرس

وانحنى ليلتقط قضيباً فولاذياً بشخانة إبهامه. رفعه وسار إلى ما وراء الحقول.

القضيب الذي يبلغ طوله قرابة قدمين بدا كأنه مرميٌ حيث كان منذ الأزل. كان القضيب يرتقبُ مجيء العمّ كي ينتشله. الآن وقد غدا في راحة يده القوية، كان القضيب يشقُّ طريقه باتجاه قرى البلدة. لم يتبع الطريق الذي سلكه للوصول إلى الحقل بل سلك طريقَ حلمٍ جديد. اجتاز أحد الأزقة عابراً نحو موقعٍ في حلمه. تبعته وناديته مرّات عدّة. وعندما رأيت أنّه لا يستجيب لندائي توقّفتُ كي أراقبه وهو يدخل القرية. شاهدته، في جنح الليل الهادئ، يسير بخطواتٍ واسعةٍ عبر جدارٍ ويختفي.

أمّا أنا فرجعت أدراجي، جنوباً أيضاً، إلى البيت.

الكتاب الثاني

الهزيم الثاني، الجزء الأول:

الطيور تحوم في كل مكان

1. (21:00-21:20)

عندنا أيضًا، في متجر العالم الجديد، حدثت السرنة.
أمي كانت مسرنة.

بعد أن خرجتُ، أحنت أُمي رأسها ودخلت المتجر. أمامها
مجموعة من قصاصات الورق متعدّدة الألوان. المقصات ذات الهجوم
المختلفة مبعثرة على الأرض تحت قدميها. وعلى طول الشارع ظلّ كل
شيء كما كان. كان القمر ساطع البياض ونور المصابيح أصفر موحلاً.
وكان امتزاج الأبيض والأصفر يشبه سكب حوضٍ من المياه الآسنة
في بركة من المياه العذبة؛ رويدًا رويدًا تحوّلت المياه العذبة إلى مياه قدرة
آسنة.

كان كلُّ شيء ساكنًا للغاية؛ كالموت.
كالموت كان كلُّ شيء ساكنًا للغاية.

بُعِيد الغسق، بدّد نخيرُ الخنازير السمينه هدوء الليل. كان الصوت
حارًا قدرًا. حارًا وقذرًا ولزجًا. تسرّبت رائحة العرق عبر الشقوق في

كُلُّ الأبواب. وكانت الروائح التي تجمّعت في الشارع هي الروائح التي تنبعث في ليلة صيف.

في هذه الليلة الصيفية، نام أحدهم على جانب الطريق. جلس آخر أمام متجرٍ يشربُ الشاي ويحرك الهواء بيده ليخفف عن نفسه الحرّ. اشترى آخرُ مروحة كهربائية ووضعها عند مدخل بيته فأصدرت شفراتها صوتًا شبيهًا بالسكاكين الدوّارة. كان الجميع يثرثرون وهم جالسون أو مضطجعون أمام المرواح. شوارع البلدة كانت كما هي، والعالم بأسره كان كما هو.

لكن، في الحقيقة، لن يعود العالم كما كان أبدًا.

لقد بدأت موجة السرنمة. خطوات المسرّمين اجتاحت قريتي وبلدتي شيئًا فشيئًا. غطّت السرنمة الأرض وحجبت السماء تاركةً كَلَّ شيءٍ في حالة من الفوضى. لم يعلم أحدٌ أنّ السرنمة كانت ترخي ظلالها علينا كسحابة مظلمة. ظنّ الجميع أنّ ما فوق رؤوسنا ليس سوى سحابة صيف مظلمة. ظنّ الناس أنّ هذه الليلة الصيفية تشبه آية ليلة أخرى. شعرتُ بالوحدة بعض الشيء فعدتُ إلى البلدة، وحين سمعتُ النخيرَ ورأيتُ هدوء الشوارع ظننتُ أنّ العالم ظلّ كما كان. والفارق الوحيد هو وجود بعض المسرّمين بصورة اعتيادية. نظرتُ إلى أكثر الشوارع حيويةً في البلدة، الشارع الشرقي، رنوتُ نحو السماء الليلية الشاسعة ثم عدتُ ببصري نحو متجرنا الجنائزيّ حيث رأيتُ سيارة صغيرة مركونة في الجهة المقابلة من الشارع. لقد وصل خالي؛ رأيته واقفًا عند عتبة المتجر كطبيب يقف في الصالة الرئيسة لمنزل مريضه.

«تفضل بالجلوس».

تجاهل خالي دعوة أبي وظلّ واقفاً عند عتبة المتجر ناظرًا في كلّ الاتجاهات من حوله.

يبلغ طول خالي مترًا وثمانين سنتيمترًا، أمّا أبي فطوله متر ونصف المتر. كان يرتدي قميصًا حريريًا من النوع الذي اعتاد الأثرياء ارتدائه خلال العهد الجمهوريّ أمّا والدي فكان يرتدي ملابسه الداخلية. لم يكن أبي نحيلًا إذا رأيته بمفرده، ولكنه بجوار خالي بدا نحيلًا للغاية؛ كشجرة صغيرة تحت شجرة أكبر. وقف أبي أمام خالي كطفل أمام طبيب طويل القامة قويّ البنية. كانت أمي قد غفت حيث كانت جالسة. لكنها الآن لم تعد نائمة، بل كانت جالسة على مقعدها المعتاد دائمًا حين تنكبّ على قصّ الورق. على المقعد ثمة وسادة قطنية قدرة. لم تكن ملامح أمي تشبه طوبة في جدار عتيق، بل قماشة متسخة أو صحيفة بالية. لم تنظر نحو أحد بل جلست هناك تتحدّث إلى نفسها: «حين يموت أحدهم، عليك أن تتأكّدي من وجود إكليل الزهور فوق قبره. يجب أن تتأكّدي من وجود أكاليل عدّة فوق قبره». وفيما تقول ذلك، استمرّت في قصّ كومة الورق التي تحملها وبدأت كأنّها تنحني لتسقي أصيص زهور بعناية. كانت قد صنعت أكوامًا وأكوامًا من قصاصات الأزهار. أبي جالسٌ بجوارها وعند قدميه شرائط الخيزران والغراء والخيط وسكين. استمرّت في العمل حتّى غطّت في النوم. قال أبي لخالي: «لقد أيقظتها مرّتين وذهبتُ لأغسل وجهي وعندما عدت وجدتها نامت من جديد». استمرّت في القصّ حتّى غفت، وعلى الرغم من نومها استمرّت يداها في العمل.

ظَلَّتْ عَيْنَاهَا نِصْفَ الْمَغْمُضَتَيْنِ تَحْدَقَانِ إِلَى الْأَمَامِ وَبَقِيَ فَمُهَا يَتَكَلَّمُ مَعَ اسْتِمْرَارِ حَرَكَةِ يَدَيْهَا. هَكَذَا أَدْرَكَ أَبِي أَنَّهَا مَسْرُومَةٌ. خِلَالِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْمُنْصَرَمَةِ دَخَلْنَا مَوْسِمَ الْمَوْتِ. يَبِيعُ بَضَائِعُنَا الْجَنَائِزِيَّةَ بِلَمَحِ الْبَصَرِ وَغَدَتِ أُمِّي مَسْرُومَةٌ.

وَقَفَ خَالِي هُنَاكَ، يَنْظُرُ إِلَى شَقِيقَتِهِ كَطِيبٍ يَعَايِنُ مَرِيضًا. حِينَ التَفَتَ نَحْوَ أَبِي، كَانَتْ مَلَاَحِمُهُ بَارِدَةً وَنَظَرَتُهُ مُتَجَمِّدَةً. قَهَقَهُ أَبِي.

«انْتَعَشْ عَمَلُكَ فِي مُحَرَقَةِ الْجُثثِ خِلَالِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟».

حِينَ التَفَتَ أَبِي نَحْوَ خَالِي، أَخْبَرَهُ -كَأَنَّهُ يَحَادِثُ طَبِيبًا- أَنَّ أَعْرَاضَ أُمِّي شَائِعَةٌ جَدًّا فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ، وَأَنَّ حَالَتَهَا لَيْسَتْ مَدْعَاةً لِلْقَلْقِ. لَكِنَّهُ نَسِيَ أَنَّ أُمِّي هِيَ شَقِيقَتُهُ الصَّغِيرَى وَأَنَّ خَالِي لَنْ يَتَحَمَّلَ مَشَاهِدَةَ أُخْتِهِ وَهِيَ تَقْصُّ الْوَرَقَ بِلَا انْقِطَاعٍ. حَتَّى وَهِيَ غَافِيَةٌ كَانَتْ يَدَاهَا مُسْتَمَرَّتَيْنِ فِي قِصِّ أَكَالِيلِ الزَّهَوْرِ.

«هَاتِ حَوْضًا آخَرَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ وَدَعِهَا تَغْسِلُ وَجْهَهَا».

نَظَرَ خَالِي إِلَى أَبِي مُسْتَاءً. كَانَتْ الْغُرْفَةُ عَابِقَةٌ بِرَائِحَةِ الْعَجِينِ الطَّازِجِ، الْمُخْتَلِطَةِ بِرَائِحَةِ الْعَرَقِ الْمُنْبَعَثَةِ مِنْ جَذَعِ أَبِي الْعَارِي. وَبَعْدَ تَلَكُّؤٍ قَصِيرٍ، حَمَلَ أَبِي الْحَوْضَ كَيْ يَمْلَأَهُ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ.

«لِلْجَمِيعِ أَقَارِبَ مَاتُوا، لَذَا كَانَ لِرَآئِنَا أَنْ نَعْمَلَ فَوْقَ طَاقَتِنَا لِنُؤْمِنَ أَكَالِيلَ الزَّهَوْرِ الَّتِي يَحْتَاجُونَهَا»، قَالَ أَبِي وَهُوَ يَلْتَفِتُ نَحْوَ خَالِي. بَدَأَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِزْدِرَاءِ لَكِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى فِعْلٍ مَا يَصْرَحُ بِذَلِكَ وَاكْتَفَى

بضرب الحوض على زاوية السلم المفضي إلى المطبخ محدثاً صوتاً قوياً. بدا مستاءً من تدخل خالي في شؤون أسرته. في هذه اللحظة نظرت أمي فجأة ناحية خالي، كأنها استيقظت للتو لكنها ما تزال غير قادرة على رؤية أي شيء، مركزة على القصاصات الورقية بين يديها. صوت القصصعة يشبه طنين الزيزان التي تغزو شجرة عُنَابٍ في ليلة صيف. واصل خالي مراقبة أخته. في تلك اللحظة لاحظ وجودي؛ كنت طفلاً لم يلزم سرير والده المريض بل كان يتسكع في الخارج. بدا خالي ساخطاً ممتعضاً. رفع حاجبيه ثم ركل الأريكة أمامه وقد التوت شفتاه تَجْهُماً وباتت ملامحه أشبه بقطعة حديد صديء.

«عليك أن تنقل زيت الجثث يا نيان نيان. أبوك مشغول و عليك أن تساعد».

بينما كان خالي يقول ذلك، التفت بنظره عني إلى رواية يان ليانكه المستقرة على زاوية أريكة المدخل؛ كأن ذلك الكتاب هو سبب الأزمة الراهنة. بدا راغباً في ركل ذلك الكتاب بعيداً أو في حرقه بالنار.

لكنَّ أبي خرج من المطبخ وقد جلب حوض ماء بداخله قطعة قماش. استرعى ظهوره انتباه خالي، وضع الحوض بجوار قدمي أمي وأخرج القماش المبللة وعصرها جيّداً، مسح بها وجه أمي كما تمسح الممرضة وجه مريضٍ على فراش الموت. «الماء بارد بعض الشيء»، حالما تشعرين ببرودته ستستيقظين على الفور»، قال أبي لأمي لكنه بدا كأنه يحادث نفسه. أدهشني الدفء الذي عاملها به. أعلم أن أبي كان يتظاهر بذلك أمام خالي الذي كان يستمع إليه ويراقبه. بقطعة قماش مبللة،

مسح ضباب الأحلام التي تعيشها أُمِّي. حين مرَّرت يده القماشة المبلَّلة على وجه أُمِّي توقَّفت أصابع يدها المغروسة في حلقات المقص. ومع استمرار مسحه على وجهها، مع اتجاه عقارب الساعة، سقط المقص من يدها على الأرض.

بلَّل أبي القماشة مجدِّداً وعصرها، أخذ يمسح على وجه أُمِّي بعكس اتجاه عقارب الساعة فاستيقظت، استعادت وعيها كأنَّ أحدهم سكب حوض ماء بارد على رأسها. استيقظت فجأة ودفعت يد أبي بغضبٍ. رفَّ جفناها وحدَّقت في الغرفة كأنَّها ترى عالماً جديداً للمرَّة الأولى. كانت الغرفة دافئة، دافئة جداً جداً. البخار البارد المتطاير من الماء نشر رائحة خفيفة سرعان ما تبدَّدت في أنحاء الغرفة كلَّها، كأنَّ الماء البارد في الحوض يُسكَّب ببطءٍ في قدر مياه تغلي. «هل نمْتُ وأنا أقصُّ الورق؟»، قالت أُمِّي متسائلة كأنَّها تخبر نفسها بالحقيقة. «أنتَ هنا يا أخي؟ تفضَّل اجلس. لم أرك منذ أكثر من شهر». ثم التفتت نحوي وقالت:

«اجلب لخالك كرسيًّا يا نيان نيان، بسرعة!».

أحضرتُ كرسيًّا ووضعته وراء خالي لكنَّه لم يرمقه بنظره حتَّى. «أتيتُ لأطلب منكم نقل زيت الجثث من المحرقة بسرعة... لقد امتلأ برميل آخر». نظر خالي حوله وتابع: «مهما كان المقدار الذي كسبته من المال فهو كافٍ. لا جدوى من إرهاق نفسك إلى هذا الحدِّ من أجل كسب القليل من المال الإضافي». كان خالي ينظر بازدراءٍ لبيعنا أكاليل الزهور وزينة الجنائز. وحين همَّ بالمغادرة سمعنا صوت دراجة نارية قادمة.

توقفت الدراجة أمام متجرنا.

ظهر وجه شاب داكن جدًا عند المدخل، يبدو عليه مزيج من تعابير
الذهول والغبطة. قال الزائر: «مرحبًا! لقد جُنَّ تشانغ مو تو، جاركم
القديم». اتضح أن تشانغ مو تو عثر على قضيب حديدي بطول قدمين
في مكانٍ ما، حمله وشقَّ طريقه إلى البيت وهو يردد لنفسه: «انظروا كيف
سأوسعه ضربًا حتى الموت! انظروا كيف سأوسعه ضربًا حتى الموت!».
وحين عاد إلى بيته صادف زوجته التي عادت مع رجلٍ يدعى وانغ يعمل
مديرًا لقسم مواد البناء في شمال البلدة. انهل تشانغ بالقضيبِ على رأسِ
وانغ وهشَّم جمجمته. أضاف الشاب:

«ما رأيكم بما حدث؟ كيف عرف تشانغ أن زوجته ووانغ سيعودان
في هذا الوقت بالتحديد؟ لقد استغلَّا حلول الليل لدخول الفناء لكنَّ
تشانغ وقضيبه الحديدي كانا لهما بالمرصاد! لا أعرف مَنْ وشى بهما إليه.
كان المدير وانغ ضخم الجثة ولكن حالمًا وطئت قدمه الفناء تلقى ضربةً
قاضية على رأسه جعلته يتهاوى في فناء بيت تشانغ ككيس قطني! ينحدر
تشانغ البناء من إحدى أثري عائلات البلدة وزوجة تشانغ ليست أول
امرأة يحاول إغواءها. بعد أن فارق الحياة، غطَّت دماؤه الأرض كأنَّ
عشرات الحزم من أوراق المئة يوان النقدية الحمراء قد نُثرت في كلِّ
مكان. مرأى الدم جعل تشانغ يستيقظ. حدَّق مشدوها لحظة ثمَّ
استيقظ. تبين أنَّ ذلك اللقيط تشانغ كان نائمًا وأنه تحلَّى بهذه الجرأة لأنَّه
كان مسرنيًا. بعد أن أفاق من حلمه، استلقى على الأرض وأخذ يصيح
منتحبًا: «لقد قتلْتُ رجلًا! لقد قتلْتُ رجلًا!»، مستعيدًا حقيقة دِياثته.

قهقهه سائق الدراجة وهو يومئ بيديه، ولملت عيناه الشبيهتان بعيني جرد أمام متجرنا مثل لؤلؤتين.

«الجميع يعلم أن قرابة بعيدة تربطني بالمدير وانغ. لكن سلوكه هو ما يعيننا؛ ومبادئنا هي مبادئنا. لا بُدَّ أن أخطر زوجة المدير وانغ بضرورة الذهاب إلى بيت موتو وأخذ جثة الفقيد. ولأتني عند مبادئي وقلبي حنون فقد أتيت إلى متجركم لأطلب تحضير بعض الأكاليل والقصاصات الورقية وغيرها من لوازم الجنازة. عائلته هي الأثرى في البلدة وكلُّ من أراد بناء بيت جديد يذهب إليهم لشراء الطوب والبلاط. لذا حضروا الكثير من الأشياء التي تتطلبها جنازته. وإن لم يدفع أقاربه ثمنها فأنا سأتكفل بذلك. هذا أقلّ الواجب... أنا على استعداد لشراء عشرة... أو عشرين إكليلاً كي توضع على قبره». تدفقت كلماته كطوفانٍ. بدا مبتهجاً كأنه يزفُّ بشارة زوجته الحبلى بصبيٍّ أخيراً. كان يقف وجسده في الخارج بينما رأسه انسلَّ في المدخل. عيناه تشبهان عيني أرنبٍ استفاق من السبات وغادر جحره الشتويّ إلى المرج المزركش بأزهار الربيع. وحين همّ بالرحيل توقفت نظرتُه عند خالي. ارتسمت على وجهه ابتسامة مزدهرة متألّثة.

«المدير شاو، أنت هنا! ممتاز! بخصوص حرق الجثة، سأعطيك من المال ما يمكن أن تعطيه عائلة كعائلة المدير وانغ. لا أريد منك سوى أن تعطي تعليماتك لعمال المحرقة بالألا يحرقوا الجثة حتى تصير رماداً. نريد أن نحافظ على شيء من عظام الساق أو الورك. حبّذا لو كانت العظام أطول من الجرة الجنائزية حتى لا يكون أمامنا خيار سوى سحقها بالمطرقة كي تتسع فيها... سأعطيك مبلغاً إضافياً إذا قمت بذلك. كما

قلتُ لك نريد أن نحافظ على بعض العظام سليمة كي نضطرّ إلى سحقها قبل إدخالها في الجرة».

كان الوجه المنسلّ في المدخل يحكي ويقهقه؛ ملامحه حاملة كزهرة فاونيا تحت شمس الربيع. بعد أن أنهى حديثه وغادر، ظلّت أصداء ضحكته ترنّ في المدخل. شعرتُ بقرصة برودة كأنّ شخصاً على درّاجة ناريّة مرّ بي وألقى دلوّاً من الماء المثلّج على رأسي. في الخارج دوى هدير الدّراجة. «اللّعة عليك!»، غمغم خالي وهو ينظر بعيداً. بدا الأمر كأنّه شاهد عرضاً انتهى للتوّ. كأنّه وعى فجأة وهو يمشي أنّه يخطو فوق بقعة من القيء خلفها أحد المخمورين. استعاد العالم بأسره هدوءه المطلق وهبّ نسيم بارد في أنحاء البلدة وفي العالم كلّه. لكنّ العالم بأسره، مرّة أخرى، تكاثف داخل متجرنا الجنائزيّ. «لا بدّ من نقل برميل زيت الجثث حالاً. إن بقي الليلة فلن يكون لدينا متسع لتخزين الزيت الجديد من محارق الغد. لا نستطيع إطلاقاً ترك الزيت يتراكم في غرفة الحرق». غادر خالي بعد أن قال هذا.

خرج من الغرفة كطبيب يغادر غرفة مريضٍ انتهى من معالته. «لا تجهدني نفسك إلى حدّ يجعلك تضفرين الأكاليل وتقصّصين الورق وأنت نائمة من أجل بضعة قروش إضافية... إذا كنت بحاجة للمال يمكنك بيع بضعة براميل من الزيت». بعد أن خرج إلى الشارع، ألقى خالي نظرة إلى وراء ثم أشاح بنظره بعيداً. ركب السيارة المكونة وأدار المحرّك، سطع عمودان من النور على الشارع وقبل أن تنطلق السيارة، فتح خالي النافذة ورمق أبي الذي خرج لوداعه.

وقف أبي هناك يشاهد سيارة خالي المغادرة. «متى سيجيء اليوم الذي أصنع فيه أكاليل جنازتك». بدت العبارة سؤالاً وإقراراً في آن. لم يكن صوته مرتفعاً ولا خافتاً. وحين استدار ورآني أقف خلفه حدّق متفاجئاً ثم ربت على رأسي مبتسماً وعاد إلى الداخل. بعدها ذهبت إلى المحرقة.

2. (21:40-21:21)

أيّها الكهنة والمستنيرون! يا بوذا وكونفوشيوس! يا تشوانغ تزي ولاو تزي... أروي على مسامعكم هذه القصة بطريقة مبعثرة ومفكّكة. يا لاو تزي وتشوانغ تزي ومنسيوس وشيون تزي! وأنتم يا أيّها البوذويون والطاويون! يا آلهة الأرض والمواقد! لقد جثوت هنا طويلاً لأروي بؤسي. هل سمعتم جميعاً قصتي التي تروي ما جرى في تلك الليلة من ذلك اليوم من ذلك الشهر من ذلك العام؟ آه.. آه.. أرى ظلالكم الواقفة هناك في الأثير. أسمع خطاكم ذهاباً وإياباً في الهواء. أصواتكم تحاكي هبوب النسيم. أوه.. أوه، ثمّة نسيمٌ يهبُّ الآن ويداعب وجهي كأنّ أيديكم تمتدُّ لداعبة خدي. أيتها الملكة أمّ الغرب! يا بوذا! أيتها النصوص المقدّسة! يا شا وو جينغ! يا غوان يو وتشوغ ليانغ! يا نجمة الأدب ونجمة السماء! أيمقدور أيّ منكم أن يخبرني كيف أعثر على نهاية خيط قصّتي المشربكة؟ إن لم يمدّ لي أحدكم العون فلا خيار أمامي سوى ترك طرف الخيط هذا جانباً والبدء في البحث عن الطرف الآخر.

لذا سأمسك خيطاً آخر من خيوط هذه القصة.

بعد أن غادر خالي في تلك الليلة، توجهتُ إلى محرقة الجثث لأخذ زيت الجثث الذي اشتريناه من خالي. كانت هذه المهمة مرعبة حقاً، لكنني اعتدتُ عليها وما عادت ترعبني كثيراً؛ على النحو نفسه الذي يألفُ به الناس الأسود والنمور بمرور الوقت. بدا الأمر كأنَّ الحدودَ معدومة بين الليل والنهار. كانت المحرقة مخصصة لحرق جثث البشر؛ شأنها شأن عتبة تفضي بسالكها نحو عالم آخر. باشرت محرقة الجثث عملها منذ أكثر من عقد من الزمن، أي إنها تكبرني سنّاً. إنّ الأحداث التي جرت قبل أكثر من عقد من الزمن أشبه بأوراق الشجر المتساقطة والأغصان المتبيسة في الشتاء الماضي؛ بمجرد مجيء الربيع تصبح جميعها بلا قيمة. تغدو طيَّ النسيان. لا أدري كيف تولّى خالي إدارة محرقة الجثث. لقد كان يديرها منذ ما قبل ولادتي، والفرق الوحيد هو أنّه عندما أصبح مديراً لم يكن أحد في البلدة مستعدّاً للحديث إليه لأنّه تحوّل من الدفن إلى الحرق؛ حرق الجثث حتى تصبح رماداً. أناسٌ بشحمهم ولحمهم حوّلهم إلى رماد وفوق ذلك طالبَ أقاربهم بدفع عدّة مئات من اليوانات، ثمانمئة يوان، كما لو أنّك بعد أن أحرقت بيتي وحفرت قبري جثّتَ تنتظر مني أن أدفعَ لك ثمن الحطب الذي أوقدتَ به النيران، كما لو أنّك تطالب بمستحقّاتك لقاء الجهد الذي بذلته في حرق بيتي وحفر قبري، كأنّك تريد استقطاع الأموال التي دفعتها لاستئجار الأدوات التي احتجتها لإنجاز هذه المهام. لهذا السبب، حين يزور خالي متجرنا الجنائزيّ، كان يُرمى بالحجارة من الخلف أو يتلقّى البصقات على وجهه

من الأمام. أو كان يسمع صوتًا دافئًا ومألوفًا يصيح: «المدير شاو! المدير شاو!»، فيلتفت خالي نحو الصوت الذي صار باردًا قاسيًا: «يا ابن العاهرة! عسى ألا يموت فردٌ من عائلتك بكرامة!». كانت هذه الشتائم شتائم رجلٍ إما أُحرقت جثة والدته قبل بضعة أيام أو تحوّل جثمان أبيه إلى رماد. كان هذا الرجل يقف خلف خالي ويحدّق إليه حاملاً بيده طوبة أو مجرفة، طوبة بوسعها أن ترديه قتيلاً أو مجرفة بوسعها أن تطير رأسه.

كان خالي يقف وسط الشارع ممتقع الوجه، بقامته التي يبلغ طولها مئة وثمانين سنتيمتراً، بدا كشجرة قويّة إلا أنّها عاجزة عن التصدّي لريح قد تطيح بها أو تقتلعها في أيّة لحظة.

«تعال قاتلني أيها المدير!».

وبينما كان الرجل يصرخ ويسبُّ نظر خالي إلى الوراء وقال: «هيا! دعنا نذهب إلى أطراف البلدة! لا أريدُ أن ألوث بدمك القذر كلّ شوارع البلدة».

سار خالي نحو الرجل الذي كان يشتمه، وقف جواره بصمتٍ وقد شحب وجهه. افترض الجميع أنّ خالي، وبعد ما تلقّاه من سباب وإهانة، سيستقيل من منصب مدير المحرقة. لكنّه اقترب من الرجل وكزّ على أسنانه وقال: «الزمن يتغيّر والعادات ينبغي أن تتغيّر حتّى تتوافق مع سياسات الدولة. كلّ الموتى ستذهب جثثهم إلى المحرقة وستحوّل جميعها إلى رماد».

وفي غضون ليلةٍ، علّق خالي ملصقاتٍ وإعلانات على جدران شوارع البلدة وأزقتها وعلى جدران القرى المجاورة للبلدة. جاء في

الإعلانات: سعيًا لأن نترك لأبنائنا وأحفادنا نصيبهم من الأراضي،
سنتحول من دفن الجثث إلى حرقها. ملصق آخر جاء فيه: إن أولئك
الذين بلا نسلٍ أو ذرية هم فقط من يتجرؤون على عدم ترك الأراضي
من أجل الأبناء والأحفاد. وفي آخر جاء: لقد أصدرت الحكومة قرارًا
يقضي بأنه عند اكتشاف أية جثة مدفونة سرًا، وبغض النظر عن المدة
المنصرمة على تاريخ الدفن، فستُنشَل الجثة وتُحرق، وستُغرَّم أسرة الميت
بدفع مبلغ من المال ومصادرة قطعة من أرض. وفي ملصق آخر جاء:
من أجل مصلحة الشعب والوطن، ستمنح الحكومة مبلغًا محددًا من
المال ومساحة محددة من الأرض لمن يبلغ عن أسرة دفنت أحد موتاهم
سرًا.

ونتيجة لذلك لم يتجرأ أحد من القرية على دفن فقيده علانية.

لم يتجرأ أحد على ترك أيِّ قبرٍ ظاهرًا للعيان.

لم يكن أمام أهل القرية من خيار سوى نقل موتاهم إلى محرقة
الجثث.

وفي ليلة من الليالي، ذهب بعض الرجال إلى فيلا خالي وخلعوا
بابها وحطّموا نوافذها وأضرموا النيران في فنائها. ومنذ تلك الليلة،
كفّ خالي عن التحدّث إلى الناس وعن فعل أيِّ شيء من أجلهم. كفّ
أيضًا عن التنزّه وحيدًا. قضى وقته، يومًا إثر يوم، داخل محرقة الجثث
كأنه معتكف على هذا العمل وقلّمَا كانت تسنح له الفرصة لزيارة بيته.

لا أخفيكم؛ أبي هو من بلّغ عن أهالي البلدة الذين دفنوا موتاهم
سرًا.

حينما يموت أحدهم وتستعدُّ أسرته للدفن محاولة إبقاء الأمر طيّ الكتمان، كان أبي يشقّ طريقه إلى محرقة الجثث، تحت جناح الليل، ويُعلم خالي بذلك. الإبلاغ عن شخص واحد يعني كسب أربعمئة يوان؛ وثلاثمئة يوان للإبلاغ عن شخصين اثنين. في العموم، لم يتمكن سكان القرية من جني ما يزيد على بضع مئات من الحيوانات شهرياً حتى لو تطلّب الأمر مغادرة البلدة للبحث عن عمل. أمّا أبي فكلُّ ما كان عليه أن يفعله هو التردّد مرّتين إلى محرقة الجثث الواقعة أعلى تلة خارج البلدة لجني ما يقارب الألف يوان.

في ذلك الوقت، كانت عائلتي وعائلة يان ليانكه جيراناً. بنت عائلته بيتاً من ثلاث غرف مسقوفاً بالقرميد تتسلّل رائحة الكبريت المنبعثة من جدرانها الطوبية إلى فناء بيتنا كلّ يوم. اعتاد أبي وجدّي أن يشمّا تلك الرائحة كلّ يوم. وذات مرّة، تنشّقت جدّي الرائحة وهي تتملّى في جدار بيت جيرانها وتنهدت قائلة لأبي الواقف أمامها: «متى سنبنّي بيتاً كهذا؟ مسقوفاً بالقرميد؟ متى سنحظى ببيت كهذا؟».

في يوم آخر سألته جدّي: «هل ستمكّن يوماً من بناء بيت كهذا؟ إن حظينا بذلك، ستكون قادراً على إيجاد زوجة وحينها بوسعي أن أموت قريرة العين».

واقفاً أمام جدّي، احمرّ وجه أبي احمراراً شديداً.

وفي يوم آخر، بعد أن أقعد المرض جدّي، تناولت إبريق الدواء الصيني وحدّقت إلى أبي قائلة: «أخشى أن أموت قبل أن أراك قد تزوّجت وحظيت بوظيفة. أخشى ألا تسنح لك الفرصة لتسكن بيتاً

مُسْقُوفًا بِالْقَرْمِيدِ». كَانَ أَبِي حِينَهَا فِي الثَّانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ؛ أَيِ فِي السَّنِ الَّذِي يَتَزَوَّجُ فِيهِ مُعْظَمُ شَبَابِ الْقَرْيَةِ وَيَغْدُونَ آبَاءً. السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنْهُمْ بَنَوْا بَيْوتًا مُسْقُوفَةً بِالْقَرْمِيدِ أَوْ انْتَقَلَوْا إِلَى شَقِيقٍ فِي مَبَازٍ سَكْنِيَّةٍ. لَمْ تَبْدُ عَلَى وَجْهِ أَبِي، الْمَرَاهِقُ فِي الثَّانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ، سِوَى بَثُورِ حُبِّ الشَّبَابِ. وَقَفَ مُنْعَدِمَ الرَّجَاءِ أَمَامَ جَدَّتِي كُورْقَةَ مُهْمَلَةً. خَجِلًا وَبِلَا حِيلَةٍ. تَطَايَرَتْ أَوْرَاقُ الْخَرِيفِ فِي السَّمَاءِ وَدَارَتْ حَوْلَ أَسَهِ كَأَنَّهَا تَصْفَعُ خَدَيْهِ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَمِنْ مَكَانٍ لَيْسَ بَعِيدًا، سَمِعَ وَقَعَ خُطْيٍ. «بِسْرَعَةٍ! بِسْرَعَةٍ! الْجَدَّةُ تَشَانَعُ لَيْسَتْ عَلَى مَا يَرَامُ. خَذُوهَا إِلَى الْمُسْتَشْفَى.. خَذُوهَا إِلَى الْمُسْتَشْفَى!». هَرَعَ أَبِي عِنْدَمَا سَمِعَ هَذِهِ الصَّيْحَاتِ. رَأَى أَهْلِي الْقَرْيَةِ يَرْكُضُونَ نَحْوَ مَنْزِلِ عَائِلَةِ تَشَانَعٍ. أَحَدُهُمْ مَعَهُ نَقَّالَةٌ. آخَرُ بِيَدِهِ صَحْنُ أَرْزُرٍ رَمَاهُ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ. بَدَوْا جَمِيعًا مَذْعُورِينَ كَأَنَّ السَّمَاءَ سَتَنُهَا عَلَى رُؤُوسِهِمْ. حَدَّقَ أَبِي إِلَى الْبَابِ الْأَمَامِيِّ لِمَنْزِلِ عَائِلَةِ تَشَانَعٍ. وَجْهَهُ الْبَالِغُ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً مَبْلَلٌ بِالْعَرَقِ. وَحِينَ لَمْ يَرَ أَحَدًا يَحْمِلُ اخْدَةَ تَشَانَعٍ وَيَخْرُجُ بِهَا مِنَ الْبَيْتِ انْتَظَرَ بَعْضَ الْوَقْتِ، انْتَظَرَ مَدَّةَ طَوِيلَةٍ. دَخَلَ أَنَا سٌ بِنَقَّالَةٍ فَارِغَةٍ وَخَرَجُوا بِهَا فَارِغَةً أَيْضًا. دَخَلُوا مَشْدُوهِينَ مَرْتَاعَيْنِ وَخَرَجُوا هَادِئِينَ مُتَكَتِّمِينَ. وَتَحْتَ الْمَلَامَحِ الْغَامِضَةِ الْمُرْتَسِمَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ، كَانَتْ أَمَارَاتُ الْإِنْفِعَالِ مُتَوَهِّجَةً؛ كَشَعَاعٍ مِنَ الشَّمْسِ يَضِيءُ بُرًّا بِلَا نَرَارٍ.

لَقَدْ فَهَمَ مَا يَجْرِي. الْجَدَّةُ تَشَانَعُ مَوْتًا، الَّتِي تَقُطِنُ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ مِنَ الشَّارِعِ، تَنَازَعُ الرَّمَقَ الْآخِرَ. لَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ عَائِلَتَهَا، سَعِيًّا لَثَلَا تُحْرَقَ جَسَدُهَا، آثَرَتْ إِخْفَاءَ الْعَوِيلِ وَالنَّحِيبِ أَوْ إِقَامَةَ مَوْكِبٍ لِلتَّشْيِيعِ. قَرَّرُوا

أيضاً عدم ارتداء ملابس الحداد وتصرفوا كأنَّ أحدًا لم يمت. أغلقوا باب بيتهم وجثوا أمام جثة فقيدتهم ثلاثة أيَّام وقد حرصوا على عدم السماح لأحد برؤيتهم أو معرفة ما كانوا يفعلونه. تصرف الجميع كأنَّهم لم يروا شيئاً ولم يسمعوا خبراً قطّ. وهكذا تمكَّنت الأسرة من الحفاظ على سرِّيَّة الوفاة. بعد ثلاثة أيَّام، في منتصف الليل، حملوا الجثة إلى القبر ودفنوها ثم وضعوا كومة من العشب فوق القبر المحفور حديثاً إلى جانب أكوام من ورق الشجر وقصبِ الذرة. ولإبقاء الدفن طيَّ الكتمان، لم يتفوّه أحدٌ بكلمة تشير إلى الوفاة واكتفوا بإيحاءات صامتة. وقد باتت هذه الممارسات شائعة في القرية كلِّها مات ميت.

إلا أنَّ أبي أراد زعزعة ذلك. وكَمَن يفقاً دُمْلَةً، أذاع الخبر جهراً وقرَّر طوعاً أن يصير جاسوساً ومخبراً. في ذلك الوقت، كان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً فحسب والبثور التي تغطي وجهه حمراء فاتحة. اختبأ في الفناء معتصراً بثوره حتَّى ازرقَّت واسودَّت وهو يتلصَّص على عائلة تشانغ. ظلَّ يحدِّق إلى الطوب الأحمر لجدار منزل يان الجديد ويركله بقدمه. بقي هناك حتَّى غربت الشمس وتحيَّن الفرصة ليخرج ويذهب إلى محرقة الجثث الواقعة على تلة خارج البلدة.

تلقى أربعمئة يوان من خالي في المحرقة.

وحين عاد، وفي جعبته أربع ورقات نقدية من فئة المئة يوان، كانت جثة الجدَّة تشانغ قد انتشلت ونُقلت في شاحنة. كأنَّ سيارة شرطة تقلُّ سجيناً فارّاً قبض عليه أخيراً. في هدوء القرية، ومع تلاشي ظلال الغروب الأخيرة، سُمعت أصوات تردّد: «آية لعنة لحقت بعائلة تشانغ! آية لعنة

لحقت بعائلة تشانغ!». وكان هذا الهتاف التعبير الوحيد عن التعاطف الذي أبداه أهل القرية بعد نقل جثة الميتة لحرقها. لم يكن بحسبان أحد أن أبي هو من أفشى سرّ تلك العائلة. كيف يمكن إخفاء حدث كهذا؟ لو أرادوا حقًا ألا يعرف أحدٌ بالأمر لكان الأجدر بهم ألا يفعلوا ذلك من الأساس. بعد إبلاغه عن الدفن السريّ الذي أقامته عائلة تشانغ وعودته إلى القرية، كان أبي يتجول في الشوارع وقت الغروب، وحين رأى أناسًا من القرية يتناولون عشاءهم تصرّف كأن شيئًا لم يحدث. كان قد أخذ معه، في طريقه للإبلاغ عن حادثة الدفن السريّ، فأسًا قديمة زعم أنه ذاهب إلى البلدة لإصلاحها، وعندما عاد، عاد بحوزته فأسٌ حديثه اللحم. تظاهر بأنه يحملها عائداً إلى البيت بعد أن أصلحها. كأن شيئًا لم يحدث حقًا. وتحت الشمس الغاربة، رجعت الطيور إلى أعشاشها فيما تناول القرويون عشاءهم وهم يناقشون خطط الغد.

كأن شيئًا لم يحدث حقًا.

باستثناء أن باب بيت عائلة تشانغ، المغمور بالسكون، كان مفتوحًا على مصراعيه.

غادر أبي حاملًا فأسًا مكسورة، لكنّه عاد حاملًا فأسًا أصلحت حديثًا. ثمّة ما يشغل قبضة يده وهذا ما جعله يهدأ. مثل طائر يعود إلى عشّه عند الغسق. تصرّف كأن شيئًا غير معتادٍ لم يحدث. وفي طريق عودته ألقى نظرة على بيت عائلة تشانغ. توقّف وتلفّت حوله لكنّ السكون الفظيع حمله على الرجوع إلى البيت. وحين أحضرت له جدّتي صحنَ أرزٍ رفع رأسه وحملق بها طويلاً. «بحلول العام القادم سنبنّي،

نحن أيضًا، بيتًا مسقوفًا بالقرميد». وفيما يقول ذلك وضع الفأس تحت الإفريز وحدّق إلى منزل عائلة يان الجديد المبنيّ من الطوب. «بحلول العام القادم سنبنّي، نحن أيضًا، بيتًا مسقوفًا بالقرميد. بحلول العام القادم سنبنّي، بلا شك، بيتًا مسقوفًا بالقرميد». ارتقب ظهور السرور على وجه جدّي وحينها تناول الطبق منها وبدأ يأكل طعامه. بعدئذ جلس القرفصاء هناك دون أن يتفوّه بكلمة وكان وجهه شاحبًا. بانحناءة قرفصائه بدا جسده أشبه بجرّة الرماد.

وعلى هذا المنوال، كلّما مات شخصٌ في القرية بنى أبي طوبة أخرى في جدار بيته الجديد.

كلّما مات شخصٌ في القرية اشترى أبي قريمةً أخرى لسقف بيته الجديد.

إذا حاول أحدٌ دفن قريبٍ له سرًّا سرعان ما يعلم بالأمر عاملو المحرقة. وسرعان ما تحضر لجنة التنفيذ وساحب العربة إلى منزل الميت، في غضون فترة وجيزة من الوفاة. وسط الصياح والنحيب، كان صاحب العربة يجرّ الجثة بعيدًا. هكذا يطبّق القانون. الجثث تُحرق. تُحوّل إلى رمادٍ. في أثناء هذه اللحظات لا يُوجد أبي في القرية. كان يعود إليها دائمًا عقب يومٍ من حرق الجثة. وقد بدا الأمر كأنّ أبي لا تطيب له زيارة أقاربه إلّا حينما يموت أحدٌ في القرية. كأنّه لا علم له إطلاقًا بما جرى. كان يعود إلى القرية ويلازم البيت لا يبارحه. وفي بعض الأحيان كان الميت أحد سكّان حيّنا، وعلى الرغم من أنّ أبي هو من أبلغ محرقة الجثث التي أرسلت عربةً لأخذ الجثة، فإنّه كان يطلب إلى جدّي الذهاب إلى

منزل عائلة الفقيد لتقديم واجب العزاء. وإذا قدّم المعزّون عشرة يوانات هدية تعزية كان يطلب إلى جدّي تقديم عشرين يوانًا. وإذا قدّم الآخرون عشرين كان يطلب إليها تقديم ثلاثين أو أربعين يوانًا.

ولكن، في أغلب الأحيان، لم تكن أمامه فرصة لتقديم التعازي. ذلك لأنّ أبي لم يكن في القرية في أثناء حوادث الموت والدفن ومن المفترض أنّه لم يعلم بما يجري. استمرّ الأمر على هذا المنوال مدّة نصف عام وخلال هذه الفترة مات أكثر من عشرة من جيراننا وأبناء قريتنا وتمكّنا من توفير خمسة آلاف يوان لبناء بيت جديد. ولكن في ذلك الشتاء، غادر أبي القرية بضعة أيّام وفي طريق عودته صادف لجنة تنفيذ القانون وعائلة أحد المتوفين. كان يومًا قارس البرودة، والسماء والأرض كلاهما رماديّ اللون. براعم القمح في الحقول بدت كشعرٍ على جسم الأرض. وأبي عائذٌ من بيت أقاربه سيرًا على الأقدام. عبر سلسلة الجبال واجتاز واديًا وحين وصل إلى حقلٍ على سفح التلّ رأى لجنة تنفيذ القانون عند قبر عائلة يانغ. كان الرجال أشبه بسربٍ من الطيور تحوم في السماء مستكشفة كومةً تلو الأخرى من قصب الذرة. وباستخدام نوع من المجارف يستعمله المنقبون عادةً، حفرت لجنة التنفيذ حفرةً بثخن ذراع في منتصف القبر. بعدئذٍ وضعوا عدة قطع من البارود في الحفرة وردموها ثمّ أشعلوا فتيلًا ممتدًا من جوفها. تحت السماء الرماديّة أحدثت الشرارات الناجمة عن الفتيل فرقعة عالية. صاحوا: «تراجعوا! تراجعوا!» وهم يخطون إلى مسافة آمنة.. انتظروا.. انتظروا.. انتظروا حتّى دوى انفجار هائل من القبر. ارتجّ سفح التلّ، ارتجّت الأرض،

ارتجَّت قلوب الجميع. وبعدها هداً كلُّ شيء. عاد عناصرُ اللجنة أدراجهم نحو القبر وأخذوا يركلون أكوامًا من شظايا العظام واللحم المنفجرة من القبر. بعدئذٍ سكبوا الوقود وأشعلوا النيران. أحرقوا رفات الميت فوق قبره المفتوح. اندلعت ألسنة اللهب في الهواء كأنَّ نارًا شَبَّت في بيت أحدهم. كان بالإمكان سماع الفرقعة مع تطاول ألسنة النيران لأعلى. بدا الأمر كضربِ السوط، كأنَّ الجثة تُجلد مرارًا وتكرارًا. فاحت رائحة الوقود واللحم المحترق. عُبقت رائحة الحريق في الهواء وقد تجمهر مشعلو النيران فترة من الوقت. الشتاء في منتصفه والجبال شديدة البرودة. مدَّ بعض العناصر الواقفين حول النار أيديهم لتدفئتها. ظلَّ أبي يراقب من بعيد. لم يصدِّق ما رآه لكنَّ ما حدث كان حقيقيًّا. لقد كسب أربعمئة يوانٍ ممَّا جرى. منذ البداية كان بطل القصة ولولاه لما كانت هناك قصَّة من الأساس. في الجزء المُضاء من السماء، كان نورُ الشمس الغاربة بلون النار، كالرماد الذي يغطِّي جمرًا لا يزال مشتعلًا. رائحة خفيفة لشيءٍ يحترق. انبعثت من لحمٍ وعظامٍ محترقة، كأنَّ شخصًا ما يُحرق حيًّا في الهواء الطلق. حتَّى إنَّه تناهى صوتُ صراخٍ مُعذَّب لشخصٍ ما يُحرق. كان خافتًا جدًّا لكنَّه واضحٌ جدًّا. صوتُ صرخة أليمة تلو صرخة أليمة. بعدها اخشوشن الصوت. وبينما خبت النار المضرمة بالوقود هدأت الصرخات شيئًا فشيئًا. وفي النهاية حلَّ محلُّها صوتُ أنينٍ. كان أبي يقف بجوار قبر لعائلة أخرى يقع على بعد مئة متر تقريبًا. جذوع أشجار الصفصاف والسرود القديمة عند قبر العائلة ثخينة كالبراميل وتحجب مجال رؤيته. لا أثر للبردِ أو للصدمة على وجهه، بل تعابيرٌ دهشة فحسب. ظلَّ يحدِّق إلى قبر عائلة يانغ الذي فُجِّر وحُرق

بالوقود. اكتسى وجهه بطبقة من الألم، كأنَّ خَدَّيْهِ محترقان. كأنَّ الدَّم
في عروق وجهه وقودٌ مشتعلٌ. تبيَّس وجهه بفعل الوقود وتشقَّق الجلدُ
المتبقي على نحوٍ مؤلمٍ.

وقف هناك طويلاً، يحدِّق إلى الأمام مباشرة وهو يلمس وجهه
بحذرٍ.

مع خمود النار تفرَّق الحشد.

توجَّهت اللجنة إلى المحرقة الواقعة عند سفح الجبل.

هناك خمسة رجال أو ستّة، جميعهم أقوياء البنية، أكبرهم سنّاً لم
يتجاوز الأربعين من عمره وأصغرهم أصغرُ من أبي، جميعهم يرتدون
الزيّ الرسميّ الأخضر الداكن الذي يرتديه موظفو المقاطعة والبلدة،
كأنّهم من العسكر. يتبعون للجنة تنفيذ القانون التي شكّلت على
مستوى المقاطعة. لكلّ قرية وبلدة لجنّتها الخاصّة التي تظهر فجأةً حالما
تكون هناك جثّة لم تُحرق. في ذلك اليوم كانت اللجنة قد ظهرت عند قبر
عائلة يانغ الذي فجّروه وأحرقوه ثم غادروا.

بعد رحيل عناصر اللجنة، ذهب أبي إلى القبر. الحفرة بعمق قدمين
وتفوح منها رائحة الوقود والتراب المحترق. انطفأت النار بعد مضيّ
عشرين دقيقة. كانت رائحة الوقود والتراب المحترق قد امتزجت
برائحة اللحم المتفحّم والعظام المشويّة لتعطي تلك الرائحة الكريهة
التي تنبعث من محرقة الجثث. حفنةٌ من عظامٍ لما تتحوّل إلى رمادٍ تشبه
نشارة حطبٍ غير مُحترق في قاع حفرة مظلمة. الحفرة مستديرة، بجوارها
قطع من اللحم والعظام التي نسي العناصر ركلها لتأكلها النيران. لقد

تفسّخت العظام وصار لونها أسود رماديًا بينما كان اللحم أشبه بقطع الطين الحمراء الموضوعة على أرضٍ احترقت حديثًا. امتقع وجه أبي الواقف أمام الحفرة. وحين رأى عظمةً بجانب قدميه، تشبه فقرة بشرية، امتقع وجهه أكثر. حدّق مشدوّهًا. كان في الثانية والعشرين من العمر لكنّه شعر بأنّه عاش قرونًا وكابد آلاف الحيوانات.

بعيدًا كانت جبال فونيو غارقة في الصمت. عند السفح، كانت قرية غاو تيان -ربّما ينبغي أن أقول بلدة غاو تيان- غارقة في الصمت أيضًا. لا صوت كأنّ العالم بأسره قد مات، كأنّ كلّ شيءٍ قد مات. ليس هناك سوى عناصر لجنة التنفيذ الذين سبق أن غادروا كعائلة تعود إلى بيتها بعد أن أنهت حصاد محاصيلها. بدّوا هادئين متآئين وضحكوا ضحكاتٍ تعبّر عن سعادة. بعضهم راح يغنيّ فارتفع صوتهم نحو السماء المنعزلة المكفّهرة كسربٍ طيور بريّة يخترقها. نورٌ الغسق المنبثق من الشمس الغاربة بدا كالرماد. كنارٍ مشتعلة يغطّيها جمرٌ أبيض.

كان الجوّ شديد البرودة والريح تعصف بلا هوادة عبر المقبرة. وقف أبي بجوار القبر المُفجّر والمحروق. وقف هناك بلا حراك كأنّه ميت. في تلك اللحظة بدأت البثور الحمراء على وجهه تخضّر؛ البثور التي غطّت جبهته وأنفه. لامس بثورَ جبهته التي تؤلمه ثمّ انحنى ليلتقط العظمة الشبيهة بفقرة، عاينها وسرعان ما رماها كأنّه أمسك بقطعة جليد. كانت جدّة عائلة يانغ تبلغ من العمر اثنين وتسعين عامًا حين ماتت لذا قرّر أهلها ألا يحرقوا جثتها. ولأجل ذلك لم ييكوا على رحيلها ولم يرتدوا ثياب الحداد البيض ولم ينتحبوا عند باب البيتٍ إشهارًا للوفاة.

لكنّ أبي علم بذلك. فحين مرّ ببيتهم لاحظ أنّ البوّابة مغلقة بإحكام على الرغم من أنّ النهار في منتصفه فحسب. علاوة على ذلك، كان بوسعه أن يشمّ، من وراء البوّابة، رائحة أناسٍ تحلّقوا حول مأدبة.

لقد علم أنّ هناك من مات في هذا البيت.

وكان يعلم أنّ جدّة العائلة البالغة من العمر اثنين وتسعين عامًا راقدة على فراش المرض.

في تلك الليلة صعد أبي التلّ ورأى ضوءًا عند مقبرة العائلة. رأى شخصًا يحفر قبرًا جديدًا هناك تحت جناح الليل. لذا توجه أبي إلى محرقة الجثث ليشي بسرّ عائلة يانغ. وفيما كان خالي يدسّ أربعمئة يوانٍ في يده، ربّت على كتفه وابتسم قائلاً: «لي تيان باو، لا تقلق بشأن صغر سنّك. مستقبلك سيكون حافلًا بالنجاح. كي تبقى على قيد الحياة لا بُدّ من أن تكون على استعداد لفعل ما لا يرغب الآخرون في فعله». لم يقل أبي شيئًا. وفيما كان يغادر المحرقة كانت أمّي في إحدى غرف المحرقة تخطط ملابس الجنازة وتبيعها. فتحت الباب ونظرت إلى أبي وألقت قطعة قماشٍ عند الباب. «مات شخص آخر». كان من الصعب معرفة إذا ما كانت تسأل أم تتحدّث إلى نفسها. نظر أبي إليها ورأى وجهها الشاحب كورقة صفراء. أوماً برأسه كأنه يجيب، بل كأنه يعبر عن احترامه ويقدم تحيته للأخت الصغرى لصاحب المحرقة الذي يعطيه المال دائمًا.

ثمّ غادر.

كما يفعل دائمًا.

لم يعد إلى القرية. قرّر الذهاب إلى بيت إحدى عمّاتي كما يفعل دائماً. ذهب إلى بيت شقيقته الكبرى التي تعيش في مكان بعيد. تصرّف كأنّه لا يعلم أنّ هناك ميتة جديدة في القرية. لكنّه حين عاد بعد ثلاثة أيام رأى ما رآه عند القبر. لم يجزّ صاحب العربة جثة الجدّة ليجرقها. بل عمد عمّال المحرقة، بعدما انتظروا العائلة حتى يدفنوا فقيدتهم، إلى الذهاب إلى القبر وتفجيره ثمّ سكب الوقود على الرفات وإشعاله.

كان الطقس شديد البرودة والريح تعصف في التلال. عثر على مجرقة مكسورة، ربّما رماها أحدهم في أثناء حفره قبراً، واستخدمها لردم التربة الرخوة على الحفرة المحترقة. أشعة الشمس الغاربة تشبه جمرًا مشتعلًا في السماء الرمادية؛ كجمرٍ أبيض يغطّي نارًا لما تخمد. ردم أبي كومة تلو أخرى من التراب، أراد أن يغطّي العظام التي تناثرت من القبر المُفجّر، ملأ الحفرة بالتراب ثمّ غطّاها من جديد بقصب الذرة وأغصان الأشجار. بهذه الطريقة سيبدو الأمر كأنّ شيئًا لم يحدث. بهذه الطريقة ستُحلّ كلّ المشكلات ولن يكون هناك سوى نسيم الشتاء البارد الذي يهبّ بين سلاسل الجبال. كان أفراد عائلة يانغ قد خرجوا من القرية وصعدوا إلى الجبل على إثر أصوات الانفجار والحريق. تقدّم الشباب القادرون على الركض بسرعة، من خلفهم رجالُ العائلة ونساؤها، كأنّ الريح تعصف بهم، كأنّهم محاطون بأمواج تتلاطم. سارع أبي للمغادرة حين رأى الحشد سائرًا في طريقه نحو المقبرة. توجه إلى مقرّ لجنة التنفيذ. ظلّ يلقي نظرات إلى الخلف ليستطلع إن كان مُلاحقًا. أراد التأكّد من أنّ أحدًا لم يلاحظ وجوده. شأنه شأن لصّ؛ لصّ قبل أن

يتمكّن من الاستيلاء على غنيمة إذ به يسمع صوت غريمه عند الباب. شعر أبي بالبرد وارتجف قلبه. وعلى الرغم من انتعاله حذاءً جديدًا مبطنًا وسروالًا قطنيًا ظلّ يشعر بالبرد الشديد. كان قد اشترى له ولجديّ بعض الملابس المبطّنة بمجرد تلقيه أوّل مبلغ من المال. في ذلك الوقت كان الطقس دافئًا جدًّا إلا أنّه يشعر الآن ببردٍ شديد. متجهين شرقًا على امتداد مسار الجبل، بات عناصر لجنة التنفيذ بعيدين بالفعل؛ ما من أثر لهم في الحقيقة. في هدوء الغسق بدا العالم بأسره ميتًا، وأبي أيضًا بدا ميتًا. وجهه شاحب شحوب الموت وجبهته مغطّاة بقطرات عرق تشبه حبات الجليد. وحين أوشك على دخول المحرقة جلس على جانب الطريق. عَضَّ شفّتيه وهو جالسٌ عندَ طرفِ حقلٍ شخصٍ ما. غيرَ مدركٍ ما يفعلُ راح يركل التراب تحت قدميه حتى سوّى كومة منه. أمام الكومة باتت هناك حفرة عميقة.

أخيرًا، بعد حلول الظلام، سار إلى المحرقة.

لم أعرف كلّ هذا إلا في وقتٍ لاحقٍ.

حتّى لو لم يكن ذلك ما حدث على وجه اليقين، لكنني مقتنعٌ بأنّ الأمور جرت على هذا النحو.

وإلا لماذا تصرّف أبي وأمي هكذا في تلك الليلة من ذلك الشهر من ذلك العام؟ لو لم تجرِ الأمور على ذلك النحو فمن المؤكّد أنّهما ما كانا ليفعلان ما فعلاه في ليلة السرّنة.

حين وصل أبي إلى المحرقة أخرج الأربعمئة يوان ووضعها على طاولة خالي. «لن أعاود فعل ذلك.. حتى لو كان مستقبلي يعتمد على

هذا الأمر فلن أقدم عليه.. حتى لو كان ذلك يعني أنني لن أتمكن من بناء بيت لي وأنني سأضطر إلى النوم في العراء فلن أفعل ذلك مهما حدث»، قال وهم بالرحيل. كان على وشك الخروج من المكتب. لم يحاول خالي الوقوف في طريقه لكنه لم يأخذ المال أيضًا. «إن لم تفعل ذلك فكثيرون غيرك في القرية سيفعلون. كل ما عليهم فعله هو جلب بعض الأخبار والركض قليلًا، وفي غضون وقتٍ لا يتجاوز ما يستغرقه تناول طبق من الأرز سيكسبون أربعمئة يوان. أين ستعثر على صفقة كهذه؟». كان المكتب مكونًا من غرفتين وعلى الحائط شعارٌ منسوخٌ من وثيقة رسمية: شجّعوا حرق الجثث لإنقاذ الأراضي الزراعية. ضوء المصباح ساطعٌ كنور النهار. العنادلُ ترقزق في فناء المحرقة. وعلى الجدار الأمامي لقاعة حرق الجثث المكونة من طابقين عبارةٌ مكتوبةٌ حديثًا: قاعة الوداع تَلَأَت بلونٍ ذهبيٍّ في ضوء المصباح. كان بالإمكان رؤية الماء في الحوض، كأنَّ ضوء القمر كله قد تجمّع وطفأ على سطح الماء.

وإذ غادر أبي المكتب، وقف خالي في المدخل كعملاقٍ وقال كلمته الأخيرة: «أتمنى ألا تندم على هذا!». غادر أبي. سار بعيدًا دون أن يقول شيئًا. كان صامتًا والعالم بأسره كان كذلك. «لن أندم». تتم أبي ووقع خطاه يشبه صوت الماء المتقطر على أوراق الشجر. كان قد أتم طلبية الطوب للبيت الجديد واشترى الإسمنت. كل ما كان يحتاجه هو موت خمسة أو ستة من القرويين أيضًا، وإن كان من هؤلاء الخمسة أو الستة ثمة ثلاث أو أربع عائلاتٍ لا تقبل بحرق جثث الموتى وحاولت دفنهم سرًّا فسيكون بوسعه أن يشتري قضبان الحديد اللازمة أيضًا. لكن

وظيفته الثانوية كمُخبرٍ تتفاقم سوءًا فالناس باتوا يأخذون موتاهم إلى المحرقة من تلقاء أنفسهم، بشكلٍ واضحٍ وضوح القمر والشمس. كان الشتاء موسم الموت. الكثير من أهل القرية يموتون شتاءً، ومن المحتم وجود بعض العائلات غير الراضية عن حرق الجثث وتريد أن تدفن موتاهما سرًا. لكنَّ محرقة الجثث، وبدلًا من أن تذهب لأخذ الجثة قبل أن توارى الثرى، باتت تنتظر تمام الدفن ثم تهرع لتفجير القبر. يذهب عناصرها إلى القبر ويغرقونه بالوقود ويشعلون النيران. بعد أن غادر أبي خرج خالي إلى عتبة الباب وصاح: «إن لم تأخذ هذا المال يا لي تيان باو فستندم كثيرًا... ستندم ندمًا ما بعده ندم!».

غدَّ أبي خطاه، غادر دون أدنى التفاتة، كَفَرَّخٍ عازِمٍ على الفرار بعيدًا. امتدَّ الليلُ أمامه كستارةٍ وضوءُ القمرِ مضمَّخٌ برائحة الأرض المنبعثة من الحقول. مشى وتردَّد صدَى خطاه وهو يجتاز الشارع. سمع خطوات شخصٍ آخرٍ وحين التفت كي ينصت جيّدًا سمعَ خالي من خلفه يكيّل إليه الشتائم ويدعوه للعودة.

لقد انتهى كلُّ شيء. كما يحدث حين يموت المرء ويوارى الثرى فتقطع أخباره إلى الأبد. لكن، في تلك اللحظة، بدأ شيءٌ ما من جديد، شيءٌ ما استعداد مجراه من جديد، كشخصٍ مدفونٍ في الوحلِ تبَيَّنَ أَنَّهُ يتنَفَّس، أَنَّهُ على قيد الحياة. وقفت أُمِّي بالمدخل تنتظر أبي. كانت قد راقبته وهو يخرج من المحرقة. حينها ظهرت فجأة، كأنها خرجت من خلف شجرة ظليلة.

«ينبغي ألا تفعل ذلك مرة أخرى».

«لن أفعل إطلاقاً».

«وكيف ستبني بيتك الجديد إذا؟ لقد زرتُ حيَّكَ ورأيتُ جيرانك الذين بنوا بيوتًا جديدة بينما ما تزال أنت وأسرتك تعيشون في بيت قديم مسقوف بالقش. يمكنني أن أساعدك في بناء بيتك. بيت من ثلاث غرف؛ ما عليك سوى أن تتزوجني. بمهري سنبنى البيت. وبعد زواجنا يمكننا أن نفتح متجرًا جنازياً وسط شارع البلدة. نبيع فيه أكاليل الزهور وأكفان الدفن والمشغولات الورقية ومستلزمات الجناز. بعدها لن تضطرَّ إلى القيام بأيِّ شيءٍ لا ترغب في فعله».

بينما كانت أمي تقول ذلك، طفت غيمةً فوقها وتراءى ظلُّها على جسدها ووجهها. حينها كانت أمي على بعد ثلاث أقدام من أبي وأنفاسها تلامس وجهه بلطفٍ.

انتظرت ردًّا من أبي لكنَّه رمقها من طرف عينيه فحسب. تنشَّق وغادر.

وهي غادرت أيضًا.

3. (21:41-21:50)

في تلك الليلة، في أثناء الهزيع الثاني -أي قرابة الساعة التاسعة- وأنا في طريقي إلى المحرقة، لم يبارحني التفكير في عائلتي. فكَّرتُ في شؤونٍ تتعلَّق بأبي وأمي وخالي. أراد العمَّ يان أن يعرفها لكنِّي لم أبح له بشيءٍ. لا أعرف ما جرى بين أبي وأمي، لكنَّهما تزوّجا في الربيع التالي.

لا أعرف ما جرى بين أبي وأمي، لكنني بعد زواجهما وُلدت.

لا أعرف ما جرى، لكن بعد ولادتي جدتي ماتت.

بين الكائنات الحية جميعها، كلما وُلِدَ كائن يجب أن يموت آخر. بعد أن يموت كائنٌ سيوَلَدُ آخر. بهذه الطريقة سيظلُّ العدد الإجمالي للأشخاص والحيوانات والطيور ثابتًا على الدوام. لن يكون هناك فائضٌ ولو بمقدار واحد ولا نقصانٌ ولو بمقدار واحد. والسبب في أنَّ عدد الأشخاص في العالم يتزايد هو أنَّ عدد الحيوانات والطيور يتناقص. وفي يومٍ من الأيام، حين سيتزايد عدد الحيوانات والطيور من جديد، سيتداعى عددُ الأرواح البشرية كبيتٍ يتهدَّم. هذا مقطعٌ من أحد كتب يان ليانكه لكنني لستُ أتذكر أيها تحديدًا. وفقًا لهذا المنطق فقد وُلدتُ لأنَّ جدتي كانت على وشك الموت وجدتي ماتت لأنني وُلدت.

عندما حملت أمي بي مرضت جدتي، ومع تضخُّم بطن أمي تزايد مرضُ جدتي. كان الأمر شبيهًا بسباقٍ؛ سباق بين الحياة والموت. بطنُ جدتي ألمها بشدَّة لدرجة لم تستطع معها تناول أيِّ شيءٍ سوى الدواء. وبينما كان حجمي يزداد داخل بطن أمي كانت جدتي تضمر أكثر فأكثر مستلقيةً على فراش المرض. تنامي جسدي فيها اضحملَّ جسدها. كلما زاد وزني بمقدار جين واحد كان وزنها ينخفض بالمقدار ذاته. وحين أوشكتُ على الخروجُ من رحم أمي انكمشَ جسدُ جدتي واتخذت وضعيَّة الجنين مستعدةً للموت. لقد وُلدت في شتاء العام نفسه الذي تزوّج فيه والداي، الشتاء الذي هبَّت فيه عاصفة ثلجيَّة جعلت العالم بأسره أبيض اللون. حينها كنتُ داخل بطن أمي أكافحُ للخروج فيما

جدّتي مستلقية على سرير في الغرفة الجنوبيّة لبيت عائلتنا الجديد، تحتضر. وبينما كنتُ أنتظرُ الخروج من بطن أمي، ذهب أبي من الغرفة الشماليّة إلى الغرفة الجنوبيّة ووقف أمام سرير جدّتي يهتف: «صبيّ! صبيّ!». ابتسمت جدّتي. «لم تذهب حياتي سدى. حظينا ببيتٍ جديدٍ والآن صار لي حفيدٌ سيحرق من أجلي البخور بعد رحيلي». ابتسمت ابتسامة مشرقة ورحلت. كأنّها انتظرت مجيئي قبل أن ترحل، كمن ينهي ورديّة عمله قبل أن يسلم زميله الورديّة التالية. وبعد أن أدّت جدّتي ورديتها الأخيرة جئتُ لأبشّر ورديتي الأولى. جئتُ للعيش في غاوتيان وفي نهاية المطاف بدأتُ أتكلّم وأحبو وأنمو. في أثناء ذلك ماتت جدّتي وما عادت تتكلّم أو تفعل أيّ شيء، بل دخلت راحتها الأبديّة.

لم توصِ جدّتي، قبل موتها، بما إذا كانت ترغب في أن تُدفن أو تُحرق. لم يكن أبي وأمّي، أيضًا، متيقّنين ممّا عليهما فعله. مثلت ولادتي حدثًا مبهجًا فيما مثل رحيلها حادثة حزينة. وحين تتزامن البهجة مع الحزن لن يأبه المرء بأيّ منهما. انتاب الهدوء أبي وكذلك أمّي المستلقية على سريرها. تصرّفا كأنّي لم أُولد وكأنّ جدّتي لم تمت. في ذلك اليوم كان البرد قارسًا والثلج يتساقط بلا انقطاع منذ شهر. كان العالم بأسره أبيض ناصعًا، كيباض جوف القبر. تدلّت الكتل الثلجيّة من أفاريز البيت وأغصان الشجر. وصل ارتفاع الثلج في بلدة غاوتيان لحدود الرُكَب وفي بعض الأحيان بلغ ارتفاع الحُصُور. اكتسى العالم ثلجًا وكلّ ما تحت السماء كان باردًا، باردًا جدًّا. الهدوء المطبق على القرية جعل موقد الفحم المشتعل بجوار سرير أمّي كحوض مفرقاتٍ ناريّة. الثلج البادي من

النوافذ كأنه رملٌ متطاير. كانت الريح الشمالية تعصف بالبيت وتذرو
الكتل الثلجية المتدلّية من الأفاريز. ومن رحم أمي استطعتُ سماع بقبة
الماء المغلي فوق النار. كان أبي جالسًا بجوار الموقد وأمي مضطجعة
على السرير تحتويني. فيما جدّتي راقدة على ذلك السرير تنتظرُ ترتيبات
جنازتها.

كان الوقت أشبه بمنشارٍ عتيقٍ يتجاذبه أبي وأمي. وُلدتُ قبيل
شروق الشمس وماتت جدّتي أيضًا قبيل شروق الشمس. وهكذا،
مع حلول الظهيرة، كنتُ أبكي وأنام، أبكي وأنام. ولما كنتُ لا نائمًا
ولا باكيًا سمعتُ أبي وأمي يتحدثان بصوتٍ خافتٍ، كأنّهما على وشك
الإغفاء.

«اذهب وألّقي نظرة وستحدث بالأمر لاحقًا»، قالت أمي وقد
تقلّبت في فراشها. نهض أبي الذي كان جالسًا بجوار الموقد وجاء إلى
السرير ليداعب وجهي. «يا بني! منذ أجيالٍ لم تحظَ عائلتنا سوى بابنٍ
وحيدٍ في كلّ جيل. أنت بدورك يجب أن تنجب لي حفيدًا. هكذا أتيقّن
من أنّني لم أعاقب على شيءٍ اقترفته، هكذا أتيقّن من أنّني، أنا لي تيان باو،
لم أسئ لأيّ شخص في حياتي!».

ثمّ خرج. في غمرة العاصفة الثلجية كان العالم ساكنًا، لا خيال
يُرى ولا صوت يُسمع. لكنّ أحدهم علّق ورقة على جدار مدخل بيتنا
مكتوب عليها بأحرف سودٍ: «أخبار سارة! ماتت والدّة لي تيان باو.
سنرى إذا ما كان سيحرق جثة أمّه أم لا! أخبار سارة! ماتت والدّة
لي تيان باو. سنرى إذا ما كان سيحرق جثة أمّه أم لا!». عبارة مكتوبة

بأحرفٍ سودٍ على ورقة بيضاء. الورقة ذات حواف مستقيمة لكنَّ الأحرف المرسومة عليها مائلة ومتعرجة. علَّقت الورقة عند مدخل بيتنا. علَّقت على أعمدة الكهرباء. علَّقت على جذوع أشجار الحور والصفيراء على جانبي الطريق. أحصى أبي خمسًا أو ستًا من هذه الأوراق قبل أن يبلغ ساحة القرية. وقف هناك وحيدًا، وجهًا لوجهٍ مع الثلج الساكن. ثم استدار وعاد أدراجه.

في طريقه إلى البيت أخذ يركل الثلج بغضبٍ مع كل خطوة. كان قصيرًا ونحيلًا، ولَمَّا كان الثلج يصل ارتفاعه إلى رُكَب الآخرين كان يبلغُ فخذه. ولَمَّا كان الثلج يصل ارتفاعه إلى أفخاذ الآخرين كان يبلغ خصره. لكنّه أخذ يركل الثلج كحصانٍ يثير زوبعة من الغبار. عاد إلى البيت وفي طريقه راح يصرخ:

مكتبة

t.me/soramnqraa

«لقد أنجبت زوجتي صبيًا!».

«لقد أنجبت زوجتي صبيًا!».

أخذ يذيع الخبر السارَ لكنّه حين وصل إلى سرير أمي كان يتحدث عن شيء آخر.

«ينبغي أن نحرق جثتها. وإلا فسيضمرون كراهية لي أو لأخيك». «ينبغي أن نحرق جثتها. وبرمادها سنسدُّ أفواههم وسنغشي أبصارهم».

قرّرا حرق الجثة. في اليوم الثالث توقّف هطول الثلج في الصباح وعندما أشرقت الشمس كان كلُّ أهالي غاو تيان قد خرجوا لكس الثلج. لم يطلب أبي عونًا من أحدٍ لحمل جثة جدتي ولا طلب إلى أحدٍ

أن يعيره عربة. لم ينسّق مع المحرقة لإرسال عربةٍ تحمل الجثة من البيت. بل خرج مرتدياً قبةً بيضاء وحذاءً أبيض حاملاً والدته -جدّي- في كفنها. كأنّه يتحدّى العالم. كأنّه يصارع نظرات كلّ سكّان غاو تيان. قبعته مصنوعة من قماش الكاليكو الناعم والأبيض كالثلج. الكفن الذي أعدّته أمي من أجل جدّي مصنوع من الحرير الأسود الذي يلمع بوهجٍ أسود، فيما تالأّت البطانة الذهبية حول الياقة والأكمام تحت ضوء الشمس. كانت الخياطة منقّدة بمهارة استثنائية. لم يكن أحد ليتوقع أن أبي سيتحلّى بهذا المقدار من القوة والجرأة. في ذلك الوقت، كان بعض الناس يكنسون الثلوج من مداخل بيوتهم فيما آخرون يتحادثون في الشوارع المكنوسة للتوّ. في مطعمٍ الساحة كانت وجبتا الإفطار والغداء تُقدّمان معاً. حمل أبي جثة جدّي عابراً منطقة مزدحمة، حيث تجمّع الكثير من سكان البلدة وأهالي القرية يشاهدون.

خطوة إثر خطوة، متمهلاً، كأنّه يستعرض قوته.

خطوة إثر خطوة، متمهلاً، كأنّه يقطع عهداً.

حدّق الجميع ذاهلين. حدّق الجميع مشدوهين.

أطلق الجمهور صيحات «آه!» تعبيراً حضارياً منهم عن مشهدٍ همجيّ. لم يعد كلامهم إلا همهمة وصيحات، ثم ما لبثت الأنظار التي زاغت وهلة أن اتجهت جميعاً صوب شخص ماو تشي. كانت عجوزاً، في التاسعة بعد المئة من العمر، لكنّها كانت شخصاً حيّاً ما زال بمقدوره كسر حبّات الجوز وإيلاج الخيوط في الإبر. ثم هي ذي، في رمش العين، قد تلبّستها هيئة الأموات واتخذت ثوب الكفن!

ثوب كنفها رفيع الجودة، من الحرير الأسود، مرصع بورود صغيرة
براقة تلمع في ضوء الكشافات الساطع.

وفي ظل هذا، يتوهج البريق الأبيض المنبعث من الحرير الأسود
ويكتسي الأحمر تلاوين قرمزية ويصطبغ الأصفر بانعكاسات ذهبية
عميقة. إزاء تلك الألف ومضة ومضة، إزاء ذاك الثوب الجنائزي،
تستمر آلاف المتفرجين مصعوقين كأنها امتصت المنصة أنظارهم.

تذكرت هذا المقطع من «قُبلات إلى لينين». لا أدري إن كان كتاب
«قُبلات إلى لينين» هو سبب الأحداث التي شهدتها بلدتنا فيما بعد، أم
إنَّ ما شهدته البلدة هو سبب كتابة «قُبلات إلى لينين». لا أدري إن كانت
رواية يان ليانكه هي التي تنبأت بأحداث تلك الليلة في بلدتنا أم إنَّ
أحداث تلك الليلة هي التي أفرزت الرواية.

حمل أبي جثة جدتي المكسوة بكنفها الجنائزي عابرًا تلك المنطقة
المزدحمة. حدّق القرويون ذاهلين. حدّقوا جميعًا مشدوهين. تجمّدت
المكانس في أيديهم شأنها شأن المجارف. تجمّدت أفواههم في خضمّ
الأحاديث الدائرة. تجمّدت وجوههم كأنّ بردًا قارسًا قد صفعها. راقب
الجميع مرور أبي بهدوء. بصمتٍ راقبوا الرجل القصير ذا الوجه المستدير
يمشي حاملًا جثة والدته على ظهره. شقَّ طريقه عبر الأرض المغطاة
بالثلج. توقّف الهطل وانقشعت الغيوم ولم يكن بين الأرض والسماء ذرة
غبار واحدة. كانت المناطق التي يغطيها الثلج بيضاء والمناطق المكسوة
حمراء بلون التراب. فيما جثّة جدتي التي يحملها أبي مغطاة من الرأس
إلى أخمص القدمين بقماش أسود لامع. كان يفترض أن يصبح الطقس

دافئاً بمجرّد أن صفتِ السماء وأشرقَت الشمس، إلّا أنّ أبي وجدّتي أبقيا
 البلدة مغمورةً بالبرد الشديد كأنّها في منتصف ليلة شتويّة. برّد يشبه
 برّد بريّة مقفّرة. تجمّدت الأرض وتصدّعت، تجمّدت قلوب الناس
 وتصدّعت، القلوب كلّها تصدّعت صدوعاً عميقة. كانت الإعلانات
 المكتوبة على الورق معلّقة على أجساد الناس وجذوع الأشجار: «أخبار
 سارّة! ماتت والدّة لي تيان باو. سنرى إذا ما كان سيحرق جثة أمّه أم
 لا!»، عبارة عادية جدّاً، ساخرة. واصل أبي والجثة على ظهره عبور عالم
 البشر هذا، دخله وخاض فيه.. ببطء.. في البرد القارس.. بلا هواة..
 كأنّه يعبر غابة جليد. حطّم كلّ أغصان الأشجار المتجمّدة في طريقه..
 هشّمها.. قطع كلّ جذوع الأشجار المتجمّدة.. امتلأ العالم بصوت أبي
 وهو يصارع نظرات الآخرين.

لم يتصوّر أحد أنّه يتمتع بهذه القوة.

لم يتصوّر أحد أنّه قويّ بما يكفي ليهيمن على غاو تيان ويزلزل
 أركانها. واحد ممّن يراقبونه من الخلف صاح:

«ماذا تفعل يا لي تيان باو؟».

«ماذا تفعل يا لي تيان باو؟ هل تحاول استعراض قوتك أمام أهالي
 القرية؟ كأنّهم من قتلوا أمك».

توقّف أبي.

صوته هادرٌ كالرعد.

«لم أشِ بسرّ أحدٍ قط! لم أشِ بسرّ أحدٍ قط! لا شأن لي إذا ما حُرّق
 أهالي البلدة كلّهم في العراء أم لا! لا شأن لي إطلاقاً!».

ثم واصل سيره، وجثة أمه على ظهره يترأى ظلُّها كأنَّها عصابة سوداء تحجب أبصارهم. حتَّى ما عاد أحد قادرًا على رؤية ما يجري حقًّا. لم يكن أمام المتفرّجين خيار سوى ملاحقته وهم يصرخون: «ما خطبك؟ ماذا دهاك؟ لقد ماتت أمُّك ونحن أبناء حيٍّ واحد، لو طلبت عونًا منا للبَّينا بكلِّ سرور!».

توقّف أبي مرة أخرى. استدار معيدًا توجيه الجثة فوق كتفيه بحيث أصبح وجهُ جدتي وعيناها باتجاه أهل القرية.

«لم أشِ بسرٍّ أحدٍ قط! ولا شأن لي بمن تُحرق جثته في محرقة صهري! لقد ماتت أمي وها أنذا آخذ جثتها إلى المحرقة. صدّقوا ذلك. ها أنذا أحمل جثة كي تُحرق. صدّقوا ذلك».

تحدّث أبي بتواضع، بشهامَةٍ، كأنَّه يُخرج من جيبه شيئًا فقدّه شخصٌ ما. أو كأنَّ شيئًا فقدّه هو والآن يسترّجه من جيبٍ أحدهم. أنهى كلامه وواصل سيره وجثة جدتي ما تزال على كاهله. كقرْدٍ صغيرٍ نحيلٍ يحملُ جسد عجوزٍ تجاوزت السبعين من عمرها، يعرفها أهل القرية معرفة وثيقة منذ أكثر من أربعين عامًا. ولهذا السبب شعروا جميعًا بالاستياء، شعروا بأنَّهم خيَّبوا أمل أبي. شعروا أيضًا بأنَّهم خيَّبوا أمل جدتي، وعائلة لي بأكملها؛ لذلك سار تشانغ مو تو خلف أبي، وأحضر وانغ دا يو عربة من بيته ولحق به. احتوت العربة على فراش وملاءات وكومة من القش. وفي نهاية المطاف، تولّى قرابة عشرة رجال مهمة حمل الجثة نيابة عن أبي. بعدها، وفقًا للعادات والتقاليد، غطّوا وجه جدتي بقماشة بيضاء. اشتروا بعض المفرقات النارية وأكاليل الزهور والأوراق النقدية من دكاكين

على جانبي الشارع ثم أشعلوا المفرقات ونثروا النقود على طول الشارع كأنها ندف ثلج. وفي غمرة هذا الهياج، وسط البرد القارس، نقلوا جدتي إلى محرقة الجثث.

أقيم احتفالٌ على خلفة حرق جثمان جدتي.

تبعد المحرقة مسافة اثنين لي عن البلدة، وللوصول إليها يجب عبور الطريق المتجه جنوباً ثم تسلُّق تلة يبلغ ارتفاعها مئة متر. ومن الجانب الغربي لسدّ الحوض يمكن رؤية السور الأحمر للفناء. داخل الفناء صفّان من البيوت ومبنى من طابقين. هناك أيضاً مدخنة طويلة تمتد من سقف المبنى. وهذا هو سبب كُره أهالي القرية وسكّان البلدة كلّهم -ناهيك عن نصف سكّان المقاطعة- للمحرقة. كانت قاعة الوداع بيتاً مكوّناً من ثلاث غرف يقع أسفل المبنى ذي الطابقين، وعلى الجدار عبارة «قاعة الوداع» مكتوبة بأحرف سود. في ذلك اليوم لم يكن هناك زهور ولا أشجار، بل عربة الجنازة التابعة للمحرقة مركونة في الثلج. مجموعة من العمال كانوا يثرثرون وهم يكنسون أكوام الثلوج. خالي في مكتبه جالس بجوار موقدٍ يحمّص عليه بذور الفول السوداني والجوز وفصوص الثوم. ملأت رائحة الثوم المحمّص المحرقة كأنّ عدة زجاجات من الكحول قد سُكبت في أرض الفناء.

وضعوا جثة جدتي عند مدخل المحرقة ثم أشعلوا بعض المفرقات النارية التي نبّهت من في الداخل إلى وجود ميتٍ ينبغي الاستعداد لحرقه حالاً. حين خرج خالي رأى أبي يعتمر قبعة الحداد واقفاً بجوار عربة الجنازة. ثم نظر حوله باحثاً عن حشد القرويين الصاخب الذين

يشكّلون موكبَ جنازة في العادة ويرافقون الجثة إلى المحرقة لكنّه لم يرَ سوى مجموعة من القرويين وأكليل زهور كبير. وما عدا ذلك، ثمّة الثلج الأبيض والريح الشماليّة وسلسلة جبليّة منعزلة وبرْدُ المحرقة المهجورة.

«ما الخطب؟».

«شياو مين أنجبت وأمي ماتت».

صمت خالي. بنخرة، أشار إلى أبي أن يتبعه إلى المكتب. وهناك انهال عليه:

«كان يجدر بك يا لي تيان باو أن تخبرني بأن أختي على وشك الولادة».

«انظر إلى نفسك يا لي تيان باو! أترى مدى بؤسك! عليك أن تأتي لتعمل هنا. سأعطيك أعلى أجرٍ ولن أطلب منك فعل شيء ما دمتَ تعتني بأختي جيّدًا».

«ماتت أمك يا لي تيان باو لكنّك لم تبلغ المحرقة. لو فعلتَ لأرسلنا عربةً تحضر جثتها وتذيع خبر الوفاة ببوقها المدوّي. لكنّك جعلت الجميع يرى كيف أنني أنا، شاو دا تشنغ، أتبع القوانين الجديدة وأستخدم حرق الجثث للحفاظ على الأراضي، دون أيّ تفضيل أو تحيُّز في معاملة الأصدقاء والأقارب».

«تذكّر يا لي تيان باو أنّنا أقارب، وأنّك من تلقاء نفسك أحضرت جثة والدتك في هذا الطقس الثلجيّ. بعد إتمام الحرق سأرتّب أمور إعادة جرة الرفات مع عربة الجنازة. وبالنسبة للتكاليف فأنا سأتكفل

بها. لكن ينبغي عليك أن تلتزم بالتعليمات المنصوصة... وحتى لو كنت غير آبه بحفظ ماء وجهك فأنا -بصفتي صهرًا لك- يهمني جدًا حفظ ماء وجهي، ولن أسمح لأحد بأن يقول إنَّ شاو دا تشنغ كان على علم بالوفاة الحاصلة في عائلة أخته ولم يكثر بهم حين كانوا في أشد الحاجة إليه».

بعد أن سمع كل هذا، حدّق أبي في وجه صهره -خالي- دون أن يقول شيئًا. بعدئذ غادر أبي المكتب فناداه خالي قائلاً:
«لي تيان باو! أنت لا تستطيع أن تضطر حتى!».

بعد هذه العبارة كان يجدر بأبي أن يردّ لكنّه وقفَ بصمت. وحين تبين له أنّ خالي لن يقول شيئًا آخر، تابع سيره خارج المكتب وأغلق الباب خلفه. شقّ طريقه وهو ينظر إلى الناس الواقفين عند المدخل. نظر إلى تشانغ مو تو وو انغ دا يو والعم شو والعم وانغ الذين كانوا جميعًا ينتظرون. وبرودٍ قهقهه وقال: «عرض عليّ صهري أن أعمل مديرًا للعمّال في المحرقة ووعدني بأن يعطيني أعلى أجر. لكن كيف لي أن أعمل في حرق جثث الناس؟ مهما بلغ بي الفقر، حتى لو متُّ جوعًا، فلن أشارك في عمل كهذا قط!».

لم يقل أحدٌ كلمة واكتفوا بالتحديق في وجه أبي.

ثبّتوا جميعًا أنظارهم على وجهه.

ما تلا ذلك كان شيئًا خبره كلّ القرويين، شيئًا حدث لدى العديد من العائلات. دون أن ينبس بكلمة، نقل أبي الجثة إلى العربة ثمّ، دون أن ينبس بكلمة أيضًا، دفع العربة من قاعة الوداع إلى غرفة الفرن. ودون

أن ينس بكلمة، جعل الجميع ينتظرون في القاعة؛ كأثمهم في انتظار شيء سيحدث عاجلاً أم آجلاً. ولأن الجميع قد جاؤوا لمساعدة أبي فقد وزّع خالي السجائر عليهم، ولأنهم جاؤوا لحرق جثمان جدي فقد ترك خالي الحرق يستمر فترة أطول من المعتاد، حتى تحترق الجثة احتراقاً شاملاً أكثر من المعتاد. وقف الرجال في القاعة يدخلون السجائر وينتظرون رماد جدي كأثمهم يرتقبون بعض محاصيل الخريف التي تأخر نضجها. أحضروا إكليلاً تركه أحدهم وأشعلوا فيه النار ثم تجمعوا حوله للتدفؤ والدردشة. ولما لم يكن لدى أبي ما يفعله تهادى نحو غرفة الفرن.

وحين وصل حدق ذاهلاً. مكتبة سر من قرأ

كانت الغرفة واقعة في مبنى بارتفاع طابقين لم يُقسَم إلى طوابق منفصلة. الفرن المغطى بالصدأ موضوعٌ بشكلٍ مائلٍ في منتصف الغرفة مثل دلو معدنية ضخمة معلقة في الهواء، مظهره بدائي جداً ومثيرٌ للضجر. قيل إن هذا الفرن كان يستخدم في أثناء فترة «القفرة العظيمة للأمام»، في السنة السابعة والأربعين للجمهورية، وفيما بعد نُقل إلى مصنع. بعدها نُقل إلى محطة لإعادة التدوير في المدينة ومن هناك انتهى به المطاف في حيازة خالي. بعد إصلاحه وتعديله أصبح فرنًا لمحرق غاو تيان. لهذا الفرن ميزة خاصة تتجلى في قدرته على إفراز الزيت قبل حرق الجثة. كانت بوتقة الحديد ذات الحرارة الشديدة مغطاة بمجموعة متنوعة من البراغي والمسامير مثل حجارة متناثرة على هضبة رسوبية، لكنَّ باب الرجل وفتحة التصريف كانا العنصرين الوحيدين اللذين بالإمكان تحريكهما. هناك أيضًا مدخنة سوداء تمتدُّ من وسط الفرن

وتمرُّ عبر السقف. الجدار العاري مبنيٌّ من الطوب الأحمر والسقفُ أسود بسبب السخام. بجوار الجدار طاولة ثلاثية الأرجل، عليها أكواب خزف مبعثرة وبضع زجاجات من البايغيو^(١). على الأرض سلّة مهملات وكومة من الغبار. في العادة لم يكن مسموحًا لأحدٍ من الزوّار بدخول هذه الغرفة، لكنّ زواج أبي من أمي خوّلَه ذلك. وفي العادة عندما يُسمح لأحدٍ بدخول هذه الغرفة كان عليه الوقوف فحسب، لكنّ أبي كان صهر شاو دا تشنغ لذا سُمح له بمعاينة الغرفة كيفما أراد.

جال حتى صار وراء الفرن حيث حدّق عن كثبٍ في أنبوب معدنيّ رفيع يمتدُّ من وسط الفرن. الأنبوب موصول بأنبوب آخر جلديّ طوله متر يصبُّ في برميل معدنيّ كبير بجانب الجدار. تيارٌ من الزيت البنيّ، رفيع بحجم عود، كان يتدفّق من الأنبوب إلى البرميل. الغرفة دافئة جدًّا فيما كانت الأرض بالخارج مغطاة بالثلج الأبيض، والجوّ شديد البرودة لدرجةٍ يبست معها الأشجار وتشققت التربة. لكنّ الجوّ في الغرفة كان حارًّا للغاية وحتى لو ارتديت قميصًا وسروالًا خفيفًا لشعرت بحرًّا لا يُطاق. هناك عاملان في المحرقة كلاهما في الثلاثينيات من العمر. لكليهما شعرٌ قصيرٌ ووجه محمّرٌ وعينان محتقتان بالدم من جرّاء التحديق في النار على مدار سنوات. كانا يشربان مثل سمكتين. كلّما أحرقا جثّة تجرّعا عدّة جرعات من البايغيو. وفيما كانا يشربان ويقضمان حبات الفول السوداني، وقف أبي بجوار ذلك الأنبوب الذي يصبُّ سائلًا دافئًا وحدّق.

«ما هذا؟».

(١) البايغيو مشروب كحولي صيني تقليديّ.

«زيت الجثث».

«ما هو زيت الجثث؟».

«عندما تُحرق جثة سينتج عنها حتمًا زيتُ الجثة. كما يحدث حين تطهو لحمًا في بيتك، ألا تلاحظ أنَّ اللحم ينتج زيتًا؟».

لم يقولوا شيئًا آخر.

أدرك أبي أنَّه زيتُ بشريّ.

في البداية يُسخَّن الفرن إلى درجة حرارة مثالية لاستخراج الزيت وفيما بعد تُرفع الحرارة من أجل حرق الجثة.

وحين أدرك أن السائل الذي يقطر من الأنبوب أمامه إنّما هو زيتُ جثة جدتي داهمه شعور بالغثيان. شعر بأنَّ عددًا لا يحصى من الثعابين تتسلَّق ساقيه وتتلوَّى حول صدره وظهره بحثًا عن ثقبٍ تعبر منه إلى داخل جسده. ثمَّ شعر بأنّها تزحف على رأسه وتنسَلّ داخل جمجمته لتجد مستقرّها الهانئ هناك. تهوَّع عدة مرات لدرجة أنه أراد أن يمدّ يده إلى حلقه ويسحب حفنة من أمعائه. كان الفرن بجواره ساخنًا لدرجة أنَّ جسده غرق بالعرق واستمرَّت الثعابين في زحفها السعيد فوق رأسه وعلى جسده. تارة يشعر بثعبانٍ وحيد وتارة يشعر بوجود عشرة أو أكثر تزحف حوله كأنَّ عددًا لا يحصى من الحشرات تدبُّ في سائر جسده وتلدغه. قدَّم له العامل الأكبر سنًا كوبًا مملوءًا حتى منتصفه بالباييجيو وقال له: «نصحتك ألا تدخل لكنك كنت مصرًّا على الدخول وإلقاء نظرة... هيا، خذ رشفة من هذا. خذ رشفة وستشعر بالتحسُّن».

تناول أبي الكوب ورشف منه.

رشفة أخرى.

في نهاية المطاف، التفت نحو البرميل الكبير ونظر إلى جوفه. رأى زيت جثة أمه -جدتي- بلون أصفر محمرّ يقطر من الأنبوب الجلديّ. اللهب المحتدم حجب صوت القطرات المتساقطة. أو ربّما لم يكن للزيت صوتٌ من الأساس. نظر مرة أخرى ورشف من الشراب ثم أعطى الكوب إلى عامل المحرقة.

«هل ينتج زيتُ الجثث مع كل جثة تُحرق؟».

«اسأل صهرك».

«وأيّن تذهبون بالزيت؟».

«اسأل صهرك أيضًا».

لم يكن لدى أبي ما يقوله بعد.

لم يقل شيئًا.

في غرفة الفرن، وبمعزلٍ عن حسيس النار، وصوت انفجار الفقاعات بُعيد إدخال الجثة، دوى صوتُ العاملين وهما يتجرّعان البايجو. وقف أبي منتظرًا أن تهدأ تشنّجات الغثيان في حلقه ثم خرج. كان العالمُ بأسره مغطى بالثلوج. ومن مكانه استطاع رؤية السطح الأزرق للمياه في الحوض. بدت أجزاءه التي لم تغطّها الثلوج زرقاءً جليديّة فيما بدا الثلج على حافة الماء ملطّخًا بلون أخضر. حدودُ الحوض يكسوها الجليد. وقف يراقب حتى جلس القرفصاء وتقياً ثمّ توجه إلى مكتب صهره؛ أي مكتب خالي. فتح الباب ودخل ووقف أمام الطاولة

الصفراء. حدّق إلى خالي الذي يبلغ طوله مترًا وثمانين سنتيمترًا كما تحدّق نملةً إلى فيل. بدا كورقة عشبٍ أسفل شجرة باسقة. وبعد دقيقة صمت، قال له شيئًا غير عاديٍّ، كفراشةٍ تصطدمُ بجبلٍ، كفراشةٍ ترمي نفسها في نار.

«أريد أن أسألك سؤالًا يا أخي ولكنني أرجو منك ألا تغضب. أرجو أن تبقى هادئًا».

تابع:

«برأيك، هل رؤيتي بأمّ العين لصهري وهو يحرق جثة أمي ويستخرج منها الزيت هو قصاص عادل عن ذنوبٍ اقترفتها؟».

«هل صحيح أن هناك جثثًا لا يخرج منها زيت؟».

«ماذا تفعل بكل هذا الزيت الذي تجمّعه؟».

«أنا صهرك. اصدقني القول من فضلك؛ ما مصير زيت الجثث كلّهُ؟».

«لحم أمي ودمها، وزيتُ جثتها بات في ذلك البرميل. ولكن أين سيذهب هذا الزيت؟».

فغر خالي عينيه دهشةً. عبقت الغرفة برائحة الجوز والفول السوداني المحمّص على نار الموقد. عبقت أيضًا برائحة الثوم المحمّص. كانت الغرفة مملوءة برائحة المكسرات والثوم.

«اللعة عليك! دخلت إلى غرفة الفرن! ما كان ينبغي لك أن تدخل ولكنك فعلت ذلك».

«اللعنة عليك! فقط لأنك زوج أختي سأصارك. هذا الزيت هو مصدر رزقي. هل فهمت؟».

«لا تحدّق بي على هذا النحو وإلا لثار غضبي عليك».

«إليك بعض المكسرات والثوم المحمّص، إنّها لذيذة جدًّا!».

«بوسعك أن تباع الزيت أينما أردت. يمكن أن تبيعه في لوي يانغ. في تشنغ تشو. كلّ مصانع المدن تحتاج إلى هذا النوع من الزيت. يحتاجون إليه لصنع الأسمدة. يحتاجون إليه لصنع المطاط. يحتاجون إليه لصنع مواد التشحيم. هذا الزيت ذو جودة صناعيّة عالية. قد يكون ممتازًا للاستهلاك البشريّ حتى. ففي كارثة السنوات الثلاث⁽¹⁾ لم يكن مستغربًا أن يأكل الناس بعضهم بعضًا!».

وقف أبي هناك وهو ينظر إلى الثوم والمكسرات التي حمّصها خالي.

وبينما كان خالي يقضم منها، نظر إلى أبي وقال له: «خذ!».

شعر أبي بتشنّج في كامل حلقة. «لا أريد أن آكل. بكم تباع البرميل الزيت؟».

«بمئتين وثمانين يوانًا، أو ثلاثمئة. عادة ما يُباع البرميل بثلاثمئة يوان».

لم يقل أبي شيئًا. وكذلك خالي. فكّر أبي قليلًا. بدا كأنّه قلب الأمر في رأسه طويلاً، لكنّ المدة في الواقع لم تتجاوز ما استغرقه خالي لتناول حبة

(1) كارثة السنوات الثلاث هو التعبير الملوّط الذي تُعرف به المجاعة الكبرى التي اجتاحت الصين بين عامي 1959 و1961.

فول سوداني وفصّ من الثوم. عندئذٍ توصل أبي إلى قرار. وحين تحدّث كان صوته مرتفعًا بعض الشيء ونطق كلّ كلمة بوضوح تامّ.

«بما أنّ زيت الجثث ينتج مع كل جثة تُحرق فأريدك أن تبيعني الزيت. اتفقنا؟ سأدفع ثلاثمئة يوان للبرميل. وهكذا لن تضطر لدفع تكاليف نقله إلى لوي يانغ أو تشنغ تشو. سآتي بانتظام لأخذ الزيت. وما دمتَ تبيعني الزيت فسأعتني بأختك جيّدًا... ما دمتَ لا تبيعه لسواي فسنتمكّن أنا وشياو مين من عيش حياة كريمة. سنعيش في تناغمٍ واتفاق ولن تقلق عليها. سأعامل شياو مين كأختي أختي... لا تشغل نفسك بغرضي من شراء هذا الزيت. لكنني أعدك بألا أسمح لأحد بأن يعرف شيئًا عن الأمر، عن أن الجثث حين تُحرق لا تتحوّل كليًا إلى رماد، بل يُستخرج منها زيتٌ يجري نقله إلى أماكن أخرى... أريدك أن تبيعني الزيت، لن أدفع لك ثمنًا أقلّ من ثمن السوق؛ لن أنقص فينا واحدًا من ثمنه. لا تسألني من أين سآتي بالمال. لقد قرّرنا أنا وشياو مين نوع المشروع الذي سنعيش منه. وبمجرّد موافقتك على طلبي سأشتري منك كل الزيت الذي تنتجه المحرقة، ابتداءً من هذا البرميل الذي يحوي زيت جثة أُمي. سأعامل أختك كأختي ولن يكون هناك داعٍ للقلق بشأنها... إن حقّق مشروعنا الأرباح فلن أدفع لك ثمنَ الزيت فحسب، بل سأسدّد لك كلّ فين أدينُ لك به مقابل البيت الذي بنيته لنا... ثق بي يا أخي. لن أخلف وعدي. وحتى لو كان طولي مترًا ونصف المتر، فوعودي لا تقلّ وزنًا عن وعود الآخرين. ثق بي هذه المرة يا دا تشنغ. يا أخي. يعني كلّ براميل الزيت هذه».

«بعها لي. أنا زوج أختك. ألتمس منك هذا الطلب».

«اتفقنا؟ إن بعته لغيري فقد لا تحصل على ثلاثمئة يوان مقابل كل برميل».

في تلك اللحظة وبينما كان أبي يتحدث، سُمع صراخ أهالي قرية غاو تيان في الخارج.

«لي تيان باو! حُرقت جثة أمك وأنت ما تزال عند صهرك تتدفأ قرب الموقد!».

«اللعة عليك يا لي تيان باو! لقد أتينا في هذا البرد لمساعدتك في تحضير جنازة أمك وها أنت تجلس مع صهرك بجوار الموقد!».

الكتاب الثالث

الهزيع الثاني، الجزء الثاني:

الطيور تبني عُشا هناك

1. (22:00-21:51)

أَيْتْهَا الْآلَهَةُ! أَيْتْهَا السَّمَاءُ! لَقَدْ جَرَتْ الْأُمُورُ عَلَى هَذَا النَحْوِ. عَلَى هَذَا النَحْوِ افْتَتَحَ وَالْدَايَ مَتَجَرَّ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ الْجَنَائِزِيَّ فِي غَاوْ تِيَانِ. الْمَتَجَرُّ الَّذِي يَبِيعُ أَكَالِيلَ الزُّهُورِ وَالْمَشْغُولَاتِ الْوَرَقِيَّةَ وَالْأَكْفَانَ. بِاخْتِصَارٍ كَانَ الْمَتَجَرُّ يَبِيعُ كُلَّ مَا قَدْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَوْتَى. وَبِالْمَالِ الَّذِي يَجْنِيَانَهُ كَانَ وَالْدَايَ يَذْهَبَانِ إِلَى الْمَحْرَقَةِ لِشِرَاءِ زَيْتِ الْجُثْثِ. بَدَأَ الْأَمْرَ بِقَطْعِ شَجَرَةٍ ثُمَّ غَرَسَ أُخْرَى مَكَانَهَا، مِنْ أَجْلِ تَكَرُّرِ الْعَمَلِيَّةِ ذَاتَهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، عَامًّا بَعْدَ عَامٍ. فِي هَذَا الْجَوِّ نَشَأَتْ وَأَصْبَحَتْ مِنْ أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ. فِي الثَّلَاثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِي كُنْتُ أَزِيلُ بَعْضَ الْأَزْهَارِ الْوَرَقِيَّةِ مِنَ الْأَكَالِيلِ وَأَعْلَقُهَا عَلَى صَدْرِي، وَفِي الْخَامِسَةِ أَوِ السَّادِسَةِ كُنْتُ أَحْمِلُ أَكَالِيلَ الزُّهُورِ بِأَكْمَلِهِ وَأَمْشِي بِهِ فِي الشَّارِعِ. فِي السَّابِعَةِ أَوِ الثَّامِنَةِ كُنْتُ أَرْتَدِي كَفَنَ الدَّفْنِ كَمَا لَوْ أَنَّهُ مَعْطَفٌ وَاقٍ مِنَ الْمَطَرِ أَوْ سِتْرَةٌ تَصُدُّ الرِّيحَ، وَحِينَ بَلَغْتَ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ أَوِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ بَدَأْتُ أُرَافِقُ وَالِدِيَّ لِنَقْلِ الزَّيْتِ مِنَ الْمَحْرَقَةِ.

كنتُ في الرابعة عشرة من عمري في تلك الليلة، في سادس أيام الشهر السادس. خرجت من المتجر وتوجّهتُ وحدي إلى محرقة الجثث لجلب بعض الزيت، كأني فتى في الرابعة عشرة ذاهب وحده لحصاد قمح الخريف وجمعه ونقله. المحرقة واقعة جنوبي البلدة. سرت على الطريق المنعزل والجو شديد الحرّ. لسبب ما، كان أبي يسير دائمًا على جانب الطريق، لا في منتصفه. وحين تذكرتُ هذا الأمر حرصتُ على المشي في منتصف الطريق تمامًا. «في أوّل مرّة ذهبتُ فيها للإبلاغ عن شخصٍ ما شعرتُ بأنني مسرّنم»، هذا ما قاله لي أبي ذات مرة: «في أوّل مرّة ذهبتُ فيها إلى محرقة الجثث لإحضار برميل الزيت الذي يضمُّ زيت جثة أُمي، شعرتُ بأنني مسرّنم». أظنّ أنّه قال لي ذلك ذات مرة وهو ما جعلني أشعرُ بأنني أيضًا مسرّنم. حين وصلت إلى حقل قمح واقع أمام قرية مجاورة توقفتُ برهة. نظرتُ لأرى إذا ما كان هناك أيُّ من المسرّنمين، كتشانغ مو تو مثلاً، الذين خرجوا إلى حقولهم لدّرس القمح. على ما يبدو ليس هناك أحد. يبدو المسرّنمون شاردين، متحجرين كالطوب. أعينهم مفتوحة على الرغم من أنّها تبدو نصف مغمضة، وعلى الرغم من أنّها نصف مغمضة فإنّها تبدو فاعرة حتى ليتمكن رؤية بياضها بالكامل. كأنّ نظراتهم ليست للخارج بل إلى الداخل. يرون ما يحلمون به. لا يرون شيئًا ممّا حولهم، لا شجرة ولا أعشابًا، ما لم تكن هذه الشجرة أو الأعشاب موجودة في حلمهم.

حقل القمح بيضويّ الشكل. هناك مُسرّنمان اثنان عند أحد طرفيّ الحقل وثالث في منتصفه. كانوا يحصدون القمح على ضوء المصابيح

ويحدثون بعضهم بعضًا في أثناء العمل. أصواتهم تتردد على امتداد الحقل كطيور تحلق فوقهم. «هيه! هل سمعت بهذا الخبر؟ في القرية المجاورة عائلة بأكملها أُصيبت بالسرنة فاغتصب الأب زوجة ابنه في الحقل!». أعقبت الخبر موجة من الضحك الصّاح البذيء؛ كسرب طيور شريرة تحلق من طرف الحقل إلى الطرف الآخر. الصوتُ البذيء عند الطرف الآخر ردّ: «اغتصب زوجة ابنه؟ أليست ابنته أحقّ بذلك؟». قالوا شيئًا آخر لكنّي لم أفهمه. وجدتُ نفسي بعيدًا قرابة عشر خطوات عن الحقل وهناك كومة قشّ تحجب رؤيتي. من بعيد، بدا الحقل كبخيرة متلائة. كان القمح قد حُصد ونُقل. فاحت رائحة التربة كقدرٍ رُفع عنه الغطاء للتوّ. تصاعد البخار والرائحة المنتشرة. وفي الهواء تغلغلت رائحة الدفء والعرق.

كان عليّ أن أسارع إلى المحرقة لأخذ الزيت، لأنّ خالي جاء بنفسه يحثنا على ذلك. إن لم نأخذ الزيت الليلة فسيأتي خالي في اليوم التالي ويصق في وجه أبي. «كأنك لا تقدّر ما فعلته من أجلكم! أتعلم بكم أستطيع أن أبيع هذا الزيت في لوي يانغ؟ خمسمئة يوان للبرميل الواحد! في بعض الأحيان يمكنني أن أبيعه بستمئة أو سبعمئة حتى. أبيعه لك بثلاثمئة فحسب ومع ذلك أراك تماطل في نقله!». كان الحال كذلك ولا أدري السبب. حين أراد أبي الزيت في البداية، اشترى عشرات بل مئات البراميل، لكنّه بعدئذٍ ما عاد راغبًا في شراء المزيد. قال خالي إنّّه لا يرى مشكلة في ذلك لأنّ ثمن الزيت ارتفع إلى ثمانمئة يوان للبرميل. وكان من الممكن استعمال الزيت وقودًا للجوّارات

حتى. اشترى أبي الزيت الذي أُنتج على مدار أكثر من عامين وتولّى نقله وتوزيعه. لكنّه ما عاد راغبًا في شراء المزيد وخالي لم يمانع؛ لأنّه قال إنّ بوسعه شحن الزيت إلى مدينة تشنغ تشو حيث تحوّل المصانع -التي تدفع تسعمئة يوان للبرميل الواحد- إلى مطاط. فكّر أبي في هذا الأمر وقرّر الاستمرار في شراء الزيت. ولذلك فقد بات يشتري الزيت من خالي وينقله منذ ذلك الحين إلى الآن. استفسر أبي سرًّا عن ثمن الزيت. في ضواحي عاصمة المقاطعة، يطلق الناس عليه اسم زيت التشحيم ويستخدمونه لتزيت الآلات ويدفعون تسعمئة يوان أو ألفًا للبرميل الواحد. قبل عشر سنوات، كان سعر البرميل المقدّر بثلاثمئة يوان يبدو فلكيًّا، أمّا الآن فمقابل ثلاثمئة يوان، يبدو الأمر كأنّ خالي يهبنا الزيت بالمجان. هدّدنا بأنّه سيبيع الزيت لمصنع صغير في الريف الجنوبيّ حيث سيتقاضى على البرميل ألفًا ومئة يوان، وقد يحصل على ألف ومئتين أو ألف وثلاثمئة حتى. وعلى الرغم من أن الأشياء كلّها أسعارها في ازدياد، حتى الضرطة، لم يرفع خالي سعر الزيت الذي يبيعه لنا. وهكذا استمرّ أبي في شراء البرميل بثلاثمئة يوان وكان قادرًا على إعادة بيعه بألف يوان. بحسبة بسيطة كنّا قادرين على ربح سبعمئة يوان مقابل كلّ برميل نشتره من خالي. أو ربما ثمانمئة وأحيانًا ألف. لكنّ والديّ لم يبيعا الزيت. لأنّهما طيّبا الخلق وحسنا النية لم يبيعا. فالزيت مستخرج من لحم البشر ولهذا السبب لا يجدر بيعه، سبب واضح جدًّا. وبدلًا من ذلك، عمد أبي إلى تخزينه في كهفٍ بجانب حوض المياه، كأنّه يخزّن قطرة ماء في بحيرة شاسعة. عامًّا بعد

عام، شهرًا بعد شهر، بدا كأنه يعيد كل قطعة نقدية يجنيها إلى السبائك الفضيّة التي صُنعت منها. كلّما غادر المحرقة ومعه برميل الزيت، كان كمن جنى كومة من النقود، وكلّما أودع برميل زيت في ذلك الكهف، كان كمن أذاب نقوده معيدًا إيّاها إلى سبائكها الأصليّة.

في تلك الليلة، كان عليّ أن أذهب إلى المحرقة لأجلب بعض النقود الفضيّة وأعيدها إلى سبائكها الأصليّة. غادرت حقل القرية المجاورة ذاك وسلكت الطريق المفضي إلى محرقة الجثث. شعرت أنّ الوصول إلى المحرقة، بمجرد مغادرة البلدة، لا يحتاج من الوقت إلا ما يستغرقه تناول طبق من الأرز. لمحت المحرقة غربي السدّ، يحيط بها سورٌ من الطوب بداخله مبنيان طويلان ومبنى الفرن الذي يبلغ ارتفاعه طابقين. هذه هي المحرقة التي سأزورها، وهذه هي الزيارة التي سترسم بداية أحداث هذه الليلة وختامها. سترسم بداية هذه القصة وختامها.

دخلتُ عبر بابٍ صغيرٍ ضمن البوّابة الحديدية الكبيرة. المحرقة هادئة كمقبرة. لقد كانت في الأصل مقبرة؛ مقبرة دُفن فيها آلاف بل عشرات آلاف الجثث. آلاف، بل عشرات الآلاف، بل عالم كامل من الجثث؛ كلّها أُحضرت على متن عربات كي تُحوّل إلى رمادٍ يُنقل فيما بعد في جرار. المبنى على اليسار كان تجمّعًا لمكاتب مبنية حديثًا، فيها مكتب المدير؛ أي مكتب خالي المكوّن من غرفتين. الأمر المؤسف هو أنّ خالي، بعد أن أصبح مديرًا عامًا، لم يعد يهتمّ بعمليات الحرق اليومية. فمكتبه يضمّ غرفًا أقل من المكاتب العادية وطاولته تغطيها طبقة كثيفة من الغبار يمكن بسهولة الكتابة عليها. كان يأتي من وقت لآخر لتحصيل أمواله

وفي كل مرة يكتب بضع كلمات على غبار الطاولة: حياة، موت، جثة، مال... كلمات من هذا القبيل. أحيانًا يكتبُ «زهرة» أو عبارات مثل: «الزهورُ فوّاحةٌ والأيام حارّةٌ» أو «الجوّ شديدُ الحرّ». ولأنّه المدير العامّ، فبعد مغادرته كان يأتي مساعده ويمسح الطاولة.

كان مساعده يمسح الطاولة فلا يبقى أثرٌ لذرة غبار عليها.

يحتوي مجمّع المكاتب أيضًا على مكتب المحاسب ومكتب تحصيل الإيرادات وغرفة استقبال. أمّا المبنى المقابل فيضمّ مهاجع عمّال المحرقة وغرفة مرافق. هناك أيضًا مطعم ومستودع يُخزّن فيه الدقيق والأرز والجرار الجنائزيّة. حين بنيت المحرقة لم يكن بوسع الأحياء دخول فنائها أبدًا، أمّا في الوقت الحالي فأصبحوا يزورونها. حين بنيت المحرقة كان الجميع يكرهونها، أمّا في الوقت الحالي فقد قلّ كرهُ الناس لها شيئًا فشيئًا. حين بنيت المحرقة عزم الناس على تهشيم رأس خالي بالحجارة، أمّا الآن، ومع مرور الوقت، فقد باتوا ينادونه بـ «المدير» أو «الرئيس». وإذا أردوا أن تُحرق جثة أحد أقاربهم جيّدًا، وأن يصبح رمادها أبيض تمامًا وعظامها مطحونة تمامًا - بحيث لا يحتاجون إلى سحق الرفات بالمطرقة قبل وضعه في الجرّة - كانوا يخاطبونه قائلين: «المدير الأكبر شاو». في بعض الأحيان كانوا يدعونه لتناول المشروبات أو الطعام ويقدمون له السجائر. في بعض الأحيان كان على أقارب الميت الانتظار في طابور ويحظى بالأولوية من يملك توصية من خالي. وإذا أراد أفراد أسرة حرق جثة فقيدهم أولًا، كانوا يعطون خالي المال، بالضبط كما يحدث حين تريد شراء تذكرة قطار وينبغي أن يكون لديك معارف أو زملاء كي تحصل

عليها! فقط مَنْ لديه معارف أو زملاء في مصلحةٍ ما بمقدوره أن يحصل
على الخدمات لقاء المال!

دخلت المحرقة وعند عتبة المهاجع رأيتُ رجلاً يغتسل.
«من هناك؟».

«هذا أنا. لي نيان نيان. جئتُ لأخذ الزيت».

«أوه هذا أنت يا صبيّ! لو كنتَ فتاة! آه لو!»، قال وهو يضحك
بصوتٍ عالٍ.

هبت ريح باردة عبر التلال. شعرتُ بها كقطعة حريرٍ باردة رطبة
تداعب وجهي. السماء شاسعة وتحتها بدا الناس كالنمل. رأيتُ الرجل
العاري على بعد خطواتٍ مني، تحت ضوء القمر، كسمكة انتُشلت فجأةً
من الماء. نظرتُ إلى السمكة التي راحت تتحدّث إليّ:

«هل سمعتَ يا لي نيان نيان؟».

«سمعتُ ماذا؟».

«خبرًا قد يخيفك».

«ما هو؟».

«خبرٌ قد يخيفك حقًّا!».

«ما هو؟ قل!».

«يبدو أن السرّنة انتشرت في البلدة».

«ارفع صوتك! لم أسمع!».

«السرّنة انتشرت في البلدة».

«أهذا هو الخبر فحسب؟!».

«لم تصب شخصًا أو اثنين. بل الكثير... ربما عشرة. يقال إن تشانغ مو توراح يدرس القمح مسرّنًا ثم عاد إلى بيته وبحوزته قضيب حديديّ انهال به ضربًا على عشيق زوجته؛ المدير وانغ. لقد هشمّ رأسه تهشيمًا. لا أحد يدري كيف علم بأن زوجته عادت برفقة الرجل في ذلك الوقت تحديدًا».

«أهذا هو الخبر فحسب؟!».

«نعم! لقد قتل رجلًا وهو مسرّنٌ. لولا ذلك لما تجرّأ على فعل ذلك. أخبرني يا نيان نيان، طالما أنك تقرأ الكثير من الكتب، هل يعاقب القانون مَنْ يرتكب جريمة وهو مسرّن؟ إن كان لا يعاقب فهذا أفضل بكثير! لا ضرورة لأن نشغل بالنا حينها!».

واقفًا في فناء المحرقة، كنتُ أنظر إليه ولم أقل شيئًا.

«كفى مزاحًا! يا لها من فوضى! ما هذا القانون اللعين! إن كان بوسعنا أن نفعل ما نريد دون أن يسائلنا القانون فتخيّل حجم الفوضى التي نعيش فيها! هذا العالم لن يعود كما كان. في هذه الأيام العمل في المحرقة لا يتوقف. كلّ يوم يأتينا عشر إلى عشرين جثة إضافية عن اليوم الذي قبله. الموتى في الثلاثينيات من العمر أو في الخمسينيات. في أوج العمر. الموتى الذين تتراوح أعمارهم بين الستين والثمانين أعدادهم أقل. كلّ هؤلاء ماتوا وهم مسرّنون. الأرق الذي يصيب كبار السن يجعلهم أقل عرضة للسرنة. أما الأشخاص الذين في منتصف العمر، والذين أنهكهم العمل ومشاغل الحياة، فيغطون في النوم سريعًا؛ ولذلك

هم أكثر عرضة للسرنة. وكلّ ما يفكرون به في أثناء النهار ينفذونه ليلاً. كلّ ما لا يجرؤون على فعله في يقظتهم يمارسونه وهم مسرّمون. لذا تراهم ينتقمون من أعدائهم، يقتلون من يريدون قتله. في قرية هو جيا غو، أقدمَ رجلٌ على خنق ابنته السرنة بعدما أدرك أنّها لا تشبهه. خنق ابنته فاستغلت زوجته نومه وطعنته ثم شنقت نفسها. أفراد الأسرة الثلاثة ماتوا، ماتوا جميعاً بسبب السرنة. برأيك ماذا سيفعل القانون إزاء ذلك؟ هل سيسقط كدلو ماءٍ على رؤوس هؤلاء المسرّمين!..

أفرغ الرجل دلوّه ثم توجه إلى مهجعه. فجأة، في منتصف طريقه، التفت وسألني:

«هل تعتقد أنّي سأصاب بالسرنة أيضاً؟ لقد كان يوماً مرهقاً أحرقت فيه أكثر من عشرين جثة وأخشى أن أغفو فأغدو مسرّناً. إن حدث ذلك فسيتهي بي المطاف وأنا أبحث عن فتاةٍ أقضي وقتي معها، لكنني أخشى أن أحرق نفسي في النهاية. طوال الوقت لا أفعل شيئاً سوى حرق الجثث... لا أفكر إلا في حرق الجثث. أخشى أن تقودني السرنة لأنّ أدخل نفسي إلى الفرن! بصراحة، حين أحرق جثث الآخرين أفكر في جسدي وأقول لنفسي إنّ من الأفضل لو تولّيتُ أنا حرق نفسي بنفسي بدلاً من ترك الأمر لشخص مُهمَل...».

أغلق الباب خلفه وأصدر الخشب صريراً ظننته صريرَ نصلٍ ينغرز في حنجرة رجل.

بقيت بلا حراك، وحيداً في العالم، بينما تلاشى ذاك الصرير. لم أكن خائفاً من أي شيء. لقد ألفتُ المحرقة كأنّها بيتي. لدى عائلي المتجر

الجنائزِيّ الوحيد في البلدة بأكملها. في الماضي، كنتُ أذهب وحدي إلى محرقة الجثث في منتصف الليل لقضاء بعض الحوائج. كنتُ أذهب وحدي إلى حديقة أزهار «العالم الجديد» حيث اعتدتُ أن أكتب بعض الوقت ثم أغفو. اعتدت أن أقرأ روايات يان ليانكه ثم أغط في النوم مسندًا رأسي إلى حزمة من الرقائق الورقية المذهبة. كنت أحلم بجبلٍ من الكنوز. أحلم بأن القرية، بل البلدة بأكملها، قد تحوّلت إلى حديقة عامة. فيها أزهار متفتحة وطيور تحوّم وأغصان صفصاف تتدلّى على سطح الماء. فيها أسماك تتقاذف في الماء وفراشات ويعاسيب ترفرف عند الضفاف.

كان الحلم شاعريًّا للغاية.

كان الحلم مسليًّا للغاية.

تغريد العصافير يمتزج بعبير الزهور.

عبير الزهور يمتزج بتغريد العصافير.

درجات لا حصر لها من اللونين الأحمر والأرجواني يمتزج بعضها ببعض. مشاهدٌ حتى روايات يان ليانكه لم تحتوِ مثلًا لها.

السماء مزدحمة بالغيوم وخطواتي تهبط على الأرض بهدوء القطن وخفته. نظرتُ إلى السماء، ثم إلى المبنى ذي الطابقين حيث يوجد الفرن وصالة الجنازة. هناك بضع درجاتٍ حجريّة صعدتها لأجد قاعة الوداع. هناك قاعتا وداع في الحقيقة، وقفتُ أمام الثانية بعض الوقت. صرصره الجدادجد خافته لكنها رنانة. خلف قاعة الوداع غرفة لا يُسمح سوى لعمال المحرقة وأقارب الميت بالدخول إليها، لأن الجثث تعبرها إلى غرفة

الفرن. في تلك الغرفة، يؤدي عمّال المحرقة بعض المهام التي لا ينبغي السماح للغرباء برؤيتها. قبيل وضع الجثة في الفرن، يشرب العمّال عدة أكواب من البايجو ويدخنون بضع سجائر. في بعض الأحيان تخطر لهم خواطر غريبة فيذهبون إلى المبخرة بجوار الحائط ويشعلون عودَ بخور. وإذا كانت الجثة لأحد أقارب العمّال أو معارفهم يشعلون ثلاثة أعواد من البخور. وقد يركعون أمام الجثة مرة أو ثلاث مرات. وإذا كانوا بصدد حرق شخصٍ يكرهونه، جثة مديرٍ أو ثريٍّ، فقد يركلون الجثة بأقدامهم عدة مرات. كانوا يغلقون كل أبواب غرفة الفرن ويشربون البيرة أو البايجو فيما ينتظر الجميع في الخارج وهم يطرقون على الباب ويصرخون: «أما انتهيتُم! عجلوا هيا!». ليردّ العمّال: «لقد كان فقيدكم كثير الفضل في حياته لذا يتعيّن أن نودّعه بطريقة كريمة. لا يمكن أن ندعه يرحل كأنّه بلا قيمة!».

في الحقيقة، لم يكن عاملا المحرقة يقومان بأيّ شيءٍ خارج عن المألوف، بل كانا جالسين في الداخل يشربان البايجو.

وفي أثناء شربهما يبصقان على وجه الجثة بين حين وآخر.

أو يحطّمان زجاجة البيرة على رأسها.

في فترات العصر أو المساء، حين لا توجد جثث للحرق، تمتلئ غرفتا المحرقة بالرماد والزجاجات الفارغة. وبجانب الفرن برميل طافح بزيت الجثث. عند الجدار أشياء جنائزية لم تُدخل إلى الفرن برفقة الجثة. وفي كلّ مكان شظايا عظام، وحجارة، وقطع بلاستيك سقطت من جرار جنائزية. وما دام الموسم ليس مزدحمًا بالوفيات، فكُلّ شيء

على ما يرام. اعتاد الناس دائماً على حرق جثث موتاهم عند الفجر أو في وقت متأخر من الصباح، وفي فترة ما بعد الظهر كان العاملان يرتبان غرف المحرقة. أما في موسم ازدحام الوفيات، فلم يكن ثمة وقت للتنظيف والترتيب، بل كان العاملان يشربان ويترنحان، وفي بعض الأحيان يرتميان على أكوام من الأشياء الجنازية أو الملابس ويغطّان في النوم.

الكحول يمنح الناس الشجاعة، لذا احتاج عاملا المحرقة إلى شربه على الدوام.

الكحول يحجبُ الروائح الكريهة، لذا احتاج عاملا المحرقة إلى شربه على الدوام.

وحين يثملان، كان هناك مَنْ يأتي للمساعدة في التنظيف. وفي النهاية عُيِّنَت عاملة نظافة في المحرقة. كانت فتاة تُدعى الصغيرة جيوآن تزي التي ذكرتها سابقاً. تصغرنى بعامٍ أو اثنين وتنحدر من قرية واقعة شرقي السدّ. والداها ميتان، وكذلك جدّاهما. ونتيجة لذلك حفظت المحرقة عن ظهر قلب وتولّت تنظيفها كلّ مساء. في ذلك الحين، كانت ترتّب غرفة الفرن حيث كنست الرماد ومسحت المصابيح. كانت تدخل إلى الغرفة وتخرج كفراشة تحوّم في الأرجاء. تخلّف وراءها رائحة طيبة كلّما تحرّكت، وأشعر بهذه الرائحة كدفقة مياه تنعشني في ليلة صيف حارة.

مشيت تحت ضوء المصابيح المحيطة بقاعة حرق الجثث نحو غرفة الفرن.

في هذه الأثناء كانت حيوان تزي قد خرجت لإحضار شيء ما ثم عادت إلى الداخل. تراءى ظلّ لامع كحفيف قطعة حرير سوداء. سمعتها تقول شيئاً، لم تكن تتحدّث إليّ لكن ليس هناك سواي. ثمّة كومة من الزهور والنباتات بجوار المدخل فحسب. وكلّما خرجت جلبت بعضاً من تلك الزهور والنباتات.

حين وصلتُ إلى مدخل غرفة الفرن، كانت الصغيرة حيوان تزي تضع بعض النباتات والزهور البرية بجوار الباب الحديديّ بعد أن زيّنت الغرفة بأكملها بالزهور والنباتات. غطّت كلّ الجدران وما أمكن من الفرن بالورود. ورودٌ حمر وصفر وخضر، زهور كاميليا وأقاح برية وسلاسل أزهار أرجوانية وحمراء، إضافة إلى سنابل عرف الديك وزهيرات الأوركيد. هي ذاتها أنواع الزهور التي يمكن العثور عليها في أي مكان حول المحرقة. هناك أيضاً زهور صفر صغيرة لا أعرف اسمها وورود صينية وأزهار فاونيا مقطوفة من فناء المحرقة فضلاً عن ورودٍ في تمام تفتّحها. بدا المبنى شبيهاً ببيت زجاجي، والفرن شبه المائل بدا شبيهاً بمدقّة زهرة ضخمة.

على هذا النحو أصبح مبنى الفرن بيتاً زجاجياً.

كانت الصغيرة حيوان تزي تحشر زهوراً صغيرة صفراء وحمراء في شقوق براميل الزيت بحيث تبدو كأنّها متبرعمة من جوف البرميل مباشرة. ظننتُ أنّها ستتوقّف عمّا تقوم به حين تلاحظ وجودي. لكن، حين ظهرتُ أنا، استدارت ونظرت نحوي وبدأت غير متفاجئة كأنّها لم ترني حتى. كأنّها تحدّق إلى شجرة. رفّ جفناها دون أن تقول شيئاً

ثم واصلت غُرُز الزهور في شقوق البرميل وقد شوشتني ردّة فعلها هذه. كنت أعرف سبب تزيين غرفة الفرن على نحوٍ تبدو فيه كبيت زجاجيّ.

«أنتِ مسرّمة!».

كانت بصدد تثبيت زهرة برية على الأنبوب المعدنيّ الذي يصب في البرميل. حافظت على هدوء تعابيرها وعدم مبالاتها مثل زهرة تتفتح سرّاً تحت ضوء القمر.

ثم التفتت مرة أخرى لتنظر إليّ، تحرّكت شفتاها كأنّها تتحدّث، غمغمت بينها وبين نفسها لكنّي لم أستطع معرفة ما كانت تقوله. رأيتُ تعابير وجهها تتحرّك وهي تتحدّث ثم رأيتها تتراجع خطوة لترى إذا ما كانت الزهور تصطفُ على نحوٍ متناسق أم لا. بدا الأمر كأنني أنظر إلى مشهدٍ أو لوحةٍ من صنع يديها. اقتربتُ وسحبتهَا من كتفها. «عليك أن تخرجي إلى الفناء وتغسلي وجهك». سحبْتُ كتفها بعنادٍ. «عندما يموت الناس تُحَضَّر جثثهم إلى هذه الغرفة. وبعد أن يؤدّي أصدقاؤهم وأقاربهم الوداع الأخير في القاعة، تُجلب الجثث إلى هذه الغرفة الواقعة بين قاعة الوداع والفرن. تُجلب الجثث وقد زُيّنت بالزهور، وتظلُّ مزينة بالزهور حين تُنقل إلى غرفة الفرن. حبّذا لو تمكّنا من جعل اليعاسيب والفراشات تحوم حول هذه الغرفة! سيغدو مشهداً سماًوياً بامتياز!».

قالت ذلك وقد وقفت بأسفٍ.

«هلاً ساعدتني في اصطیاد بعض الفراشات لنضعها في هذه الغرفة؟». نظرت إليّ وابتسمت. «أوه! هذا أنت! ظننتُك ابن عمّي!».

«بات ابن عمي سيكيرا. كلما أحرق جثة شرب نصف زجاجة بايجيو! تخيل كمية الباييجيو التي يشربها في يوم كهذا!». عادت تنظر إلى الزهرة التي غرزتها للتو. «غدا سأصطادُ بعض الفراشات واليعاسيب وسأطلقها في هذه الغرفة كي تبدو كحديقة حقيقية. وهكذا، حين يموت الناس وتُجلب جثثهم إلى هنا، سيشعرون بأنهم قد عادوا إلى ديارهم. وهكذا لن يرغب أيُّ منهم في مغادرة المكان أبداً، على النحو ذاته الذي لا يرغب فيه أحدٌ بأن يحلَّ الصيف محلَّ الربيع أو أن يحلَّ الخريف محلَّ الصيف». في البداية كانت تغمغم مع نفسها كأنها تقرأ مقالاً لكن كلامها أصبح أوضح تدريجياً. وفي أثناء كلامها التفتت نحوي على الرغم من أن نظرها شاخصٌ على دلو ماء عند المدخل.

بعدئذٍ ذهبت لإحضار الدلو ورشّت الماء على الزهور والنباتات. رأيتُ بوضوح وجهها النحيل الشاحب. عيناها نصف مغمضتين وملاحظتها أشبه بزهرةٍ تفتّح في ليلة ضبابية. كانت ترتدي تنورة سوداء وقميصاً مزهراً. شعرها مقسوم إلى ضفirtين شعناوين ووجهها متسخ. أسنانها الأمامية بارزة قليلاً فوق شفتها السفلية. لم تكن تبتسم بسهولة لكنها تحرص على الابتسام دوماً. أبوها وأُمها ميتان. جدّها وجدّتها كذلك. أقامت في المحرقة وتولّت تنظيف القاعتين الرئيسيتين كلّ يوم بعد انتهاء عمليات الحرق. كانت ترتب قاعة الوداع وتنظف غرفة الفرن. لقد كانت تعيش حقاً في عالمٍ من الجثث والموتى. فقدت أباهاً وأُمها. فقدت جدّها وجدّتها. لكنها تبتسم كلما رأت أحداً. تبتسم وهي تكس الأرض.. تبتسم وهي تنظف قاعة الوداع.. أحياناً تبتسم حتى وهي تمدُّ

يدها لتزين الجثة، كزهرة عصية على الذبول. وفيما هممتُ بحمل برميل الزيت، سقطت الأزهار والأغصان التي زُين بها البرميل. سارعتُ لالتقاطها وإعادتها، وجهُّها كحفنة زهورٍ شاحبة.

«إن لم تأخذ هذا البرميل لن يكون ثمة مكان لتخزين زيت الغد. سأضع أصيصًا مكانه. رأيتُ أزهارًا بحجم قبضة يدي تنمو عند السدّ، لونُها أحمر مشوب بالأصفر، تتصوّع برائحة حلوة أشدّ فوحانًا من زهور العبة. أريد أن أزرع بعضًا من هذه الأزهار هنا في غرفة الفرن. أريد أن أملأ الغرفة برائحتها العطرة. وهكذا، حين يعبر الموتى ذلك المكان يدخلون عالمًا آخر مملوءًا برائحة العبة. لن يشعروا بالآلام الاحتراق. لن يشعروا بالآلام عظامهم وهي تتحوّل إلى رماد. لن يشعروا بالآلام الزيت إذ يقطر من رفاتهم. لهذه الرائحة تأثيرٌ مُسكر، باستنشاق نفحة واحدة سيغيّبون عن الوعي وينسون كلّ شيء. سينسون آلامهم والعالم كأنهم تحت التخدير. هكذا سيعبرون إلى العالم الآخر بلا أدنى ألم. غدًا سأقتلع بعض الشتلات وأزرعها هنا في غرفة الفرن. أما الآن فسأذهب لأقتلع شتلة وأزرعها في أصيص. سأضع الأصيص بجوار الفرن. وحين تأتي لاستبدال البرميل تونّ الحذر كيلا تُسقط أصيصي».

خرجت من الغرفة كفراشة تطير بعيدًا. كانت تخاطبني دون أن تنظر إليّ. نظراتها مركّزة على ما تقوم به. نظراتها شاخصة على عالمها المُسرنم. حتى عندما أحضرتُ عربة لنقل برميل الزيت وطلبتُ إليها أن تساعدني لم تسمعني. خرجت كأنّها تطير بعيدًا. رأيتها عند المدخل تمشي تحت ضوء المصباح ويدها مجرّفة. كان الباب مفتوحًا. ربّما يظلّ هكذا

دائمًا. فحتى اللصوص لا يرغبون بدخول هذا المكان. خرجت عبر الباب وبدأت تطفو نحو الجبال الخاوية. مشيت ملقيةً ظلّها على الجبال. مثل زهرة تتفتّح فوق جبلٍ غارقٍ في حلمٍ ليليّ.

2. (22:01-22:22)

يزن برميل زيت الجثث الواحد قرابة ستمئة جين، لكنّي لا أدري عدد الجثث اللازم حرقها لملء البرميل الواحد. في موسم ركود الوفيات قد لا يمتلئ برميل واحد من الزيت في غضون شهر، أمّا في موسم الذروة فلا يستغرق ملء البرميل أكثر من عشرة أيام أو أسبوعين بالحدّ الأقصى. في البداية يكون الزيت أصفر فاتح اللون ولا يلبث أن يغدو داكنًا بعد تجمّده؛ حتى يبدو كأنّ هناك طبقة سوداء باهتة تحت اللون الأصفر.

ولأنّ الزيت جاء من جثث البشر فلن أتحدّث عنه أكثر. فكلّما فعلتُ ذلك، كلّما تحدّثتُ عنه، يرتعد جسدي ألماً وأشعر بخفقان في قلبي ويصيبني قلق شديد، كأنّ باباً أغلق على أصابع يدي. تقع المحرقة على تلة، يحدها من جانبٍ حوض مياه ومن جانبٍ آخر الطريق. في تلك اللحظة، لم يكن الليلُ قد أرخى سدوله بعد، الهزيع الثاني لم ينقض. أصواتٌ من شتّى الأنواع تتردّد قادمة من مختلف القرى الواقعة أسفل التلال. الطقس دافئ وشديد الرطوبة لكنّ النسيم عذبٌ عذوبة نبع جبليّ. في الحوضِ المجاورِ انعكس شعاع الضوء الأبيض عن سطح الماء، فيما تصاعد البخار فوق التلال. كانت الحقول الممتدة على جانبي الطريق قد حُصدت بالفعل وامتزجت رائحة القشّ الحلوة ببخار الماء الذي بدا

كحليب يتطاير في كل مكان. كأن امرأة قد وَلَدَتْ للتو وثرَ فائض حليبها في أنحاء التلال والحقول.

حملتُ برميل زيت كبير من التلة إلى كهفٍ باردٍ بجانب الحوض. عَشَّشت الرائحة في أنفي. ولأنَّ البرميل كان طافحًا بالزيت فقد تسرَّب شيءٌ منه وتناثر على سطحه المعدني، كما يتسرب الملح من المملحة. ولذلك تحوَّل السطح المعدني الأبيض للبرميل إلى اللون الأحمر الزيتي ومن ثمَّ إلى الأسود الزيتي. فاحَ هذان اللونان برائحة دمويَّة؛ رائحة جليدٍ لاذعة ننته. ولولا علمي بأنَّه زيت جثث لما شممتُ رائحة الجليد المنبعثة من داخلي. لولا هذا الرائحة الباردة لكان مجرد زيتٍ عاديٍّ؛ زيت محرَّكات أو زيت نباتي. وعلى الرغم من أن الرائحة المنبعثة من البرميل لا تشبه رائحة السمسم أو الفول السوداني فإنَّها رائحة زيتيَّة، دسمة، لزجة. إنَّه زيتٌ بشريٌّ، ولدى تذكُّري هذه الحقيقة شعرتُ بقشعريرة. رائحته تشبه رائحة العظام، رائحة اللحم، رائحة الدهون. ولحسن الحظِّ فإنَّ هذه الرائحة البشريَّة لا تخيفني لأنني أحمق بعض الشيء والحمقى لا يخافون شيئًا. لا أخاف الموت أو الجثث. عائلتي تعيش في متجر جنائزيٍّ، ومنذ طفولتي نشأتُ وسط أكاليل الزهور والمشغولات الورقية وسواها من مستلزمات الدفن. وقبل أن أبلغ الثالثة من عمري كان والداي يصطحبانني إلى المحرقة لزيارة خالي، وحين بلغت الخامسة كنتُ ممَّن يدخلون غرفة الفرن. في الخامسة والنصف جلستُ في مقدمة العربة التي تنقل زيت الجثث ورافقت أبي مرة أو مرتين كلَّ شهر لتخزين البراميل في الكهف البارد.

كنتُ أنقل الزيت عدة مرات في الشهر.

حاليًا بُتُّ أذهب إلى الكهف بمفردي. وبعد بلوغي الرابعة عشرة شعرتُ بأنني شجرة على عتبة باب العالم السفلي. شجرة عليها الوقوف عند ذلك المدخل، متحديّة الريح والمطر. وحيدًا، في ليلة السرمنة الكبرى، كان عليّ أن أنقل برميل الزيت من الفرن على متن عربة، وأقطع به طريقًا منحدرًا طوله واحد لي. مررتُ بفناء البيت الذي استأجره يان ليانكه، ثم عبرتُ مسافة نصف لي من الطريق قليل الوعورة، ثم نصف لي آخر لهبوط التلّة. أخذتُ برميل الزيت هذا، الذي كان نتاج حرق ما بين سبعين إلى ثمانين جثة، وأودعته في كهفٍ يظلُّ باردًا في الصيف ودافئًا في الشتاء ثم غادرتُ. مشيتُ وحيدًا وكى أشغل بالي عن التفكير بكلّ تلك الجثث والزيت الناتج عنها رحت أفكر بما يفكر فيه الصبية، رحتُ أفكر بالفتيات. وانتهى بي المطاف أفكر بشياو جيوآن أو الصغيرة جيوآن كما ندعوها، الفتاة التي تنظّف الفرن كل يوم وتزيّن الجثث قبل حرقها. اسمها الكامل شو شياو جيوآن لكنّ الجميع ينادونها جيوآن أو جيوآن تزي أو شو جيوآن تزي. لو أنّ هذه الصغيرة أجمل قليلًا لسار كل شيء على ما يرام. لأمسكتُ بيدها. لاأخذتها زوجة وعشتُ برفقتها. لكنّها قبيحة فقواطعها تبرز فوق شفتها. وحين أراها بهذه الهيئة تنعدم رغبتني في الحديث إليها. وحين أسمعها تتحدّث وقواطعها بارزة هكذا أشعر برغبة في الاقتراب منها وحثّها على مراجعة مستشفى المدينة لقلع هذه الأسنان واستبدال أسنان أخرى منتظمة بها. وإن كانت لا تملك ما يكفي من المال فسأعطيها أنا، سأعطيها تكلفة قلع سن واحد.

لكني لم أقل لها شيئاً.

لطالما أردتُ أن أقول لها ذلك لكنني لم أفعل.

حين كنّا وحدنا كان عليّ أن أحادثها بالأمر.

كان عليّ أن أرافقها لاقتلاع بعض الشتلات. كان عليّ أن أقرب من أذنها وأصرخ كي أوقفها من غيبوبتها. كان عليّ أن أحضر لها وعاءً من الماء كي تغسل وجهها. كان عليّ أن أفرك وجهها بقطعة قماش مبللة. لو كانت أجمل قليلاً - قليلاً فحسب - لفعلتُ ما بوسعي لإيقاظها. لرافقتها لاقتلاع الشتلات وهي مسرنة ثم جعلتها ترافقني لتخزين الزيت في الكهف. لكُنّا سرنا معاً على الطريق المنحدر الذي يبلغ طوله واحد لي. لكنني فعلتُ ذلك وحدي. كانت عجلات عربتي تُصدر صريراً، وبدت كأنها تشقُّ طريقها الخاصّ، لا صلة لها بي، كالقمر والنجوم التي تتبع مدارتها الخاصّة. ومع تقدّمي تعثّرت عجلات العربة بالحجارة هنا وهناك وصدر صريرٌ أعلى. كانت تهتزُّ كأنها تبتلع الطريق المظلم حجراً حجراً حتى قادتني إلى الكهف. هناك شجرتان وحقل عشب. هناك أيضاً بوابة من الحديد الصدئ كبيرة بحيث تتسع لمرور عربة. وراءها ركّب أبي باباً خشبياً. فتحتُ البوابة الخارجية ثم الباب الداخلي متحسّساً جانبه الأيمن. سرعان ما عثرت على خيط المصباح المعلق هناك وسحبته فأضاء.

غمر الضوء الشاحب هذه البقعة من مدخل الكهف. ولتوفير الكهرباء لم يركّب أبي مصابيح تضيء كامل الكهف الذي يبلغ طوله خمسمئة متر. وعلى الرغم من ذلك كان المصباح قادراً على إضاءة براميل الزيت المكدسة في أعماق الكهف المظلمة. الضوء متقطع

كأنه على وشك النفاد. هناك صوت ماء يتساقط على جدارن الكهف وحفيف نسيم باردٍ يهبُّ من جوف الكهف. هبَّت موجة تلو الأخرى من الرائحة الكريهة الباردة المنبعثة من البراميل. الرائحة تشتدُّ تارة وتخفُّ تارة أخرى لكنّها نفاذة في كلّ الأحوال. كنتُ قد فتحتُ الباب ودخلتُ ووقفت تحت المصباح. راح ضوء مصباح الأربعين واطًا يخفُّ تدريجيًّا كأنه متعب لدرجة الانطفاء. نظرت إلى الكهف وشعرت ببرد يسري في كل جسدي وأخذتُ أرتجف. الكهف واسع كشوارع وارتفاعه عالٍ كبيرٍ. يمتدُّ من أحد طرفي السدِّ إلى انطرف الآخر. جدرانُه مبنية من الحجر والشقوق الملأى بالإسمنت بين الحجارة يبلغ عرضُها إصبعين. بعض هذه الشقوق عميق والآخر سطحيّ، وتتوزّع في كل جدران الكهف وعلى امتداد سقفه. للسقف شكل قبة غير منتظمة وعلى مدار السنين ظهرت فيه مناطق رطبة كمجرى نهرٍ لن يجفَّ تمامًا وكذلك لن يتدفق ماؤه بغزارة. حين بُني الحوض قبل عقودٍ كان مصمّمًا بحيث يتدفق الماء الفائض إلى هذا الكهف المجاور للسدِّ. وفي وقت لاحق، تضاءلت كميات الأمطار الهاطلة في المنطقة فأنحسرت المياه المتدفقة إلى الكهف، وعلى الرغم من تراكم المياه في الحوض على مدار سنين طويلة فإن مستواها لم يتجاوز الحافة السفلية للكهف. ونتيجة لذلك بات مُهملاً حتى استثمرته عائلتي في تخزين زيت الجثث. ولقاءً وجبة طعام وعلبة سجائر تسلّم أبي مفاتيحه من الحارس المسؤول. بدا الأمر كأنّ الكهف قد بُني خصيصًا من أجل أبي؛ بحيث يستطيع إيداع براميل الزيت الناتجة عن جثث المحرقة المبنية في مكانٍ قريب.

سار كلُّ شيءٍ بسلاسة.

سار كلُّ شيءٍ على نحو طبيعيّ.

طبيعيّ كما يحدث حين تقرّر السماء موتَ أحدهم، وترتّب أيضًا شكلَ الدفن الذي سيحظى به؛ تحت التراب أو في قاع محيط أو قعر نهرٍ أو على قمة جبل. وبعد سنوات من ممارسة هذه الأشكال المختلفة للدفن، أجبر الناس في نهاية المطاف على التخلّي عن عاداتهم واعتماد الحرق. وبعد هذا التحوّل، راح خالي يستخرجُ زيت الجثث، كمن يختلس الذهب، وكان لا بُدَّ من وجودٍ من يشتريه... برميليًّا تلو برميل، عامًّا تلو عام. منذ البداية أراد والداي تخزين الزيت تحت الأرض للحفاظ عليه في مأمن. ولم يدرك أبي أنّ جبال فونيو مكتظة بالسكّان كحقل من العشب إلا بعد خروجه في منتصف الليل نحو الجبال باحثًا عن حفرة أو وادٍ أو بركة، وأن ليس هناك مكان بعيد بوسعه إيداع الزيت فيه فترة طويلة دون أن يعثر عليه أحد - بما في ذلك الأرواح والشياطين. وبالتالي، لا خيار أمامه سوى تخزين الزيت، برميليًّا تلو برميل، في هذا الكهف وارتياب اليوم الذي يبلغ فيه هذا الزيت أقصى إمكاناته الربحيّة. ما هي هذه الإمكانيات؟ لولا أنّها إمكانيات مذهلة حقًّا لما استمرَّ أبي في تخزين هذا الزيت على مدار سنين، لما ملأ هذا الكهف الذي يبلغ عمقه خمسمئة متر ببراميل الزيت. كان سلك المصباح يمتدّ من أحد طرفي الكهف إلى الطرف الآخر، وإذا وقفت عند طرفٍ بدا لك جوفه كسماء الليل. برميل فوق برميل من زيت الجثث بدت في تكدّسها كأفراد قرية يتجاوز عددهم عشرة آلاف شخصٍ يعقدون اجتماعًا، أو كأنَّ طريقًا طوله عشرة

آلاف لي يحتشد فيه الناس المتشحين بالسواد. برميل بجانب برميل إذا ما انسكب ما بداخلها من زيت لشكل نهرًا أو بحيرة أو ربما محيطًا واسعًا. على الرغم من أنني لم أرَ محيطًا في حياتي.

نادرًا ما يتطرق يان ليانكه في رواياته إلى المحيط، فهو غالبًا ما يكتب عن الحقول والبراري والجبال والهضاب. الأماكن التي يصفها غالبًا ما تكون باردة وخاوية وتمتدُّ بلا نهاية في شتى الجهات. حتى لو مشيت ثلاثة أيامٍ بلياليها فلن تبلغ نهاية براريه. رواياته جميعها طويلة ولو وضعتها بعضها بجانب بعض لبدت كبرية شاسعة. يمكن القول إنها أيضًا تشبه قبرًا بسيطًا ولكن لا يخلو من فوضى. أشجار الصنوبر والسرو والصفيراء البرية تنبثق من الجثة المدفونة في هذا القبر. تحت الأشجار بقعٌ من العشب اليابس والأزهار البرية تعشش بينها جداجد وجنادب لا تكفُّ عن الصرصر ليل نهار. هذا الرجل -أقصد العمّ يان- لا أدري لماذا تبدو رواياته كلّها كقبورٍ عاثت فيها الفوضى أو كامتدادٍ شاسعٍ من البراري. بصورة أوضح، إذا أردتُ أن أمدح رواياته فإنَّ أفضل ما يمكن قوله هو: إنها تدور حول القرية، حول الناس والتراب والبيوت التي تنشد أغنية الحزن الأبدي. وإذا أردتُ أن أكون أكثر دقة، فيمكن القول إنَّ أعماله عبارة عن أغاني جنائزية تتضمن شجرة وزهرة وشخصًا. أو إنها عبارة عن رجلٍ ينفخ في بوق سونا كي يبيع بضائع متجرنا الجنائزي. يمكن القول إنَّ متجر العالم الجديد الذي افتتحته عائلتي كان ينتظر العمّ يان حتى يكتمل. كلُّ ما يخصُّ عائلتي -أنا وأبي وأمي- ينبغي أن يُروى في كتبه. ومن المؤسف أنَّ أبي وأمي لا يجيدان القراءة، أما أنا فلا أجيد

كتابة القصص أو روايتها. وحتى لو شعرت بأن ما يكتبه العمّ يان بالغَ السوء فليس أمامي من خيار سوى القبول به وقراءة كتبه ذاتها، كما يحدث حين لا تحبُّ البطاطس الحلوة وليس بحوزتك من طعام سواها فتضطرّ لأكلها، أو كما يحدث حين ترغب في العيش في لوي يانغ أو تشنغ تشو أو بكين أو شنغهاي بينما كلُّ ما بوسعك فعله هو أن تذهب من غاو تيان إلى هذا الكهف ثم تعود أدراجك من الكهف إلى غاو تيان. غاو تيان هي مجرد غاو تيان والكهف هو هذا الكهف البارد لا غير. براميل الزيت المخزنة في هذا الكهف لا نهائية مثل روايات العمّ يان، مهجورة ووحيدة. حتى لو قضيت ثلاثة أيام بلياليها -أو حتى مئة يومٍ بلياليها- لنقل البراميل من الكهف فلن تفرغ من المهمة. وضعتُ البرميل إلى جانب صفٍّ منها. كان ظهر العربة يواجه صفَّ البراميل، وإذا أرفع البرميل لأعلى أسمع صوتًا عاليًا مع هبوطه إلى جوار البراميل الأخرى. بدا الأمر كجندٍ يقفزُ إلى صفوف جيشه. بدا الأمر كأنَّ قصة جديدة أُضيفت إلى أحد كتب العمّ يان، كأنَّ رتل الجنود ازداد جنديًا، وبهذا أصبحت القوَّات أكثر عددًا والفوج أكبر حجمًا وقوة وهيبةً.

صوت اصطدام البراميل بعضها ببعض خافتٌ ورنان. ابتلع الكهفُ الصوت كذئبٍ يلتهم طعامه فاخفى فجأة. عاد الكهف إلى هدوئه التام وعادت البراميل مرة أخرى أعمدةً لا نهائيةً من الموت. أو شكَّت على المغادرة وإذا بيعسوبٌ يحطُّ بجوار قدمي. هناك خفافيش تطير في ضوء مصباح الكهف، العناكب تتسلَّق الفراغات بين الجدران والبراميل، كلُّها بدت راغبة في ألاَّ أغادر، أو على الأقلَّ ألاَّ أطفئ الضوء قبل رحيلي.

بدت جميعاً كأنها تأمل ألا أتركها في الظلام، في الرطوبة، وسط رائحة
الزيت الكريهة. لا خيار أمامي سوى إطفاء المصباح والرحيل. في الخارج
كان الجميع مسرنين. إن لم أطفئ الضوء وأغادر فماذا عساني فاعلاً إن
أصاب السرنمة والدي أيضاً؟

أطفأتُ الضوء وأغلقت الباب. تردّد صدى الظلمة في الكهف.
تردّد صداها في عالم السدّ. ضوء القمر رقيق كالماء والليل هادئ ككهف.
وبعد أن خرجتُ وقفتُ أمام بيت يان ليانكه واسترشدتُ بالضوء المنتشر
من نافذته وأنا أشقُّ طريقي نحو البلدة.

الكتاب الرَّابِع

الهزيم الثالث:

الطيور تضم بيضًا

1. (23:00-23:41)

كانت ليلة حارّة خانقة.

انبعثت الحرارة من كلّ بابٍ ومن كلّ شقٍّ نافذة ومن كلّ بيت في القرية.

غادرتُ الكهف. ولدى دخولي شوارع البلدة شعرتُ بأنني أخطو داخل سلّة بخارٍ. صوت حراك مضطرب في كلّ مكان. غرّدت طيور الليل تغريدًا شجيًّا كأنّها استيقظت لتوّها من حلم. امتزج تغريدُها بروائح العرق والخوف والارتباك. استمرّت صرصره الجنادب المتواصلة خارج البلدة حتى وصلت الشارع الرئيس حيث هدأت فجأة. أمامي ترامت ومضات الفوانيس والمصابيح اليدويّة. سمعت وقع خطوات راکضة على نحو يوحى بأنّ شيئًا ما يحدث في البلدة. ومع تلاشي الأضواء والأصوات، بدا الصمت العميق بعيدًا بعدَ الشتاء عن الصيف، بعدَ سلالة تشنغ عن سلالة مينغ.

لم أرَ، من جديد، ضوء المصابيح وظلال الناس الراكضين حولي إلا

بعدما وطئت قدماي الشارع. لمحتُ أطياف الناس خارجة من متجر عائلتني عقب إبلاغها عن الوفيات الأخيرة وتوصيتها بإعداد أكاليل الزهور الجنائزية. رأي أبي أدخلُ فرفع رأسه وتمتم بينه وبين نفسه: «كيف يمكن لشخصٍ أن يقفز في بئر ويغرق وهو مسرّهم؟ لقد قفز أحدهم في البئر مجدّداً. هذه أغرب حادثة؛ كيف يقتل الناس أنفسهم وهم مسرّهمون؟». بالسكينِ قطع ساق الخيزران إلى نصفين ثم قطع كلّ نصفٍ إلى نصفين آخرين وهلمّ جرّاً حتى تحوّلت الساق الشخينة ثخن معصمٍ إلى حزمة عِصِيّ رفيعة كعيدان الطعام أو المعكرونة. ربط أبي نعل حذاء قديم على ساقه ثم وضع الخيزران والسكين فوق النعل. أمي صامته، تعدّ القصاصات بهدوء وتطوي الأوراق بعناية. وباستخدام الصمغِ تفتّحت زهرةٌ بين راحتي يدها. امتلأت الغرفة برائحة الغراء المألوفة والخيزران القاسي وجسديّ والديّ المتعرّقين. هناك أيضاً رائحة الأكاليل المصنوعة حديثاً ورائحة لوزام الجنائز الأخرى. عبقت الغرفة بمزيج من هذه الروائح كما عبق العالم بأسره بها.

«خمسُ وفيات اليوم!».

وقفتُ في المدخل أراقب أبي.

«بل ستّ»، قالت أمي.

«شغل شغل شغل! الشغل يتدفّق على رؤوسنا بجنون!»، تعالى صوت أبي. «إنّها ذروة موسم الوفيات! ناهيك عن السرّنة! أخشى أن عشر عائلات، أو ربما عشرين، ستقف عند بابنا غداً وتطلب منّا إعداد الأكاليل!».

بدت أمي مندهشة، استدارت لتنظر إلى ساعة الحائط ويدها على ركبته. رأت أن الساعة متوقفة وعقاربها تشير للثانية بعد الظهر، أشد فترات اليوم حرارة. أغلقت باب المتجر. «نفدت البراميل الفارغة في الكهف تقريبًا. علينا شراء المزيد منها»، قلت وأنا أتوجه لابتلاع كوب من الماء البارد، كبقرة. «جوان تزي التي تعمل في المحرقة باتت مسرنة. رأيت أيضًا عائلة من ثلاثة أفراد قد خرجوا لحصاد القمح وهم مسرمنون»، قلت ذلك وقد جلست بجانب أبي وأزحت كومة من أعواد الخيزران جانبًا. التفت أبي ونظر إليّ قائلاً: «ألست نعساناً؟ إن لم تكن كذلك فلتبشر طيّ مزيد من الرقائق الذهبية. هناك متوفيان جديدان جاء أقاربهما لطلب اللوازم الجنائزية. فيما مضى لم يكن الناس يشترون أكاليل الزهور والزينة الورقية إلا بعد مضي يومين على وفاة فقيدهم، أما الآن فباتوا يشترونها في الليلة التالية مباشرة؛ يأتون لطلب الأشياء على الفور وكأنّ الموتى أوصوا بأن يُدفنوا غداً يوم الوفاة»، قال أبي ذلك وقد نهض لفتح الباب. أراد أن يسمح للنسيم بالدخول لكنّ الهواء ظلّ ساكناً في الخارج.

«ماذا سيحدث إن غدوت مسرناً يا أبي؟».

«ستفعل ما يدور في عقلك! ما تفكر فيه!».

«أفكر في قراءة الكتب».

«إذاً، حين تصاب بالسرنة ستفتح كتاباً».

«أفكر في أنني سأغادر هذه القرية يوماً ما».

«إلى أين تريد أن تذهب؟».

«لا أعرف. أريدُ أنا أغادر فحسب».

«ليس في صالحك أن تصاب بالسرنة إذًا. إن فعلتَ فستخرج من المنزل وتتجه نحو مكانٍ مجهول».

«أريد أن أكون مثل يان ليانكه. أريد أن أحظى بالثروة والشهرة من الكتابة ورواية القصص».

حدّق أبي إليّ. «هيّا اطوِ المزيد من الرقائق الذهبية. إن كانت عائلة يان قد أنجبت كاتبًا فهذا هو قدر العائلة. لقد حدث ذلك لأنّ الأدب يسري في عروق العائلة منذ أجيال عديدة. أما حالنا فليست كحالهم. قدرنا أن نكرّس حياتنا للمتجر الجنازيّ. وإن كنّا لا نفيّد الأحياء بعملنا فحسبنا الإكرام الذي نوليه للموتى».

بدا صوتُ أبي بعيدًا كأنّه يطفو في الهواء. كانت أُمي قد أنجزت حفنة من المشغولات الورقية الملوّنة. بالإضافة إلى تجهيز سلّة قصاصات تصوّر طيورًا وفراشاتٍ ستطير حول الزهور والأكاليل. حين وضعت السلّة بجوار ساقها بدت مثل كومة زخارف لسحبٍ سماويةٍ وطيور كركي مباركة. ودون أن تنطق بكلمة واصلت القصّ والصلق والطيّ. وبعدها فرغت مدّت ساقها وظهرها ورفعت ذراعيها في الهواء ثم أنزلتها وأطلقت تنهيدة عميقة.

لاحظتُ أنّ وجهها يشبه صحيفة عتيقة.

تملكتني الدهشة فالتفتُ نحو أبي.

«دعها تنم. إذا استيقظت فلا أحد يعلم ماذا ستفعل. لا شيء سوى أناس يموتون كلّ يوم ولا أدري كم ميتًا سيكون هناك بحلول الغد».

بدا وجهه وهو يتحدث دافئاً ولطيفاً. قلماً كان ينظر إلى أمي نظرة من هذا النوع، النظرة ذاتها التي نظر بها إليها يوم وُلدت وتبين أنني صبيٌّ. في وقت لاحق، عندما كنت في الثانية من عمري ولم أتعلم الكلام بعد، تكهن بعض أهالي القرية بأنني أبله فكفَّ أبي عن التحديق بتلك النظرة. ذات يوم، مزَّق أبي كلَّ أكاليل الزهور والزينة الورقية في المتجر وداسها بقدميه ثم راح يرمي كلَّ الأوعية والأطباق والملاعق على الجدار. صرخت أمي عليه قائلة: «القصاص! هذا هو القصاص!» فصفعها أبي بعنف. عانقتني أمي وجلست تبكي. أخذ أبي يضرب رأسه بالجدار. نأح وضرب رأسه ثم ضرب رأسه ونأح مرة أخرى. إلّا أنه نظر تلك النظرة مجدداً إلى أمي الآن. ملامح وجهه لطيفة كزهرة بريّة تتفتح بين أشجار يابسة في الخريف. حتى إنه ذهب ولملم الشعر الذي تطاير على وجه أمي وأعادته إلى مكانه برفقٍ. «لا ضير في أن تصاب أمك بالسرنة»، قال مبتسماً. «ما زال أماننا الوقت لننجب لك أخاً أو أختاً. مهما بلغ انتقام الرب فإنه لن يبلغ حدّاً يجعل كلَّ نسل عائلتنا من البلهاء والحمقى!». هذا ما قاله أبي لي ولكلِّ الأشياء الجنائزية المتناثرة في الغرفة. في تلك اللحظة سمعنا أنا وأبي صراخاً قادمًا من الساحة. بدت الصيحات هليعة كبوابة اقتحمت فجأة، كقدرٍ تصاعد غليانه.

«أين أنت يا وانغ إرغو العاهر! أنت تدري بأن أباك بات مسرناً، أليس كذلك؟ بعدما التقى أولئك العجائز المسرمنين وتناقشوا بالوضع ذهبوا جميعاً إلى القناة الغربية وقفzوا فيها! هل لك علمٌ بذلك؟».

«وانغ إرغو! لقد مات أبوك وأنت تقامر بالمال في بيت لا أعرف من! لماذا خطفه الموت وتركك هنا!«.

تبين أن مصدر الصراخ امرأة، وعلى الرغم من خشونة صوتها فقد انفجرت تعابيرها المستنكرة كقضيب خيزران ثخين تشقق وانشطر وسط الشارع. بدا الصوت كأنها تحبط الأرض بقدميها وهي تصرخ. كأن الشارع يشتعل ولا سبيل لإبقاء قدميها على الأرض. «سأناديك للمرة الأخيرة يا وانغ إرغو وإن لم تخرج فلعلك تموت! لعلك تموت على طاولة القمار هذه وتمنح حياتك لأبيك! إن أعدته إلينا فسنقول ولو مرة واحدة إنك كنت ابنًا بارًّا!«.

«اهرع إلى القناة الغربية يا وانغ إرغو! اذهب وأنقذ أباك!«.

«لقد قفز مع عجائز آخرين في القناة وغرقوا! أأست تدري!«.

«لقد مات أبوك ولكنك حيٌّ لم تمت!«.

بعد أن أنهت المرأة صراخها استدارت وسارت بعيدًا تاركة المتفرجين واقفين في الشارع. لقد وقفت وصرخت وأذاعت خبر الوفاة. لم تكن تدري إن كان الرجال قد سمعوها أم لا، ولم تلق بالًا لما إن كانوا قد عادوا إلى بيوتهم أم لا. اتجهت جنوبًا وسارعت إلى بيتها هلعة. عليها أن تقوم بأمور جنازة والد زوجها. وراءها حشد من الناس في الساحة، جميعهم يحدقون مشدوهين ويتحدثون عما شهدوه. تبادلوا الأحاديث عن حرارة الطقس وعن العدد المتزايد للمسرمنين الذين ساروا إلى القناة الغربية وأغرقوا أنفسهم. ناقشوا ضرورة ألا يعودوا إلى بيوتهم ويخلدوا للنوم؛ لأنهم إن فعلوا ذلك فسيصابون بالسرمنة

بلا شك وقد ينتحرون هم أيضًا. حين خرجتُ وأبي من المتجر وقفتُ في الشارع وشاهدتُ المرأة التي سارت بعيدًا كأني أشاهد حلمًا. وحين هممتُ بالاقتراب من الساحة للتحدّث إلى الواقفين هناك، ظهر رجل في منتصف العمر وتقدّم نحونا. توقّف أمام أبي وجهاً لوجه: «يا إلهي أنت هنا! هل نفدت أكاليل الزهور من متجركم؟ جارنا العجوز هاو الذي لم يبلغ السبعين من عمره رافق أولئك العجائز الذين اجتمعوا عند التلّ الغربيّ وثرثروا، شأنه شأنهم قفز في القناة لكنّه نجا. استيقظ فيما بعد لكنّه غطّ في النوم مجدّدًا وعاد للسرّنة. اعترف حينها بأنّه مصاب بمرضٍ مميت سيجعله عبثًا على أولاده إن ظلّ على قيد الحياة لذا قرر قتل نفسه. أقدم على شرب الديكلورفوس، وهو مبيد حشرات احتفظ به منذ سنوات. لم يجرؤ على شربه طوال تلك المدة لكنّه تجرّعه وهو مسرّنٌ من أجل أولاده. شربه كما يشرب الماء وما لبث أن أصيب بتشنّجات وانهارَ وفقد الوعي؛ مات في لمح البصر. لذا أتيتُ نيابة عن جيراني لأطلب ثلاثة أكاليل كبيرة وإكليلين صغيرين ومجموعة من الزينة الجنازيّة». تحت ضوء المصباح، كان وجه الرجل شبيهًا بسطح طاولة قديمة. عيناه مثل شقّين، مثل بذرتيّ بطيخ متعفّنتين. كأنّه استيقظ حالما غفا، كأنّه لم يصحّ تمامًا وثمة أمرٌ عاجلٌ يدفعه، كأنّه جاء لزيارة أبي وهو مسرّنٌ كي يُبلغ عن الوفاة وينقل تلك الأخبار؛ «طالما هم جيراني فعليّ أن أساعدهم في ترتيبات الجنازة. أريد أن أذهب لإخطار المحرقة أيضًا. أريد أن أسأل صهرك عمّا إذا كان بإمكانه حرق جثة جاري مع الجثث التي سيحرقها غدًا أو بعد غدٍ. لقد كان العجوز هاو

رجلاً طيباً وعلينا أن نعامله معاملة حسنة. علينا أن نحضر ناراً حامية لأجله، ناراً من شأنها أن تذيب عظامه». قال الرجل ذلك وهو يتقدم. وحينما رأى أبي واقفاً تحت الضوء المعلق أمام المتجر حدّق ذاهلاً ثم استدار ببطء. «لا تنس شيئاً ممّا طلبته إليك، ينبغي ألا نسمح بدفن جارنا في نعشٍ فارغ، أيّ خيبة أمل ستلّم به حينها!». قال الرجل وبدأ كأنّه تذكّر شيئاً، تراجع بضع خطوات، صوته خافت وبالكاد يمكن سماعه: «سمعتُ يا تيان باو أنّ صهرك، حين يحرق الجثث، يحصل على زيتٍ بشريّ. هذا أمر فظيع! ولكن ما حاجته لهذه الأشياء؟ في الوقت الحالي ثمن جين من زيت الصويا عشرة يوانات فقط. جين من زيت السمسم لا يكلف عشرين يواناً حتى. فهل يجرؤ صهرك على طرح هذا الزيت في الأسواق وبيعه على أنه زيتٌ للطهو؟ من الواضح أنّه لا يفتقر للمال ولكنه يفتقر للأخلاق بلا شك! لسنا في كارثة السنوات الثلاث حينما كان غير مستغرب أن يأكل الناس بعضهم بعضاً! إن علم أهل القرية بهذا الأمر فلا أستبعد أن ينهالوا عليه بالضرب حتى الموت. وإن لم يفعلوا ذلك في وضع النهار فلا بدّ أن أحدهم سيقتله خلسة. سمعتُ الناس يتحدثون في هذا الأمر ولكنني لم أصدّق ما قالوه. لو تجرّأ على القيام بهذا الأمر لقتل منذ فترة طويلة. صحيح؟ لا أحد تسوّل له نفسه أن يبيع زيت الجثث كي يكتز المال. لا لم أصدّق الأمر على الرغم من أن الجميع يثرثرون حوله. صهرك كان زميلي على مقاعد الدراسة بالمناسبة. حين زرته منذ فترة كي أعطيه بعض الهدايا الجنازيّة التي تخصّ جاراً لي، سألتّه عن الأمر. أخي تيان باو... لا تنظر

إلَيَّ على هذا النحو، لستُ مسرئًا، لستُ أهلوس؛ لقد قضيتُ النهار في حصاد القمح وأشعر بإرهاقٍ شديدٍ كأنني على وشك الموت، وبعد أن غفوتُ أيقظني جاري لأُساعدَه في ترتيبات الجنازة. لا تنسَ تحضير ثلاثة أكاليل كبيرة واثنين صغيرين ومجموعة من الزينة. سأحضر لك المال حين آتي غداً أو بعد غدٍ لأخذ الأعراس، أما الآن فعليّ أن أغادر. لا تنسَ شيئاً ممّا طلبتهُ إليك!».

لقد غادر بالفعل. بدا وهو يبتعد مثل ظلٍّ يتلاشى. كان أبي يحدّق إلى وجه ذلك الرجل الذي يشبه سطح طاولة قديمة. عيناه نصف المغمضتين بدتا كعينيّ أبله. أدرك أبي أنّ الرجل مسرئمٌ. أنّه تولّى ترتيبات جنازة جاره وهو مسرئمٌ. مسرئمٌ يرتّب جنازةَ عجوزٍ مات وهو مسرئمٌ. شاهدتهُ يخطو خطوة عالية تليها خطوة منخفضة فبدا كأنّه يطفو. في أثناء حديثه لم يترك لأبي فرصة أن يقول شيئاً. انغمس في حديثه انغماساً تاماً. شأنه شأن معظم المسرئمين. إمّا أن ينكسوا رؤوسهم ويفعلون ما يفعلونه دون التفوّه بكلمة وإما أن يواصلوا الثثرة مع أنفسهم بلا انقطاع، غير آبهين بما إذا كان هناك مَنْ يستمع إليهم أم لا. تذكّرتُ تلك المرأة التي كانت تصرخ على زوجها وانغ إرغو وسط الساحة. راحت تحبّط الأرض بقدميها وهي تشتم وتلعن. ألم تكن مسرئمة؟ شأنها شأن هذا الرجل السائر الآن نحو المحرقة. لقد كانا غارقين في النوم لكنّها أفاقا كي يفعل ما ينبغي فعله.

كانت مسرئمة.

كانت، هي أيضاً، مسرئمة.

وفي غضون ذلك الوقت بات في القرية الكثير من المسرمنين.

ألم يكن هناك مسرمنون بين المتجمّعين في الشارع؟ لماذا غادرت المرأة التي انهالت بالشتائم فيما ظلّ الرجال واقفين؟ سار أبي نحوهم. «لا تغفل عن أمك. لا تدعها تخرج»، التفت أبي وهو يصيح بي. رأيتُه تحت ضوء المصباح أشبه بطيفٍ يتقدّم.

حين وصل إلى الساحة نظر إلى وجوه الجميع كأنه يبحث عن شيء. ثم وقف ذاهلاً أمام حشد الرجال والنساء. لاحظ أن وجوه نصفهم لها لون الطوب الذي بُني منه سور المدينة القديمة، وجوه مغبرة ومتخشّبة، تتراوح بين صفرة فاتحة ورمادية داكنة أو بين صفرة داكنة ورمادية فاتحة. جميعهم مسرمنون، أعينهم نصف مغمضة لكنهم متيقّنون من يقظتهم، نياماً بأرواحٍ مستيقظة. حينئذٍ كانت وجوه غير المسرمنين، أيضاً، رمادية فاتحة أو صفراء فاتحة. أجفانهم متهدّلة كأنهم على وشك الإغفاء. يريدون النوم لكنهم يبذلون جهداً للبقاء يقظين. لكأنهم إذا تعثّروا غطّوا في نوم كالمت، ولكأنّ مجرّد بقائهم واقفين هو ما يمنحهم صفة اليقظة. ظلّوا مستيقظين لكنهم لم يلاحظوا أنّ كل من حولهم قد دخلوا عالم الأحلام. لم يكن لديهم أدنى فكرة عن أنّ الجميع قد دخلوا عالم الأحلام بالفعل، بل بقوا واقفين حيث هم بهيئاتهم المشعثة وهم يهمسون لأنفسهم. ضوء المصباح الساطع فوق رؤوسهم بدا كماءٍ موحلٍ، هو لون وجوههم ذاته. تعالى صوت نباحٍ مع وقع خطواتٍ تذرّع المكان جيئةً وذهاباً. ركضت قطعة خارج الساحة وحين مرّت بنا تمهلّت. قفزت فوق جدار وهناك استلقت وأخذت تطالع الناس في الشارع والأحداث الجارية في البلدة،

إلى جانب العواقب التي ستخلفها تداعيات هذه الليلة على العالم بأسره.
وقف أبي برهة في الساحة. وقف أمام ذلك الحشد وخاطب أحد
الرجال قائلاً: «يبدو أنك مسرّنم. عجّل إلى بيتك واخلد إلى فراشك!».
ثم قال لآخر: «يبدو أنك مسرّنم. عجّل إلى بيتك واخلد إلى فراشك!».
لكنّ أحدًا لم يكثرث به. كأنّهم لا يرونه. هزّ كتف العامل في الصيدليّة
الواقعة على الجانب المقابل من الشارع وقال له: «انظر لنفسك! جفناك
يتهدّدان مثل كرتين من الحديد! عجّل إلى متجرك واخلد إلى النوم!».
أزاح الشاب يدّ والدي عن كتفه وقال له: «عندما تطلب إليّ أن أخلد
إلى النوم فأنت تدعوني لأن أصاب بالسرنة. وحينها سيكون متجري
عرضة لجشعكم كلّكم!». قال عبارته بسرعة ووضوح كشخص في تمام
يقظته. فعل أبي الشيء ذاته مع صاحب دكان الشاي، «أتظنّ نفسك يقظًا
حقًا؟ عيناك تنازعان!»، أزاح الرجل يدّ أبي عن كتفه: «لماذا تهزّني على
هذا النحو؟ أتظنّ أنني مسرّنم؟»، قال بحنق وهو يتحاشى النظر إلى أبي.
راح يحدّق في عتمة الليل الحارّ، في الظلمة الرماديّة الداكنة عند الطرف
الآخر للشارع. وبعد لحظة استدار الرجل وخاطب مجموعة الرجال
الواقفين أمامه: «بما أنني أكبركم سنًا فاسمعوا كلامي! الليلة بدأ سكّانُ
بلدة غاوتيان كلّهم يسيرون نيامًا. لذا لا ينبغي لأيّ منا أن يخلد للنوم
لأنّا بمجرد أن نفعل ذلك سنصاب جميعًا بالسرنة. وحين تصيبك
هذه العدوى لن تعرف ماذا عليك أن تفعل. لا ينبغي لأحد منا أن ينام
الليلة. بل يجب أن نسهر حراسًا لتجنّب حدوث السرقات. ينبغي أن
نتأكّد أيضًا من أننا لم نمت ونحن مسرّنمون دون أن ندرك ذلك».

تَجَمَّع الحشْدُ حول صاحب دكان الشاي وقالوا: «سنفعل ما تقوله لنا؛ سنبقى الليلة جميعًا في هذه الساحة، لن نسمح لأحد بأن يسرق متجرك، سنحرس المتاجر والسكان، سنبقى هناك طوال الليل إذا لزم الأمر». ردَّ رجلٌ آخر: «ليس بوسعك الوقوف هنا طوال الليل... فلتشرب شيئًا... فلتشرب شيئًا... إذا تناولتَ مشروبًا فستتمكن من البقاء هنا طوال الليل، سنصمد خلال السرنمة، سنحرسك أنتَ والمتجر. وإذا حاول أحدهم أن يستغل حالة السرنمة لسرقة متجرك فسننقُص عليه كسب النحل».

ثم غادر الجميع.

تفرَّقوا.

لم يبق في الساحة سوى أبي. شاهد الجميع يغادرون كأنَّه يراقب قطعَ أغنام ينتشر في حقل. وحده ظلُّ كما لو لم يكن سواء يقطن في كلِّ جبال فونيو، وحده، يقف أمام القرية على قمة الجبل، كأنَّه آخر شخص في العالم، يقف وحيدًا في هذه الساحة.

كان الوقت متأخرًا من الليل، متأخرًا جدًّا. وعلى أقلِّ تقدير فالهزيع الثالث قد حلَّ منذ مدة والساعة تتجاوز الحادية عشرة والنصف. في الماضي كان الهدوء يسود في وقت كهذا من الليل، حيث الجميع نيام وصوت الشخير يتردَّد في الشوارع. أما في هذه الليلة فقد تزعزع الهدوء بهديرٍ خافتٍ، هدير يحمل في طياته رعبًا مميَّتًا. عاد أبي أخيرًا إلى البيت بعد وقوفه في الساحة بعض الوقت. سار بخطى بطيئة في البداية ما لبثت أن تسارعت تدريجيًّا قبل أن تعود لإيقاعها البطيء من جديد. وحين دخل

متجر الجنائز رأى أمي قد كَفَّت عن قصّ الزهور الورقية والأكاليل وهي نائمة، وارتمت على الجدار في نومٍ عميق. ما عادت مسرّمة، بل غارقة في هدأة النوم العميق. وقف أبي بالمدخل وفكّر لحظة ثم جرّ أمي كأنه يسحب كيسًا من الحبوب. «إذا أردتِ النوم فلا بأس! نامي! ولكن احرصي على ألا تموتِ في نومك!»، قال أبي ذلك وهو يرافق أمي إلى غرفة نومها في الطابق الثاني.

بيتنا يضمُّ أربع غرف، اثنتين في كل طابق. غرفتا الطابق العلويّ للنوم أما غرفتا الطابق السفليّ فأحدهما لمتجر العالم الجديد والأخرى تستخدم مطبخًا ومستودعًا. يقع السلم بجوار الجدار الخلفي وهو مصنوع من خشب الدردار. الخشب مطليّ بلون أحمر في الأصل ولكن الطلاء تآكل وظهر الخشب الرماديّ المسودّ. وسط كل درجة من درجات السلم زوجٌ من الوهدات التي حفرتها أقدام الناس. خطت أمي فوق تلك الوهدات وهي تصعد إلى الطابق العلويّ كي تنام. وبعدما شاهدها تشقُّ طريقها، عاد أبي إلى الغرفة الأماميّة ووقف يتلفّت يمنة ويسرة. «هل نعستَ يا نيان نيان؟ إن لم تكن كذلك فمن الأفضل ألا تغفو الليلة». ذهب إلى المطبخ وغسل وجهه وحين عاد أعطاني قماشة مبللة. «امسح وجهك وتعال معي لنلقِ نظرة على بيتنا القديم. لن نسمح لمسرّنم هائمٍ أن يفتح باب بيتنا!».

قال هذا وخرج. قاذني نحو الشارع، نحو ليلِ الأحلام.

سرتُ وأبي، أهدنا خلف الآخر. أخبرتُ أبي أشياء لا حصر لها لكنني لا أتذكرها بالضبط الآن. أظنُّ أنني سألتُه: «أتخشى السرمنة؟». كنتُ أريد تجربتها ولكنني لم أكن نَعْسًا على الإطلاق. سرتُ طاقة عجيبة في عروق جسدي، كتلك الطاقة التي شعرتُ بها حين زرتُ حديقة الحيوانات في لوي يانغ أوّل مرة. في تلك اللحظة تراءى لي عالمٌ استثنائيٌّ. قال لي أبي: «الليلة قد يحدث أمرٌ استثنائيٌّ في بلدتنا. قد نواجه موتًا جماعيًا». أجبتُه: «آمل أن نتمكّن من تجاوز هذه الليلة على الأقلّ». ردّ أبي: «بمجرّد أن تضاء الجبال الشرقيّة وتطلع الشمس سيستيقظ الجميع. من يريدون حصاد حقولهم سيحصدونها، ومن يريدون درّس حبوبهم سيدرسونها. متاجر البلدة التي تريد فتح أبوابها ستفتح أبوابها». أظنُّ أنّه قال الكثير من الأشياء ولكنني لا أتذكرها كلّها. بعدئذٍ غدّ خطاه.

ضوء القمرِ بلونِ الماء تمامًا. لكنّ برودة الليل المعهودة، تحت ضوء القمر مائيّ اللون، زائلة. بل كان ضوء القمر أشبه بهاءٍ يغلي لم يبرد بعد. تصاعد منه البخار فيما العرق يتدفّق على وجه أبي وظهره. ابتعدنا عن الجزء المزدهم من الشارع باتجاه القرية الواقعة غربي البلدة والتي تبعد مسافة أقل من اثنين لي. أو ربّما أكثر من اثنين لي بقليل. ظننتُ في البداية أنّنا سنصل بسرعة، لكنّ المسافة، في تلك الليلة بالذات، بدت تقاربُ عشرة لي أو حتى عشرين. بل مئة لي. بل حتى ألفًا. في طريقنا رأيتُ شخصًا كان غارقًا في النوم لكنّه أراد أن يتبول. ومثل طفلٍ فتح باب بيته

وبال في الشارع؛ الشارع الذي أُعيد تعبيده قبل عدّة سنوات. مزيجُ بوله مع البخار المتصاعد من الإسمنت أنتجَ صوتَ غليان. غمغم الرجل بينه وبين نفسه: «شعورٌ رائع! شعورٌ رائع!». كانت السماء قد سمحت للرجال والنساء بأن يحظوا بذاك الصنف من المتعة، ويبدو أنّ هذا الرجل وزوجته قد مارساه للتوّ. كأنّهما كانا في خضم الأمر وإذا به يتوقّف لأن رغبة بالتبول اعترته فخرج كي يقضي حاجته وها هو يفكّر بالعودة إلى سريره وإنهاء ما بدأه. لكنه نسي زوجته التي تنتظره في السرير. وبدلاً من العودة تذكّر أمراً أراد فعله، أراد السير إلى مفترق الطرق. هناك وقف ورنا إلى السماء: «ألم تطلع الشمس؟ أريد أن أذهب وأشتري لأمي بعضاً من حساء الضأن. إذا ذهبت الآن فلن تدري زوجتي بالأمر. إذا ذهبتُ باكراً أستطيع أن أشتري أوّل سكبّة من أوّل قدر. السكبّة الملائى باللحم والزيت. قالت أُمّي إنّها لم تذق حساء الضأن منذ أيام وما كان منها إلا أن شدّت حزام سرواها وتوجهت إلى محطة القطار حيث يتجمّع باعة لحم الضأن والبقر». حين رآنا الرجل قال: «مرحباً! هل أشرقت الشمس؟ أخال أنّنا لا نزال في منتصف الليل!». حدّق أبي إلى وجه ذلك الرجل: «هل أصابتك السرنمة يا تشانغ تساي؟». أجاب الرجل: «مرحباً! كنتُ أسألك عن الشمس أشرقت أم لا». فجأة ضرب أبي بيده كتف الرجل فتراجع وفتح عينيه وهزّ رأسه. «ما الذي قادني إلى وسط الشارع؟ ألم أذهب إلى المرحاض كي أتبول؟ ما الذي جعلني هنا؟».

استدار تشانغ تساي وعاد إلى بيته كأنه قد استيقظ فجأة. «ما الذي قادني إلى الشارع؟ ما الذي جعلني أركض وسط الشارع؟».

واصل أبي طريقه وصادف امرأة في الثلاثينيات من عمرها تخرج من بيتها ويدها بلّطة. كانت تغمغم: «أنا منهكة. أنا في غاية الإنهاك!» وفجأة رمت البلطة من يدها. «سألد! أنا على وشك الولادة!». انحنت ثم جلست القرفصاء. بدا أنّ بطنها يؤلمها كثيرًا لدرجة أوشكت معها أن تتلوّى على الأرض من شدة العذاب. هرعنا وكلّنا ظنّ بأنها ستلد حيث هي، وسط الشارع. ساعدناها على النهوض وحينها رأيتُ وجهها شبيهًا بقطعة قماش تتوهّج بلون أحمر ساطع تحت ضوء المصباح. حتى في أثناء كلامها وصراخها ظلّت عيناها مغمضتين بإحكام كأنّها مبهوتة. صاح أبي: «أأنتِ مسرّومة؟» ثم هزّها. رحّت وأبي نحدّق إلى بطنها.

كانت حبل حقا. بطنها منتفخ وشديد التكوّر. ارتدت قميصًا خفيفًا فضفاضًا عليه نقوش لأزهار ونباتات بلّله العرق. «استيقظي هيا! استيقظي وعودي إلى بيتك! توخّي الحذر لئلا تضرّي جنينك!»، صرخ أبي الواقف أمامها. حينئذٍ كانت قد أفادت مندهشة وبدأت تضحك. «في بطني صبيّ هذه المرة يا تيان باو! بعد ثلاث فتيات!»، قالت مقهقهة وهي تعود أدراجها إلى البيت.

بعد ذلك، دوّت ضجة قادمة من البيت المجاور لبيت الحبل. الباب مصنوع من خشب الصفصاف والصرير المنبعث عند فتحه يتردّد في الفراغ. تلا الضجيج ظهور رجل في الستينيات من عمره. كان نحيلًا، شعره أشيب، ويتنعل شبشبًا وعلى كتفه حقيبة، حقيبة ثقيلة جعلت قامته تنحني، وكلّما خطا بضع خطوات احتاج إلى التوقّف والراحة وتمطيط

كتفه. وبينما يسير كان يغمغم بينه وبين نفسه. بدت غمغماته تتدفق من حقييته كالماء وتنسكب على الأرض وأنحاء الشارع. وبعد أن مرّ بالعديد من البيوت أدركنا ما في حقييته وما يعزم على فعله. كان في طريقه إلى بيت ليو دا تونغ. طرق على بابه.

«أخي دا تونغ، افتح الباب من فضلك... أخي دا تونغ، أريد أن أعيد كيس القمح الذي استعرته من أهلك قبل عقد من الزمان. بعد شجارنا خلال السنين الأخيرة خلتُ أنني أعدتُ الكيس لكنني رأيتُ في حلمي الليلة أنني لم أفعل. لم أقصد اختلاس قمحك. كل ما في الأمر أنني نسيتُ حقًا. أكونُ إنسانًا من ينوي أكل حقّ غيره! لكنّ كلبًا أو خنزيرًا لو فعلتُ ذلك! لكنني فعلًا نسيتُ. لم أقصد اختلاس هذا القمح الذي هو لكم».

فُتح الباب.

وقف الرجلان هناك يحدّق بعضهما ببعض، أحدهما وراء الباب والآخر أمامه. ظلّ الرجل الذي بالخارج واقفًا برهة ثم وضع الكيس عند المدخل. تنهّى صوتُ فظٍّ مرتبك من الداخل. «إنّه مجرد كيس من القمح! وقد ينسى فلا بأس!». لكن نبرة الارتباك في الصوت سرعان ما تحوّلت إلى دهشة، كأنّ أحدهم أدرك فجأة أنّه التقط كتلة من الجليد لا كرةً من القطن الدافئ.

«أأنتَ مسرّوم؟ عيناك مغمضتان وهيئتُك ملخبطة. ماذا حلّ بك يا أخي تشينغ شان؟ تعال معي واغسل وجهك. تعال.. هيا... سأحضر لك بعض الماء».

على طول الطريق، كنّا نركض بين المسرّمين. بعضهم استيقظوا حين ربّت أبي على أكتافهم فيما تجاهله آخرون وواصلوا سيرهم مترنحين وهو يصيح بهم. بينهم نساء ورجال. بينهم أبناء العشرين وأبناء السبعين والثمانين من العمر.

هكذا بدأت موجة السرّمة الكبرى.

الليل الهادئ جعلَ صدى السرّمة يتردّد خارج القرية والبلدة، على امتداد سلاسل الجبال كلّها. جعله يبلغ قرى الجبال القريبة ويوتها. القرية بأسرها كانت نائمة لكنّها بدت في تمام اليقظة. البلدة بأسرها كانت نائمة لكنّها بدت في تمام اليقظة. العالم بأسره كان نائمًا لكنّ المسرّمين جعلوا الليل صباحًا حيث الجميع قد أفاق من نومه. رأيت رجلًا مسرّنًا يخرج من بيته عاري الجسد. كان جذعُه -الذي يبقى عاريًا في الصيف- وفخذه -اللذان يسترهما سروال داخليّ على الدوام- سودًا كالليل. جلده يشبه شروق الشمس. خرج عاريًا لكنّنا لم نعرف وجهته. حتّ خطاه دون أن يقول شيئًا. تدلّى عضوه بين فخذه كطائر ميت. أفزعني هذا الشيء القبيح وآلمني مرآه فلم أستطع إشاحة نظري عنه. «أبتاه! أبتاه!»، صحتُ محاولًا الإمساك به وهو يتقدّمني. أشرتُ إلى الرجل العاري الذي شقّ طريقه نحو زقاق. تسرّر أبي فجأة كأنّ شارع البلدة يمتصّ قدميه ويثبتهما في مكانهما. «يا هذا! أتعرف أنّك عاري؟». ثم اقترب من الرجل وسحب ذراعه اليسرى وسرعان ما أفلت الرجل ذراعه من يد أبي، ودون أن يقول شيئًا واصل سيره تجاه أحد بيوت ذلك الزقاق.

«أتدري أنّك عارٍ؟ ألسْتَ تشانغ جيه؟ الرجل الذي يسكن في الشارع التالي لشارعنا؟ أتدري أنّك بلا ثياب؟».

3. (24:15-24:01)

كان بيتنا القديم لا يزال قابلاً في هدوئه المعهود. مقبض بابهِ على هيئة طائرٍ غافٍ في ليلة صيف. البيت لا يزال بيتاً والباب لا يزال باباً. كلُّ شيء على حاله عدا فضلات الفئران المتناثرة في جرار الحبوب. صورة جدتي لا تزال ماثلة على الطاولة في الصالة وشباك العناكب لا تزال تتدلى من السقف. المقاعد والكراسي مغطاة بالرماد. حين فُتح الباب تطاير الرماد والغبار وهبَّ الهواء العفن. سمعنا صوت قبة قش تسقط من مسمار في الجدار. كان وقع خطواتنا صدًى لتغريد عصافير الليل. وفي الفناء نمت الأشجار - أشجار حور وبولونيا - بجنون لا يُكبح. لجذع إحدى الأشجار تفرُّعٌ يشبه ساقين بوضعيةٍ عوجاء. ثمة صناديق قديمة وثياب قديمة ومناجل ومعاول صدئة. هناك بئر لم تُستخدم وزهور يابسة في أصيص. هناك أيضاً رائحة الموت العفنة التي رافقتنا. للبيت رائحة الهجران والعزلة كأنَّ قدمًا لم تطأه منذ زمن طويل. تَلَقَّتْنا حولنا ثم خرجنا ووقفنا أمام الجدار الخلفي لبيت يان ليانكه المجاور لفنائنا. لم يعد الطوب المرصوص في الجدار جديداً، حيث فقد الرائحة الكبريتية الطازجة المميّزة للطوب الجديد. لم يكن بيته يضاهي بيتنا جودةً. كان في الأصل قصرًا حديثًا من ثلاث غرف لكنه بات الآن مجرد بيت قديم مسقوف بالقرميد ومكوّن من ثلاث غرف. كان سكّان الجانب الغربي

من البلدة قد توجّهوا جميعاً إلى الجانب الشرقي سعياً وراء الكماليّات والشقق الفاخرة وممارسة الأعمال التجاريّة، ولم يتبقّ في هذا الزقاق الخاوي المهجور سوى بيت يان ليانكه. في كل عام كان يان ليانكه الشهير يقول إنّّه عازم على الانتقال إلى المنطقة المتطوّرة كي يشتري بيتاً لكنّه لم يقدّم على ذلك أبداً. ربّما لم تدرّ عليه كتبه ما يكفي من المال لفعل ذلك. في نهاية المطاف، لم يشتري بيتاً أبداً وكفّ عن كونه أحد أثرياء البلدة. بل إنّ عائلتي، في الحقيقة، امتلكت أموالاً أكثر منه. فعندما كان يان ليانكه يكتب رواياته، أراد أن يجعل الناس يعيشون في عوالم قصصه، في حين أن متجر عائلتي ساعد الناس على العيش في عالم آخر بعد موتهم. كلانا استخدم أسلوباً مختلفاً لتحقيق هدف واحد. كلانا كان لديه الهدف الأساسي ذاته. فقد افتتحنا متجرّاً لبيع لوازم الجنائز وأدواتها وكلّما مات شخص في القرية أو البلدة أتى أقاربه إلينا لشراء لوازم الجنازة والأكفان وغيرها. في الوقت الحالي أصبحت عائلتنا إحدى أثري العائلات في البلدة مثل شجرة كبيرة وسط غابة مزدهرة. ولهذا السبب كلّما عاد أبي إلى حيّنا القديم ورأى جدار بيت يان وقف هناك يتأمل ويفكّر برهة من الوقت. كان يفكّر مليّاً، ثم يقترب من الجدار ويطرق على الطوب مراراً. يطرق مراراً ثم يفكّر برهة ثم يركل الباب. لكن في تلك الليلة بالذات لم يطرق أبي على الجدار الخلفي لبيت يان قبل أن يركل الباب كعادته، بل طرق على الجدار ثم نظر إلى السماء. «ليس في أسرته من خرج يعمل في الحقول وهذا يعني أن ليس فيهم من هو مسرّهم... ليس في أسرته من خرج يعمل في الحقول وهذا يعني أن ليس فيهم من هو مسرّهم». بدت

على وجه أبي ملامح الريبة، أما نظرات عينيه فكانت مملوءة بنفاد الصبر. لم يتضح لي إذا ما كان يأمل أن يرى أحد أفراد عائلة يان مسرئاً أم إنه كان يخشى حدوث ذلك. وقفت هناك أنتظر. أنصتُ بعناية وسمعت صرخة مفاجئة قادمة من الزقاق.

«هل رأى أحدكم أمي؟ هل رأى أحدكم أمي؟».

«أمك على ضفة النهر عند سفح التل الغربي. تجمع الكثير من العجائز هناك. كانوا يناقشون إذا ما كان عليهم أن يقفروا في النهر أم لا، لكنَّ أحد المارة أوقفهم».

كان الشخصان كلاهما يصرخان بأعلى صوتيهما. هرع أبي إلى الباب بمجرد سماعه الأصوات. «يبدو أنَّ غوانغ تشو يبحث عن أمه»، تتم أبي وهو يشاهد ظلَّ الرجل يمرّ بسرعة خاطفة على الجدار مثل جذع شجرة يتدحرج في وادٍ.

بعد قليل من التلكؤ أغلق أبي البوابة الأمامية لبيتنا وخرجنا نتبع خطا يانغ غوانغ تشو.

تذكرت ما قيل لي ذات يوم عن القبر الذي فُجِّر قبل عامٍ من زواج والديّ بغرض حرق الجثة الموجودة فيه، والتي لم تكن إلا جثة جدّة يانغ غوانغ تشو. يومئذٍ قاده أبوه لزيارة مقبرة العائلة وحين رأى أنَّ جثة والدته قد فُجِّرت واحترق لحمها وتفحَّم شعرها أخذ يكيل الشتائم واللعنات، وقبل أن ينتهي انقطعت أنفاسه وسقط في القبر. أصابته سكتة دماغية ولم يستعد وعيه. ما كان من يانغ غوانغ تشو إلا أن دفن أباه في القبر المُفجَّر ذاته. لم تُحرق جثته بل دُفنت فحسب. بعد الدفن، جئنا

يانغ غوانغ تشو عند القبر ممسكًا بلطةً ومجرفة، يرتقب مجيء من يتجسس عليه كي يشي بالدفن السريّ هذا. انتظر قدوم أحد من المحرقة لتفجير القبر وحرق الجثة. حتى إنه صنع قبلة يدويّة من البارود وعلّقها حول خصره بحيث يستطيع، كملاذٍ أخير، أن يفجّر نفسه إذا ما فكّر أحدهم بالمساس بقبر أبيه.

إلا أنّ لجنة التنفيذ لم تأت.

انتظر يومًا بعد يوم لكنّهم لم يأتوا.

انتظر أسبوعًا بعد أسبوع لكنّهم لم يأتوا.

انتظر شهرًا بعد شهر لكنّهم لم يأتوا.

في نهاية المطاف، وضع خنجراً في حزامه وسار في الشارع وهو يصرخ: «لقد دفنتُ جثة أبي التي لم تُحرق في مقبرة العائلة. بوسع المُخبرين الذهاب إلى المحرقة والإبلاغ عني. لقد دفنتُ جثة أبي التي لم تُحرق في مقبرة العائلة. بوسع المُخبرين الذهاب إلى المحرقة والإبلاغ عني».

ذاعت صرخاته في هدوء الشارع وخوائه المميت. في هدوء العالم وخوائه المميت. لم يذهب أحد للإبلاغ عنه. لم يأت أحد لتفجير قبر أبيه وحرق جثته. ظلّ أشهرًا يراقب ذلك القبر مثل أرنب بريّ اتخذ جحرًا في حقل. وفي النهاية عاد إلى بيته. وقف في شوارع القرية الفارغة وصاح: «فلتخرج أيّها المخبر! لا تجعلني أنتظرُك شهورًا! إذا خرجت فلن أشاكرُك أو أشتكُك بالطبع. كلّ ما أريده هو أن تخبرني لماذا تعمل مخبرًا. أريد أن أعرف من أنت. أريد أن أعرف لماذا تعمل مخبرًا. أريد

أن أعرف لماذا تسوّل لك نفسك العمل مخبرًا يتقاضى بضع مئات من
اليوانات متجاهلاً حقيقة أن عائلتك تعيش في هذه المنطقة منذ سنوات
طويلة وتربطها علاقات وثيقة مع السكان الآخرين».

صرخ: «فلتخرج أيها المخبر! دعني أراك!».

صرخ: «فلتخرج! دعني أراك وأعرف من أنت! بماذا أخطأت
عائلتنا في حقك؟ بسببك فجّروا قبر جدتي البالغة من العمر تسعين عامًا
وأحرقوا جثتها. بسببك مات أبي عند قبرها قهراً عليها. كان قد بلغ
الستين للتوّ حين مات! لم تكن به علة ولم يشك المرض من قبل!».

بكى وصاح وهو جاثٍ على جانب الطريق. «اخرج! اخرج! أنت
مدين لي بحياتين! اخرج ولن ألمس شعرة منك! لعلّي أكون وحشًا أو
خنزيرًا أو كلبًا إذا مددتُ يدي نحوك! لن أضربك ولن أشتبك حتى!
إن شتمتك فلعلّي أكون وحشًا أو خنزيرًا أو كلبًا! لعلّ سيارة تدعسني
حالمًا أخرج إلى الشارع! لعلّ جثتي تُرمى في عربة الجنازة مثل خنزير
نافق! لعلّ جثتي تُحرق في الفرن كالخنازير! لعلّ رمادي يُنثر فوق المزابيل
كفضلات البقر والخنازير! لعلّه يُرمى في الحوض المجاور للمحرقة
فأكون طعامًا لأسماكها وحشرات! اخرج! عليك أن تخرج! اخرج ودعني
أرى من أنت! عليك أن تخرج!».

غابت الشمس وهو يصرخ.

أشرقت الشمس من جديد وهو يصرخ.

كان يصرخ ويبكي يومًا بعد يوم فيما الشمس تشرق وتغرب يومًا
بعد يوم.

كان الحرُّ يجثم على شوارع القرية في النهار وحينما يحلّ الليل يتبدّد الحرُّ والجفاف في كل مكان. وفي منتصف الليل، عندما يتسم الجو بالبرودة في العادة، كان حرُّ النهار لا يزال يُدثر الشوارع والعالم بأسره. وقع خطوات يُسمع وظلال الناس تومض من حولنا. في الساحة الواقعة أمامنا تراءى شخص يتجه غربًا. بدا في عجلة من أمره وتناوبت خطواته بين الخفة والثقل. كان يرفع قدميه وينزلهما ببطء كأنّه تحسّس انخفاضًا -أو سلسلة من الانخفاضات- في الشارع. مع كل خطوة كان يرفع قدميه ثم ينزلهما ببطء. كان أحدهم يتبعه -يتبعه بعجلٍ- كأنّه يركض خلفه. الشخص الذي يلاحقه كان يصرخ وصوته بدا شبيهًا بـ «يا ينبجس من بوابة سدّ».

«لا تذهب إلى النهر يا أبي! لا تذهب إلى النهر يا أبي!».

هذه الصيحات جعلتني وأبي نقف حيث نحن. هرعنا إلى الساحة ورأينا رجلًا في منتصف العمر يتبع عجوزًا، كلاهما يسير باتجاه النهر غرب القرية. العجوز في السبعينيات من عمره وابنه في الخمسينيات. عندما لحق الابن بأبيه عانقه بقوة. «هل جُنت؟ هل ذهب عقلك؟ هل جُنت؟ هل ذهب عقلك؟». ثم رافق الابن أباه إلى البيت وهو يسنده. عندما مرّا بنا توقفا وحدثا كأنّهما صادفا طيبًا.

«أراك عدتَ إلى بيتك يا تيان باو! أخبرني ما حال أبي... هل جُنَّ؟ لقد كان نائمًا وفجأة نهض من فراشه وخرج راكضًا. سأعود للبحث عن أمي. كما تعلم فقد كانت على قيد الحياة حين نقلوها إلى المحرقة منذ أكثر من عشر سنوات لحرق جثتها. كانت في المستشفى ولم يفكّوا قسطنطرها

حين أعلن طبيبها أن ليس بوسعه فعل شيء آخر من أجلها. قال إنها في حال عدم رغبتها بأن تحرق جثتها فيبنغي أن تُخَرَّج من المستشفى وهي حية. لا أعرف من أخبر مسؤولي المحرقة لكن عربتهم كانت واقفة أمام المستشفى تنتظر. لم نكن قد قرّرنا بعد إذا ما كنا سندفن جثمانها أم نحرقه، لكنهم سارعوا لنقلها إلى المحرقة. كان قلبها ما يزال ينبض وحرقتها قبل أن تفارق الحياة. لهذا السبب كلّمّا خلد أبي إلى النوم تناهيته الهواجس وأخذ يردّد أنّ عليه أن يذهب للبحث عن أمي!».

وبينما قال الابن ذلك، كان يقود أباه أمامي. وقف أبي هناك ساكنًا بلا حراك، كأنّ أحدهم صفعه على وجهه، شاحبًا كقمر، ووجهه المستدير الذي يبلغ من العمر أربعين عامًا بدا متغضنًا كأنه وجه رجلٍ في الخمسينيات أو الستينيات. بدا عليه البرد على الرغم من حرارة الليل المرتفعة. وقف أبي دون أن ينطق بكلمة، يتنابه البرود. نظرة الفهم التي كان يرمق المسرّمين بها حلّ مكانها ارتباك تامّ. في حيرةٍ من أمره قال لي: «عد إلى البيت واعتنِ بأمّك. سأذهب إلى القناة الغربية لاستطلاع ما يجري». ثم شقّ طريقه إلى القناة الغربية.

شقّ طريقه خارج البلدة.

الكتاب الخامس

الهزيع الرابع، الجزء الأول:

الطيور تَحْضُنُ بِيضَهَا

1. (1:10-24:50)

في طريق عودتي إلى القرية ذُهِلت من فوضى السرنة التي رأيتها. في البداية كان الهدوء مخيمًا، وسمعتُ في أثناء سيري صرير أسنان النائمين. كانوا يتحدثون نيامًا، وسمعتُ أيضًا وقع خطوات سريعة أمامي وخلفي كأنني وسط حشد من الراكضين. بدا المسرّمون جميعهم قلقين ومرتبكين. رأيت شابًا يقفز من نافذة صالون حلاقة وهو يَضُمُّ إلى صدره زجاجات الشامبو ومستحضرات التصفيف. بحوزته أيضًا ماكينة قصّ الشعر وعلب الصابون المعطر. أحد الواقفين في الشارع شرع يصرخ: «انظروا إلى اللصّ! انظروا إلى اللصّ!». وبينما واصل هذا صراخه رأيت شخصًا آخر حطّم باب دكان اللحوم ولم يسرق شيئًا بل وضع قدرًا كبيرًا يُستخدم لطهو لحم الضأن فوق رأسه ثم ذهب إلى الرجل الذي كان يصرخ وأنزل القدر عن رأسه ونظر إلى وجه الآخر وشفعه.

كفّ عن الصراخ.

ساد الهدوء.

ثم، مثل شقيقين، حمل الرجلان القدر وغادرا.

كان الأمر غريبًا جدًا. أصبح العالم مكانًا غريبًا جدًا.

في بادئ الأمر كان كبار السن فقط يلقون بأنفسهم إلى الموت في أثناء سرنمتهم، فيما يذهب المسرمنون الأقوياء والأصحاء لحصاد حقولهم أو للسرقة. فالشاب الذي رأيته يسرق صالون الحلاقة، على سبيل المثال، كان قد افتتح صالونًا يخصه في جانب آخر من البلدة، إلا أنه لم يحقق النجاح الذي حققه هذا الصالون؛ لذا جاء كي ينهبه وهو مسرمن. وفي ظنه أن المسؤولية تقع على صاحب الصالون لأنه لم يعين حارسًا بل ترك رزقه عرضة للسرقة في الليل. اعتدتُ المجيء إلى هذا الصالون كل شهر لحلاقة شعري، وبعد أن هرب الشاب صعدتُ إلى النافذة لألقي نظرة إلى الداخل؛ رأيتُ أن الصالون لم يُسرق فحسب بل دُمّر تدميرًا وحُطمت المرايا المعلقة على الجدار وحيث فسادًا بصور تسريجات الشعر الأنيقة التي باتت متناثرة هنا وهناك. رأيتُ مصباحًا يتدحرج تحت الطاولة وكروسي الحلاقة مقلوبًا على أحد جانبيه بجوار الطاولة. رأيتُ أيضًا مروحة كهربائية مهشمة ومرمية على الأرض خلف الباب. كان ضوء السقف اللامع ينير على نحوٍ صارخ كل هذه الفوضى مثل شمس تشرق من وراء الغيوم على أرضٍ قاحلة. في تلك الليلة من ذلك الشهر من ذلك العام، انقلب العالم فجأة رأسًا على عقب كأنَّ ريحًا عاتية أطاحت بعموم غابة؛ فاقتلعت الأشجار من جذورها وذرت الأوراق المطحونة والأغصان المتكسرة. على جانبي الطريق وفي الحقول، عند المداخل والجدران وأمام كل بيت، تراكمت أكوام الأشجار والأغصان

والأكياس البلاستيكية التي ألقتهما الريح. لم يعد العالم كما كان، لم تعد سلسلة الجبال كما كانت، لم تعد بلدة غاوتيان كما كانت. نزلتُ عن نافذة الصالون ووقفتُ مندهشًا وسط الشارع وأنا أرى أناسًا يركضون جيئةً وذهابًا. أحدهم كان يجرُّ ماكينة خياطة وهو يركض فتساقطت الخيوط على الأرض مثل شباك العناكب.

مرَّ بجانبني شخص يحمل جهاز تلفزيون وكان صوت الصرير المنبعث من أسنانه قويًا كأنه صادر عن الجهاز نفسه.

كنتُ في حيرة من أمري؛ أمسى العالمَ عالمَ لصوصٍ. هرعتُ إلى البيت مذعورًا أفكرُ بأمتي، وحين وصلتُ رأيتُ أنَّ كلَّ البيوت والمتاجر في الشارع الشرقيّ مضاءة المصابيح. بعضهم كانوا واقفين يراقبون ما يحدث في الخارج دون أن يغادروا متاجرهم. أحدهم أحضر كوبًا كبيرًا من الماء ووضع كرسيًا عند مدخل متجره وأخذ يلوح بالمروحة وهو يشرب الماء. قربَ أقدام كرسيه تراءى لي شيء، إما سكين وإما قضيب حديديّ. عندما اقتربتُ تبادلنا النظرات، كما نفعل دائمًا، ورفعتُ سكيني. انتظرته ريثما يتعرّف علي ثمّ أنزلت السكين.

«أوه! هذا أنت يا لي نيان نيان! ما خطبك؟ لماذا تركض في الشارع كالأشباح؟ لماذا لم تخلد النوم؟ إلى أين أنت ذاهب؟ ألا ترى هؤلاء المسرّمين كلّهم؟ لماذا لا تعود إلى بيتكم وتبقى بجانب أبيك وأمك وتراقب متجركم؟ لماذا تركض كالأشباح هنا وهناك؟».

عدتُ إلى البيت، وحين دفعت باب متجرنا كان أول ما رأيته هو الأكاليل الجديدة، عددها ستة أو سبعة ربّما. امتلأت الغرفة الأمامية

بأكاليل الزهور المتراسة بعضها فوق بعض. ضمت الغرفة عشرين أو ثلاثين إكليلاً، وهو ما يكفي احتياج عشر عائلات معاً. في الماضي كان من النادر جداً أن تتزامن ميتينان في القرية لكنّ هذه الليلة مختلفة. لا أعرف ما قد يحدث. لا أعرف كم شخصاً قد يموت. قد لا يستطيع متجرنا تلبية الحاجة. ربّما ذلك ليس بوسع متجرين أو ثلاثة حتى. لدى تفكيري بالموتى لم أشعر بالخوف إطلاقاً بل داهمني قلقٌ طفيف. وحين مشيتُ بين أكاليل الزهور الموزعة في الغرفة شعرتُ بأنّ قلبي قد رُيغلي فيه العرق، وأنّ جسدي جافّ وبارد. شعرتُ بأنّ أطرافي باردة وجافة لكنّ داخلي ريغلي بالعرق، مثل حبة خوخ مغموسة في ماء ريغلي.

«أمّي! أمّي».

صرختُ وأنا أدخل الغرفة. وبينما كنت أعبّر عالم الأشياء الجنازيّة ظلّ صوت صراخي عالِقاً في مدخل الطابق الأوّل.

لم تكن أمّي نائمة في الغرفة العلوية. وبعد عودتي إلى الغرفة الملائى بأكاليل الزهور وجدتُ أنّها قد غلّت بعض الماء في المطبخ خلف السّلم. غلّت الماء في قدر كبير من الألمنيوم يُستعمل عادة لطهو الخبز على البخار، ثم صبّت الماء في إبريق وأضافت إليه أوراق الشاي. لم تكن واثقة من كمية أوراق الشاي التي تجب إضافتها، لذا استمرت في وضع حفنة تلو الأخرى. ثم نفختُ على البخار المتصاعد من إبريق الشاي كأنّ الأرض الذي طهته بات جاهزاً وبقي أن ترش عليه بعض الملح.

«أمّي!».

وقفتُ في الضوء أمام المطبخ.

«أين أبوك؟».

نظرتُ إليّ. كان البخار قد تكاثف على وجهها تاركًا قطرات من الماء وطبقة من الاحمرار. الضوء على وجنتيها أصفر تقريبًا ونعرها الذي شعثه النومُ بدا كالقشّ المبعثر. ملامح وجهها التي كانت شبيهة بصفحةٍ من كتاب عتيق أو جريدة قديمة غدت أقرب إلى قطعة قماش مبلّلة، جسدها مثل شجرة مقلوبة. كانت قد التفتت لتخاطبني وسرعان ما أشاحت قبل أن أتمكّن من الردّ. كأنّها نسيت ما سألتني عنه للتوّ وعادت إلى أحلامها. صبّت تركيزها على الماء المغلي وأوراق الشاي التي أخذت تضيفها إلى الإبريق. شاي مدينة شين يانغ، من إقليم خنان. كانت السيدة البدينة، صاحبة متجر الأدوات الزراعية المجاور لنا، قد أحضرته عقب زيارتها لمسقط رأسها. أعطت الشاي لأمي وقالت إنّهُ من أفخر أنواع الشاي، وإذا أضفتِ بضع أوراق منه إلى كوب سترين كيف تفتّح في الماء المغلي كالبراعم. وإذا شربتِ من هذا الشاي سيتبدّد كل أثر للإرهاق في جسمك وستسعين نشاطك، وإذا كنتِ مصابة بنزلة برد أو حمّى فيمكن لعدّة أكواب من هذا الشاي أن تشعركِ بتحسّن سريع. قلّمًا يشرب سكّان السهول الوسطى في الصين الشاي شأنهم في ذلك شأن سكّان جبال فونيو. في ذروة الصيف فحسب يغلي الناس بعض أوراق الخيزران ويشربون شاي الخيزران الذي يساعد على التبريد والتغلّب على الحرّ. لكن صاحبة المتجر البدينة قالت إنّ هذا الشاي لا يشبه شاي الخيزران في مزاياه بل يفوقه بكثير. قالت إنّ شاها يبّدّ النعاس على نحوٍ عجيب. إذا شربتِ كوبًا واحدًا

فستصحو على الفور وإذا شربت كوبين فلن يعاودك شعور النعاس على الإطلاق.

في الواقع، حين شرب كلُّ منا كوبًا واحدًا فقدنا كلَّ رغبة في النوم. وبعد شرب الكوب الثاني شعرنا بأننا قادرون على البقاء مستيقظين طوال الليل.

شربنا جميعًا من ذلك الشاي. ذات مرة، بعد أن شربنا، بقينا مستيقظين طوال الليل وبقينا نتسامر حتى الفجر. قالت أمي: «إذا شعر الناس بالنعاس فليس عليهم إلا أن يشربوا كوبًا واحدًا من هذا الشاي وسيستيقظون على الفور. إذا فعلوا ذلك فلن يغمض لهم جفنٌ ولن يسيروا نيامًا حتى!». كانت أمي نائمة وهي تقول إنها لن تصاب بالسرمة ولن تدع الآخرين يصابون بها أيضًا. كانت الابتسامة المرتسمة على وجهها تشبه زهرة خوخ أو دردار أو بولونيا. رفعت الإبريق عن الموقد وملأت كوبين وثلاث قصعات قائلة: «هيا بنا! سنجلس عند الباب ونسقي الشاي للمسرمين!». وقفتُ تحت ضوء المطبخ بلا حراك. «قال لك أبي لا تغادري، قال إنك مسرمة ولا ينبغي أن أسمح لك بمغادرة البيت». أخذتُ إحدى القصعات وناولتها إياها: «اشربي هذه أولًا لعلك تفيقين من سرنمتك!». تراجعَت قليلًا واصطدم مرفقها الأيسر بالجدار فسقطت القصعة التي بيدها. «تقول إنني مسرمة! ليس صحيحًا! كلُّ ما في الأمر أنني متعبة من صنع الأكاليل، غير أن ذهني صافٍ كالماء في البحيرة!». وبينما كانت تقول ذلك، التقطت القصعة واتجهت نحو باب المتجر. أخذت تقهقه وهي تمشي. «كم منَّ الربُّ على عائلتنا الليلة! كلُّ

أهل البلدة مسرّمون إلا نحن! المسرّمون يبدون كشياطين شاردة أما
اليقظون فليسوا إلا آلهة صاحبة! الآلهة صاحبة خيرٌ معينٍ للشياطين
الشاردة! سنساعدهم بكلّ ما أوتينا، وحين يستيقظون سيكونون في غاية
امتنانهم لأبيك ولي ولعائلتنا أجمع!». قالت هذا وهي تمشي بخطوات
رشيقة كأنها ترقص.

في أثناء استماعي لها، بدأتُ لسببٍ ما أحدّق إلى ساقها. لطالما عرجت
في مشيها جرّاء حادث السيارة لكنّ مشيتها بدت سويّة. فوجئتُ عندئذٍ
وتقدّمتُ خطوتين لأرى عن كثبٍ؛ حين مرّت أُمّي بين الأكاليل بدت
ساقها العرجاء أطول قليلاً وأقوى من ذي قبل. بدت مفعمة بالطاقة
وقادرة على حمل كاهلها بسهولة. وقفتُ وسط الغرفة ذاهلاً أراقب
أُمّي وهي تزيح بعض الطاولات. أخذت بعض الأكواب والقصعات
وربّتها على طاولة عند المدخل. وتحت ضوء المصباح سحبت كرسياً
وجلست. راحت تتملّى في الشارع ورأت شخصاً يحمل حزمة من القمح
قادمًا نحوها، يصدر صوتًا كلهات الاحتضار. كانت حزمة القمح ترتفع
وتهبّط مثل قارب تتقاذفه الأمواج.

«ما دمتَ قد خرجت لحصاد القمح في منتصف الليل فتعال
واشرب بعض الشاي!».

تجاهلها الرجل وتابع طريقه. بعد حين ظهر شخص آخر يحمل ما
يشبه كيسًا من الحبوب. «تعال واشرب بعض الشاي! يبدو أن أمامك
الكثير من العمل في هذا الوقت من الليل!». رمقنا الرجل ثم غدّ خطاه
كأنّه يفرُّ من شخص يطارده. سقطت زجاجةٌ من حقييته وتدحرجت

وسط الشارع. «لقد أسقطت شيئاً! لقد أسقطت شيئاً!»، لكنه لم يتوقف
لالتقاط ما سقط منه بل واصل ركضه.

حيرى، راقبتُ أمي الرجل وهو يندفع بعيداً ثم ذهبت لالتقاط ما
سقط منه. زجاجة إرضاع وعلى مبعدة منها وجدت كيساً من الحليب
المجفف. على الكيس صورة طفل مكتنز الخدين. حين رأيت أنّ
الزجاجة والكيس ما زالا يحملان اسم العلامة التجارية الملونة وبطاقة
السعر أدركتُ أنّ الرجل، على ما يبدو، قد سرق للتوّ متجراً ولديه طفلٌ
يحتاج إلى الحليب. التفتُ كي أشاهد اللصّ وهو يهرب.

لاحظتُ أنّ أمي ما عادت عرجاء.

لم تعد تعرج في مشيها، باتت كالناس العاديين. لستُ متأكّداً كم
الوقت. ربّما تأخر وربّما لا. المشهد في الشارع مختلف عن المشهد على
ضفة النهر حيث الجوّ ما زال مشبعاً بالحرّ والرطوبة. هناك بعض
السائرين نحونا، خطواتهم مدوّية كالانفجارات. هناك العديد منهم،
مجموعة كبيرة منهم. جميعهم في الثلاثينيات أو الأربعينيات من العمر.
جميعهم أقوياء ونشيطون وهمجيون. يغمغمون بكلمات مبهمّة وهم
سائرون. يناقشون إذا ما كانوا بصدد سرقة المتجر الكبير المجاور لمحطة
قطار البلدة أو محل الأدوات الإلكترونيّة الواقع بجانبه. هذا الأخير
يُدعى «مدينة الإلكترونيات» على الرغم من أنّه لم يكن أكثر من دكان
باسمٍ فخمٍ يبيع الأدوات الكهربائيّة. خلص اللصوص إلى نتيجة مفادها
أنّ السلع الموجودة في المتجر الكبير عشوائيّة للغاية، وحتى لو استولى
واحدهم على كيس مملوء بالبضائع منه فلن يتمكن بالضرورة من بيعها

بشمن مرتفع. بينما إذا سطوا على مدينة الإلكترونيات واستولى كلُّ منهم على قطعة واحدة على الأقل فلا شكَّ في أنَّ غنيمة كلِّ منهم ستُكسبه عدة مئات أو ربما عدة آلاف من اليوانات. «أريدك أن تبقى في الشارع كي تراقب ما يجري في الخارج. قف بجانب النافذة وانتظرنا. نحن الثلاثة سندخل وسنناولك البضائع»، الرجل الذي أعطى هذه التعليمات هو كبير الحمالين في البلدة، رجل طويل القامة قوي البنية يبدو قائدًا فعلاً. عندما مرَّ اللصوص بنا ورأوا الشاي الذي وضعناه على الطاولة أمام المدخل، اقتربوا وشربوا الشاي بلا استئذان. أحدهم لم يشرب الشاي وبدأ عليه النعاس.

«أنت! تعال واشرب بعض الشاي! لن تشعر بعدها بالنعاس!». «أيري في النعاس!»، ردَّ الرجل الضخم وهو ينظر إلى رفاقه. إلا أنَّه حين تعلَّق الأمر بإمكانية الشراء أصبح أشدَّ حماسة من البقية والتنمت إلى أمي قائلاً: «نحن مستيقظون بينما الجميع مسرّمون! هذه فرصة لا تفوت!». بدأ نعساناً لكنّه لم يقدر على النوم. ألقى القصعة الفارغة على الكرسيّ الموجود في المدخل فأصدرت صوتاً مزعجاً في أثناء دورانها، ثم أمر رفاقه أن يتبعوه. في العادة كانوا يحملون الأشياء إلى بيوت الآخرين لكنّهم ينقلونها إلى بيوتهم هذه المرة. ارتجفت وجوههم حماسةً. كان بحوزتهم صررٌ صنعوها من ملاءات الأسرة أو من أكياس الخيش، بعضهم علّقها على خصره وبعضهم حملها بالأيدي.

أمام متجرنا، بدا الجميع قلقين والهواء أقلَّ كثافة.

في الشوارع، بدا الجميع قلقين والهواء أقلَّ كثافة.

تعرّقت راحتا يديّ كثيرًا، كأثهما بركتا ماء. «لا تقلق! لن نسرق متجر أيّيك!»، قال الرجل الضخم. وبعد أن انتهوا من شرب الشاي وقبيل المغادرة استدار وقال: «يمكنكما أن تخلدا للنوم. السرقة من متجركم الجنائزيّ أشبه بنبش قبر! لا أحد في البلدة بأكملها، بل في العالم بأسره، يرغب في سرقة إكليل زهور من متجركم كي يضعه في بيته!».

عمّت الضحكات بعد أن قال ما قاله، ضحكات هادرة، ضحكات جنونيّة، مثل مفرقات نارية تنفجر في هدوء الليل. ساروا بعيدًا. غرق العالم في صمته. وفي خضم ذلك الهدوء اللحظيّ جثم القلق الذي لا سبيل لتبديده. امتقع وجه أمي من الخوف. لم تعد عيناها تبدو أن فارغتين كأثها نائمة بل كانت مستيقظة. كانت قد استيقظت للتوّ. هؤلاء الرجال الخمسة أو الستة جعلوا أمي تستيقظ من أحلامها. أزاحت الشعر بعيدًا عن وجهها ونظرت ناحية الرجال. «لصوص! في طريقهم لسرقة شخص ما!». لم أستطع الجزم إذا ما كانت تسألني أم تتحدث إلى نفسها. «ربّاه! علينا أن نسقي كلّ أهالي البلدة من هذا الشاي! إذا شربوه فسيفارق النوم أعينهم وسيحرسون أرزاقهم وأملاكهم. سيقفون في وجه هؤلاء اللصوص!». قالت هذا وهي تعود إلى البيت. كأثها دخلت لتبحث عن شيء ما. خطت خطوات سريعة، رشيقة وقوية.

في تلك الليلة، بدت أمي كأثها قد تخلّصت من العرج في رجلها. بدت متزنة الخطى، قويمة المشية، كأثها ترتدي ثوبًا يناسبها تمامًا. كانت تمشي بسرعة جيئة وذهابًا كأثها تطير.

في أثناء ليلة السرنة الكبرى كانت السرقة أسهل الأشياء، وما عليك إلا أن تمدّ يدك وتلتقط ما تريد.

يقع متجر «مدينة الإلكترونيات» على بعد مئة خطوة إلى الشرق من بيتنا. يمكنك أيضًا أن تتجّه غربًا، قبل محطة قطار البلدة، لتجده هناك وسط منطقة حيويّة. فالمتجر يقع بين بقالة ومطعم، وهو محلّ مكوّن من ثلاث غرف ونافذتين وباب وحيد. اتفق اللصوص على خلع الباب والنافذتين لدخول المتجر. لم يجلبوا معهم مطارق أو مثاقب وقد زعموا أنّهم ليسوا بحاجة لها. المصباح المضاء بالداخل يتوهّج كالشمس والضوء يتدفّق من النافذتين كأشعة ساطعة. في هذا الضوء تمكّنوا من رؤية قطرة لعاب تدلّت من فم صاحب المتجر الذي بدا كالنائم. مالك المتجر في الخمسينيات من عمره، له وجه مدوّر وظهْر محدودب بعض الشيء. حين يتحدث كانت البهجة تطفح من زوايتي فمه وحين يسكت تظلّ آثار البهجة عالقةً فيهما. حين كان الناس يأتون إليه لشراء الأجهزة اعتاد أن يقابلهم بابتسامة، وحين كانوا يأتون للفرجة دون الشراء اعتاد أن يقابلهم بالابتسامة ذاتها أيضًا. رفوف العرض تملأ الجدران، بعضها كبير وبعضها صغير. الرفوف الكبيرة لأجهزة التلفزيون والصغيرة لأجهزة أقلّ حجمًا. هناك أيضًا عدد من الثلاجات التي قلّم تباع. إضافة إلى طبّاخات الأرز الكهربائيّة والمكاوي والمراوح التي بدأ أهل البلدة الاعتماد عليها. ناهيك عن المصابيح الكهربائيّة ومقابسها. كلّ هذه الأغراض مرتّبة بعناية على الأرفف. ليس هناك ما يمكن أن يفعله

المالك سوى التصدي للغبار المتراكم على الأغراض المعروضة بمنفضة الريش. بهذه الطريقة تصدى للصوص أيضاً، اللصوص الذين وقفوا ذاهلين عند مدخل متجره. تبين لهم أن الرجل ليس نائماً بل ينفذ الغبار عن أغراض محلّه والمصاييح مضاءة. وقف اللصوص في العتمة أمام المتجر وقرروا عدم المخاطرة بالاستيلاء عليه. بل قرروا المضي نحو بيوت أو متاجر ليس بها مصاييح مضاءة. وحينما هموا بالمغادرة خرج صاحب المتجر وصاح: «لا تذهبوا! حتى لو كنتم لا تريدون شراء شيء! ادخلوا وألقوا نظرة على الأغراض!». بدا ودوداً كأنه يخاطب جاراً أو أخاً. ففي نهاية المطاف، جميعهم من أبناء البلدة ويعرفون بعضهم بعضاً كما الجيران والإخوة. «مضطرون للمغادرة!»، أشار الرجل الضخم لرفاقه. لكن صاحب المتجر تقدّم خطوتين ولوّح بمنفضة الريش في الهواء. «إنّه موسم حصاد القمح ومتجري لم يعمل منذ أيام. أرجوكم أن تدخلوا لعل المتجر يعمل قليلاً. لعلّي أترزق قليلاً».

بلا حراك وقفوا جميعاً.

تجراً أحدهم واقترب من مدخل المتجر ثمّ لوّح بيده أمام وجه المالك قبل أن يعود نحو الرجل الضخم قائلاً: «رباه! إنه مسرّهم! كان جاري والآن لا يعرفني! يظنني مجرد زبون!». حدّق الرجل في دهشة ثم قهقهه، أشار لرفاقه للوقوف في المنطقة المضيئة أمام المتجر حيث رأوا أن المالك يبتسم بالفعل. كان يحدّق إلى الأمام مباشرة، وعلى الرغم من الابتسامة المرتسمة على وجهه لم تكن عيناه تلمعان، بياض عينيه طغى على البؤبؤين وأخذ يفرّكهما بين حين وآخر: «تعالوا وتفّرجوا! ليس

من الضروري أن تشتروا شيئاً! تعالوا وتفرّجوا فحسب!». ابتسم وفرك وجهه بكلتا يديه. «في موسم الحصاد يكسد العمل في متجرني ويحدث أن تمرّ أيام عديدة دون أن أبيع غرضاً واحداً! وفي نهاية الشهر هناك إيجار عليّ تسديده!». المتجر ملكٌ لوان مينغ نفسه. حين شرع ببنائه، لم يكن اللصوص لصوصاً بعد، بل كانوا ممن ساعده في البناء. أما الآن، وهو يخبرهم أن عليه دفع الإيجار في نهاية الشهر، فهو يعاملهم كغرباءٍ تماماً. وهذا ما يحدث حين يدخل المرء في السرنة؛ إنه يدخل عالماً مختلفاً.

لوح الرجل الطويل بيده أمام وجه المالك. بدت عيناه كعيني نائم، لا يرفُ جفناه حتى.

«هل تريد شراء أيّ شيء؟ أستطيع أن أمنحك تخفيضاً!».

«كم يبلغ التخفيض؟».

«هذا يعتمد على كمية الأغراض التي تشتريها».

«سأشتري جهاز تلفزيون».

«أيّ حجم؟».

«هذا. مقاس تسع وعشرين بوصة».

فيما مضى، كان اللصُّ يخاطب صاحب المتجر بالمدير وان. أما الآن فالرجل يعامل هؤلاء اللصوص كغرباء تماماً. هو في عالم الأحلام وهم في عالم اليقظة. في حلمه، رأى نفسه تاجرًا يسعى لبيع بضاعته ورأى اللصوص زبائن يقصدون متجره. «اممم ماذا عن هذا التلفزيون؟.. ماذا عن هذه الثلاجة؟.. هل يمكنك أن تخفّض ثمنها حتى يشتري كلُّ منّا

واحدة». من خلال هذه المساومة أرادوا المماثلة لاقتناص الفرصة المناسبة لسرقة المتجر. لكنّ وإن مینغ سألهم إذا كانوا جميعًا راغبين في الشراء، وإن كان ذلك صحيحًا فسيمنحهم التخفيض بكل سرور: «يمكنني أن أبيعها لكم مع تخفيض قدره ثلاثون بالمئة. ثلاثون بالمئة... أقلّ سعرٍ يمكن أن أعرضه عليكم! هذا السعر لا تجدونه حتّى في الأحلام! إذا اشترى كلّ منكم أغراضًا بقيمة ألفي يوان على الأقلّ فستحصلون على تخفيض قدره ثلاثون بالمئة على كلّ شيء... السعر زهيد جدًا... لا شيء تقريبًا... ماذا قلتُم؟ إن قررتُم الشراء فالمتجر أمامكم، اختاروا ما تريدون بينما أشربُ رشقة ماء». استدار ومضى نحو المنضدة لكنّه اصطدم بها. «اللعة! لقد غلبني النعاس. الحرّ شديد ولست أرى بوضوح. بوسعكم الدخول إن أردتم وإلا فساغلق الباب وأخلد إلى فراشي».

وبالفعل، جلس على كرسيّ وغطّ في النوم متكئًا على المنضدة والكأس في يده.

تردّد شخيرُ الصباح الباكر في أرجاء المتجر كسربٍ من البعوض. ذُهل اللصوص وابتهجوا كأنّ كلّ واحدٍ فيهم يحمل على رأسه عشًا فيه طيرٌ يحتضنُ بيضه بدفءٍ وسعادة. الرجل الذي أظهر اهتمامه بالتلفزيون راح يضحك ويداه تحومان أمام الجهاز. رجلٌ آخر كان قد تأبّط طنجرة الأرز الكهربائيّة لكنّه حين رأى رفاقه يحومون أمام الثلاجات وأجهزة التلفزيون، تخلّص من طنجرته على الفور والتحق بهم.

كلّ منهم حمل الجهاز الذي اختاره على كتفه. وفي غمضة عين نهبوا المتجر بأكمله.

حضرت أمي قدرًا آخر من الشاي.

في المرة الأولى كانت قد وضعت سبع أو ثماني رشّات من أوراق الشاي؛ هذه المرة أضافت حفتين كبيرتين. بدا الشاي الطازج كثيفًا كشرابٍ طبيّ. لونه أحمر داكن ويتصاعد منه بخار منعش. طفت أوراق الشاي على السطح كعيدان يجرفها تيار النهر. «خذ هذا الوعاء إلى بيت الرجل الذي تسميه الجدّ الخامس. خذ الشاي إليهم كي يشربه مَنْ يشعر بالنعاس منهم. حدّزهم من النوم! من الوقوع في السرنمة من جديد؛ فلا أحد يمكنه أن يتنبأ بما قد يحدث بعدها!». لم أردْ ولم أحرّك ساكنًا. وقفتُ هناك ونظرتُ في عيني أمي. لم تبدُ عيناها ناعستين على الإطلاق، بل كانتا تشبهان بركتين جافتين أُعيد ملؤهما بالماء. هل بدّد الخوف غبشة النوم؟ أم هي أبخرة الشاي من أيقظتهما؟ كانت التجاعيد المحيطة بعينيها كثيرة وعميقة كخنادق. «خذه إليهم!». تقدّمت أمي خطوة ومدّت وعاء الشاي إليّ. «لقد أساء لهم أبوك، وخالك أيضًا، إذا أرسلنا إليهم هذا الشاي نكون قد فعلنا ما بوسعنا تجاههم ولن نكون مدينين لهم بأيّ شيء بعد الآن».

بدت هذه الخطة بسيطة وسهلة: أن تسدّ ديونك بقدرٍ من الشاي. أخذتُ الوعاء وهرعت إلى الشارع حيران. أيسدّ وعاء الشاي ديوننا؟ كنتُ أعلم أنّ وعاء واحدًا لا يمكن أن يكون كافيًا. وحين وصلتُ بيت الجدّ الخامس صرختُ: «جدّاه! اللصوص في كلّ مكان! إذا شربتم من هذا الشاي فلن يغمض لكم جفن! ستبقون يقظين وتحفظون بيتكم من

السُرقة!». بعد أن فُتح الباب، نظر الجَدّ الخامس بريّةٍ إلى وعاء الشاي هذا، كأنّه حساء دُسّ فيه السمّ. «إن كنت لا تصدّقني فجرّبه! بضع رشقات ستحرم عينيك النوم! لن تشعر بالنعاس بعدها أبدًا». بريّة كبيرةٍ أحضر كوبًا وطلب إليّ أن أسكب له القليل من الشاي الداكن. تحت مصابيح الشارع، بدت الأرض بلون الطين الأصفر في بعض الأنحاء وكبركةٍ من مياه المجاري في أنحاء أخرى. تراكض الناس من أمامي وخلفي. باندفاعٍ كبيرٍ لدرجة أنّهم إذا أسقطوا شيئًا -كزوج من الصنادل أو ثوبٍ حريريٍّ أحمر- فلن يتمهلوا لالتقاطه حتى. في تلك الأثناء نفذتُ أوامر أُمي وأخذت قدور الشاي الكثيف حسبما وجّهتني. قرعت على باب كلّ بيتٍ وأعطيتُ صاحبه وعاء الشاي وأنا أردّد الكلام ذاته. وفي طريق عودتي كنتُ أتفحص الأرض أمامي وألتقط كلّ ما تقع عيناى عليه.

وفي طريقي إلى البيت السادس، صادفت أسرةً من ثلاثة أفراد عند التقاطع. الرجل في الأربعين من عمره، عاري الصدر ويرتدي سروالًا قصيرًا ويحمل زوجًا من سلال الخيزران. في إحدى السلّتين ماكينة خياطة وفي الأخرى حاملها. هناك أيضًا بعض أكوام القماش المطوية بعناية وبعض الثياب المصنوعة حديثًا. كانت الأسرة قد سطت للتوّ على محلّ خياطة. حملت زوجة الرجل لفّة قماش. حين رأيتُ القماش المتساقط على الأرض عرفتُ مصدره على الفور. عندما رأوني هرعوا جميعًا إلى الشارع كأنّهم وقعوا على صاحب المحلّ وهو عائد إلى بيته أو كأنّهم صادفوا أفرادًا من عائلته في طريقهم. وقفتُ أراقب أفراد الأسرة الثلاثة.

تحت ضوء المصباح بدت وجوههم شاحبة ومبللة بالعرق. «إليكم بعض الشاي! إذا شربتم منه فلن تشعروا بالنعاس ولن تسيروا نيامًا!». حينما رآني الطفل الذي يصغرنى بعدة سنوات سارع للإمساك بيد أمه. تحول لون يده من الأصفر إلى الأبيض، وأصبحت بلون جدران مستشفى. وعلى الفور وقف الرجل أمام زوجته وصاح بي: «اغرب عن وجهي أيها المسرّنم! إذا اقتربت خطوة واحدة سأقتلك!». نقل الحمولة إلى كتفه الآخر وباتت السلة التي تحتوي على ماكينة الخياطة في الأمام. وقفتُ محدّقًا بلا حراك. حاولتُ أن أشرح له مرة أخرى: «هذا وعاء من الشاي محضّر على نحوٍ يبدّد النعاس ويعزز الطاقة». مددتُ الوعاء إليه ودنوتُ منه قليلًا. «شاي كثيف بمجرد أن تشربه سيفارق النوم عينيك وإن كنتُ مسرّنًا وشربتُ منه فستستيقظ من أحلامك على الفور». مددتُ الوعاء إليه وحين صار قريبًا جدًا منه، وضعَ حمولته أرضًا، ومن جانب ماكينة الخياطة أخرجَ سكينًا. بدا نصلها مسودًا بفعل الصدأ لكن حافتها تلمع لمعانًا.

«أتريد الموت أم ماذا؟ اقترب خطوة أخرى وسأغرّز هذا السكين في أحشائك».

تجمّدتُ حيثُ أنا وسحبتُ الوعاء الممدود.

«اذهب من هنا! لولا أنّك ولد صغير لقتلتك بالفعل!».

«هذا الذي في حوزتي مجرد شاي! شاي يوقظك ويزيل نعاسك!».

عندما تراجعْتُ تناثر الشاي على يدي. لم يكن ساخنًا ولا باردًا، بل فاترًا. نظرتُ إلى الرجل وأسرته وواصلت السير في منتصف الشارع،

لم أكن متأكدًا إذا ما كان عليّ أن أدلق الشاي وأعود إلى البيت أم أتابع طريقي إلى بيت العائلة السادسة. تحمل العائلة السادسة لقب غاو، وحين مات أحد أفرادها تقاضى أبي سرًّا أربعمئة يوان. وعندما أحرقت خالي جثة فقيدهم، ترك زيت الجثة يتجمّع حتى آخر قطرة ثم أخذ بعض رمادها وبقايا العظام من الفرن وأعطائها إلى شخصٍ ما. لم تكن عائلة غاو على علمٍ بأي شيءٍ من هذا، تمامًا كما ينسى المرء في النهار ما رآه في حلم أمس أو كما لا يتذكّر المرء في أثناء الحلم ما جرى معه وقت يقظته. في هذه الأثناء بقيت واقفًا وسط الشارع حتى رأيت شخصًا يسير نحوى. الرجل الذي أقدم للتوّ على سرقة محل الخياطة رأى بدوره ذلك الشخص يقترب فسارع لإبعاد سكينه وحمل مسروقاته على كتفيه. «إذا طلعت عليك شمس الغد وتجرات على إخبار أيّ أحد بما رأيته الآن، فاعلم أنّ محرقة الجثث تنتظر أهلك!». حرص على إخباري بذلك قبل أن يغادر كي يرهبني. كما حرص على أن يرمقني بنظرة شرسة. كأنه يكرهني أو يخشاني. ولأنني خفت من نظراته شعرتُ بأنّ شفرة من الضوء تقطع وجهي نصفين. حثّت الأسرة خطاها فجأة وبدا أفرادها كأنهم يلوذون هربًا. ولم يخطر ببالي إلا بعد ابتعادهم أن أتحمق من شكل الرجل وعائلته لأعرف إذا ما كانوا من أبناء قرية غاو تيان أم لا. لكنني كنت فرعًا جدًّا ونسيْتُ هذا الأمر حينئذٍ. ذهني فارغ تمامًا كجبلٍ عارٍ في الشتاء أو كروايات يان ليانكه الشبيهة بالقبور الموحشة. بدا الأمر كحلم، كأنّ الجميع مسرّمون. هل كنتُ أنا أيضًا مسرّمًا؟ إذا كان الأمر كذلك فهو بالتأكيد حدث شديد الغرابة، حدث غير اعتياديّ. حاولت أن أتناول

رشفة من الشاي الذي بحوزتي ثم قرصت فخذي بقوة. تألّمتُ وشعرت برطوبة في حلقي وهذا ما جعلني أتأكد من أنني مستيقظ لا أحلم. خاب أملي إلى حدٍّ ما. كان الضوء المنهمر على الشارع غير موزّع بطريقة متساوية. تنقلتُ من بقعةٍ مضاءة إلى بقعة عاتمة رأيت منها تلك الأسرة المكوّنة من ثلاثة أفراد تبعد أكثر فأكثر.

لكنّ شخصًا آخر كان يقترب.

خطواته بدت لي مألوفة كعبارةٍ في كتابٍ قرأته.

مألوفة كعناوين روايات يان ليانكه وأسماء شخصياتها.

كان أبي.

أبي بالفعل. عائد من ضفاف النهر خارج البلدة.

ولكن كلّما اقترب شعرتُ بأنّه أقلّ شبهًا بأبي. كان جسده محدودبًا كفأٍ يركض في الشارع، يتنفس بصعوبة كفيلٍ قطع مسافة طويلة. ملابسه مبللة وهناك ثقب كبير عند صدره الأيسر والقماش ما يزال يغطيه. في بنطاله شرخ طويل يمكن من خلاله رؤية جرحٍ دامٍ. وجهه المستدير يتراوح بين الشحوب والاصفرار.

لقد تعرّض للضرب، هذا أقلّ ما يمكن قوله، ولم يكن ضربًا خفيفًا. الجانب الأيسر من فمه متورّم ومصابٌ بالكدمات ويبدو على وشك النزف لكنّ الدم ما يزال محتبسًا فيه.

خارج البلدة، فعل أبي ما يفعله القديسون. عند القناة الغربية غسل وجوه المسرّمين كأنّه يعمّدهم وبهذه الطريقة نجح في إيقظهم. استعمل قضيب خيزران لبلوغ القناة واستخراج جثث المسنين الذين قفروا في الماء

في أثناء سرنمتهم، وحين استيقظوا أدركوا أنهم لا يريدون الموت. قال أحدهم إنَّ أبي، بعد أن أيقظ كلَّ المسرمنين صغارًا وكبارًا، حمل إلى القرية جثة شخص يُدعى يانغ لم ينجح في إيقاظه. عاد إلى الجانب الشرقي من البلدة وفي طريقه حدث له ما حدث. كفأر، كحمل، كدجاجة انقضَّ عليها قطُّ أو كلب، ككلبٍ ضربه أحد المارة؛ كان معتلاً، مشوّهاً، ناعساً على نحوٍ غير مسبوق. كان منهكاً، كأنه، بنفسٍ واحدٍ، زرع محاصيل تكفي لعقودٍ، أو سارَ مسافةً طولها عقود. بدا أنه إذا توقّف سيغالبه النوم وإذا غلبه النوم سيتداعى. ولكيلا ينام أو يتداعى، وقف أمامي مثل وتدٍ قصير متعفنٍ دُقَّ في الأرض منذ سنين وارتفع فجأةً أمام ناظريّ.

«أبي... أبي...».

ناديته مرتين لكنّه لم يجب. لم يجب بل وقف وسط الشارع كأنه وسط حقلٍ مهجور. نظر إليّ كأنه ينظر إلى شيء آخر.

«أستحقُّ الضرب. نعم. كيف تجرأتُ على إيذاء الآخرين؟».

«إنني أستحقُّ الضرب حقاً. كيف تجرأتُ على إيذائهم؟».

لم أعرف إذا ما كان يخاطبني أم يتحدث مع الفراغ. بدا كأنه يكلم نفسه، يتمتم بينه وبين نفسه. وبينما كان يتحدّث، ارتسمت ابتسامة شاحبة على فمه؛ ابتسامة غامضة ومصطنعة. وبينما هو يبتسم ألقى نظرة إلى الشارع الجنوبيّ من خلفي: «أنت ابني يا نيان نيان. ولأنك ابني عليك أن تذهب معي كي نجثو أمام الآخرين. سندعهم يضربونا ويشتموننا. من سمح لنا أن نؤذيهم؟ من سمح لخالك - ذلك الوحش - أن يؤذيهم؟».

رأيتُ بياض عينيه نصف المغمضتين، كانا يبدوان كقطعتي قماش

أبيض متسخ والبؤبؤان مثل قطرتي حبرٍ تلطّخان ذلك القماش. الحبر الأسود ليس بأسود والقماش الأبيض ليس بأبيض. بل اختلطا معًا بحيث صار صعبًا تمييز الحد الفاصل بين اللونين. إذا أمعنت النظر ترى أنّ بياض عينيه متسخ وبؤبؤيه مزيجٌ من الأسود والأصفر والرماديّ والأبيض مع بعض الأجزاء الأعمق قليلًا، بما يكفي لإظهار أنّها عيناه. أدركتُ أنّ أبي مسرّنم.

أدركتُ أنّ أبي كان مسرّنًا حينها.

وجهه أشبه بحجارة أو بقطعة خشب. ربّما لم يضربه أحد. ربّما تعثر في أثناء سيره فتمزّقت ثيابه وتكدّم فمه. لم يكن فمه متورّمًا بشدّة، بل كان بلون الدم، ولم يكن وجهه يشبه تمامًا الحجارة أو قطعة الخشب. «ما الخطب يا أبي؟ اشرب من هذا الشاي الذي أعدّته أُمّي». ناولته نصفَ وعاء من الشاي الذي برد بالفعل. لكنّه ما يزال مسرّنًا، وانتباهه بالكامل ينصبُّ على ما يشغل تفكيره. أسقط وعاء الشاي الذي ناولته إياه وتناثر الشاي على الأرض، تمامًا كما أسقط حوض غسيل الوجه الذي ناولته إياه في وقت سابق. «أأنت ابني أم لا؟ إذا أراد أهل البلدة احتقار أبيك فعليك أن تتقبّل ذلك منهم أيضًا».

«حتى لو كنت أقصر مما أنا عليه الآن، أظُلُّ أباك».

«حتى لو اقترفت أضعافًا مضاعفة من الأخطاء، أظُلُّ أباك».

«هيا! اذهب معي لنعتذر أمام الجميع».

قادني أبي إلى البيوت الواقعة جنوبي البلدة. تبيّن أنّها البيوت ذاتها التي زرّتها وأوصلتُ الشاي إليها، بما فيها بيت الجدّ الخامس والعمّ ليو

والعمة وو والأخت نيو. حين وصلنا إلى البيت الأول طرق أبي الباب، وعندما فُتح سحبني لأجثو أمام من يظهر. نظر إلى وجه الرجل، ودون أن يسمح للآخر بفهم ما يجري، بدأ البكاء والتوسّل. «جدّي الخامس! اضربني! عليك أن تضربني! أنا لي تيان باو! لست إنسانًا بل وحشًا! اضربني!».

الجدّ الخامس راعه ما رأى.

أمام عتبه مصباح صغير يشعُّ منه ضوء خافت. بدا وجه الجدّ ممتعًا بشكل غريب. «ما الذي يجري؟ ما الذي فعله؟». حدّق الجدّ مذهولًا واقترّب ليرفّعي وأبي عن الأرض. وبينما كان يقوم أمام أبي بدا كأنّه تذكّر شيئًا. شحب وجهه وهو يحدّق إلى أبي الذي تحوّلت عيناه إلى جليد باردٍ وارتعش صوته.

«عمّ تتحدّث يا تيان باو؟».

نظر أبي إلى الأعلى. بدا نصف نائمٍ وصوته مخشوشن إلى حدٍّ ما. «قبل أكثر من عشر سنوات كنتُ أنا من يبلغ محرقة الجثث عن دفن الموتى. أنا من بلّغتُ عن دفن العمة وعلى إثر بلاغي نُبشت جثتها من القبر وحُرقت».

تجمّد الجدّ الخامس.

حدّق إلى أبي كأنّه إزاء كلبٍ ينهش لحم بشرٍ. وبينما كنتُ جاثيًا بجوار أبي نظرتُ إلى هذا العجوز الذي تجاوز الثمانين من عمره. شعره الأشيب يتمايل في ضوء المصباح وكذلك شعر ذقنه. توتّر جلدُ وجهه المترهل والمجعّد وارتجف ثم توتّر مرة أخرى. بدا كأنّه يريد أن يقول

شيئاً أو كأنه على وشك أن يصفع وجه أبي. لكنه عجوز في الثمانينيات من العمر لا يقوى على ضرب أحد أو توبيخه. ارتعش فمه حين اسندار لينظر إلى الفناء خلفه. وحين التفت من جديد بدا وجهه محمراً ومذعوراً. «اذهب أنت وابنك يا تيان باو! لا تدع أحداً من عائلتي يعرف بهذا!».

رمى أبي الفناء بنظرة خاطفة ثم نهض فبتبعته. «من هناك يا أبي؟»، جاء صوت من إحدى الغرف. تلاه صوت الجد الخامس وهو يجيب ابنه: «لا أحد. هذا تحذير لنا كي نحترس من اللصوص!». ساد الهدوء بعدها. في الصمت الذي أعقب ذلك، دفعنا الجد الخامس خارج بيته. جثأبي على نحوٍ هائجٍ وراح يتدلل ثم خرجنا مسعورين من بيت الجد. وقفنا على ناصية الشارع والعجوز يلوح لنا محذراً من إخبار أحد بالامر. «قل إن نيان نيان جلب لنا بعض الشاي المنشط. لكن إياك أن تذكر سوى ذلك». أغلق الجد الباب بسرعة، وطوى - مع صفعة الباب - أحداث الماضي المدفونة في رأس أبي.

وقفنا على جانب الشارع. رأيت أبي يتنهد بعمق، تنهيدة بطولٍ حبلٍ مربوط حول حزمة قمح، بمجرد أن تنفك عقدها ستتبعثر سنابل القمح في كل مكان. بدا مرتاحاً، وتحت شحوب السرمنة تراءت حمرة طنيفة على وجهه.

«هيا إلى البيت التالي! هيا! كلما فكرت في الأمر أكثر شعرت بضلته. إذا زرنا بضعة بيوت أخرى، فسأتمكن من تجاوز كل ما فعلته في الماضي. حينها سأعيش بسعادة وراحة بالٍ مع أمك».

يد أبي المسكة بيدي كانت مبللة بالعرق.

يدي أيضًا تبلّلت قليلًا. وحين أفلتها كي يمسح يده بعمود كهرباء، أحسستُ بقشعريرة في ظهر يدي. لم أدرك أنّي كنت قابضًا يدي، وأنّ في راحتيّ بركتين من برودة.

هذه البرودة جعلتني أشعر بارتياح مفاجئ، كأنّ لا سرنمة من حولي. كأنّه لم يعد هناك من سرنمة أبدًا. كأنّ أبي بوسعه أن يفكّر ويتكلّم بوضوح بعد الآن. بغض النظر عن حقيقة أنّي حين نظرتُ إلى وجهه رأيته بلون الخشب أو الحجر، وحتى الجدّ الخامس -المستيقظ- لم يدرك أنّ أبي في غيابة النوم. كان أبي نصف نائم حين جثا أمام الآخرين للتكفير عن إحساسه العارم بالذنب والعار. هذا هو الحال حقًا. على النحو الذي يتصرّف به السكران ثمّ ينسى كلّ شيء في اليوم التالي بعد أن يصحو. كان يتمايل قليلًا في سيره وما عدا ذلك فلم يتمكن أحد من تخمين أنّه نائم، أو حتى نصف نائم.

واصلنا طريقنا. توجهنا إلى البيت التالي؛ بيت العمّ ليو. في الشارع دوّت أصواتٌ مرعبة في كلّ مكان، ولكن إذا أنصتَ بعناية فلن تتمكن من سماع أيّ شيء. بقي القمر على حاله، بلونه الرماديّ القاتم. بدا الهواء متحرّكًا وثابتًا في آنٍ معًا. الغيوم على حالها، محتشدة في أماكن ومشتتة في أماكن أخرى، تاركة شوارع البلدة وأزقتها رطبةً وكئيبة. كم كان الوقت؟ لم أعرف. تبعثُ أبي. وضعتُ الوعاء الفارغ فوق حجرٍ أمام بيت الجدّ الخامس على نيّة أن آخذه معي في طريق العودة.

وصلنا إلى البيت التالي وطرقتنا الباب.

طرقنا ونادينا.

فتح رجلُ الباب وإذا بأبي - حالما أدرك أنَّ الرجلَ ربُّ الأسرة أو أحد كبارها- يجثو على الفور أمامه وهو يهتف: «اضربني! اضربني! ابصق في وجهي! هيّا!». ثمَّ أخذ يشرح كيف أبلغ عن موتى هذه العائلة من أجل المال. بدا الرجل ذاهلاً، في حيرةٍ من أمره، معقودَ اللسان. ففي نهاية المطاف كانت هذه الأحداث التي يشيرُ إليها أبي قد جرت قبل أكثر من عقد من الزمان وكانت القوانين النازمة للدفن وحرَق الجثث صادرة عن السلطات الرسمية. لم نكتفِ أنا وأبي بالاعتراف فحسب بل جثونا أمام الرجل. ماذا يمكن أن نفعل أيضًا؟ حدَّق الرجل برهة يفكر: «هذا ما فعلته يا تيان باو إذا؟». أو ما أبي برأسه وهو لا يزال جاثيًا. غضب الرجلُ برهةً لكنّه أبدى تسامحه. قال شيئًا هو مزيجٌ من الحرِّ والبرد: «لم أكن لأتصوّر أنَّك قد تفعل شيئًا كهذا. أنت شابٌّ صغير ولم أتوقع أنَّ بوسعك ارتكاب فعلٍ شنيع كهذا. يقول الجميع إنَّك وزوجتك في متجر العالم الجديد تختلفان كلَّ الاختلاف عن مدير محرقة الجثث. الأكايل التي تبيعونها كبيرة ورخيصة ولم يُعرف عنكما محاولة استغلال عائلات الموتى. لم أتصوّر أنَّك قد تفعل شيئًا كهذا... انهض! لا ينبغي أن نحكم على كتابٍ من غلافه... انهض! لن أضرب شخصًا يعتذر... انهض! حلَّ متصفٍ الليل ويجب أن تعودا إلى البيت وتخلدا للنوم. لقد أرسلتُ زوجتك شيئًا مع نيان نيان قبل قليلٍ، شايًا يزيل النوم ويمنعنا من السرنمة».

نهضنا.

ثم توجهنا إلى بيت آخر.

ثمَّ إلى بيت آخر.

هذا البيتُ بيتُ رجلٍ يُدعى غو هونغ باو الذي يكبر أبي سنًا ويزيده طولًا أيضًا. قبل أن أترك الوعاء أمام بيت الجدِّ الخامس كنتُ أخططُ لملكته وأخذه إلى بيت غو هونغ باو. لو فعلتُ ذلك لسارت الأمور على ما يرام. لكنَّني تمكَّنتُ من إخبارهم باكراً عن نوايا أمي الطيبة ولكنني كنتُ بطيئًا للغاية. تركت الوعاء عند تقاطع الشارع الجنوبيّ، أمام بيت الجدِّ الخامس. وهذا ما غيَّر كل شيء. لا يمكن للأُمور أن تسير بسلام. لقد خرجت الأمور عن خطَّة أبي وتجاوزت أجمع خيالاتي.

طرقنا ذلك الباب ثم دخلنا. وعندما رأينا غو هونغ باو واقفاً في الفناء جثونا أمامه على الفور.

«ماذا تفعلان؟ ماذا تفعل يا لي تيان باو أنت وابنك هنا؟».

كان ضوء الفناء ساطعاً للغاية، ولم يتضح لي تمامًا سبب ثراء هذه العائلة. كأنَّ أكوام المال تأتي من العدم. أموال تكفي للشرب والسُّكر والمقامرة. لقد بنوا بيتًا من ثلاثة طوابق، يكسوه حجر البورسلان، وعاشوا حياة رخاءٍ وبجبوحه. تحت ذلك الضوء الأحمر الناريّ رأينا أبواب البيت الحديدية المطلية بالأحمر مع لمسات فضيَّة وذهبيَّة. النوافذ مسيَّجة بقضبان فولاذية خضراء مزينة بزخارف على شكل أزهار. الفناء مملوء بالزهور والنباتات المزروعة في صناديق كبيرة. هناك سيارة سوداء مركونة تحت مرآبٍ جديدٍ مسقوف بالقرميد. جثوثٌ وأبي على الأرض الإسمنتية أمام المرآب واستطعنا شمَّ رائحة الكحول المتسرِّبة من مسام غو هونغ باو. أخبره أبي عن عمله مخبرًا في الماضي. وصف له مشاعر

العار والذنب التي تحالجه وكيف كان يتحين الفرصة المناسبة للاعتراف لكنه ظلّ متردّدًا أكثر من عشر سنوات. أوضح أنّه في تلك الليلة، لما كان كلّ سكان البلدة مسرّمين، شعرَ بصفاء الذهن والتشوّش في الوقت ذاته كأنّه كان غارقًا في أحلامه أيضًا.

لأجل ذلك جاء كي يعترف.

جاء كي يعترف بما ارتكب.

«إذا أردتَ ضربي فهذا أنا أمامك! إذا أردتَ شتمي فهذا أنا أمامك! لك كلّ الحق في أن تضربني أو تشتمني يا أخي».

لم نتوقع أن يحدث شيء. في أسوأ الأحوال يمكن لغو هونغ باو أن يتلفظ بضع كلمات باردة، كما فعل أهالي البيوت السابقة، لا سيما أنّ حرق جثة والدته لم يكن، في الواقع، من فعل أبي. قبل أن يبلغ أبي عنه، كانت المحرقة -بطريقة ما- على علم بأنّ عائلة غو تخطّط لإجراء دفنٍ سرّيٍّ. وعلى الرغم من أنّ عربة المحرقة كانت قد وصلت إلى بيت العائلة قبل البلاغ الذي قدّمه أبي، فقد تقاضى مئتي يوان مكافأة. لهذا السبب جاء أبي إليهم الآن؛ جاء ليعترف بخطاياها. لكنه لم يتوقع أن يتضّرّج وجه الرجل غضبًا حين يعرف. حدّق إلى الأمام ثمّ أمسك فجأةً بعصا موجودة أمام المرابّ ولوّح بها.

«أنت من فعلتَ ذلك يا ابن العاهرة!».

«أنت يا لي تيان باو! يا ابن العاهرة! طوال هذه السنوات لم أنس لحظةً ما حدث. لكنني لم أتصوّر أبدًا، في ليلة السرّيمة هذه، أن تأتي أنت، بهذه الحالة المضطربة، وتعترف بذلك!».

كان صوته حادّ النبرة كصوت النساء. حين يغضب الرجال ذوو النبرة الحادة ترتعش أجسادهم كأنّ تيارًا كهربائيًا يسري بها. هاج وأخذ يقفز، يلوح بالعصا تحت ضوء المصباح هو يغمغم مع نفسه. بعدئذٍ نظر في اتجاه آخر كحصانٍ خائفٍ يفرّ مطأطأ رأسه. حين تفوّه غو بشيئته الأولى أحسّ أبي، الذي يظنّ نفسه نائمًا في فراشه، أنّه تلقى لكمةً للتوّ في بطنه. بدا كأنّه يريد أن يستيقظ لكنّه كان نائمًا بعمقٍ وليس سهلًا أن يفيق. مع الصرخة الثانية من غو وتلويحته بالعصا، استيقظ أبي وفتح عينيه الناعستين. «أوه! ماذا يجري؟»، صاح وهو يسحبني بعيدًا عن عصا غو هونغ باو المرفوعة. تراجعتُ بضع خطوات حتى صرّتُ أمامه تمامًا، أحول بينه وبين العصا.

«هل كنتَ لتضربني حقًا يا أخي هونغ باو؟».

«لستُ أخشى الضرب، ولكن هل أردتَ أن تضرب ابن أخيك نيان نيان؟».

«اضبرني! هيّا! اضبرني! إذا أردتَ أن توسع نيان نيان ضربًا حتى الموت فلا تتردّد!».

دفعني أبي نحو العصا وهو يمسك بكتفيّ ومستعدّ لسحبي في أية لحظة.

في نهاية المطاف، كنتُ أنا من صدّ عصا غو. أنا من هزمتُه بسبب صغر سنّي. في ذلك الوقت شعرتُ بالخوف والارتباك وعقلي كان مشوّشًا. غطّى العرق رأسي وجسدي وأخذ يسيل من وجهي أيضًا. عندما رأى غو هونغ باو أبي يدفعني إلى عصاه، تجمّدت يده فجأة. بل

تجمّد جسده بالكامل. لقد انتصر أبي، هزم النوم باليقظة.

«أيها الأخ هونغ باو، كنت نائمًا وأنا أتحدّث إليك، فهل أخذت كلامي على محمل الجدّ؟ لعلّك تشمل أحيانًا، ولكن بعد صحوّتك هل تأخذ ما قلته وأنت سكران على أنّه الحقيقة؟ في المحكمة لا يُعندُ بشهادة السكران أو النائم، بل تُعامل مثل هذه الحالات على أنّها هذيان مخبول. كيف لك أن تصدّق ما قلته للتو وأنا نائم؟ كيف لك أن تتغاضى عن كوني مسرّنًا؟».

حدّق غو هونغ باو مشدوّهًا بأبي حيث كان جاثيًا، العصا متجمّدة في الهواء. ربّما كان يتذكّر هوايته في الشرب أو لعلّه يفكّر في غرابة السرّنة. حدّق إلى وجه أبي وإلى عينيه كأنّه يريد أن يحدّد إذا ما كان مسرّنًا أم لا. وبعد برهة من الوقت وضع عصاه. كان أبي يخشى استمرار الجدال، وحالما وضع الرجل عصاه قادني أبي نحو المدخل الأمامي للبيت وحثّ خطاه. سار بسرعة كأنّه يلوذ هاربًا. «كيف نمّت ثم فقت ثم عدتُ إلى النوم مجدّدًا؟ كيف وقعت في السرّنة مرة أخرى؟ كيف عدتُ إلى النوم بعد أن تعرّضتُ للضرب؟»، تساءل بينه وبين نفسه هامسًا. سار نحو المدخل ثم استدّار ونظر إلى غو الذي تبعه وصرخ:

«ما يقوله الناس وهم مسرّنون ليس صحيحًا يا غو هونغ باو! لا تأخذ ما قلته على محمل الجدّ! قبل قليل خرجت والدّة يانغ غوانغ تشو، التي تعيش في الجانب الشرقي من الشارع، للبحث عن زوجها الذي مات منذ أكثر من عشر سنوات فغرقت في النهر... أنا الذي انتشلتُ جثتها وأخبرت ذويها بأنني قتلتها وقتلتُ أباهم وجدتهم أيضًا! ما

رأيك؟ لو آتيت قتلت ثلاثة أشخاص من هذه العائلة فهل كنت سأذهب وأخبر الباقين عن فعلتي؟ هل يمكن لشخص تافه مثلي أن يقتل ثلاثة أشخاص؟ هل تسمعني يا غو هونغ باو؟ هل نسيت كم مرة حملتك إلى البيت بعد أن سقطت مخمورًا في الشوارع؟ اخلد إلى النوم يا غو هونغ باو... لا علاقة لي بحرق جثة أمك. شأني شأنك، على مدى السنوات العشر الماضية أو أكثر، لم يكن لديّ تصوّر عمّن يمكن له أن يكون بهذه السفالة والحقارة كي يفعل ذلك! ولهذا السبب وأنا نائم ومشوّش نسبتُ الفعل إلى نفسي... عد إلى النوم. لا تنس أن أمي أرادت أن تُدفن لكنّها خافت أن يُبلّغ عنها لذا أخذتها بنفسني إلى المحرقة!».

واقفًا وسط الشارع، أخبر أبي غو هونغ باو الكثير من الأشياء. كان الأخير عند المدخل يستمع بعناية لما يقوله أبي. كأنّه يستعيد وعيه، كأنّه يستذكر ببطء كلّ ما قاله وفعله وهو مخمور. في بداية لقائهما كان أحدهما نائمًا والآخر يقظًا، أمّا الآن وقد بات الاثنان مستيقظين، فكلّما تحدّثا أكثر واستمعا لبعضهما أكثر، زاد ارتباك الموقف وغموضه وأصبح من الصعب التمييز بين الحقيقة والوهم.

بعدما تزعزع كلّ شيء غادرنا.

ظّل أبي يقول: «لا أجرؤ على النوم! لا أجرؤ على النوم! إن فعلتُ فستصيبني السرنة وستحدث الفظائع!». متجاهلاً غو هونغ باو الواقف عند المدخل، سحبني أبي بعيدًا وقال إنّ علينا العودة إلى البيت. وعدنا إلى البيت في عجلة.

الكتاب السادس

الهزيع الرابع، الجزء الثاني:

الييوض تَفْقُسُ فِرَاخًا

1. (2:20-1:51)

حدث شيءٌ فظيعٌ.

استمرَّ الموت.

قادني أبي حتى وصلنا إلى محلّ الخياطة الذي يقع مقابل بيت غو هونغ باو. حين وصلنا في البداية لم ننتبه إلا لبيت تلك العائلة، أمّا في طريق عودتنا فرأينا محلّ الخياطة. وقع الخطي يملأ الشارع. السرّيمون يسرقون وأولئك المستيقظون يسرقون أيضًا. «هذا لصٌّ! هذا لصٌّ!». لم يتضح مصدر الهتاف. ريحٌ قارسة تعصف بالمكان. في الشوارع والأزقة بدا ضوء المصباح الأصفر كأنّه موجود للسماح للصّوص بإيجاد طريقهم لكنّه بقي خافتًا حيث ظلّت الوجوه غير واضحة. تقدّم حشد آخر من الناس يحملون الأكياس. عندما مرّوا بنا، التفتُّ لألقي نظرة عليهم لكنّ أبي سحبني قائلاً: «أنتم جميعًا مشغولون، مشغولون جدًّا. نحن لم نر شيئًا». ضمّني بقوة وقادني إلى مدخل الخياط.

كان الباب مفتوحًا. المحلُّ على جانب الشارع وهناك لافتة خشبيَّة عند المدخل. على اللافتة كلمة «خيَّاط» مكتوبة بأحرف حمراء كبيرة، على الرغم من أنَّ هذه الأحرف الحمراء بدت بلون أسود في الظلام فقد كانت واضحة جدًّا. وعلى خلفيَّة هذا الوضوح انبعثت رائحة دمٍ نفاذة. عندما التفتُ باتجاه الرائحة، رأيت شخصًا يرقد في بركةٍ من الدماء. كان ميتًا. ذراعاه ممدودتان أمامه كيفما اتفق كغصني شجرة وهو ما يزال يمسك بحزام ماكينة الخياطة. حين رأينا ذلك شهقنا وتسمَّرنَا. وقبل أن أتمكَّن من إلقاء نظرة من كُتب حجب أبي بجسده مجالَ رؤيتي. أراد ألا أرى الجثة الملطخة بالدماء لكنني رأيتها. الدم بدا كالوَحْلِ والجمجمة مهشَّمة كبطيخة. اختلط الدم بالجثة كأنَّ صاحبها اغتسلَ بالوَحْلِ. حدَّقَ أبي بصمتٍ حتى صاح أخيرًا: «هبيي! أيُّها الخيَّاط ليو! تعرَّض بيتكم لحدث فظيع... حدث مميت... وأنتم ما زلتم نائمين... ربَّاه! أما زلتم نائمين!». في هذه اللحظة تذكرتُ كيف مرَّت بي، قبل قليل، تلك الأسرة المكوَّنة من ثلاثة أفراد وهم يحملون ماكينة الخياطة وبعض القماش وسكينًا كبيرًا. عندئذٍ فحسب أدركتُ أنَّ لأبي -الذي لم يكن طويل القامة- صوتًا طويلًا كشجرة. كان عاليًا لدرجة أنَّك إذا وضعتُ صوته بشكلٍ مستقيمٍ فسيبدو كسلَّمٍ يبلغ السماء، يلامس الغيوم، وبوسع الناس استخدامه للإمساك بالقمر والنجوم.

ثمَّ ظهر ضوء في النافذة خلف طاولة الخيَّاط فهرعتُ وأبي إلى البيت. ركضنا كالمجانين.

لقد مات أحدهم.

لقد مات أحدهم بالفعل.

لأنَّ الناس كانوا مسرَّنين، ماتوا واحدًا تلو الآخر. لم ينتحروا جميعهم قفزًا في النهر أو شنقًا، بل طعن بعضهم في أثناء السلب والنهب. في الشوارع، التي بدت خالية، تردَّد وقعُ خطى اللصوص وقطاع الطرق في كلِّ مكان. تهاقت صرخات مثل: «توقَّف أيُّها اللصّ! توقَّف أيُّها اللصّ!» متبوعةً بصمتٍ مطبقٍ. كان السكونُ التالي يعمُّ المكانَ حتى تستطيع سماع الخوف إذ يتغلغل في شوارع البلدة. في أحد الشوارع يمكن أن تسمع أصوات السرقة والقتل القادمة من شارع آخر، وحين تذهب إلى الشارع الآخر تسمع أصواتًا قادمة من الشارع الذي غادرته للتو.

بدا الجميع مشغولين، مشغولين جدًّا. تهامسوا فيما بينهم وحين مرَّ بعضهم بجانب بعضٍ تصرَّفوا كأنَّهم غرباء. تصرَّفوا كأنَّ لا أحدَ بالقرب منهم. كأنَّ العالم بأسره نائمٌ وهم وحدهم المسيِّقون والمنشغلون بأشئائهم. واحدٌ منهم لا يعرفُ ماذا يريدُ، كان يركض في الأنحاء بلا هدف. تجوَّل ذهابًا وإيابًا، وإذا اصطدم بجدارٍ استدارَ وإذا اصطدم بشجرة صفَّعَ جبهته ثم فخذَه أو مؤخرته. كأنَّه استيقظ لحظتها أو أدرك أنَّ هذا ليس ما ينبغي له فعله. كان يقف هناك محدِّقًا في الفراغ، إمَّا أن يذهب بعدها لفعلِ شيءٍ ما وإما لا يذهب. تجوَّل بلا طائل في الشارع كمن يسبحُ في بركة موحلة، يندُّ منه صريرٌ لاهتٌ كأنَّه يشقُّ عليه التنفُّس تحت الماء.

الشارع كسوقٍ؛ ليس سوقًا مزدحمًا يصطدم فيه الجميعُ بالجميع، بل سوقًا خاملاً تراه في نهاية موسم الحصاد الوفير. كأنَّ الجميع أنهاوا

عملهم وبدؤوا بالاسترخاء فقرّروا الخروج للتنزه في الشارع والالتفات
يمنة ويسرة. لم تكن لديهم نيّة لشراء أو بيع أيّ شيء. وفي أثناء النزهة،
شخصٌ ما أخذ يركض مهتاجًا، قدّمان تتحرّكان بسرعة كبيرة كأنّه
يوشك أن يطير. بدا كأنّهما يحاول اللحاق بسيارةٍ أو قطار. وفي ظلّ هذا
الضجيج لم يعرف أحد ما الذي يحدث.

أو ما قد يحدث.

إلا أنّ أحدهم قد مات، في الحقيقة.

مات حقًا. ربّما ليس واحدًا فحسب بل أكثر.

مرّ كثيرٌ بجثة الميت كأنّهم لم يروا شيئًا. نظروا إلى جثة على جانب
الطريق كأنّهم ينظرون إلى نائمٍ على ضفةٍ نهرٍ أو على رصيفٍ. لكنّ أبي
استيقظ وشاهد كلّ هذا معي. حتى إنّّه صعد فوق عدد من الجثث كي
يلقي نظرةً من كُتب. لقد استيقظ عندما خرج من بيت غو وبمجرّد أن
رأى الجثة أمام محلّ الخياطة طارّ النوم من عينيه. لقد تبَيَّن أن بمقدور جثة
أن تطرد النعاس. رائحة الدم اللاذعة يمكن أن تطرد النعاس كما يطرد
المبيدُ الحشرات. «علينا إخبار إدارة القرية بهذا الأمر. علينا إخبار حكومة
البلدة. علينا إبلاغ قسم الشرطة!». كان أبي، في الأصل، يريد اصطحابي
إلى البيت لكنّه غيّر رأيه حين بلغنا التقاطع. قادني إلى بيت زعيم القرية.
وفي الطريق مررنا بمسرنمٍ تلو مسرنم -مجموعة تلو أخرى- كأنّنا نسير
في غابة. كان المسرنمون يرفعون أقدامهم ثم يخفضونها، مرارًا وتكرارًا.
تعثّروا على طول الطريق -وقلّما سقط منهم أحد- لأنّهم لم يتمكنوا من
رؤية الطريق بوضوح.

لا أدري كم الوقت بالضبط. لا بُدَّ أنَّنا في الفترة الممتدة بين الواحدة والثالثة صباحًا، في حوالي الثانية تقريبًا. وفي طريقنا إلى بيت زعيم القرية، صادفنا جارنا يان ليانكه عائدًا من بيت الكتابة الخاصَّ به. بدا مسرنيًا، ما لبث أن قطع الشارع. مثل الآخرين، تناوبت خطواته بين مرتفعة ومنخفضة. بخلاف الآخرين، كانت ملابسه مرتبة. كان يتعلَّ شُبَّابًا كأنَّه استيقظ كي يدخل الحمام ثمَّ واصل المشي ببساطة حتى وصل إلى مشارف البلدة. لم يقل شيئًا، وجهه أشبه بكتابٍ يعجُّ بحروف مرسومة على نحو خاطئٍ لذا تتعذَّر قراءتها. حين مرَّ بجانبني صحتُّ له: «عمِّي يان! ما الخطب؟ أراك عدتَ إلى البلدة!». تجاهلني وتابع طريقه. في حلمه واصل المشي باتجاه بيته.

حتى الكاتب، إذا، لا يسلم من السرنمة. حتى الكاتب يمكن أن يُصاب بهذا المرض السريّ. شددتُ على يد أبي وأشرتُ إلى يان وهو يبتعد. نظر أبي إليه كأنَّه ينظر إلى شجرة تمشي. شاهد تلك الشجرة تعبر الشارع من جانب إلى آخر. «هذا لا يُصدِّق! حتّى هذا الرجل يغدو مسرنيًا!»، قال أبي ثمَّ أمسك يدي وقادني بسرعة إلى بيت زعيم القرية. ظنَّ أنَّ العثور على زعيم القرية يجعله قادرًا على إيقاف جحافل المسرمنين هؤلاء. كأنَّه بهذا الأمر يمكن أن يجعل النهار نهارًا والليل ليلًا. كأنَّه بهذا الأمر يستطيع أن يجعل الناس يفعلون الأشياء عندما يجدر بهم أن يفعلوها. إنَّ السرنمة داءٌ مُعِدٌّ أو استدعاءٌ للمثول، وقد اتضح أنَّ هذا الكاتب حتى يُمكن أن يُستدعى أو يُصابَ بعدوى. حتى الموجودون في أماكن نائية ومعزولة لم يسلموا من العدوى. ومن

المحتمل أن تكون هذه السرنمة غير محصورة بقرية غاوتيان أو في جبال فونيو بل تشمل المقاطعة بأكملها وصولاً إلى عموم البلاد. من المحتمل جداً أن يكون العالم بأسره مسرّناً في منتصف الليل، ولا يوجد سواي وأبي من المستيقظين إلى جانب اللصوص وقطّاع الطرق. وفي أثناء سيرنا كنت أنا وأبي يتمم أحداً للآخر كأننا نحادث أنفسنا. نظرتُ إلى وجه أبي فربّت على رأسي قائلاً: «أبوك لن ينام من جديد». كان ذهنه صافياً كجدول ينساب من قمة جبل ولم يكن يشعر بأدنى رغبة في النوم. حقيقة أنّه لا يشعر بالنعاس على الإطلاق عذابٌ في حدّ ذاتها، لأنّها تعني أنّ ما من خيار لديه سوى مواكبة المسرّمين، على النحو ذاته بالنسبة لأولئك القادرين على الوقوف والمشي ممّن لا خيار أمامهم سوى مساعدة الذين سقطوا على جانب الطريق هنا وهناك. لم يكن أمام أبي من خيار سوى تقديم يد العون لهم للوقوف على أقدامهم ومساعدتهم على التقاط ما سقط منهم. بالطبع الكثير من الأشياء سقطت وتدحرجت بعيداً، وقد يشعر من يساعد بإغراء يدفعه للتقاطها ووضعها في جيبه. كان هذا متوقعاً. أنا نفسي جمعتُ العديد من الأشياء المتناثرة في الشارع وأخذتها معي إلى البيت، أشياء مثل قدر أو كيس حليب أو زجاجة حليب أو بعض الثياب والأحذية التي سرقها اللصوص ثم رموها على جانب الطريق. عثرت أيضاً على منجلٍ للحصاد وكيس من القماش لجمع القمح.

يقع بيت زعيم القرية عند مدخل الزقاق الثاني المتفرّع عن الشارع الرئيس. كان بيتاً جديداً من ثلاثة طوابق، مبنياً من الطوب الأحمر

والقرميد، ما يجعله أشبه بنارٍ كبيرة مشتعلة ليل نهار. هناك سور للفناء يبلغ ارتفاعه سبعة تشي⁽¹⁾ وبوابة بارتفاع اثنين تشانغ مكتوب على رأسها بأحرف ذهبية كبيرة: «مسكن غونغ». تشبه المصابيح الكهربائية أسفل الباب عينا زوجة الزعيم، كأنها واقفة في الشارع تكيل الشتائم للناس. حين وصلنا وهمنا بطرق الباب لاحظنا أنه مفتوح بالفعل. الفناء مضاء كأننا في أوج النهار. البيت أيضًا مضاء كأننا في أوج النهار. وعلى الرغم من أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل، داخلًا النصف الآخر، فإن زعيم القرية وزوجته لم يخلدا للنوم بعد. كانا يعدّان أطباقًا باردة وساخنة ويحتسيان النبيذ. ملأت رائحة النبيذ البيت وانتشرت في الفناء والشارع. أشجار الكمثرى والتفاح تتوزع في الفناء وتحت ضوء المصابيح تدلّت ثمار الفاكهة مثل مطارق صغيرة. حام البعوض والذباب بلا كلل، وكان زعيم القرية الخمسيني يحاول طردها بعيدًا وهو يشرب النبيذ. لم يكن بدينًا ولا نحيلًا، بل أحذب بعض الشيء. سحته الغليظة والحزينة تبدو شاحبة وخشبية. على الحائط صورة إله ولوحة مناظر طبيعيّة. هناك صور لدنغ شياو بينغ وماو تسي تونغ⁽²⁾. سقط ظلُّ الزعيم على الصورة الأخيرة. هناك أيضًا لوحة ضخمة للخالدين الثمانية⁽³⁾ وهم يعبرون المحيط، معلقة على الحائط بين الغرفتين الرئيسيتين، ما جعل الحائط بأكمله يبدو كبحر أزرق عميق. كان زعيم القرية يجلس على

(1) وحدة قياس صينية للطول، تعادل تقريبًا 33 سنتيمترًا، 1 تشانغ يعادل 10 تشي.

(2) دنغ شياو بينغ (1904-1997) سياسي وقائد الحزب الشيوعي الصيني. ماو تسي

تونغ (1893-1976) سياسي وثورى شيوعي ومؤسس جمهورية الصين الشعبية.

(3) الخالدون الثمانية: مجموعة آلهة من الميثولوجيا الصينية، كل منهم يمثل قيمة أو قوة.

شاطئ البحر يحتمي النبيذ. حين قَرَّب الكأس إلى شفّيته تنهّى صوت صفير يشبه أمواج المحيط؛ وعندما دَقَّت عيدان الطعام بحافة صحنه، بدا صوتها كمجاديف تضرب الشاطئ. «اللّعة! لم تفتحي الباب! كيف تجرّوين على ذلك؟»، واصل تقرّيعه وهو يشرب. «لم أُسئ إليك! لقد أحسنتُ معاملتك! لكنك لن تفتحي الباب مهما طرقتُ وصرختُ».

خرجت زوجته من المطبخ تحمل طبقًا من البيض والثوم الأخضر. نصف أزرار قميصها مفتوحة تكشف عن ثديين يشبهان حبّتي باذنجان متدلّيتين. مرّت بي وبأبي كأنّما تمرّ بعمودين من حجر. عمرها دون الخمسين ووجهها المبتسم الضارب لونه إلى حمرة داكنة يشبه كومة من طلاء جافّ. «لقد حضّرتُ لك طبقًا آخر يا غونغ تيان مينغ! قل لي الآن إذا، من تعاملتك بشكل أفضل؛ أنا أم تلك الأرملة!». جلست أمام زوجها وسكبت لنفسها كأس نبيذ وشربت نخبه. «بصرف النظر عن كونها صبية، لا أدري كيف ترى أنّ تلك الأرملة أفضل مني! لعلّك تعرف الآن إذا ما كانت صادقة في تعاملها معك أم كاذبة! لم تكتفِ بطردك بل صفعتك على وجهك أيضًا!». قرّبت الزوجة الطبق نحو زوجها. «تفضّل! هذا الثوم الأخضر هو فتات لحم الأرملة الهزيل! هذا البيض الأصفر هو دهنها وشحمها! هذا الطبق يُسمّى: الأرملة المقلية!». ثمّ وضعت وعاء من الحساء أمامه. «هذا حساءٌ مصنوعٌ من أضلاعها... هذا طبقٌ باردٌ مصنوعٌ من لسانها... هذه أئداء الأرملة المطهّوة بصلصة الثوم... فلتأكلها. فلتشرّبها. وبهذا تطفئ غضبي وتطفئ غضبك أيضًا». رمق الزعيم زوجته بنظرة استياء وحيرة. لكنّه في النهاية قبل نخبها. نظر

إلى وجهها الذي يشبه كومة طلاء جافّ ولم يقل شيئاً. وضع عيدان طعامه في ذلك الطبق المكوّن من بيض الأرملة النحيلة وثومها الأخضر. عرفتُ وأبي أنّ زعيم القرية وزوجته مسرّمان. في أثناء نومهما كانا يأكلان ويشربان ويقرّع أحدهما الآخر. في مدخل إحدى الصالات هناك أصيصان من الورود الصينية الحمراء كالدم. في تلك الليلة غرق زعيم القرية وزوجته في رائحة الطعام والورود والنبيد، غرقا في بركة طينٍ ودم. وقفتُ عند المدخل وتأملت وجه الزوجين اللذين عاشا معاً ما يقارب الثلاثين عاماً، كلوحٍ شطرنج نصفين.

«كلاكما مسرّم». كلاكما مسرّمٌ لذا اغسلا وجهيكما أو اشربا بعض الشاي. إذا فعلتما ذلك فستستيقظان».

دخل أبي إلى ردهة بيت زعيم القرية ووقف بجانب الطاولة الصغيرة التي كانا يشربان عليها النبيد. «أيّها الزعيم! عليك أن تستيقظ! ينبغي أن أجد طريقة لضمان عدم نوم أيّ شخص آخر من أهل القرية هذه الليلة، لكيلا يصبحوا مسرّمين وهذه طامة كبرى! بعض الناس ماتوا. مات عددٌ لا بأس به في الحقيقة. بعضهم غرقوا في النهر وبعضهم قُتلوا وهم يُسرقون. إن لم تقم بواجبك أمام قضية الحياة أو الموت هذه فستغرق القرية في فوضى عارمة؛ كفوضى وعاءٍ من العصيدة!». بعد أن قال هذا، ذهب أبي بحثاً عن حوض غسيل الوجه ثم أحضره مملوءاً نصفه بالماء. «اغسل وجهك! اغسل وجهك واستيقظ لعلّك تواكب ما يجري في القرية سريعاً! لا يجدر بك أن تقف مكتوف اليدين وأنت تشاهد أهل القرية يموتون واحداً تلو آخر».

نظر الزعيم إلى أبي وإلى الحوض ثم سكب لنفسه كأساً آخر من النبيذ وقال: «ظننتك وانغ إر شيانغ لكنك لست هي على ما يبدو. لماذا تطلب إليّ غسل وجهي؟». رشف رشفة أخرى ثم همّ بتناول لقمة طعام أخرى. التفت أبي إلى زوجة الزعيم. «هلاً غسلت وجهه!». نظر إليها وما لبث أن أشاح بعيداً. كان ثدياها ظاهرين من قميصها كالباذنجان المترهل.

«اغسلي وجه الزعيم ووجهك! هناك حوادث فظيعة في القرية ولا خيار أمام الزعيم سوى التحقيق فيها. إن لم يكن يلقي بالآل لأرواح الناس فلن يبقى أحد منهم على قيد الحياة. بعد أن تغسلي وجهك اغسلي وجه زعيم القرية. هيا! ليس وقت الأكل الآن! اغسلي وجهك أولاً كي تستيقظي ثم اغسلي وجه زوجك!».

وقف أبي هناك وهو يقول ذلك بينما واصل زعيم القرية وزوجته الأكل والشرب كأنّ لا أحد بجوارهما. وفي النهاية حين حاولتُ وأبي غسل وجه الزعيم بأنفسنا ثار غضبه. نهض على الفور ورمى العيدان من يديه. «اللعنة! كيف تجرؤان على لمس وجهي؟ أنتما زوجتي؟ أنتما وانغ إر شيانغ؟ خطوة أخرى منكما وسأترك زوجتي تطهوكما كما فعلت بوانغ! وبعدها سأكل لحمكما مع بعض النبيذ!». قال ذلك بصوت قويّ لدرجة بدا معها وجهه ممسوساً بروحٍ غاضبة بطوليّة، كأنه يريد أن يمسك كرسيّاً ويحطّمه على رأس أبي.

تجمّد أبي في مكانه. «أنا تيان باو. ألم تعرفني؟».

تراجع أبي خطوة. «أنا لي تيان باو بائع الأكاليل! أنا مستيقظ وأنتم نائمون!».

«اخرج!». جلس زعيم القرية وسكب لنفسه كأسًا من النبيذ. التقط زوج العيدان ومن دون أن يمسخ الأوساخ عنهما غرسهما في طبق الخضروات الباردة. ضحكت المرأة وهي تراقب زوجها وأبي. «أقول إننا مسرّنان! هل نظرتَ إلى وجهك! النعاسُ البادي عليه أثخن من جدار! ما الذي جاء بك إلى بيتنا في هذا الوقت؟ لماذا لم تخلد إلى النوم في بيتك! الوقت منتصف الليل! دع زوجي وشأنه! إنه زعيم القرية وليس أجيرًا عندك تستدعيه متى شئت! وأنت! تأكل وتشرب وتقول إنَّ هذا اللحم من فخذ تلك الأرملة! وهذا بعض من ثديها! فلتأكلها! إذا أكلتها فكأنَّك نمتَ معها. وبذلك لن تحنَّ إليها كثيرًا!». ظنَّت أنَّها تدغدغه بهذا الكلام لكنَّه رفع كأسه وهو يحدِّق إليها ببرودٍ وكراهية. وسرعان ما أشاحت بنظرها وصار صوتها همسًا:

«ما ذنبي إن أبّت أن تفتح لك الباب؟ ما ذنبي إن دفعتك وصدفتك على وجهك؟».

خرجنا من بيته، من حلم عائلته. الليل كما كان، وقع الخطي والغمغمات في كلّ مكان. الليل يكتنفه غموض وقلق يلفّان كلّ شيء كالهواء. كأنَّ هناك من يختبئ خلف كلّ شجرة وخلف كلّ جدار. لسبب ما، انطفأت فجأة كلّ المصابيح على طول الشارع الرئيس شأنها شأن مصابيح الشوارع في عموم البلدة. ليس واضحًا إذا ما كانت قد انطفأت في موعدها المحدّد - في الفترة الممتدّة بين الواحدة والثالثة صباحًا - أم إنَّ لصوًّا مسرّمين حطّموها. مهما يكن فقد غرق الطريق الآن في ظلام دامس وفي الأزقة المعزولة تدفقت تيارات العتمة الكثيفة. في هذه الليلة

المظلمة، كان وقع الخطى الخفية غامضاً ضبابياً لكنه في الوقت ذاته شديد الوضوح والرنين.

غدت الليلة ليلة هائلة للصوص وقطّاع الطرق.

غدت البلدة بلدة مريحة للصوص وقطّاع الطرق.

غدا العالم بأسره عالماً مثاليّاً للصوص وقطّاع الطرق.

شدّ أبي على يدي قائلاً: «انقطع التيار. لا تخف». في الظلام أومأت برأسي وقبضتُ على يده اليسرى أكثر من ذي قبل. كلّ يوم كان يشقُّ قضبان الخيزران ليصنع أكاليل الزهور وهذا ما جعل أصابعه خشنة ومتحجرة كنعلٍ حذاء. عدنا أدراجنا، وبعد خطوات قطعناها في الظلام استطعنا رؤية بعض النجوم في السماء. لاحظت أن الطريق تحت أقدامنا يشعُّ وهجاً موحلاً. سمعنا وقع خطوات تطاردنا. توقفنا واستدرنا. ومن دون أن ينتظر اقتراب الخطوات أصدر أبي تحية حارة: «مرحباً كائناً من كنت! افعل ما تشاء! أنا وابني لم نر شيئاً ولن نخبر أحداً». ومع ذلك، بقي الظلُّ يقترب مع تسارع الخطى أكثر فأكثر.

«هل أنتما من خرج من بيتي منذ قليل؟ لا بُدَّ أنكما من جاء إلى بيتي».

إنّه زعيم القرية.

زعيم القرية لحق بنا من بيته، من حلمه. في يده مصباح أضواء وجه أبي وجسده قبل أن يطفئه ويقف في الظلام كأنه يفكر.

«أيها الزعيم غونغ! إن كان لديك بعض أوراق الشاي فاطلب إلى زوجتك أن تغليها من أجلك. وإلا فعد إلى بيتك وسيأتيك نيان نيان بوعاء من الشاي».

ظَلَّ صامِتًا برهة ثم قال:

«قبل لحظة انتابني نعاسٌ شديدٌ وتشوّش ذهني أما الآن فالنعاس أقلّ وأشعر بأن شقًا انفتح في رأسي. حين كنت في بيتي، هل قلت إن هناك وفيات عديدة في القرية؟ لا واحدة فحسب؟».

«آه نعم! هناك الكثير من الموتى! جميعهم ماتوا مسرّعين أو تعرضوا لضربٍ قاتل. لهذا السبب عليك أن تقف على ما يجري من أمور بكّ يقظة».

هدوء الليلة مُفرّج، في غمرة هذا الهدوء شعر بعض الناس بالانزعاج بسبب الحرّ الخانق. حين تكلم أبي شعرتُ بقلقه ويده المتعرّقة. في المقابل حافظ زعيم القرية على هدوئه. في الظلام الدامس، تلاشى وجه الزعيم في الأعماق. في الأعماق المظلمة، بدا كأنه بلا وجه، مجرد جسدٍ ينتصب أمامنا كعمود. وقف هذا الجسد ساكنًا لوقتٍ بدا كالأبدية.

«بما أنّك، يا لي تيان باو، تباع أكاليل الزهور والأكفان كلّها مات أحدهم، فبلا شك ستجني بعض المال، لكنّه ليس مبلغًا كبيرًا على أيّ حال. بوسعي أن أعطيك مزيدًا من المال إذا ساعدتني هذه الليلة في شيء ما، ما رأيك؟ أريدك أن تجلب لي بعض السمّ. من بعدها، أريدك أن تستغلّ غياب عائلة ابني وخروج أهل البلدة جميعًا مسرّعين كي تدسّ السمّ في كأس زوجتي أو في وعاء حسائها، لعلّي أتمكّن من الزواج يار شيانغ. اتفقنا؟».

بلا حراك، حدّق الزعيم بنا بعد أن قال ذلك. بدا كأنه يمعن التحديق في شيء لا يراه. تساقطت قطرات العرق المتراكمة في كفّ

أبي. راحة يده الدافئة تحوّلت إلى بركة باردة ثم إلى كتلة من هواء بارد. «ما هذا الذي تقوله أيها الزعيم؟ كيف لي أنا، تيان باو، أن أفعل ما تقوله؟ لقد جئتُ لإخبارك عما يجري في البلدة فحسب... يمكنك أن تعود وتكمل ما كنت تفعله، وسأعود إلى البيت لأجلب لك بعض الشاي الثقيل». قال أبي ذلك وهو يسحبني بعيداً. في البداية خطونا خطوات صغيرة وسرعان ما تحولت لخطوات طويلة. وحالما بدأنا نركض التفت أبي إلى الظل الداكن الذي يلاحقنا فأبطأ سيره على الفور.

«ارجع إلى بيتك أيها الزعيم! ارجع! الحياة شيء ثمين! سأجلب لك الشاي حالاً!».

لم يأتنا ردّه إلا بعد برهة، مخترقاً الظلام: «أنا أحبُّ إر شيانغ جداً، فماذا بوسعي أن أفعل؟ ماذا عليّ أن أفعل؟». بدا صوته حارّاً، قلقاً، يائساً، يحمل في طياته لمحات من دفة. لم يتضح تماماً إذا ما كان قد استيقظ فعلاً أم لا يزال نائماً. لم يُعره أبي اهتماماً، وعندما تكلم من جديد نظر إلى الوراء وهو يومئ بشكل رمزيّ: «عد إلى بيتك يا زعيم! ليس في القرية من يكتّم السرّ مثلي! سأجلب لك شايًا يوقظك!».

سمعنا خطوات الزعيم عائداً إلى بيته؛ خطوات بطيئة متثاقلة، كأنه ما يزال يتساءل حيراناً عما إذا كان عليه أن يقتل زوجته كي يتزوَّج إر شيانغ أم لا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في البلدة مخفر شرطة.

يقع المخفر في الفناء المقابل للمجمع الحكومي، فناء فيه أشجار ومصابيح ومراوح كهربائية. كان كل رجال الشرطة نائمين في الفناء مغتنمين برودة الجو. ضوء المصباح الأصفر يشبه بركة ساطعة. بوابة الفناء مصنوعة من قضبان الحديد والفولاذ، وإذا تسلّقتها رأيت في الداخل خمسة أسرة من الخيزران متلاصقة كحاويات الجثث. نهض رجال الشرطة الخمسة -الذين كانوا نائمين على الأسرة كجنود الثكنات- واحدًا تلو الآخر. كالجنود، انتعلوا أحذيتهم ثم توجهوا إلى الجدار الخلفي للفناء حيث تبوّلوا، كلّ يمسك عضوه بيده. بعدها قال أحدهم شيئًا -ربّما رئيس المخفر- فنفض الرجال الخمسة قطرات البول المتبقية وعادوا.

على نحو مرتّب وموحد خلعوا أحذيتهم واستلقوا في أسرهم. تدفق صوت أنفاسهم وشخيرهم كالماء في قناة.

«الموت يعمُّ البلدة! ألن تفعلوا شيئًا؟ الموت يعمُّ البلدة! ألن تفعلوا شيئًا؟»، صحت أنا وأبي من خلال قضبان البوابة الحديدية. نهض ثلاثة منهم وكالوا شتائم ناحية البوابة كأثمهم يرمون أحجارًا. «اذهبوا! ما كل هذه الضجة التي تفعلونها في منتصف الليل؟ أتريدوننا أن نعتقلكم؟ ها؟». عادوا إلى نومهم بالانتظام ذاته، وسمع صوت اصطدام أجسادهم بالأسرة الخشبية، كأنّ عشرات شرائط الخيزران من إكليل زهورٍ قد انكسرت في وقت واحدٍ في منتصف ذلك الليل المظلم.

ثم ساد الصمت مرة أخرى، باستثناء صرير الأسنان الإيقاعي.

3. (3:00-2:36)

تسرّنا موظفو البلدة الحكوميون أيضًا.

بدؤوا السير نيامًا، جائبين كلّ الجهات. وحدها المصابيح وأنابيب النيون مستيقظة تضيء. ظهرت بوضوح شقوق الطوب القديم الذي يعبد فناء المبنى الحكومي. إذا سقطت إبرة في أحد هذه الشقوق فسيُعثَر عليها فورًا. حام البعوض والذباب في الضوء. عرائش العنب الواقفة في الفراغات بين النور والظلام تشبه مصفوفة غامضة يختلط فيها الضوء والظل. يتجاوز عمر المبنى مئة عام ويبدو طوبه وبلاطه مأخوذان من معبد قديم أو من قصر بكين الإمبراطوري. كان في الأصل بيتًا لأحد نبلاء العهد الجمهوري ثم تحوّل لاحقًا إلى مقرّ حكوميّ للبلدة. نظام إثر نظام استخدم هذا المبنى مجمع مكاتب؛ وعمدة بلدة تلو آخر أقام في مبنى الطوب والبلاط هذا. هنا قرأ المسؤولون الصحف ودقّقوا الوثائق الرسمية وعقدوا الاجتماعات. هنا أشرفوا على القرى التابعة للبلدة، بالإضافة إلى كلّ ما يقع في نطاق جبل فونيو. في تلك الليلة بالتحديد، تسرّنا الموظفون الحكوميون جميعًا؛ عمدة البلدة ونائبه وموظفو ذلك المبنى، ذوو المناصب الرفيعة والصغيرة.

في أحلامهم جسّدوا مشهدًا تاريخيًا لإمبراطور سلالة. قبل نصف شهر، جاءت فرقة مسرحيّة إلى البلدة وقدمت عرضين هما: «إنقاذ الجنرال يانغ» و«قضية باو غونغ». أُعيد استخدام أزياء هذين العرضين؛ فقد

ارتدى عمدة البلدة الرداء الإمبراطوريّ وارتدى نائبه زيّ كبير الوزراء. طُرُزت أردية الإمبراطور برسومات تينّ وعنقاء مع حوافّ مذهّبة وأكمام عريضة. لرداء الإمبراطور وكبير وزرائه حوافّ مذهّبة وأحزمة حمر. أما ملابس الإمبراطورة الأرملة ومحظيات الإمبراطور الكثيرات فكانت مرصّعة بزخارف اليشم التي تتلأأ في الضوء. بين حين وآخر تُسمع أصوات اصطدام الذهب باليشم. في تلك الليلة، تحوّلت ردهة المبنى الحكوميّ وقاعة اجتماعاته بأكملها إلى بلاط إمبراطوريّ على الطراز القديم. اتبع كلّ مسؤولي المقاطعة التقاليد وارتدوا ثياباً إمّا عسكريّة وإما مدنية. رُقّيّ المنايب والطهاة وارتدوا ثياب القادة والخصيان. تألّقت ملابسهم البرّاقة بالجواهر. سطع ضوء المصابيح وتراءى صفّ الفوانيس الحمر عند المدخل. عمّال التنظيف أضحوا مسؤولين يقفون في الردهة بجوار الوزراء ويرفعون لافتات مكتوب عليها: «الصمت!». مذيّعات محطة البثّ الحكوميّة أصبحن الآن إمبراطورات وأميرات وسيدات بلاط مسؤولات عن تهوية الإمبراطور بالمرّاح. كان الجوّ هادئاً للغاية، وبصرف النظر عن الإرهاق الكامن في عيون الجميع، غلب الفضول والانبهارُ على ملامح من كافحوا للبقاء مستيقظين. كانوا أشبه بأناسٍ يبذلون جهداً كلّ ليلة قبل النوم للاستماع إلى شيءٍ ما أو لمشاهدته أو للقيام به. ركع موظفو البلاط والقادة العسكريّون أمام الإمبراطور-العمدة، المترّبع على عرشه، أمام طاولة منحوتة ذات حوافّ مذهّبة استُخدمت في مسرحيّة القصر. على الطاولة ختمٌ إمبراطوريّ كبير من اليشم ملفوف بالحرير الأصفر. الختم موضوع وسط الطاولة وعلى جانبيه حامل أقلام

وفرشاة كتابة وفنجان شاي صغير له غطاء. أحضرت سيدات القصر للعمدة حساء عَش الطيور والفطر الأبيض. انزعج العمدة قليلاً حين نظر إلى وعاء الحساء فرفع ذراعه مشيراً لنساء القصر بالانصراف. «تكلّموا! مشكلات العالم لا تُحل بالركوع!». نبرة صوت العمدة بدت تماماً كنبرة إمبراطور. تحدّث ببطءٍ وبدا مستاءً بعض الشيء. نظر كبير الوزراء ومسؤولو البلاط إليه ورأوه يرفع وعاء الحساء ليرشف منه. وحين علموا أن الإمبراطور في حالة ذهنية هادئة تضاءلت مخاوفهم. قال الإمبراطور: «فلتجلسوا وليتحدّث كلّ بدوره». عندها نهض الوزراء وكبيرهم والقادة العسكريون وانحنوا أمام الإمبراطور فرفرفت أكمامهم وعبروا عن امتنانهم بصوتٍ عالٍ: «شكراً لجلالتكم!». ثم اتخذوا أماكنهم؛ بعضهم جالسون وبعضهم واقفون، أمام الإمبراطور أو من حوله.

«من سيتحدّث أولاً؟ فليتكلم كبير الوزراء. أخبرنا من فضلك؛ ماذا رأيتم في رحلتكم إلى جيانغ نان الشهر الماضي».

تقدّم كبير الوزراء سريعاً وانحنى انحناءً طويلة مرفقاً كميّه باحتفاءٍ وقال: «نشكر لجلالتكم السخاء الإمبراطوريّ اللامتناهي الذي بعث بخادمكم المتواضع إلى الجنوب أكثر من شهر. مرّ خادمكم بشأن دونغ وشيوي تشو ثمّ استقلّ قارباً زار به عدّة مدن، من نان جينغ إلى وو شي ويانغ تشو وسو تشو وصولاً إلى هانغ تشو. بقيت متخفّياً أينما ذهبتُ ولم أزعج أحداً قطّ. أينما وطئتُ بقدمي وجدتُ السلام والرخاء ولم أصادف من لم يعبر عن عميق امتنانه للإمبراطور وهو يهتف: عاش الإمبراطور! عاش الإمبراطور! عاش عاش!».

عندما سمع الإمبراطور ذلك لَوَّحَ بيده. «هذا هو الحال دائمًا. الأمور على حالها». قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة وتلألأت عيناه ببريق البهجة. «ومع ذلك لا بُدَّ من الإقرار؛ الطريق من بكين إلى جيانغ نان ليس باليسير ولا بالمريح أبدًا. الرحلة سيرًا على الأقدام طويلة وشاقة، وحتى لو امتطيت حصانًا فستحتاج إلى أكثر من شهرٍ من الإرهاق والمشقة. سأمنحك إجازةً لك ولعائلتك كي تقضوا العطلة في قصر تشنغ ده الصيفي». لَوَّحَ مرة أخرى وأشار لكبير الوزراء أن يتراجع. ثم أشار العمدة إلى القادة الواقفين على جانبيه. «أيها الحاكم لي! مرّت بضعة أيام على عودتك من الحدود. أخبرنا من فضلك عن الأوضاع هناك. أخبرنا عن حال الناس الذين يعيشون هناك وعن بؤس حياتهم». تقدّم الحاكم لي تشوانغ، من إدارة الجيش، وانحنى ثم نظر إلى الأعلى. وكان صوته رنانًا كطبلٍ.

«نشكر لجلالتكم السخاء الإمبراطوريّ اللامتناهي الذي بعث بخادمكم المتواضع إلى الشمال الغربيّ لتفقدُ الحدود. قبل ثلاث سنوات عانت الحدود من ويلات الحرب. اشتباكات عسكرية متتالية جعلت الناس لا يكسبون لقمة عيشهم إلا بشقّ الأنفس. أينما ذهبت رأيت أعدادًا لا تحصى من الناس يتضوّرون جوعًا أو يعانون بسبب الكوارث الطبيعيّة. كثيرًا ما اعترض الناس طريقنا لتسوّل الماء والطعام. كانت قبائل الشيونغ نو⁽¹⁾ القاطنة على امتداد الحدود تشنُّ الهجمات مرارًا وتكرارًا. في الليل

(1) مجموعة من شعوب رحّل عاشوا في السهوب شمال الصين خلال حكم سلالة تشين وهان. كانوا في نظر الشعوب الصينية برابرة فحاربوهم تارة وفرضوا عليهم الجزية تارة أخرى.

مارسوا السرقة والسطو وفي النهار مارسوا النهب والخطف وفي مواسم
الحصاد ثار جماعهم فامتطوا خيولهم مدججين بالأقواس والسهم
وحرقوا ونهبوا واغتصبوا وقتلوا. ونتيجة لكل هذا ما عاد سكان الحدود
قادرين على الاعتماد على الزراعة وعانوا شحّ الغذاء لدرجة اضطرّ معها
كثيرون إلى ترك أراضيهم وبيوتهم والانتقال إلى المناطق الداخلية. دافعنا
عن الحدود وخضنا سلسلة من المعارك الشرسة. لم تخل معركة واحدة من
قتلى وجرحى لكن جنودنا لم يتقهقروا لحظة قطّ. بل قاتل الجيش بأكمله
قتال رجل واحد وآثر الجميع الموت على الانسحاب. أشرفتُ على قيادة
الهبجوم ساعياً لضمان صدّ جنود العدو عند وصولهم كما يحدث حين نبني
السدود لاحتواء الفيضانات. خلال معركة جبل تشي ليان أُصبت ثلاث
مرات بالسهم لكنني واصلت التقدّم على الرغم من ذلك. لم أنزل عن
حصاني ثلاثة أيام بلياليها ولم يفارق سكيني يدي. تناولت الطعام على
صهوة جوادي ونمت على السرج. وفي النهاية تمكّنّا من هزيمة العدو
وأجبرنا مقاتلي الشيونغ نو على التراجع أكثر من مئة وعشرين لي. عقب
ذلك اندلعت حرب الشمال الغربيّ على مصراعيها وفزنا في كلّ معركة
خضناها، وخسر العدو في كلّ اشتباك واضطرّ إلى التراجع مرة إثر مرة.
ونتيجة ذلك استعدنا الأراضي الشماليّة الغربيّة أخيراً وحلّ السلام في
المنطقة. عاد السكّان إلى أراضيهم واستأنفوا زراعتها وتمتّعوا بخيرات
الوطن ودفئه. في الوقت الحالي ينعم كامل الشريط الإقليمي الذي يشمل
شان شي وغان سو ونينغ شيا ومنغوليا بالسلام. كان موسم الحصاد
وفيراً، الشعب والبلاد في رخاء والصناعة مزدهرة. في أنحاء الشمال

الغربي كلها، أينما رأى الأجانبُ جنرالاً أو جندياً من شعب الهان ركعوا على الفور لكم ولجيشكم وهتفوا «عاش الإمبراطور!» ثلاثاً. وبعودتي إلى البلاط كل مرة أنقل لجلالتكم ولاء الشعوب المختلفة وأمانهم الحارة: «عاش الإمبراطور! عاش الإمبراطور! عاش الإمبراطور!».

هذا الخطاب الطويل من نائب رئيس الجيش كان بليغاً وقوياً للغاية، وعندما سمعه القادة الآخرون انعقدت ألسنتهم. ذهلوا أمام هذا القائد الصغير، الخطيب المفوّه، من أحفاد الجيل الثاني عشر للقائد لي تزي تشنغ. حتى عمدة البلدة كان مسروراً ورمق نائبه بإعجاب أيضاً. مسؤولو البلدة الآخرون في الاقتصاد والإدارة والتعليم كانوا وزراء بارزين لكنهم شعروا بالخجل لقلة كفاءتهم أمام بلاغة هذا القائد العسكري. أدركوا أن العمدة سيفضله عليهم، وساورهم القلق من ترقيته إلى منصب رئيس قسم أو نائب العمدة المكلف بالإشراف على النظام العام أو حتى حاكم عسكري مسؤول عن خفر الحدود. وفيما كانت كل الأنظار تحوم حول حاكم الحدود ذاك، بحذائه وزيه العسكريين، سمع المسؤولون العمدة يضحك. نهض وسار نحو الطاولة ثم عاد ووقف بجانب العرش ومعه الختم الإمبراطوري.

«أيها الحاكم لي! إن إنجازاتك المدنية وبراعتك العسكرية على درجة من التميز، فأنت موهوبٌ وذو فضلٍ وقد حققت أهدافك في حماية الحدود. خلال السنوات الثلاث الماضية كان شعب الشيونغ نو يکنّ لك التقدير ويدفعون جزيّتهم كلّ عام. لذا، تطبيقاً للنظام الإمبراطوري وضماناً لبقاء المكافآت والعقوبات صارمة ونزمية،

أصدرُ قرارًا بترقيتك إلى منصب الحاكم العام مع سلطةٍ على الشؤون العسكرية والمناوشات الحدودية في الشمال الغربي والشرقي ومناطق تايوان وغوانغ دونغ وغوانغ شي وغيرها من المناطق الحدودية». مبتسمًا نظرَ الإمبراطور إلى المسؤولين المدنيين والعسكريين المجتمعين أمامه ثم تنهّد بعمق. كأنّه شعر أخيرًا بالأمان بعد أن اطمأنَّ إلى أنَّ كلَّ شيءٍ في وئامٍ وسلامٍ. «هل لدى وزيرى التعليم والإدارة المدنية ما يؤدّان قوله؟».

تبادل الوزيران النظرات ثم تقدّم الأخير وانحنى مرفرفًا بكمّيه. «وزيركم المتواضع لديه أمر واحدٌ يؤدّ الإبلاغ عنه لكنّه لا يعرف إن كان ملائمًا أم لا؟».

«تكلّم!»، قال الإمبراطور وهو ينظر إلى الوزير نظرة تشبه تلك التي كان ليوجهها إلى أحدِ العوامّ الصارخين ضدّ الظلم. «حكومتي مجتهدة ومزاجي اليوم عالٍ. لذا فلتحدّث بما تشاء!».

وقف الوزير ونظر إلى الإمبراطور ثم التفت إلى صفّي المسؤولين الواقفين على جانبيه.

«هذا الصيف، تنعم الشعبُ الذي باركهُ الفضلُ السامي للإمبراطور بعشرة آلافٍ لي من الحصاد الوفير. حبة القمح بحجم حبة الدُّخن. لكنَّ عالم الفلك الملكيَّ أرسل مؤخرًا رسالةً مستعجلةً أبلغ فيها أنَّ أمطارًا غزيرة ستَهطل في غضون ثلاثة أيام، وأنَّ الجو سيبقى غائمًا مدة نصف شهر أو شهر على الأقلّ، وأنَّ المطر سيغمر معظم الأراضي الخاضعة لسلطتنا. إن لم نسارع لحصاد ما تبقى من قمحٍ فسيفسد معظمه في الحقول

وسيحلّ شتاءٌ كارثيّ يجوع فيه الناس في عموم البلاد. وبناءً على توقعات الفلكيّ، قد تكون مملكتنا حاليًا مستقرّة وهادئة وأناسها يحتفلون، لكن تحت هذا السلام الظاهر تكمن كارثة عظيمة. لذا فلتترقب الخطر المحيق يا جلالة الإمبراطور. ولعلّك تأمر، استباقيًا، بالعمل حتى الليل في حصاد الحبوب وتخزينها، والاستعداد للفيضانات ببناء السدود وتأمين بيوت القرويين. وبهذه الطريقة لن يعدم الناس أرزاقهم ولن تُثار القلاقل الخفية في المنطقة وسنحول دون وقوع الكارثة. أمل أن يرلي جلالة الإمبراطور نصيحتي المتواضعة اهتمامه».

بعد أن أنهى الوزير كلامه انحنى ورمق الإمبراطور بنظرة خاطفة. استاء الأخير لكنّه لم يقل شيئًا. بل ثئاب وبدا عليه الانزعاج. لذا توتّر وزير الإدارة وبدا على وشك أن ينقضّ على نفسه بنقذٍ لاذعٍ وإذا - في تلك اللحظة تحديدًا، كما يجري في عروض الأوبرا، حين تبلغ القصة ذروتها - بأحد الحراس المتمركزين خارج القصر يدخل مسرعًا ويقف أمام الوزراء والإمبراطور ثمّ ينحني ويعلن:

«أبلغ جلالة الإمبراطور عن اثنين من مثيري الفوضى اقتحما القصر ولم يستطع خادماكم المتواضع صدّهما. لقد أصرّا على رؤيتكم وزعما أنّ الفلاحين يواصلون حصاد القمح طوال الليل على الرغم من الوفرة، كأنّهم مسرّمون. وفي هذه الأثناء استغلّ بعض الناس نوم الآخرين أو غرقهم في الأحلام فأخذوا يسرقون وينهبون ويقتلون. باختصار هناك فوضى كبيرة ومصير الإمبراطورية على المحك. أرجو من جلالتم توضيح إذا ما كنتم تسمحون برؤية هذين المشاغبين أم لا».

نظر العمدة إلى الحارس وسأله: «أأنت متأكد من أنها مشاغبان؟». فرك الحارس عينيه الناعستين. «بكل تأكيد. إنَّهما أبُّ وابنه لديهما متجر جنائزيّ في البلدة. يجنيان أموالهما على حساب الموتى».

أشاح الإمبراطور بنظره عن الحارس، ورمى وزير الإدارة، الذي حذّر من كوارث وشيكة، بنظرة باردة. شخر ثمّ نظر إلى لي تشوانغ، الحاكم العسكريّ للحدود ونائب رئيس الجيش وقال: «أيّها الحاكم! نحن بحاجة إليك على الحدود بقدر ما نحتاج إليك في الداخل! اذهب وانظر إلى ما يجري في الخارج... لديّ كلمة واحدة فقط لكلّ من لا يحترم قوانيننا ويدّعي أنّ الإمبراطورية ليست مزدهرة وشعبها لا يعيش في سلام: الإعدام!». انعقد لسان الجنرال لي حين سمع ذلك. أشاح نظره عن الوزراء وغادر القصر.

كان لي تشوانغ، نائب رئيس الجيش، وهو في الثلاثينيات من عمره، مكلفًا بحفظ الأمن ومعالجة الشكاوى منذ عشر سنوات تقريبًا. خلال هذه الفترة، تذلل وضحّى لكنّه لم يحظَ بترقية فأضمر حقًا. كانت هذه فرصته وعليه اغتنامها! فسار متجهًا نحو البوابة.

لم يكن المبنى الحكوميّ واقعًا في أكثر أحياء البلدة حيويّة بل في أقصى الزاوية الشمالية الشرقية. أمام المدخل الرئيس زوج من الأسود الحجرية العائدة للعهد الجمهوريّ، بالإضافة إلى أبراج المدافع الواقعة عند كلّ زاوية من الزوايا الأربع للمجمّع. الدرج الحجريّ لا يزال قائمًا أيضًا. طافت السحبُ في السماء ملقية ظلالها على الأرض. كلّ مصابيح الشوارع مطفأة ما عدا مصباح المدخل الرئيس لفناء المبنى الحكوميّ

للبلدة. لذا كان المجمع، في جنح الليل، مختلفًا عن شوارع القرية
 وكانت المباني الحكومية مختلفة عن بيوت العوام. انتظرنا أنا وأبي عند
 البوابة الخارجية لهذه المدينة المحرّمة. في أثناء ذلك اقترب منا شخص،
 كان رجلًا عجوزًا مسرّنًا، شعره جافّ، بلا أسنان، حين يغلق فمه
 ترى انخفاضًا عميقًا في وجهه. كان أحد موظفي البلدة الصغار الذين
 يعتاشون على عطايا الحكومة. عمره اثنان وسبعون عامًا، واعتاد على
 استجداء الحكومة منذ ثمانية عشر عامًا. كلّما احتاج إلى المال طرق باب
 الحكومة التي تعطيه القليل فيعود أدراجه، وكلّما افتقر إلى طعام طرق
 باب الحكومة التي تمنحه بعض الأرز والدقيق. لم يتقدّم سواه بطلباتٍ
 مماثلة. عندما مات ابنه في أحد مصانع المنطقة، زعم صاحب المصنع أن
 الوفاة حدثت بسبب المرض ولم يدفع للأب أيّ تعويض. فما كان من
 العجوز إلا أن جاء ليطالب بالتعويض. وفي وقت لاحق حين لم يتلقَ أي
 دعمٍ خاصٍّ بكبار السنّ قدّم اعتراضًا أيضًا. أما في ليلة السرّنة الكبرى
 تلك، فافترضت وأبي أنّ العجوز جاء مسرّنًا للتظلم وطلب الإنصاف.
 عندما مرّ بي لاحظتُ اصفرار عينيه تحت ضوء المصباح وسمعته يتمتم
 بكلام غير مفهوم إلى حدّ ما. ومع ذلك أضاءت ابتسامة شاحبة وجهه.
 «لن أطلب بالتعويض بعد الآن! لن أطلب بالتعويض بعد الآن!».
 وفيما كان يتمتم تراءت طبقة تلو أخرى من الابتسامات على وجهه.
 وحين بادر أبي بسؤاله عن سبب رغبته بالآ ليطالب الحكومة بشيءٍ ظهر لي
 تشوانغ - المكلف بقمع أعداء الخارج وحفظ سلم الداخل - عند المدخل.
 ارتدى زيّ قائدٍ عسكريٍّ في مسرحيّة تقليديّة. مشى مشية عسكرية وتحدّث

كأنه نائمٌ يحلم. ظهر عند المدخل، واقفاً على الدرج الحجري، ونظر إلينا من علٍ. وقبل أن يتمكن لي تشوانغ من الحديث تقدّم إليه العجوز قائلاً: «أيها النائب لي! لن أطلب بالتعويض بعد الآن! لقد أتيتُ لأخبرك أنت وعمدة البلدة أنني كلما أتيتُ أطلب منكم إنصافي وعوني، تسألاني كيف أنفقتُ المال الذي مُنح لي في المرة السابقة، لكن الحقيقة أنني أنا نفسي لا أعرف كيف أنفقته بهذه السرعة. أتذكر جيّداً أنني كنت أضع المال تحت وسادتي وبعد بضعة أيام يختفي فلا يكون أمامي خيار سوى المجيء والمطالبة بالمزيد. في هذه الليلة رأيتُ حلماً؛ رأيتُ أنني أخفي المال الذي أتلقاه منكم، خشية ضياعه، داخل كوة في شجرة قديمة خلف بيتي. لذا خرجت أبحث عن تلك الكوة وعثرت على أكثر من ثلاثين ألف يوان. بحثت في شجرة أخرى فوجدتُ أكثر من ألفي يوان. بحثتُ أيضاً في صدع الجدار خلف سريري وفي الشقوق بين طوب الأرضية. في المجموع أقدر أنني وجدتُ مئة وثلاثة وعشرين ألفاً وثمانمئة يوان. مع هذا المبلغ الكبير لم أعد بحاجة لتقديم الطلبات. هذا يكفيني لأعيش حياة مريحة بقية عمري. هذا يكفيني في شيخوختي ويغطي نفقات جنازتي. جئتُ، أيها النائب لي، لأخبرك أنت والعمدة بأنني لن أطلب بتعويض بعد الآن! لن أطلب بشيء ولو على قطع رأسي!».

صعد العجوز الدرج مغمغماً ضاحكاً. اقترب من لي تشوانغ وكرّر الرقم «مئة وثلاثة وعشرين ألفاً وثمانمئة يوان» ثلاث مرات. حاول المضيّ قدماً لكنّ لي تشوانغ اعترض طريقه وسمعناه يقول: «لن تطالب بتعويض بعد الآن حقاً! أنت متيقّنٌ من ذلك؟».

سحب لي تشوانغ العجوز نحوه وتحدّث إليه بهدوء وبرود.

«إذا توقّفت عن المطالبة بالتعويضات فماذا سأفعل أنا بصفتي المسؤول عن معالجة هذه المطالب؟ إذا فعلت ذلك فلن تتلقى البلدة حصّتها الشهرية البالغة قيمتها مئات اليوانات لمعالجة هذه المشكلات. إذا توقّفت عن مطالباتك هذه فكيف سأكون جنرالاً عظيماً يردع أعداء الخارج ويحفظ سلم الداخل؟ اسمعني؛ عليك أن تستمرّ في تقديم المطالبات كلّ شهر. كلّ شهر وكلّ عام. عليك أن تذهب إلى ساحة المقاطعة للتعبير عن مظالمك. هل فهمت؟».

قال ذلك وهو يهزّ كتفي العجوز. يبدو أنّ الهزّ أيقظه. حدّق العجوز ذاهلاً لحظة ثم شهق. لقد استيقظ فعلاً. حدّق إلى بي تشوانغ وصار صوته عالياً مستعجلاً.

«أيها النائب لي! لماذا ترتدي زيّاً عسكرياً مسرحياً وتحملق بي؟ أنت مسرّنم؟ لقد كنتُ نصف نائم قبل قليل لكنني فعلاً وجدت المال الذي لم أعرف بوجوده. هناك مئة وثلاثة وعشرون ألفاً وثمانمئة يوان. بعد أن حصلت على هذا المبلغ لم أعد أرغب في تقديم المطالبات. لا أريد ذلك حقاً بعد الآن».

لم يقل النائب لي شيئاً، شأنه شأن الجنرال لي. حدّق إلى العجوز برهة ثم دفعه إلى الخلف وشمر كمّي زيّه المسرحي ورفع رداءه العسكري المنسدل على الأرض.

«أما زلت تتوقّع مني مقاومة أعداء الخارج وحفظ السلم الداخلي؟ بفعلتك هذه ستجعل من موظف البلدية المسؤول عن معالجة المطالبات

عاطلاً عن العمل. إذا توقفت عن المطالبة فلن يتأثر مستقبلي ومستقبل العمدة فحسب، بل سيتأثر الوضع المالي للسلالة الحاكمة الحالية. أتدري ذلك؟». وفيما كان يقول ذلك خلع رداءه العسكري بمهارة وتركه يسقط على الأرض ثم وقف أمام العجوز. «لم أعد النائب الأحق لرئيس الجيش! بل قائد السلالة الحاكمة الحالية والمسؤول عن الارتباطات الخارجية والشؤون الداخلية للبلاد. سأقتل كل من لا يطيعني! إن تجرأت على ذلك فسأقتلك!».

قال ذلك وهو يلکم العجوز في صدره، لكمة قوية جعلته يترنح. وقف العجوز ساكنًا؛ العجوز الذي اعتاد على استجداء عطايا الحكومة منذ ثمانية عشر عامًا لم يعد يرغب في ذلك وما زال لا يفهم آلية عمل الحكومة ولا مسائل الاستقرار الوطني. «لا بد أنك مسرנם. إن كنت كذلك فحديثي ليس معك. أريد أن أقابل عمدة البلدة. لا أريد الاستمرار في تقديم المطالبات حقًا. لا أريد ذلك حقًا»، قال العجوز وهو يتجه نحو المجمع الحكومي. شق لي تشوانغ طريقه بين المارة الذين تجمهروا وعثر على عصا أخيرًا في مكان ما. العصا بطول قدم وبعرض ساعد رجل. انهال بها فجأة على رأس العجوز فتطاير الدم على الفور. «آآآي... آآآي...»، مطلقًا هذه الصيحات، تداعى الموظف الوضع، الذي واطب على استجداء الحكومة ثمانية عشر عامًا، فوق درجات المبنى.

مات العجوز على الدرج.

لكنه قبل أن يموت نظر إلى السماء وصاح: «لن أطلب بالتعويض بعد الآن! لن أطلب بالتعويض بعد الآن!».

سالت دماؤه بعد الصرخة الأخيرة. بقينا أنا وأبي أسفل الدرج. هناك حارسٌ يرتدي زيًّا عسكريًّا وهو شاب في العشرينيات من موظفي الحكومة، عُيِّن بسبب صلة القربى التي تجمعها بعمدة البلدة. بقي واقفًا خلف النائب لي طوال الوقت يراقب ما يجري من فوضى. حين شاهد العجوز يسقط على الدرج سارع راکضًا إلى الفناء يصرخ:

«هناك ميت! هناك ميت!».

دوّت صرخاته كانهيار مبنى، كسماء تتداعى، كأرضٍ تنشقّ. لم يحرك النائب ساكنًا. وقف متسمّرًا كمسؤول رفيع. «لقد رابطتُ على الحدود منذ ثلاث سنوات. ذبح مقاتلو الشيونغ نو الآلاف والآلاف من الناس وأخشى أن يثير واحدٌ منكم المشكلات والمتاعب». ألقى عصاه والتقط زيّه المسرحيّ عن الأرض ثم نظر إلّى وأبي. «لا بدّ أنّكما من تديران متجر العالم الجديد الذي يبيع أكاليل الجنائز. تسبّبت لكم بطلبيّة جديدة!». نفّض التراب عن زيّه. لم يكن متأكّدًا من اتساخه في الحقيقة لكنّه أدّى بضع حركات.

«اسمعوا كلامي جيّدًا: هذا المبنى ليس لحكومة البلدة بل هو قاعة عرش المدينة المحرّمة. وأنا لستُ النائب لي بل القائد العام للسلالة. إذا تجرّأ أيُّ منكم على المساس بالقصر الإمبراطوريّ أو على إثارة الشغب وعصيان الأوامر فستلقون المصير ذاته... مصير هذا المشاغب الوضيع!».

وبينما ينفض الغبار عن زيّه بلطفٍ استدار ومشى بخطى وئيدة إلى قصره. خطوة إثر خطوة. تحت ضوء المصباح انزلق ظلّه بهدوء إلى الفناء

قديم الطراز. فناء مبنى الحكومة في البلدة؛ القصر المهيّب لليلة السرّنة
الكبرى تلك.

شاهدتُ وأبي ما شاهدناه ذاهلَيْن. شعرنا بقشعريرة وارتعاش. يدُ
أبي المسكة بيدي غارقة بعرقٍ باردٍ، ويدي غارقة بعرقِ أبي الذي يشبه
ماءً مثلّجًا. جسدي بأكمله مغطى بعرقٍ باردٍ كالثلج.

الكتاب السابع

الهزيم الخامس، الجزء الأول:

الفراخ والطيور تُخلَق بعيدًا

1. (3:01-3:10)

ينبغي ألا نتركهم يسرون نيامًا.

مات الناس بسهولة، بالسهولة التي يكرّ فيها مسرّنم أسنانه. سرقوا ونهبوا بسهولة، بالسهولة التي يغمغم فيها مسرّنم. عدنا أدراجنا من المجمع الحكومي لكن أبي لم يهتد لطريقة يمنع بها جموع الناس من السرنة. طلب إلى أمي أن تأخذ موقد الغاز ووعاء من الألمنيوم إلى الساحة، وهناك أشعل الموقد وغلى الماء وأضاف إليه عدة حفنات من أوراق الشاي.

ثم ذهب إلى العطّار واشترى كلّ ما عنده من بلورات رهج الغار⁽¹⁾ الذي يبّدد النعاس وينعش الروح ووضعتها في وعاء الشاي.

في منتصف الليل كانت البلدة دامسة الظلام لكن نارنا أضاءت الساحة بسطوع. اقترب منا أناس غير مسرّنمين أو استيقظوا لتوهم.

(1) رهج الغار أو الزرنينخ الأحمر؛ على الرغم من سميته ما زال يستخدم بكثرة في الطب الصيني التقليدي.

ثلاثة رجالٍ ثم خمسة ثم ستة. وقفوا في الساحة وشربوا شاي رهج الغار.

في تلك الليلة بات أبي قديسًا حقيقياً. طلب إلى أمي وإلى كل مستيقظ تحضير المزيد من ذلك الشاي. وجد جرسًا في مكانٍ ما وراح يمشي في الشوارع والأزقة وهو يصيح: «هيببي! إنَّها ليلةُ المسرمنين! حذارٍ من اللصوصِ وقطّاعِ الطرق!».

«هيببي! زعيم القرية ومسؤولو البلدة جميعًا مسرمنون! حريُّ بنا أن نحمي أنفسنا من اللصوص!».

«هيببي! على مَنْ يغالبه النعاس أن يخرج إلى الساحة ويشرب الشاي! تعالوا اشربوا شاي رهج الغار! سيتلاشى نعاسكم على الفور وستشعرون بأعلى درجات اليقظة!».

مع كلّ قرعة جرس فُتحت أبوابٌ ونوافذ. كأنَّ كلّ المسرمنين توافدوا إلى الساحة فزاد الصخب. شربوا الشاي الممزوج برهج الغار وتحدثوا عما جرى في ليلة السرنمة تلك. «أيعقل؟»، تكرّرت كلماتُ التعجّب. «أيعقل أن تشهد قريتنا غاوتيان حدثًا كهذا! حدثًا يجري مرة في القرن! بل في الألفيّة! وباء السرنمة المستشري! أمرٌ لا يصدّقه عقلٌ ولكن لا مفرًّا!». صدى الخطى يتردّد في كلّ الشوارع والأزقة كأنَّ العالم بأسره وقعُ خطى. الجميع يتجهون إلى الساحة لشرب الشاي وسماع القصص العجيبة عن ليلة السرنمة الكبرى.

تجمّع حشد كبير في الساحة، كبيرٌ جدًا كأنَّ اجتماعًا عُقد هناك. عبقت الساحة برائحة الشاي ورهج الغار. كان الناس يشربون واقفين

أو مقرّفين، وأمي مشغولة جدًا كأنّها تبّيع في سوق. ملأت وعاءً تلو آخر بالشاي الممزوج ببلورات رهج الغار ووزعتها على المحتشدين في الساحة. أما أبي، السائر جنوبًا يقرع جرسه، فقد واجه شيتين، شيئين عليّ إخباركَنّ بهما أيتها الأرواح!

أولهما هو الشخص الذي صادفه أبي بينما يقرع جرسه ويصرخ. كان خارجًا من أحد الأزقة، يبدو عليه القلق، يحمل كيسًا ثقيلًا على كتفه. وضع كيسه واستراح قليلًا في تلك اللحظة التي صادفت مرور أبي وهو يصرخ قارعًا جرسه. بين الرجلين ثلاث أو خمس خطوات وظلام الليل الدامس. وفي محاولة كلّ منهما ليعرف من هو الآخر، حدّقا كأنّهما في مواجهةٍ عدوٍ لدودٍ. «من... أنت...؟». «أنا... لي تيان باو»، قال أبي مقتربًا من الظلّ العاتم أمامه. «قف مكانك! إذا اقتربت خطوةً أخرى فسأطعنك!». توقّف أبي على بعد خطوتين من الرجل الآخر. «لي تيان باو! الآن استوت كفة الميزان بيننا! حين مات أبي أنت من أبلغ عن دفنه، وطوال أكثر من عشر سنوات كنت أبحث عن فرصة كي أضربك! كي أكسر ساقيك! وأجعلك تعرج مثل زوجتك. الآن أنت رأيتني أسرق فإن لم تبلغ عني فهذا تعادلٌ بيننا! لن يضمر أيُّ منا حقًا تجاه الآخر!». قال الرجل ذلك ثم أخذ يرفع الكيس إلى كتفه لكنّه واجه صعوبة في الأمر. اقترب أبي وأعاناه على رفع الكيس وحينها التفت إليه الرجل معربًا عن امتنانه. «شكرًا لك يا لي تيان باو. أنت أخي من الآن فصاعدًا».

تعرّف أبي أخيرًا على الرجل. إنّه تشاو هوان هوان الذي يسكن في الشارع الشرقيّ. خمن أبي أنّ الكيس مملوءٌ برؤوس حجرية. ففي

البلدة نحّات متخصّص بنحت تماثيل بوذا. يُباع تمثال رأس بوذا بثمان باهظ وعلى من يشتريه أن يحرق عددًا من أعواد البخور أمامه. يقع بيت ذلك النحّات في الزقاق الذي خرج منه الرجل للتوّ. راقبه أبي يسير في الطريق. عبّر عن شكره لأبي وبدا ممتنًا من أعماق قلبه. لكنّ أبي لم يشعر بذرة فضلٍ. «وصل بك الأمر لسرقة تماثيل بوذا؟ كيف تجرّأت على ذلك؟». راقب تشاو هوان هوان وهو يختفي في الأفق ثم قفل عائداً إلى الساحة. أراد أن يقرع جرسه لكنّه لم يفعل. أراد أن يواصل الصراخ لكنّه لم يقو.

عندها حدث الشيء الثاني. في الشارع الرئيس رأى أبواب بعض المتاجر مفتوحة وأبواب بعضها الآخر مغلقة. الأبواب المغلقة كانت موصدة من الداخل ومدعّمة بالقضبان والألواح. وفيما كان أبي يغادر الجزء الجنوبي من البلدة، تراءى له مرة أخرى ظلُّ شخصٍ يخرج من زقاق النحّات، يحمل حقيبة جلدية ويجرّ حقيبة سفر. «إر شون! لماذا خرجت خالي اليدين؟ ألم تتمكن من التقاط أيّ شيء؟». من الواضح أنّ الرجل ظنّ أبي شخصاً يدعى إر شون. «من أنت؟ لستُ إر شون! أنا لي تيان باو». اقترب أبي حتى صار مقابل الرجل، بينهما العتمة، كما حدث قبل قليل. حينها تعرّف كلّ منهما على الآخر.

«ظننتُك أخي يا لي تيان باو! لماذا تحمل هذا الجرس؟ كم يبلغ ثمنه؟ لا أظنه يعادل ثمن نصف إكليل من التي تبيعها!».

حدّق أبي إلى الرجل الذي يدعى دا شون.

«أنت مسرّهم وعليك أن تذهب إلى الساحة وتشرب الشاي الذي

حضّرناه. رجال الشرطة وموظفو الحكومة مسرّعون أيضًا وقد ذهب معظمهم إلى هناك لشرب الشاي».

«ما من مسرّع غيرك!»، قهقهه دا شون وما لبث أن استعاد جديته. «أنت وزوجتك إذا من يعدّان الشاي في الساحة!». اقترب الرجل لينظر إلى وجه أبي. «لا بدّ أنك تريد بعض أوراق الشاي. صحيح؟ انظر. هذا المتجر يبيع الحقائق والمحافظ لكنّ فيه خزانة مملوءة بأوراق الشاي وغيرها من الأشياء. أنا لا أحبّ الشاي ولا أحد في عائلتي يشربه لذلك لم آخذ ولا علبة!».

نظر أبي إلى الباب الذي خرج منه دا شون للتو.

«ادخل! هيّا! أنت لست بسارق! أنت تفعل ذلك من أجل الجميع!».

دخل أبي.

تناول بسرعة عدة علب من الشاي الأحمر والأخضر. لم يعرف أيّها أفضل ولا أيّها أكثر فعالية في تبديد النعاس. بل اختار ببساطة أكبر العلب. وفيما كان يخرج من المتجر، بحوزته خمس أو ستّ علب من الشاي، اكتشف أن دا شون ينتظره.

«لم تغادر بعد!».

«وقفتُ أحرُسك!». رفع دا شون الحقيبة الجلديّة وسحب الأخرى أمامه. «وهكذا يا لي تيان باو تكون قد سرقت أنت أيضًا، شأنك شأنى، كلانا لص. حين تشرق الشمس غدًا ويستيقظ الناس من أحلامهم فلن أفضح أمرك وعليك أن تفعل الأمر ذاته معي. أنا وأنت لصّان بالقدر نفسه، لا أحد منا أكثر براءة من الآخر!».

قال ذلك مبتسمًا بفخري. نظر إلى أبي مرة أخرى ثم انصرف.
غادر.

وقف أبي هناك يحدّق ذاهلاً. عاد أخيراً إلى متجر «عالم الحقائق»
وأعاد علب الشاي إلى أماكنها.
تركها حيث وجدها.

2. (3:11-3:31)

أيّتها الأرواح... يا أرواح الناس! ما رويته للتوّ هو الحوادث
الصغيرة، والآن سأخبركنّ عن الحوادث الخطرة، الخطرة جدًّا. حتّى
موظفو البلدة باتوا مسرّمين. ولم يكن بوسعنا إلا أن نعتمد على أنفسنا.
موقدٌ إضافيٌّ ظهر في الساحة وتضاعف عدد القدور. ألسنة اللهب المنبعثة
من الموقدين تطال قيعان القدور لكنّ هذه النيران لم تكن قادرة سوى
على تسخين قدر صغير. لذا أحضر أحدهم موقدًا كبيرًا من الفخار.
وضعه على الحجر والطوب وتطايرت ألسنة اللهب منه في كل الجهات.
ألقيت قطع الأبواب المخلوعة والمقاعد المكسورة في الموقد فتوهّجت نارٌ
أضاءت الشارع بأكمله. هناك قدور كبيرة وصغيرة، بعضها من الألمنيوم
وبعضها من الحديد. كان الشاي الممزوج برهج الغار أسود اللون مرّ
المذاق ولم يستمرّ أحدٌ شربه. أرادوا أن يشربوا شايًا عاديًا. هناك ثلاثة
أو أربعة أو خمسة قدور تغلي على نارٍ مشتعلة. وعلى ضوء النار حُضِرَ
الشاي. انبعثت رائحة المראה في الليل، ممتدة إلى الجبال الواقعة خارج
البلدة، وسرعان ما غمرت رائحة الشاي العالم بأسره.

في الوقت ذاته، أحضر أحدهم قهوةً. قهوة لم يذقها سَكَّانُ البلدة من قبل. داكنة، بنيّة، حمراء، حريريّة. بمجرد أن انفتحت علبة القهوة فاحت رائحة نفاذة. سكبوا بعض الماء المغلي وأضافوا ملعقة من القهوة. بدت القهوة في الماء كقطعة حريرٍ تحترق في النار. صاح أحد رجال البلدة الذين يعرفون هذه القهوة من قبل:

«أضيفوا السكر والحليب المجفّف! أضيفوا السكر والحليب المجفّف!».

أحضر أحدهم بعض السكر الأبيض والبنّي من بيته وشيئاً من حليب الأطفال. بعد إضافة هذه الأشياء، صار طعم القهوة ألذّ فعلاً، كطعم العِرقسوس الصيني التقليديّ. كان شرب القهوة أشبه بمضغ عودٍ من العِرقسوس في أثناء العطش. وزّعوا القهوة على الجميع، كوباً أو نصف كوبٍ. بددت القهوة نعاسهم وعزّزت نشاطهم لدرجة أنّهم ما عادوا راغبين بالنوم.

في تلك الليلة المظلمة أحسّ الجميع كأثّهم في وضح النهار. كأثّهم في عطلة. كأثّهم يقضون إجازة حقيقيّة وبصدد مشاهدة عرض مسرحيّ.

قررتُ أن آخذ وعاءً من القهوة إلى بيت يان.

لم أكن متأكّداً إذا ما كان في عائلته من هو مسرّنٌ بالفعل، على الرغم من أنّ السرّنة أصابت كل بيت من بيوت البلدة. فلماذا يختلف حاله إذا؟ عندما طلب إليّ أبي أن آخذ وعاءً من القهوة إلى بيت عائلة أساء لها فيما مضى، انتهزتُ الفرصة لإيصال وعاءٍ إلى بيت يان. غنيّ عن القول أنّ بيته أشهر بيت في بلدتنا لأنّ يان هو الكاتب الذي ألّف العديد من الكتب

وجنى الكثير من المال. وفي كل رأس سنة يزوره عمدة المدينة والمقاطعة للمباركة والتهنئة. منذ أن أصبح يان كاتبًا، اضطرَّ إلى مغادرة البلدة لأجل العمل وكلَّما عاد جلب معه أجود أنواع السجائر وأغلاها ثمنًا. لا شك أن الفرصة كانت لديه، بعيدًا عن هنا، لتذوق أشهى الأطباق، وأفخر أنواع الشاي والقهوة. ولكن، الليلة، هل لديه شاي يشربه؟ هل عنده قهوة؟

رأيتُ يان قد عاد من الجسر. بدا كأنه ما يزال مسرنيًا. خطاه غير مستقيمة. كشبحٍ يطوف في حقل. كان يان ليانكه، الرجل الذي أصبح كاتبًا بعد أن غادر البلدة، يعود إليها لقضاء بضع ليالٍ حين يفتقر للإلهام. وبعد بضع ليالٍ في البلدة كانت تخطر له فكرة قصة من شأنها أن تجلب له شهرة وثروة. بالنسبة ليان، مثلت هذه القرية وهذه البلدة ما يمثله البنك للصّر؛ مستودعٌ لا ينضب. رواياته كلّها تحكي قصصًا من قريتنا أو من جبال بالو. كلّ تفصيلٍ في أية قصة من قصصه - مهما كان تافهًا وضئيلًا، كورقة شجرة مثلاً - مألوفٌ لديّ ألفتي راحة يديّ وأصابعي. لكنّه الآن في الخمسينيات من العمر ولم يعد قادرًا على الكتابة. بلدتنا لا تزال كما كانت من قبل وأيامنا لا تزال على حالها. ظلّت حكايا البلدة وحوادثها العشوائية تتكشف أمامه كما كانت من قبل إلا أنه وجد نفسه عاجزًا عن كتابة أية قصة جديدة. لم يعد يدري كيف يروي قصة جديدة. حتى بعد عودته من الحوض الخلاب على مشارف البلدة ظلّ عاجزًا عن الكتابة. ربّما هذا العجزُ عن الكتابة هو ما تسبّب في تسارع شيخوخته. شعره أشيبُ كشعر عجوزٍ بلدتنا تساو. اختفت أناقته المعهودة أيام السفر كما اختفت ملامح البهجة عن وجهه.

لقد شاخ. ولعجزه عن الكتابة تسارعت شيخوخته.

حين غادر البلدة أوّل مرة لم يكن قد بلغ العشرين من عمره بعد، أما في الثلاثين عامًا التالية فقد عانى من البدانة واحدودب ظهره بعض الشيء. لم يكن مظهره يوحي بأنّه كاتبٌ على الإطلاق، ناهيك عن كونه من المشاهير. وبصرف النظر عن لهجته المشوبة، كان يشبه السكّان المحليّين في كلّ شيء. يشبه محاسب قريتنا، شعره خفيف أشيب والجلد المحيط بعينه يشبه العنب الأحمر، وحين يتحدّث باللهجة المحليّة يضيف أحيانًا بعض الكلمات غير المألوفة. لم يدرك أيّ من أهل القرية أنّه شاخ بهذه السرعة لأنّه عجز عن الكتابة. فبالنسبة للقرويين ما من علاقة بين الشيخوخة وعدم القدرة على الكتابة. مفهومٌ لهم أنّ النجار تشاؤون يستطيع مزاولة النجارة مع تقدّمه في السنّ وأنّ كلبًا أسود كبيرًا في السنّ لن يتمكن من الجري كسابق عهده، أما يان ليانكه فقد ظنّه الجميع مريضًا لأنّه أمضى جُلّ حياته جالسًا يكتب ولا بُدَّ أنّه يعاني ألمًا في رقبتّه وأسفل ظهره. كان يشعر بخدرٍ في ساقيه وارتجافٍ في يده حين يمسك قلمه. لكن هذه المشكلات لم تكن لتستدعي تعاطفًا أو أسفًا. إن لم تعد قادرًا على إمساك القلم فلا تمسكه! هذا كلّ ما في الأمر! المهمّ أن تقدر على إمساك عيدان الطعام كي تطعم نفسك. آلام الظهر والرقبة هي أمراض الأثرياء، وبالمقارنة مع بعض أهالي القرية الذين يُصابون بالشلل النصفي أو بالأمراض المميّنة، تغدو تلك الآلام تافهة وضئيلة، لا سيّما إن كان لديك تأمين صحي يغطي كل نفقاتك الطّبية! لذا كان متوقعًا أن يُصاب بمرضٍ بسبب الكتابة، لكنّ المستغرب أن يكون هذا

الأمر مسألة حياة أو موت! أثار يان حسدَ الجميع وكرههم. أثار حزنهم وأسفهم. عاد هذا الكاتب إلى البلدة، أردتُ زيارته، أردتُ أن أحضر له وعاءً من الشاي أو القهوة لإيقاظه كما لو أنه تريقٌ يشفي كل الأمراض. توجهتُ إلى بيته وبحوزتي المشروب المبدّد للنعاس.

وحيث وصلتُ كان كل ما وجدته يخالف توقعاتي كلياً، كأنَّ حبات رملٍ تنمو في حقل قمح أو كأنَّ شتلات أرزٍ تحملُ حبوب دُخن. لم يعلم أحد كيف تحوّلت سنابل القمح فجأةً إلى سنابل رملٍ أو كيف تحوّلت سنابل الدُخن إلى سنابل أرزٍ. لكنَّ هذا ما كان.

هناك فناء قديم وبيت قديم. الفناء مملوء بأشجار الصفصاف العتيقة والشاخنة كأنّها تلامس السماء. تقطن في الفناء والدة يان البالغة من العمر واحدًا وثمانين عامًا تحرس أرض أجدادها. ربما تشعر بوحدة شديدة. ولكن هل من حارسٍ لأرض أجداده لا يشعرُ بالوحدة؟ فيما كنتُ أحمل القهوة إلى بيت يان، تردّد صدى خطاي في كلّ ركن من أركان البلدة المهجورة. ظننتُ أن يان وأمه فقط يعيشان هنا، ولكنني حين وصلتُ إلى الزقاق سمعت نسيجًا قادمًا من الفناء. وحين هرعت إلى مدخل البيت سمعتُ وقع خطى مسرعة في الفناء. وأخيرًا، أمام البوابة، أصبح المشهد كأنَّ سنبله رملٍ تخرجُ من سنبله قمح.

ثمّة ضوء في الفناء؛ فانوس معلق على شجرة ومصباح الزيت عند حافة النافذة وشموع على الأغصان. ضوء كثيرٌ تدفق إلى الشارع. عادت شقيقة يان الكبرى وزوجها. جيران الزقاق جاؤوا أيضًا وكان الفناء مزدحمًا صاخبًا. تجمّعوا حول يان كأنّهم في حضرة إلهٍ تلبّسته روحٌ

شريرة. يان جالسٌ وسط فناء بيته، أمامه حوض ماء. بيد أمّه قطعة قماش مبلّلة كأنّها مسحت بها وجهه للتوّ. بدا وجهه شاحبًا وهزيلًا كأنّه مغمور بالماء. العرق يغطي رأسه ويبلل قميصه القطني وسرواله أيضًا. وجهه شاحب والدموع تنهمر على خديه. وجهه عاديٌّ جدًّا، باهتٌ وخاوٍ، جلدٌ ذقنه مترهل. يحدّق في الفراغ كأنّه يلمح أشياء من عالم آخر، عالم أشباح لا يجرؤ على تصديقه. في الوقت ذاته بدا كأنّه لا ينظر إلى شيء. أو كأنّه يرى شيئًا لا يستطيع وصفه. أنفه الشبيه بعنقود ثومٍ يعطي إشارة حياةٍ طفيفة. ارتجف ثم بكى. نشيج قويٌّ ومزعج انبعث من أنفه.

أمامه مجموعة من كتبه وكتب غيره. هناك عدّة مخطوطات وعلبة غراء. ومن أجل جلبِ هذه الأشياء ذهب مسرّعًا إلى بيته وفي تلك الأثناء كان يبتسم ابتسامة عريضة ويردّد العبارة نفسها بلا توقّف: «وجدتُ قصّةً أكتبها... وجدتُ قصّةً أكتبها». كأنّ الإلهام حلّ به فجأة، كبتلات زهرٍ انهمرت عليه. أحكمت حبكة القصّة سطوتها عليه كسحابةٍ من عبير القمح أو كثمرةٍ ناضجةٍ عطريةٍ سقطت أرضًا فسيطرت عليه روائحها. ظلّ يكلم نفسه ويغمغم، وبعد وصوله إلى البيت لم ينظر لشيء ولم يقل لأمه شيئًا بل راح يفتّش خزائنه وأدراجيه بحثًا عن كتبٍ وأقلام وورق. «لقد جاءني الإلهام! عليّ أن أكتب... لقد جاءني الإلهام! عليّ أن أكتب...». حينها نهضت والدته من سريرها الدافئ وطالعت وجه ابنها الناعس، الأشبه برمزٍ مغلوط الرسم. رأت أنّ سائر وجهه - باستثناء فمه المتحرّك - كان جامدًا كأنّه ميت. عيناه فاغرتان تحدّقان إلى الأمام، كامدتانٍ كعيني جثّة.

«أنت مسرّنم... أنت مسرّنم...»، قالت وهي تقترب منه. «فلتغسل وجهك يا ليانكه! أنت مسرّنم!».

«أين أقلامي وأوراقي يا أمي؟ لديّ قصة عليّ أن أكتبها. لقد جاءني الإلهام كثمرة سقطت على رأسي».

«أنت مسرّنم بالفعل يا ليانكه! أنت مسرّنم بلا شك!».

«أين تلك الكتب التي وضعتها في الخزانة؟ حين أهم بالكتابة أحتاجُ إلى أن تكون غرفتي وطاولتي ممتلئتين بالكتب؟ لا أشعرُ بأنني في البيت إلا إذا كنتُ محاطًا بأكوام الكتب».

ذهبت والدّةُ يان لجلبِ إناء من الماء وفيما كان ابنها منحنيًا يبحث عن أقلامه وأوراقه، مرّرت منشفة مبللة على وجهه. كان وجهه ساخنًا والماء باردًا فانتفض على الفور وحدّق مدهوشًا. استقام ونظر حوله ثم غطّى وجهه بيديه وأخذ يبيكي. «ليس بوسعي أن أكتب أيّ شيء... ليس بوسعي أن أكتب أيّ شيء على الإطلاق...». بكى كطفلٍ، كمن يعاني نوبة هلع. «سأموثُ إن لم أكتب... سأموثُ إن لم أكتب...». جلس القرفصاء أمام والدته مغطّيًا وجهه بيديه. انسلّت الدموع من بين أصابعه كنبعٍ ينبجس من صدعٍ في الأرض.

لم تدرِ والدته ما ينبغي عليها فعله. لم تدرِ كيف تشجّع ابنها الموهوب هذا.

أمّا هو فقد واصلَ النحيب.

«ما الضير في أنّك لا تستطيع الكتابة؟ ألن تعيش حياتك الهائلة المعهودة؟ ألن تستطيع مواصلة حياتك على وتيرتها السابقة؟». وقفت

بجانبه تربّت على رأسه برفقٍ. انهمرت الدموع على وجهها. «عدمُ الكتابة هو الموت بالنسبة لي! كَأَنِّي لَسْتُ حَيًّا!»، صرخ. في أثناء صراخه كفّ عن البكاء. كَأَنَّهُ تذكّر أَنَّهُ رجل في الخمسينيات من عمره وأنّ والدته في الثمانينيات من عمرها. نهض ونظر إليها ثم إلى بيته القديم. «هذه هي السرنة إذًا!». ابتسم ابتسامة خالية من الفكاهة. «لم أتصوّر أَنِّي قد أَصاب بالسرنة. السبب أَنِّي لم أُنم خلال الأيام القليلة الماضية لأنني لم أتمكّن من الكتابة... فتراكم التعب حتّى انتهى بي المطاف مسرّنًا». عاد برفقة أمه إلى الغرفة الداخلية، تستند إليه وهما يعبران العتبة. كَأَنَّهُ يعود من عالم النوم إلى عالم اليقظة. كَأَنَّهُ يعود إلى بيته، كَأَنَّهُ يُسدل ستائر النافذة عائداً من حلمه إلى حقيقته. جلس على سرير أمه وأخبرها أشياء كثيرة. أخبرها كيف رأى الناس مسرّنين في قريةٍ عند السدّ. كَأَنَّهُ في أثناء سرنمته رأى الشوارع ملأى بالمسرّنين. الجميع مسرّنون. سأل أمّه -أمّه التي عاشت أكثر من ثمانين عامًا، من العهد الجمهوري إلى الوقت الراهن- إن كانت قد شهدت في زقاق الزمن الطويل المعتم الذي عاشته حدنًا مماثلاً حيث غدا العالم بأسره مسرّنًا. سألها إن كانت قد عاشرت مشهّدًا يعود فيه الجميع، مسرّنين، فجأةً أطفالًا، فيتكشف الخير والشرّ الكامن فيهم. بعد سؤاله هذا، ودون أن يدرك، صعد مرة أخرى إلى سرير أمه وغفا.

كأنّ نسيمًا منومًا تغلغل في جسده فملأ صوت شخيرهِ وغمغمته الغرفة. «اخلد للنوم يا ليانكه. اذهب إلى سريرك!». بذل جهدًا لفتح عينيه، ولكن بعد أن ذهب إلى الغرفة الأخرى أحسّ بأنّه يدخل عالمًا آخر.

واقفاً عند حدود هذا العالم، التفت نحو أمه وعلى وجهه ابتسامة. «أمّاه! لديّ قصة أكتبها. أمدّني الإلهام بخيط البداية!». ثم، بابتسامة عريضة، أخذ يبحث باندفاعٍ عن قلمٍ وورقةٍ وعن كتبه. تحرّك بسرعة بدا معها من عالم آخر. على وجهه تعبير غير مفهوم، مثل نصٍّ مبهم يصعب فكّ الغازه. عيناه مفتوحتان لكنّه لا يرى سوى ما يدور في خياله. لا ضوء، لا أشياء، لا بشرٍ خارج نطاق خياله. «لديّ قصة؛ قصّة مختلفة عن قصص الجميع»، غمغم بصوتٍ عالٍ وهو يواصل القهقهة السعيدة.

وقفت أمّه أمامه. «ليانكه! ليانكه!»، صرخت كأنّها تحاول إيقاظه من حلمه.

«هل رأيت ذلك الكتاب ذا الغلاف الأسود؟ الذي قلتِ إنّ غلافه أسود كالليل!».

اقتربت أمّه وهزّت كتفه. «كفّ عن التفكير بالكتابة! ألسنت ترى أنها ستودي بك في الهاوية؟».

«لا». ابتسم لأمّه. «لديّ الآن قصّة أكتبها». صفعته على وجهه.

«ستموت داخل قصتك إن لم تستيقظ!». حدّق إلى أمّه مذهولاً.

«سارع للخروج من هذه القصة!»، زمجرت كالرعد. «والا فسيكون مصيرك الموت داخل قصتك هذه!».

صفعة أخرى قويّة على خدّه وقطرة دمعٍ تجمّدت على وجهها.

هدأ العالم، هدأت البلدة، البيت المتزلزل هدأ، ترتج جسديّان، ترتج رأسه. لا أثر للحماس على وجهه، خداه محمرّان حمرة الإحراج، كمن تعرّض لإهانة قاسية. لقد أفاق، أفاق من حلمه. نظر إلى والدته وهو يفرك وجهه كما لو كان يحاول تبيدَ ألم ما.

«لن أكتب بعد الآن. لن أكتب حرفاً واحداً أبداً العمر»، قال بهدوءٍ وحزم. «سأعيش حياة أفضل لو توقفت عن الكتابة. سأعيش حياة أفضل من حياة أيّ شخص آخر». خفّض يده وقاد أمّه إلى غرفتها. وفي أثناء ذلك مسح الدمع المنساب على وجهها. لكنّها جرّته إلى الفناء. «اجلس هنا. غرفة النوم حارّة وخانقة وإذا بقيت فيها ستغفو بكلّ تأكيد». في الفناء يهبّ نسيم بارد، في الأفق تطفو السحب، من حولهما أشجار معمرة، فناء قديم بجدران قديمة وأعمدة قديمة، كلّ شيء فيه هادئ كنهجٍ يجري منذ ألف عام أو كسلسلة جبالٍ تمتدّ بلا نهاية، أو كسحابةٍ ليلٍ تطفو منذ آلاف السنين دون عائقٍ يعترضها. الأم والابن وجهًا لوجهٍ في الفناء، يتناهى إليهما وقع خطى متقطّع قادم من الزقاق والشارع. ودويّ جرس أبي أيضًا وصراخه لكيلا ينام الجميع، لكي يبقى في كل بيت حارسٌ يقظٌ.

«هذه صيحات لي تيان باو الذي يعيش في البيت الواقع خلف بيتنا».

«نعم. هذا صوته. إنه رجل طيب».

«المتجر الجنائزيّ مربح، يدرّ أموالاً وفيرة بلا تعب. وزبائن هذا المتجر لا ينفدون، كلّ يوم هناك من يقصده لشراء لوازم الجنائزة».

في تلك اللحظة وصلت شقيقة يان الكبرى برفقة زوجها. سارعا للمجيء خشية أن تغزو السرنمة البيت القديم. وجدا نفسيهما في الفناء ولأنه كان مضاءً فقد جاء الجيران أيضًا. تجمع الجيران حول يان وحول الحوض نصف المملآن بالماء. ناقشوا جميعًا الفوضى الأخيرة التي شهدتها البلدة بها في ذلك موجة السرنمة. كلما شعر أحدهم بالنعاس غمس منشفة في الحوض ومسح وجهه بها ليبدد نعاسه. أحضرت والدته يان وعاء من الفول السوداني وآخر من الجوز. أحضر بعض الجيران بذور دوار الشمس أيضًا. على طاولة رتبوا تشكيلة من تلك الأصناف ووقفوا حولها يتجاذبون أطراف الحديث. كأنها ليلة رأس السنة، قاوموا النعاس والسرنمة. تحدّثوا عن المحاصيل والحصاد وهم يستمعون إلى الأصوات القادمة من الشارع. تحدّثوا عن العائلات التي تشاجرت فيما بينها تنافسًا على محصول القمح حتى سالت دماؤهم. تناقشوا في أن السرنمة ليست أمرًا سيئًا بالمطلق وتذكروا كيف هُشمت جمجمة أحدهم، في شجار، وانبتق منها الدم. كان الجاني شرسًا للغاية خلال النهار ويقول لخصمه: «إذا تجرّأت على مقارعتي فاعتبر نفسك عدوي اللدود! عدوي الذي لن أهنأ ما لم أفصل رأسه عن جسده!». وعلى الرغم مما أبداه من غطرسة وتفاخرٍ خلال النهار ففي الليل أمسى مسرئًا وفقد حميته البطولية تلك، وجلب بعض البيض والحليب وأخذ يتنقل من بيت إلى آخر وهو يعتذر قائلاً: «أنا آسف... أنا آسف... الخطأ خطأ عائلتي... الخطأ خطأ عائلتي...». وأضاف: «انظروا إلى أولئك المسرمنين! ليسوا جميعًا سيئين!». لقد تبين أن بإمكان السرنمة أن تحوّل جبارًا ظالمًا إلى شخصٍ طيبٍ هادئٍ.

أخذوا يروون الكثير من الأشياء الجيدة عن المرمنين.

الحادثة السابقة لم تكن غريبة غرابة الحادثة التي تتعلق بعائلة ما هو تزي القاطنة شرق البلدة. تقدّم أحد الجيران يلوّح بيديه بحماسة تأكيداً على ما يقوله.

«هل تذكرون ما هو تزي الذي مات قبل ثلاث سنوات؟ يعلم الجميع في البلدة أنّه مات بعد مرض عضال. ولكن هل تتوقعون ما جرى في الليلة الماضية، بمجرد أن غفا الناس وأصابتهم السرنمة! خمنوا! سارت زوجة ما هو تزي نائمةً إلى مخفر شرطة البلدة. لقد ذهبت كي تسلّم نفسها. اعترفت أنّ زوجها لم يمت بسبب المرض بل إنّها ضاقت ذرعاً برعاية زوجها المشلول منذ اثني عشر عاماً فدست له سماً في الطعام. قالت إنّها لم تنهأ بنوم منذ موت زوجها. كان ندمها على تسميمه شديداً لدرجة أنها أحست كأَنَّها سمّمت أحد والديها. الليلة وبعد أن حظيت بنوم مريح قرّرت أن تسلّم نفسها قائلة: «أعرف تماماً أنني مسرنة، ولولا ذلك لما تجرّأت على تسليم نفسي. كيف سأقدم على ذلك ولديّ ثلاثة أطفال؟ أصغرهم، الذي لم يبلغ الثالثة بعد، وُلد بعد نصف عام من وفاة أبيه. أما الآن وقد أتيتُ كي أسلّم نفسي فلا ينبغي لأحدٍ منكم إيقافني. إن فعلتم فسأنكرُ أنني دسست السمّ لزوجي. علاوة على ما قاله لي زوجي وهو يحتضر: «شكراً لأنك أرسلتني إلى العالم الآخر. بفعلتك هذه خلّصتني من عذاب هذه الحياة. لقد أسديت لي معروفاً بقتلي لكن إيّاك أن تخبري أحداً. إن زلّة لسانٍ منك قد تؤدي بعائلتنا إلى الهاوية وسينتهي المطاف بأطفالنا بلا أمّ أيضاً، بعد أن باتوا بلا أب»».

هذا ما حدث... هذا ما حدث. لولا السرنة من كان سيدري بأن ما هو تزي قُتل على يد زوجته؟ أو أنّها قادرة على اقتراف أمر كهذا حتى؟ لقد كانت تبدو طيبة ومسكينة، مطيعة ومنصاعة، مجدة وصبورة. بعد عامين من زواجهما، شلّ ما هو تزي فاعتنت به ورعته على مدار اثني عشر عامًا. لكنّه في النهاية مات على يدها. ولحسن الحظّ أن حلّت ليلة السرنة هذه، هذه الليلة التي قد تحدث مرة في القرن! فلمّا كانت مسرنة سلّمت نفسها وأقرّت بالحقيقة. ولولا ذلك فمن كان سيدري حقيقة ما جرى؟ قالت بلسانها إنّ حالة الأحلام أفضل لأنّها تسمح للناس بفعل كلّ ما يريدون فعله في يقظتهم. لولا أنّها مسرنة لما اعترفت بفعلتها حتى لو قطعوا رقبته! من الغريب حقًا أنّها قالت كلّ هذا وهي مسرنة. «لقد جنّْتُ لأسلم نفسي ولكن إياكم أن توقظوني! إن فعلتم فسأنكر كلّ شيء! فكّروا في الأمر! إن اعترفت فمن سيتولّى تربية أطفالي؟». هذا ما قالته فعلاً. كم هو مدهش! كم هو غريب أنّها حتى وهي نائمة كانت مدركة أنّها نائمة ومسرنة! هل من الممكن للنائمين أن يدركوا أنّهم نائمون فعلاً؟ وأن يطلبوا إلى المستيقظين عدم إيقاظهم؟ عدم إخراجهم من أحلامهم؟».

وبعد أن روى هذه الحادثة الغريبة أخذ الجار يضحك ثم انحنى وغسل وجهه بغير هدوء. «أنا بدوري أشعر بالنعاس. لا تدعوا السرنة تصيبني! لأنّه إذا حدث ذلك فلا أحد يعلم ما الكلام الذي قد يصدر مني!»، فقهقه وهو يقول ذلك لكنّ أحدًا لم يضحك. كان الآخرون في طور استيعاب حقيقة مقتل ما هو تزي على يد زوجته. كانوا في طور

استيعاب أن القاتل قد يُسلم نفسه إذا تسرنم. عينا يان فاغرتان كبلحتين،
أو كحبتني عنب متعفتين، يحدّق إلى جاره كأنه يرى شخصًا لا يعرفه.
حدّق إلى جاره كأنه يحدّق مشدوهاً في حبكة قصّة استوقفته.

«صحيح! هذا صحيح! لماذا لا أكتب رواية عن امرأة نائمة تدرك
أنّها نائمة؟ لماذا لا أكتب عن كيف بوسعها التواصل مع عالم المستيقظين
وهي غارقة في أحلامها؟». نهض يان ودار في الفناء. تحدّث حين مرّ
بحشد الناس. كان وجهه محمراً من الحماسة، شديد الاحمرار كأنّ قطعة
حرير مبتلة علّقت على وجهه. «لديّ قصّة أكتبها. لا أريد أن يظنّ الناس
أنّ الإلهام نفذ مني أو أنّ نجمي يخبو!»، ضحك ضحكة كالقرقرة.

«الآن يهطل عليّ الإلهام كقطرات المطر، يهبّ أمامي كنسيم...
أقامه... أختاه... هلاً غادرتما. أريد العودة إلى بيتي عند السدّ. إن لم أكتب
ما برأسي الآن فستطير كلّ هذه القصص هباءً حين أستيقظ! فلتغادروا
جميعكم! أريد الذهاب إلى بيتي عند السدّ. فلتغادروا جميعكم! أريد أن
أكتب! عليكم جميعاً أن تتحدّثوا همساً وتبطنوا خطواتكم لكيلا أفيق!
إن أيقظتموني فستطير قصصي. سيضمحلّ إلهامي. حتى لو ضربت
برأسي عرض الحائط فلن أتمكن من تأليف رواية جديدة. النوم جيّد.
الناس يكونون طيبين في نومهم حقاً. النوم كالشمس، كالطر، عندما
يجلّ النوم تنمو المحاصيل، وحين يغزّر النوم تنضج المحاصيل وتصبح
جاهزة للحصاد والخزن في المستودعات. عليّ أن أستغلّ نومي للكتابة.
عليكم جميعاً أن تغادروا. حذار أن يقترب مني أحد. حذار أن ينطق أحد
منكم كلمة. لا توقظوني من أحلامي».

واصل المشي وهو يقول كل هذا، صوته يزداد رقة فيما يتحوّل نعاسه الخفيف إلى نوم عميق. تجوّل في الفناء ثم بدأ يبحث عن كتبه في الغرفة. أخذ أقلامه وأوراقه مع الغراء والمقصّات الصغيرة التي لا يستغني عنها عند المراجعة والتحرير. أخيراً تحوّل صوته الصافي إلى همهمة غامضة. كلماته وجمله صارت مبهمّة. منخراه اللذان طالما ارتعدا حين يتكلّم باتا ساكنين. عيناه الواسعتان باتتا نصف مغمضتين كأنّه لا يقوى على فتحهما. ما عاد الإصرار على الكتابة الذي كان يتبدّى على وجهه ظاهراً إلا على عينيه، تراكم فيهما، كأنّه جلس بالفعل على مكتبه يحدّق في خانات الأحرف الفارغة.

هدأ الجميع. حدّقوا إلى يان الواقف هناك ينتظر انصراف الجميع على الرغم من اعتزامه المغادرة قبلهم في الواقع. «اغسلوا وجهه!». دفعت والدّة يان الرجل الذي قال ذلك؛ دفعت أيضاً شقيقة يان وزوجها، ثم اقتربت ووقفت أمام ابنها برهة من الوقت، حدّقت في وجهه كأنّها فكّت ألغازه فجأة، كأنّها فهمت أخيراً النصّ الغامض المكتوب على وجه ابنها. «أتريد أن تكتب حقاً؟».

أوماً.

«حين تعجز عن الكتابة، هل تشعر بعطبٍ جسديّ ونفسيّ، كما لو أنّك مريض؟».

أوماً برأسه أيضاً.

«هل ترى حقاً أنّ الحياة والموت سواء لولا الكتابة؟ أنّك تفضّل الموت على العجز عن الكتابة؟»، أصبح صوت والدته أعلى فجأة.

ظَلَّ ساكِنًا كَأَنَّهُ يَفْكَرُ فِي سَوَالِهَا. ثُمَّ أَوْماً بَبْطَاءٍ وَمَهَابَةٍ، كَمَنْ يَوْمِي فِي
مَحْكَمَةٍ لَا اخْتِيَارَ طَرِيقَةَ إِعْدَامِهِ؛ عَلَى مَشْنَقَةٍ أَمْ تَحْتَ مَقْصَلَةٍ. لَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ
بَلْ بَقِيَ جَالِسًا فِي الضَّووءِ كَأَنَّهُ غَارِقٌ فِي بَحِيرَةٍ عَمِيقَةٍ. السَّمَاءُ مُتَلَبِّدَةٌ، اللَّيْلُ
مُتَلَبِّدٌ، وَجْهُ يَانٍ مُتَلَبِّدٌ أَيْضًا كَوَجْهِ رَجُلٍ فِي مُتَنَصِّفِ الْعَمْرِ. سَقَطَ مِنْهُ
كِتَابٌ عَلَى الْأَرْضِ فَانْحَنَى لِالْتِقَاطِهِ. الْقَهْوَةُ الَّتِي أَحْضَرْتُهَا بَرَدَتْ بِالْفِعْلِ
وَتَبَدَّدَتْ رَائِحَتُهَا حَتَّى بَدَأَ مَا أَحْمَلُهُ أَشْبَهَ بِحَسَاءٍ عَادِيٍّ. فِي الْبَدَايَةِ كُنْتُ
وَاقِفًا عِنْدَ مَدْخَلِ الْفَنَاءِ أَرَاقِبُ. فِي فَنَاءِ بَيْتِ عَائِلَةِ يَانٍ أَرَاقِبُ وَأَسْتَمِعُ،
لَا أَعْرِفُ مَتَى وَضَعْتَ الْوَعَاءَ الَّذِي كُنْتُ أَحْمَلُهُ وَجَلَسْتَ الْقَرْفَصَاءَ هُنَاكَ
أَرَاقِبُ وَأَسْتَمِعُ. تَمَامًا مِثْلَمَا لَا أَعْرِفُ مَنْ أَخْبَرَنِي بِهَا جَرَى فِي بِلَدَتِنَا قَبْلَ
وِلَادَتِي. أَوْ بِأُمُورِ الْعَالَمِ وَأُمُورِ عَائِلَةِ يَانٍ. وَلَأَنَّنِي كُنْتُ أَحَقُّ نَسِيْتُ الْكَثِيرَ
مِنَ الْأَشْيَاءِ، نَسِيْتُ نَفْسِي حَتَّى. نَسِيْتُ تَحْدِيدًا أَنَّنِي أَحْضَرْتُ قَهْوَةً تَزِيلُ
النَّعَاسَ. لَمَّا سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَحْكِي حَادِثَةً مَا هُوَ تَزِي شَعَرْتُ أَنَّنِي دَاخِلُ
إِحْدَى رَوَايَاتِ يَانٍ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَشَاهِدُ يَانَ يَعُودُ إِلَى حِلْمِهِ، إِلَى سَرْنَمَتِهِ،
شَعَرْتُ بِأَنَّ أَحَدًا حَبْسَنِي فِي غُرْفَةٍ مَظْلَمَةٍ. حَدَّثَتْ وَالِدَةَ يَانَ إِلَى ابْنِهَا بَرَهَةً
بَدَتْ طَوِيلَةً كَأَلْفِ عَامٍ. قَالَتْ لِلْآخَرَيْنِ: «لَا تَوْقِظُوهُ! دَعُوهُ يَنُمُ!». وَقَفُوا
يَحْدِّقُونَ مِثْلَ دُمَى خَشَبِيَّةٍ تَشَاهِدُ عَرْضَ دُمَى. «قَالَ إِنَّهُ قَدْ يُجَنُّ أَوْ قَدْ يَمُوتُ
لَوْ لَمْ يَكْتُبْ لَذَا دَعُوهُ يَكْتُبْ. حَتَّى لَوْ مَاتَ وَهُوَ يَكْتُبُ فَسَيُظَلُّ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ
عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ!»، قَالَتْ ذَلِكَ وَقَدْ سَالَتْ الدَّمُوعَ عَلَى خَدَيْهَا، كَمَطَرٍ عَلَى
الْبَرَارِيِّ. «بِمَا أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ فَلَنُتْرَكَهُ وَشَأْنُهُ. دَعُوهُ يَعِشْ كَأَنَّهُ مَيِّتٌ،
فَالْمَوْتُ عِنْدَهُ كَالْحَيَاةِ». عِنْدَمَا أَنْهَتْ حَدِيثَهَا نَظَرَتْ إِلَى ابْنِهَا ثُمَّ حَدَّقَتْ فِي
اللَّيْلِ. نَظَرَتْ إِلَى الْفَنَاءِ وَالنَّاسِ الْوَاقِفِينَ ثُمَّ أَضَافَتْ بَهْدَوًى وَجَدِيدَةً:

«لا توقظوه. اتركوه نائمًا».

أزاحت بصرها عن وجه ابنها إلى جسده ثم عادت تنظر إلى وجهه.
«عليك أن تذهب. أختك وزوجها سيرافقانك إلى بيتك عند السد».

في أثناء نومه كان يان يفكر بهدوء كأنه مستيقظ. «لا حاجة لذهابها معي. إن فعلا ذلك فقد يوقظانني وإن استيقظتُ فسأخسر قصتي. ستتلاشى ويتلاشى معها إلهامي. إن لم أستطع الكتابة فحياتي ستكون أسوأ من الموت». كان نائمًا كأنه ما يزال يقظًا، تعامل مع الليل كأنه وضح النهار. نظر إلى أمه، نظر إلى شقيقته الكبرى وزوجها والجيران، ثم حمل أغراضه وغادر. «عودوا جميعًا»، قال صاعدًا الدرج كطيفٍ، عابرًا بعدها المدخل، ثم خارجًا إلى شوارع الليل وأزقته. وقع خطاه أشبه بمطارق خشبية تضرب سطحًا ناعمًا مجوفًا. تمايل جسده وفق إيقاع. إيقاع لكنه أشبه بنسيم. وهكذا تمايل نائمًا وابتعد. خرجت أمه وشقيقته لمراقبته كأنهما تشاهدان حلمًا وفي الحلم رأتا شجرة صفصاف على شاطئ تتمايل في مهبّ ريح.

ابتعد.

ازداد الليل ظلمةً.

تضرّع الناس كي تشرق الشمس قريبًا وأن يعود كلُّ شيءٍ إلى سالف عهده.

كنتُ أنا من رافقَ يان إلى بيته عند السدّ. كنتُ أنا مَنْ أراد مرافقته. قال أهله: «أنت صغير وخطواتك رشيقة. لا خطرَ من أن توقظه. لذا رافقه إلى بيته عند السدّ». حثوني أيضًا على ألا أتحدّث إليه في الطريق لكيلا أوقظه. لكنني فعلتُ. لم أستطع منع نفسي من التحدّث إليه. سار أمامي بخطى غير ثابتة. ولأنّه لم يستطع رؤية الطريق بوضوحٍ تعرّس بحفرة هنا وهناك. ومع كل عثرة كان يندفع فجأة إلى أحد الجانبين فأخاله سيستيقظ حتمًا لكنّه يتمتم فحسب: «ثمة حفرة هنا»، ويواصل سيره. في الطريق كان يصطدم بطوبة هنا أو حجر هناك فيرفع قدمه المتألمة ويصرخ: «آيبي! آيبي!» ثم يكمل. تبعته كما تتبع الحملان أمهاتها. كلّما تعرّس بحفرة أو اصطدم بحجرٍ كنت أقرب منه وأسنده، وحين يستأنف سيره أتبعه. عبرنا أزقة البلدة كأننا نعبر نفقًا. وحين وصلنا أخيرًا إلى طريق واسعٍ منبسّطٍ عرفنا أننا بلغنا الساحة. لم يكن فيها أحد، ليس فيها سوى الطوب والحجارة التي وُضعت قاعدة لموقد الشاي والقهوة التي ما تزال رائجتها معشّشة في المكان.

تفرّق الحشد.

شرب الجميع الشاي والقهوة الممزوجين برهج الغار. طار نعاسهم وتوقّفوا عن السير نيامًا. في أثناء ذلك، في الشوارع، سُمعت خطى وتراءت ظلال آخر العائدين إلى بيوتهم. بدا ذلك أشبه بالضوضاء التي قد تسمعها في ليلةٍ عاديّة. وددتُ لو أصادف واحدًا أو اثنين من المسرّمين، غير يان الذي يتقدّمني. لكنّ شوارع البلدة كانت خالية

سوى من ضوء المصابيح والسكون. لا مسرّمْ في البلدة. بين حين وآخر
تناهت لسمعي صرخات، ليست كالتي تصدر عن شخص يُطعن أو
يُذبح، بل كالتي تصدر عن شخصٍ لمَحَ ظلًا ففزِعَ ثم أدرك أنَّ ما رآه
مجرّد قطّةٍ أو كلب.

هل يمكن أن تنتهي ليلة السرّمة بهذه الطريقة حقًا؟ هل يمكن
أن تنتهي بهذه البساطة؟ شوارع البلدة ساكنة كقبر. كنتُ متوجسًا،
خائفًا بعض الشيء. بلا وعيٍ دنوتُ وأمسكتُ بيد يان مثل طفل خائف
يمسك بيد أبيه. يده دافئة وطرية. راحة يده طرية ولينة وتفتقر إلى القوة.
تختلف كثيرًا عن يد أبي. وبسبب هذه اليد بدأتُ حديثي معه وطرحت
عليه سلسلة من الأسئلة.

«كم مرّة على مغادرتك غاوتيان؟»

«هل ندمت على العودة؟ لقد تزامن مجيئك مع غرق القرية والبلدة
بأكملها في السرّمة؟»

«ماذا ترى وأنت نائم؟ كيف يمكن لأحد أن يدرك أنّه نائم وهو
نائم؟»

التفت إليّ وربّت على رأسي وضحك.

«في روايتي القادمة سأكتبُ عن السرّمة. إنّها هديّة سماويّة تلقّيها
في لحظة قنوط.»

تبَيَّن أن السرّمة هديّة، هديّة من آلهة السماء. اجتاحتني رغبة
مفاجئة في أن أكون مسرّمْ. وعلى غرار يان، أردت أن أدرك أنني
مسرّمْ في أثناء سرّمتي. أمر شبيه بمراقبة أحداث هذا العالم من عالم

آخر، أو بأن تدرك أنك ما زلتَ على قيد الحياة بعد أن تكون قد مُتَّ. أمسكتُ بيده وحمَلْتُ الكتبَ منه. اجتزنا الساحة والشارعين الشرقي والغربي. رأيتُ باب متجرنا مفتوحًا والمصباح مضاءً بالداخل. أردتُ أن أدخل وأخبر والدي أنني أرافق العمَّ يان المسرنم إلى البيت الذي استأجره عند السدِّ. لكنَّ هذه الرغبة ظلَّت مجرد أفكار وفي النهاية لم أذهب إلى المتجر. رأيتُ أناسًا يسرقون متجر ملابس وكدتُ أصرخ: «توقّفوا! الناس ليسوا نائمين! سيعود صاحب المتجر ويقبض عليكم!». لكنَّ هذه الرغبة ظلَّت مجرد أفكار وفي النهاية لم أقرب من اللصوص. خارج البلدة رأيتُ رجلًا يحصد القمح على ضوء فانوس معلق بغصن شجرة. بعد كلّ بضع ضربات من المنجل كاذ يسحب الفانوس للأمام. أردتُ أن أذهب وأقول له: «عليك أن تذهب إلى البيت وتشرب بعض الشاي وحبذا لو كان ممزوجًا برهج الغار. حين تشربه سيطير نعاسك وستستيقظ من سرنمتك على الفور!». حينها خطر ببالي أيضًا أنَّ السرنمة قد تكون جيّدة لبعض الناس، فلماذا أحاول إيقاظهم منها؟

لم أفعل شيئًا ممّا فكّرتُ فيه، على نقیض أولئك المسرنمين تمامًا، والذين كانوا يفعلون كلّ ما يخطر ببالهم. إذا استطاع الناس أن يفعلوا كلّ ما يفكرون به، ألا يعني هذا أنّهم يحققون أحلامهم؟ أردتُ أن أسأل العمَّ يان عن رواياته. أردتُ أن أعرف كم يجني من تأليف كتاب. أردتُ أن أطلب إليه إحضار المزيد من الكتب لي عند عودته. لذلك سألتُه مجددًا - كائنني أهمُّ بشحد منجلي.

«أيها العمّ يان، أيهما أفضل برأيك، أن يقضي الناس أعمارهم يستمعون إلى القصص أم يروون القصص للآخرين؟».

«أيها العمّ يان، هل بوسعك أن تروي قصصك بأسلوب أكثر دفئاً؟ كلما قرأتُ كتاباً لك أشعرُ بقشعريرة في أعماقي. كتبك باردة جداً. أحبُّ حين أقرأ كتاباً في الشتاء أن يشعرني بالدفء كأنه موقد وحين أقرأ كتاباً في الصيف أن ينعشني كأنه مروحة!».

«أيها العمّ يان... أيها العمّ يان!».

وصلنا إلى نهاية الشارع الجنوبيّ في البلدة وتوقفنا تحت شجرة الصفيراء في الساحة. شجرة معمرة كتلك الشجرة الموجودة في مقاطعة هونغ دونغ والتي يتجمّع الناس تحتها قبيل الهجرة. جذعها ضخّم لدرجة أنّ رجلين ليس بوسعهما أن يحيطا ذراعيهما بها. لقد تجاوز عمرها مئتي عام غير أن أغصانها ما تزال قوية وكثيفة مثل أسلاك المظلة، وأوراقها تحجب الريح والأمطار على نحو فعال كما قماش المظلة. قاعدة الشجرة مدعّمة بجدار من الطوب والحجارة كما يدعم الأحفاد أجدادهم. وقفت بجانب ذلك الجدار وقلت: «كلّ كتبك، أيها العمّ يان، تتناول أحداثاً في قريتنا وبلدتنا. لكن لا أحد من أهل البلدة أو القرية يحبُّ كتبك سواي. لا أحد سواي يستطيع أن يقرأ كتاباً واحداً من أوّل صفحة إلى آخر صفحة. يتساءل الناس جميعاً عن مواضيع كتبك. وفي الحقيقة، إذا فتحت صفحة لا على التعيين من أيّ كتاب كلاسيكيّ -فليكن «رومانسيّة الممالك الثلاث» أو «حافة الماء» أو «تنصيب الآلهة» أو «الأبطال الثلاثة والفرسان الخمسة»- فستجد بلا شكّ ما هو أفضل

مما يحتويه أيُّ من كتبك. أي إن كتبك لا تساوي شيئاً. مثل النقود الجنائزِيّة التي نبيعها في متجرنا، والتي على الرغم من أنّها في الواقع نقود، لكن إن وجدها أحدٌ في الشارع فلن يعيرها أدنى اهتمام».

حدّق العمّ يان بتوجُّس.

أفلتُ يدي حين رأيته يحدّق. نظر إلى وجهي كما ينظر العرّاف إلى كتاب الطالع. الليل ملبد بالغيوم لكنّ القمر ساطع. رأيت وجه العمّ يان شبيهاً بكتابٍ غامضٍ. نظرتُ إليه ونظرتُ إليّ ثم سحبتني لأجلس على حافة الجدار تحت شجرة الصفيراء وشرع يسألني أسئلة غريبة، أسئلة غامضة ومحيّرة مثل امرأةٍ عاقِرٍ تتصرّع لمستنيرٍ بوذيٍّ وتلحّ باستفسارها عن موعد حملها.

«اصدق عمّك يان القول يا نيان نيان! أيّ كتبه أعجبك أكثر؟».

«اصدق عمّك يان القول يا نيان نيان! ما هي أكثر كتبه التي تصف أحداث القرية وصفاً دقيقاً؟».

«أتوسّل إليك يا نيان نيان أن تروي لعمّك قصة عائلتك. قصص أبيك وأمك وخالك. ما فعلوه في حياتهم. الأمور المصيريّة التي تتعلّق بحياتنا وموتنا. أودّ أن أكتب كتاباً عن هذا، عن أسئلة الموت والحياة في قريتنا. ربّما لن تكون الوحيد الذي سيستمع بهذا الكتاب؛ ربّما يعجب كلّ من يجيد القراءة في البلدة. أخبرني هيا. ماذا فعل أبوك وأمك وخالك؟ في زيارتي القادمة سأحضر لك الكثير من الكتب. ليس كتبي بل كتب غيري، كتب جميلة جدّاً لن تستطيع العثور على مثيلها هنا... سأحضرها لك».

«ما هي هذه الكتب؟».

«سأحضر لك نسخة من رواية «البرقوق في الإناء الذهبي» الرائعة!
إنه كتاب من عالم آخر!».

لكنني لم أخبر العمّ يان شيئاً عن عائلتي في نهاية المطاف. أطبقتُ شفّتيّ وامتنعتُ عن التفوّه بأية كلمة. لم أستوعب أنّه مسرّنٌ وهو يخاطبني وي طرح عليّ تلك الأسئلة. حين طالعتُ وجهه وجدته أشبه بكومة أوراقٍ ملأى بكلمات غير مفهومة أو بكتابٍ عرّاف لا يفهمه أحد. لست مسرّناً ولا أحمق كما يظنّني الجميع. لم أكن لأخبره بأمور عائلتي من أجل نسخة من كتاب عن برقوقٍ أو إناءٍ. لم أخبره عن خالي ومحركة الجثث، عن أبي الذي كان مخبراً يتسبّب بحرق الجثث التي دُفنت على نحو غير قانونيّ، والذي كان يخفي براميل زيت الجثث في الكهف تحت السدّ، بجوار فناء البيت الذي استأجره يان. «ماذا عساي أقول عن عائلتي؟ نأكل ونلبس وحين يموت أحد نبيع إكليلاً فنكسب بعض المال. وبهذا المال نشترى ورقاً ملوّناً لصناعة المزيد من الأكاليل والزينة الجنائزية، وبما يتبقى نشترى لقمة عيشنا».

لم أأقل شيئاً آخر.

لم أعرف ماذا أقول. القمر يمرّ ببطءٍ فوقنا وكذلك الغيوم. سرنا، غاردنا شجرة الصفيراء متجهين نحو السدّ. غادرنا دون أن نتبادل أية كلمة. لم أعد قريباً منه كما كنت. لم أخبره أنني أشعر بشيءٍ من الخجل والحيرة تجاه ما تفعله عائلتي، كأنني سرقت منه شيئاً أو أدين له بشيء أو أسأت له بطريقة ما. وفي محاولة لاستعادة الألفة بيني وبينه، أمسكتُ يده وسألته أسئلةً تمسّه.

«هل تعتقد، أيها العمّ يان، أنّ الناس يستمتعون حين يقضون حياتهم وهم يسردون القصص للآخرين أم وهم يستمعون إلى القصص التي يرويها لهم الآخرون؟».

«هل تعتقد، أيها العمّ يان، أنّ عليّ أن أغادر غاو تيان حين أكبر، كما فعلت أنت، أم أبقى برفقة والدتي هنا؟».

«أيها العمّ يان، حين يريد الرجل أن يتزوَّج، هل تعتقد أن عليه البحث عن امرأة واحدة أم أكثر؟». مكتبة سُر من قرأ

بقينا على هذا المنوال حتى وصلنا إلى السدّ. هناك شعرتُ أننا أقرب إلى السماء، أقرب إلى القمر والغيوم. شعرتُ أننا بعيدون عن عالم غاو تيان وعن حياة القرية الصاخبة بأهلها المسرّمين، المتعاركين فيما بينهم، بعيدون عن أكلهم ولبسهم وزرعهم وثرثرتهم وشربهم ونومهم. حين بلغنا مدخل فناء بيته رأيتُ الحوض في الأسفل؛ كان أزرق صافياً كأنّ ضوء القمر كلّ قد خُزن فيه، كان ساطعاً كمرآة، كجليد، أو كحلم. هبّ نسيمٌ وتردّدت أصوات متفرّقة. تراءت لي بومةٌ واقفةٌ في حقلٍ قريب، عيناها كفانوسين أحمرين. تراءت لي قاعة الجنازة على التلّة البعيدة وأنوارها المضاءة تبدو كغيومٍ متدلّية من السماء. وقفنا عند المدخل، طيفُ الفراق يخيم على وجهه وعلى قلبي مثل طبقة جليديّة. في نهاية المطاف ليس أماناً سوى الفراق، إذ كان عليه أن يخلد للنوم. لكنه ظلّ يتحدّث عن الكتابة. كلّ ما يفكر فيه ويفعله كان تماماً كما كتب في رواياته. ربّما سيشرع في الكتابة بمجرد دخوله، سيكتب رواية أشبه بموقدٍ يدقّ في الشتاء أو بمروحة تنعش في الصيف. ومن أجل

هذا الكتاب كان لزامًا عليّ أن أفارقه، حينئذٍ أخبرني بشيءٍ لم يخبرني به والداي قط.

«عليك أن تتعلّم صنعة الأكاليل من والديك يا نيان نيان، وبهذا النحو تكسب لقمة عيشك عندما تكبر... إن أعجبتك فتاة يا نيان نيان تزوّجها. لقد قضى الربّ والسماء أن لكلّ رجلٍ امرأةً واحدة... اذهب يا نيان نيان. عمّك يريد استغلال سرّيته لكتابة قصة. عمّك يريد أن يفعل ما طلبته. سيكتب كتابًا يبعث الدفء شتاءً ويبثّ الانتعاش صيفًا. كتابًا سيرغب كلّ أهل البلدة بقراءته».

رَبّت على رأسي ودخل فناءه. وبعد أن طلب إليّ العودة إلى البيت أغلق بابَه.

بقيت واقفًا عند المدخل كأنني أدخلُ حلماً ببطءٍ أو أهبطُ بثراً. فكّرت مجدّدًا في السرّنة. فكّرتُ في القرية والبلدة. فكّرتُ بوالديّ فباغتتني قشعريرة. ارتجفتُ ورحت أفكّر فيما إن كان هناك من يستغلّ السرّنة لسرقتنا. تساءلتُ إن كان هناك مَنْ سيقيد والديّ ويضربهما من أجل سرقتنا. وفيما كان عقلي يرتعش ارتعاش الصاعقة قبيل المطر، غادرتُ العمّ يان وبيته الواقع قرب السدّ.

هرعتُ إلى البيت.

الكتاب الثامن

الهزيع الخامس، الجزء الثاني:

بعضها حي وبعضها ميت

1. (4:26-4:06)

حين وطئت قدماي مدخل المتجر الجنائزيّ تسمّرتُ في مكاني.
شعرتُ بأنّ رأسي صُفِعَ بطوبة.

رأيتُ ما كنتُ أخشاه، كأنّ ما كان يجري في متجرنا تراءى لي وأنا عند
الجسر الذي يبعد مسافة اثنين لي. دفعتُ البابَ بهلع ووقفتُ عند العتبة.
فاجأً وصولي المباغت والديّ واللصّين. توهّج الضوء، كما ينبغي له، بلونٍ
أصفر. الغرفة ملأى بأكاليل الزهور والقصاصات الورقيّة والأوراق
النقدية كأنّ ريمًا عاتية ضربتُ حديقة فتبعثرت الأزهار والأوراق الخضرة
في كلّ مكان. تناثرت أغصان أشجار الفواكه المكسورة والقضبان الملتوية
وسلال الخيزران والأسلاك والعصيّ المستخدمة في صنع المجسمات
الجنائزية إلى جانب التماثيل الملونة التي تصوّر فتية وفتيات، كلّها متناثرة
على الأرض أو مكدّسة عند الجدران. فوضى الألوان عمّت المكان، مثل
بركة زهورٍ أجمجها وابلُ البرد. كان الجو باردًا جدًّا وفي الوقت ذاته حارًّا
جدًّا. أبي وأمي مربوطان إلى كرسيّين كلّ في طرف من الغرفة، واللتام

يغطي وجه الرجلين. الطويل منها واقف مكتوف اليدين أما القصير فيحمل عصا خشبية سميقة. العرق يتصبب من عنقيهما وصدريهما وظهريهما لكنهما لم ينزعا لثاميهما. كانا واقفين يحدقان إلى أبي يترقبان شيئاً ما. عينا كل منهما، الباديتان عبر ثقب اللثام، داكنتان لامعتان ولا يبدو عليهما النعاس إطلاقاً. كانا في تمام الصحو، إما لأنّ أبي أيقظهما وإما لأنّهما شربا من شاي أُمي. ويبدو أنّهما، بعد أن أفاقا، أرادا استغلال حالة السرنة للسرقة. أما والدائي، المقيّدان، الجالس كل منهما في طرف من الغرفة، فكان وجهاهما مزيجاً من الاليضاض والاصفرار المغطى بالعرق، كأنّهما عالقان وسط عاصفة مطرية. بين حين وآخر كان اللسان يحدقان أمامهما، ثم يلقيان نظرة خاطفة نحو السلم المفضي إلى الطابق الثاني، ثم نحو الغرفة الداخلية. كأنّهما في انتظار شيء ما لم أعرف ما هو. كأنّهما كانا بانتظاري كي أفتح الباب وأدخل.

وقفتُ عند العتبة أحدق أمامي. كان المشهد مطابقاً لما تخيلته، مثل برغيّ ينطبق في ثقبه. توقّعتُ أنّه إذا أراد أحدهم سرقة متجرنا فسيكون مرتدياً قناعاً يغطي كامل وجهه أو يلفّه بلثام وهذا ما فعله هذان الرجلان. توقّعتُ أنّه إذا أراد أحدهم سرقة متجرنا فلن يكون شخصاً واحداً بالتأكيد وقد تبين أنّهما اثنان. وربّما ليسا اثنين فحسب بل ثلاثة؛ وإلا فلماذا يسترقان النظر إلى الطابق العلوي باستمرار؟ توقّعتُ، أيضاً، أنّه إذا جاء أحدُ لسرقتنا فسيخرب أكاليل الزهور والزينة الورقية وبيعثرها في كلّ مكان، وهذا ما كان فعلاً، فقد بدت الغرفة كأنّ إصصاً اجتاحتها.

كان كلُّ شيءٍ كما تخيلته تمامًا.

مثل برغيّ ينطبق في ثقبه.

دخلتُ الغرفة ووقفتُ أحدّق ذاهلاً، مشدوهاً، من أنَّ كلَّ شيءٍ حدث كما تخيلته بالضبط. نظرتُ إلى أبي ثمَّ إلى أمي. ثم نظرت مجدداً إلى اللصين فاندفع الطويلُ منهما ووضع يده على كتفي. أمسك بكفتي كأنه سبيكة ذهبٍ وسحبني حتى صرت أمامه مباشرة. توقّعت أن والديّ سيقولان شيئاً فإذا بأبي يصيح: «إنَّه طفلٌ يا دا مينغ! دعه وشأنه!». حاول أبي أن يقترب مني فيما كانت الأزهار الورقيّة تتمزق تحت كرسيه. «لا تنادني دا مينغ! سبق أن قلتُ لك إنني لستُ دا مينغ! ألم تسمعني؟». تقدّم اللصُّ الطويل وركل كرسي أبي. ولما لم يستجب أبي ظلَّ اللصُّ يركل الكرسيَّ حتى آلمته قدمه وراح يقفز في أرجاء الغرفة لاهثاً من الألم. وإذا باللصِّ القصير الذي كان يحمل العصا الخشبية يضحك.

رمقه الطويل بانزعاجٍ فسكتَ على الفور.

«لا تمسكه! لا تُخفِ الصبيّ!»، صاحت أمي وهي تنحني. في صوتها نبرةُ إلحاحٍ وتوسُّلٍ لكنّه كان هادئاً إلى حدٍّ ما. «جميعنا أبناء بلدةٍ واحدةٍ. وبعد انقضاء هذه الليلة - حين سيستيقظ الجميع - ألن يرى بعضنا بعضاً؟»، قالت وهي تحدّق إلى اللصين لكنّهما لم يلقيا بالآ لها. «لسنا من بلدتك التي تدعى غاو تيان!»، قال القصير ملوّحاً بعصاه. «لو أنّنا من البلدة نفسها، أتظنّ أنّنا كنّا سنأتي لسرقة متجركم هذا؟ من يهتمُّ بمتجرٍ جنائزيٍّ وضعٍ كهذا؟ لكنَّ أهالي بلدتك سرقوا كلَّ المتاجر ذات الشأن ولم يبقَ للغرباء مثلاًنا سوى متجركم لكيلا نغادر فارغي

الأيدي!»، قال بنبرة من يقدّم تفسيرًا. ما قاله بدا تفسيرًا إلى حدٍّ ما لكنّ صوته العالي والأجشّ كاد يهزُّ الأزهار الورقية التي تغطّي الأرض. في هذه اللحظة سمعتُ وقع خطى قادمة من الغرفة الداخلية. شعرتُ بأنّ الصوت مألوفٌ نوعًا ما. حين التفتُ لأرى مصدر الصوت رأيتُ رجلين بدينين يهبطان السلم. أحدهما يحمل حقيبة ظهر والآخر كيسًا. أعادا تثبيت اللثام على وجهيهما وهما يقتربان ويومئان إلى اللصين اللذين كانا بالانتظار.

أومأ برأسيهما إيماءةً تنمُّ عن خيبة أمل.

أمسك بي اللصّ الطويل، الذي كان خائب الأمل، مرّة أخرى بعنفٍ. «لقد جئت في الوقت المناسب يا نيان نيان! أخبرني أين تحبّون أموالكم. الآن موسمُ موتٍ، الموت في كلّ مكان - داخل البلدة وخارجها - الموت يحصد الناس كما يحصد المنجل القمح. ولا بدّ أن متجرّكم يحقق أرباحًا جيّدة كجودة محصول القمح لهذا العام. لقد فتّشنا الطابقيين ولم نعثر سوى على بضع مئات من الحيوانات. أتظنّون أنكم قادرون على خداعنا؟»، قال وهو يدير جسدي برفق حتى صرتُ في مواجهة أبي، ظهري يلامس بطنه وفخذه. أحاط حلقي بذراعه كأنه يحاول خنقي، كأنه يحاول انتزاع النقود من حلقي وشعرتُ بأنني أختنق. تدفّق العرق على جبيني كما ينساب الماء على سطح مرآة غُرست في بركةٍ أو كما يتساقط المطر عن مظلة البيت في أثناء عاصفة رعدية. شعرتُ بأنه يرفع قدمي عن الأرض. انحسر زُرّ كمّه في فمي وعلّق في حلقي وأردت أن أسعل لكنّ الزرّ واقفٌ في حلقي لا يخرج ولا يسمح لي أن أتكلم أو أتنفّس.

«كيف تنتظر منه أن يقول شيئاً وأنت تخنقه؟ كيف تتوقع أن تسمع منه شيئاً؟»، جاهد أبي كي يتكلّم فدفعه اللصّ القصير إلى الخلف وعاد جالساً حيث كان. وعلى الرغم من عودته إلى وضعيته الأصلية بقي صوته يتردّد في أرجاء الغرفة: «دعه يتكلّم... دعه يتكلّم...» وحيثما يقل لك إنَّ هناك مالاً فاذهب وفتّش! يمكنك أن تدعه يفتش نيابة عنك أيضاً. أمّا وأنت تواصل خنقه فكيف سيساعدك؟ كيف له أن يساعدك وأنت تخنقه؟»، صرخ أبي وهو يركل الأرض بقدميه. بذل جهده للوقوف لكنّ كلّ محاولاته باءت بالفشل.

أرخی اللصّ الطويل ذراعه المطبقة على رقبتني فاندفع الهواء كالريح عبر بابٍ مفتوح. سعلتُ مراراً وسرعان ما برد العرق الساخن على جبهتي ووجهي. أدركتُ أنّني لن أصاب بالنعاس ولن أترنم. شعرتُ بيقظة تامة كأنّ عقلي كتلة جليد تغطيها طبقات الثلج. «ألست تريد المال فحسب؟». التفتُّ نحو اللصّ الذي كان يخنقني. كان أنفه بارزاً من خلال اللثامِ والجزء الواقع أمام فمه مبلّل برطوبة أنفاسه.

«إذا كنت تريد المال فلماذا تخنقني؟ إن خنقتني فكيف يُفترض بي أن أحضر المال لك؟ أعرفُ مكان المال. اسمعني وأؤكد لك أنّك ستحصل على الكثير من المال. لماذا تسطو على متجرٍ جنازريّ في حين تستطيع أن تسرق محرقة الجثث؟ كم تظنّ أننا نجني من بيع الأكاليل؟ لا تنسَ أننا بحاجة لشراء الطعام والملابس ودفع الإيجار. أما المحرقة فلا تحتاج إلا إلى قليل من الوقود والكهرباء لحرق الجثث. حين يذهب المريض إلى المستشفى لتلقّي العلاج فقد يحاول المساومة لتقليص المبلغ

الذي سيدفعه أما بعد أن يموت الشخص وتُرسَل جثته للحرق فَمَن سيخطر بباله أن يساوم في تكلفة الحرق؟ إِنَّ أقارب الميت يدفعون المبلغ الذي تطلبه المحرقة مهما كان. لذا، بدلاً من استهداف متجربنا، اذهبوا واسرقوا المحرقة!».

لم يتكلّم أحد أو يأتِ بحركة. تجمّدوا جميعًا كتماثيل. كان الجوُّ حارًّا خانقًا في الغرفة. أراد اللصّ القصير البدين أن ينزع لثامه ليستنشق بعض الهواء لكنّ اللصّ الطويل استدار نحوه ونظر إليه فتراجع بسرعة. سار بعض الناس في الشارع ونظروا إلينا. أحدهم يحمل شيئًا، صرخ: «حتى المتجر الجنازّي يتعرّض للسرقَة!» ثمّ انصرف مقهقهًا. نظر أبي وأمي إلّيّ ثم تبادلا النظرات. بدت عينا كلّ منهما مشرقتين وسعيدتين كأنني فتحت بصيرتهما على شيء ما، كأنني ذكرتهما بموضع مفتاح بنكٍ أو خزنة. ألقى الرجل البدين الحقيبة التي كان يحملها فجأة وضحك: «اللعة! لماذا لم نفكر بهذا الأمر؟».

حدّق الطويل في الحقيبة برهة والشكّ يحومُ في عينيه مثل ضبابٍ فوق بركة.

«مجرّد ملاءة سرير عديمة القيمة»، قال البدين وهو ينظر إلى زميله. دار بينهما حديثٌ سريعٌ بالأعين قاد إلى إلقاء ما بحوزتهما على السّلم. رمق الطويل القصير مجدّدًا فرمى عصاه. ثمّ نزع الأربعة لثُهم ومسحوا بها عرقهم. أدركتُ ووالديّ أنّ اللصّ الطويل هو سون دا مينغ الذي يقطن في الشارع الثالث. أمّا البدين فهو ابن خاله المنحدر من قرية مجاورة لكنني لا أعرف اسمه. الرجلان الآخران من قرى مجاورة أيضًا وهما أبناء

عمومة دا مينغ. أربعتهم أقارب جاؤوا للمشاركة معاً في السرقة. وعلى الرغم من أنهم ليسوا نائمين أو مسرّمين فقد استغلّوا ليلة السرّنة الكبرى للنهب. وبعد أن خلّعوا اللّثم وقفوا في منتصف الغرفة وطلب دا مينغ إلى اللصّ القصير أن يفكّ قيد أمي وإلى اللصّ الطويل أن يفكّ قيد أبي ثمّ تقدّم ووقف أمامه.

«اصدقني القول يا لي تيان باو، أنت من أبلغ عن دفن جثة أبي؟».

هزّ أبي رأسه وفرك آثار الحبل عن معصمه. «لو كنتُ أنا من فعل ذلك لفضلتُ أن أموت الليلة وأنا مسرّمن دون أن أدرك شيئاً مما يجري».

نظر أبي في أرجاء الغرفة ثم التفت إلى أمي. «ما يزال هناك بعض الشاي في المطبخ. اشرب منه يصفّ ذهنك ويتبدّد نعاسك فلا ترتكب أيّاً من هذه الحماقات بعد الآن!». حين سمع اللصّ البدين ذلك ضحك واقترب من أبي. «الحماقة الوحيدة هي أننا تأخرنا في استغلال السرّنة. لقد فات الأوان. سُرقت كلّ المتاجر بالفعل». نظر إلى قريبه دا مينغ قبل أن يعلن: «حسنٌ. سنعيد لكم كلّ الأشياء. وطالما أنك لست المخبر فلن نطالبك بشيء. نريد من نيان نيان أن يرافقنا بعض الوقت فحسب».

وقف أبي كأنّه يريد أن ينقذني من قبضة سون دا مينغ. لكنّ الأخير ضمّني إلى صدره وضحك ببرود.

«ألستَ تحتقر خال الصبيّ؟ البلدة بأسرها تعلم أنّك وزوجتك تكتّان ضغينة تجاه شقيقها الأكبر، لكنك وزوجتك لا تستطيعان فعل شيء له. الليلة، أنا وأقاربي سنساعدكم على الثأر منه». رمق أمي فلمّا رأى شحوبها وخوفها عدّل من حدّة نبرته قائلاً: «لا تخافي يا أختي. لن نوذّي

أخاك. إِنَّه يستغلُّ موت الآخرين منذ عشر سنوات بل أكثر وأنت تعلمين ذلك تمامًا. ألسنتِ تتساءلين على الدوام: «إنَّه أخي الأكبر! ماذا بوسعي أن أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل؟»، فإن لم يكن هناك ما يمكنك فعله فنحن نستطيع فعل ذلك من أجلك. سنستغلُّ السرنة في هذه الليلة ونذهب إلى بيته ونطالب بهاله المدّس. إن حالنا الحظّ فقد نتمكّن من سرقة الكثير من هذه الأموال ونستخدمها لبناء جسرٍ فوق النهر الذي تطلُّ عليه البلدة، وإن لم يحالفنا فقد نتمكّن على الأقل من استرداد رسوم حرق جثث أقاربنا التي دفعناها ظلماً على مدى كلّ هذه السنوات».

ثمّ سحبوني إلى الخارج.

وقف والداي مندهشين، راقبانا ونحن نغادر.

في الخارج كان كلّ شيءٍ مظلمًا وخائفًا كما كان من قبل. كأنّ الليل خيم على المكان ولم يتزحزح. وبالمقارنة مع الغرفة، كان الجو في الخارج أبرد بكثير فأخذ الجميع نفسًا عميقًا. لم نعرف كم الساعة. وقف الجميع عند مدخل متجر الجنائز ينظرون حولهم. في تلك اللحظة، استعاد والداي وعيهما أخيرًا وهرعا إلى الخارج. «يا دا مينغ... نيان نيان ما يزال طفلًا. وبغض النظر عمّا ارتكبته أنا في هذه الحياة فأنا لم أوذِ أحدًا من عائلتك. أتوسّل إليك أن تعتني به. أتوسّل إليك ألا تدعه يتأخر في العودة، إِنَّه طفلنا الوحيد».

التفت دا مينغ ونظر إلى المتجر وإلى والديّ. «لماذا لا تنظّفان بيتكما؟ ما دمنا غير مسرّمين فلن يمسّ نيان نيان أيُّ مكروه». ثمّ غادروا. تردّد صدى أصواتهم في الشارع كخبر الماء في نهر.

عرفتُ أَنَّهُم جَاؤُوا عَلَى مَتْنِ عَرَبِيَّةٍ ثَلَاثِيَةِ الْعَجَلَاتِ.
عرفتُ أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ كَانَتْ مَرْكُونَةً فِي زَاوِيَةِ مَظْلَمَةٍ مَخْفِيَةٍ مِنَ الشَّارِعِ.
عرفتُ أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ كَانَتْ فَارِغَةً إِلَّا مِنْ بَعْضِ الْأَكْيَاسِ الْقَمَاشِيَةِ
وَقَضْبَانِ الْحَدِيدِ وَالْبِلَطَاتِ.

تَبَيَّنَ لِي أَنَّ لَا نِيَّةَ لَدَيْهِمْ لِسُرْقَةِ الْمَحْرَقَةِ بَلْ عَقَدُوا الْعِزْمَ عَلَى سُرْقَةِ
مَنْزِلِ خَالِي صَاحِبِ الْمَحْرَقَةِ. دَفَعُونِي لِلصُّعُودِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَجَلَسْتُ فِي
الْمَقْدَمَةِ. قَالُوا لِي تَشَبَّثْ جَيِّدًا حَتَّى لَا تَسْقُطَ. اعْتَنُوا بِي كَأَنِّي شَقِيئُهُمْ
وَعَمَرُونِي بِدَفْعٍ كَأَنَّ قَلْبِي مَوْقَدٌ فِي يَوْمِ شِتَاءٍ بَارِدٍ أَوْ مَرْمَى لِلنَّسِيمِ
الْعَلِيلِ فِي يَوْمِ صَيْفٍ حَارٍّ. تَرَاجَعَتِ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ رُكْنِهَا الْمَعْتَمِ، ثُمَّ بِصَوْتٍ
هَادِرٍ شَقَّتْ طَرِيقَهَا خَارِجَ الْبَلَدَةِ. رَأَيْنَا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الطَّرِيقِ
عَرَبِيَّةً مِمَّاثِلَةً تَسِيرُ وَفِيهَا أَنْاسٌ يَصْرُخُونَ:

«صَرْتُمْ أَثْرِيَاءَ إِذَا؟».

«لَا أَثْرِيَاءَ وَلَا خِرَاءَ! أَهْلُ الْبَلَدَةِ سَبَقُونَا وَسَرَقُوا كُلَّ الْمَتَاجِرِ عَنْ
بُكْرَةِ أَبِيهَا».

«اسْرِقُوا بَيْوتَهُمْ!».

«شَرِبَ الْأَوْغَادُ ذَاكَ الشَّايِ بِالْخِرَاءِ وَطَارَ النَّوْمُ مِنْ عَيُونِهِمْ! مَا
عَادُوا مَسْرُومِينَ! كَيْفَ لَنَا أَنْ نَسْرِقَهُمْ؟».

فَجَاءَتْ تَوَقَّفَتْ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عَرَبِيَّةٌ ثَلَاثِيَّةٌ مُتَجَهَّةٌ إِلَى الْبَلَدَةِ.
فِيهَا وَاصِلٌ دَامِينُغٌ وَأَقَارِبُهُ طَرِيقُهُمْ خَارِجَ الْبَلَدَةِ، تَحْتَ جَنَحِ الظَّلَامِ.

«إلى أين طريقكم؟».

«نريد العودة إلى البيت للراحة. ما عدنا راغبين في الشراء!».

بينما كان دا مينغ وأبناء عمومته يصرخون بهذا الرد، رأوا العربة الأخرى تتوقف على جانب الطريق، مترددة بين مواصلة السير إلى البلدة أو التوجه إلى قرية أخرى، لكنّها في النهاية استدارت وغادرت. ثم رأوا عربة أخرى تقترب منهم.

«كيف هو الحال في البلدة؟ هل فيها صيد ثمين؟».

«أسرعوا! كلّ البلدة مسرّومة وأبواب كلّ البيوت والمتاجر مفتوحة على مصراعها».

«لماذا عربتكم فارغة إذًا؟».

«عربتنا؟ لم نأخذ أشياء كبيرة، ملأنا جيوبنا فحسب».

قال دام مينغ ذلك ونهض من عربته وربّت على جيوبه باستعراضٍ. شقّت العربة الأخرى طريقها بسرعة نحو البلدة وركابها يصرخون ويهتفون كأنّهم يستمتعون بحفلة رأس السنة.

تبين أنّ هناك عددًا لا يُحصى من القرويين جاؤوا بجراراتهم وعرباتهم وسياراتهم وشاحناتهم. كانوا جميعًا في طريقهم إلى البلدة. وجهتهم أيّ مكانٍ قد يحتوي أشياء ثمينة. جميعهم يحاولون أن يصبّحوا أثرياء. رأيت شخصًا نائمًا، يتدلّى رأسه بين حين وآخر حتى يكاد يسقط لولا وجود رقبتة. بعض الناس مسرّمون لكنّهم بدوا يقظين. كانوا يحدّقون إلى الأمام بوجوه تشبه ألواح التواييت. كان هناك أيضًا مجموعة

لا يظهر على وجوههم أيّ علامة من علامات النعاس. هم في تمام اليقظة لكنهم يستغلّون موجة السرنة الكبرى للسرقة. لم أعرف كم الساعة. ربّما الرابعة أو الخامسة فجراً، حينما يكون معظم الناس غارقين في النوم. الرجل البدين الراكب في عربتنا غلبه النعاس، وفي حلمه راح يقول: «أريد أن أعود إلى بيتي كي أنام، أريد أن أعود إلى بيتي كي أنام. ما الجدوى من السرقة؟». شقيقه المستيقظ ربّت على كتفه وقال شيئاً مختلفاً: «لم تسنح لي طوال حياتي فرصة كهذه. متى ما كوّن المرء ثروته، تصبح مضاعفة الأموال أمراً في غاية السهولة». في تلك اللحظة طلب دا مينغ من ابن عمّه القصير الذي كان يقود العربة التوقّف عند مفترق الطرق على مشارف البلدة. بعدها قادني إلى وسط صندوق العربة، الكبير كحصيرة تقريباً، وطلب إليّ أن أجلس. الليل المظلم يحيط بي وبالعربة التي غدت بحيرة باردة يُستطاب فيها النوم. لا يوجد مسرمنون يحصدون أو يدرسون القمح في الحقول المجاورة. العالم ساكن ونائم على الرغم من الجلبة المخيّمّة. الجميع مسرمنون وحركات وأصوات خافتة في كلّ مكان. رنا دا مينغ إلى السماء ثم إلى الطريق، وحين التفت إليّ أخيراً تلالأت عيناه كبقع صغيرة من ضوء. «يا نيان نيان...»، أراح يده الممسكة باللثام على كتفي.

«خالك ليس رجلاً صالحاً، صحيح؟ ثراء خالك سببه أموال موتانا، صحيح؟ حتى يومنا هذا يتوجّب على الناس تقديم الهدايا له كي يحرق جثث موتاهم تماماً، وإلا سيسحق عظام الجثث بالمطرقة أمام أعينهم! صحيح؟ خالك يجبر الناس دوماً على دفع ثمن جرّة رماد رخاميّة ثم يعطيهم واحدة من الحجر العاديّ، صحيح؟ يجبرهم دوماً

على دفع ثمن نعشٍ من خشب الماهوجني الأصلي ثم يعطيهم واحدًا من الخشب العاديّ، صحيح؟ أنت تعلم كلّ هذا، أليس كذلك؟ وتعلم أنّ أباك يكره خالك، ولأنّه طيّب القلب ليس بوسعه هو وأمك سوى إضافة بعض الأزهار الورقية على الأكاليل التي يبيعانها لعائلات الموتى واستخدام قماش عالي الجودة لأكفانهم وخياطتها بشكلٍ محكم وبتطريز جميلٍ ومتينٍ. كلّ أهل البلدة يعرفون هذا ورأوه بأبصارهم، لا يختلف اثنان على طيبة والديك، لكنّ موت خالك هو الأفضل للجميع. يقول الجميع إنّ أمك قد تزوجت أباك كي تهرب من أخيها، وإنّ والديك قضيا حياتهما كلّها في التكفير عن خطايا خالك والتعويض المعنوي عنها. كلّ أهل البلدة -بمن فيهم أنت نفسك- يعلمون أن والديك وخالك على طرفي نقيضٍ من ميزان العدل السماويّ، ففي حين أنّ خالك في ذلك الطرف الحقير يكسب أموالًا طائلةً فإنّ والديك في الطرف الآخر يحاولان فعل الخير وسداد ديون خالك المعنوية. وكلّما زاد ما يكسبه خالك زادت خطاياهم وزاد في المقابل اضطراب والديك للتضحية والتعويض عن أفعاله عبر جعل الأكاليل والزينة الورقية أفضل من المعتاد وبيعها بثمن أرخص، وعلى الرغم من أنّ متجركم قد يبدو مزدهرًا ويحقق أرباحًا جيدة فإنّ الحقيقة خلاف ذلك تمامًا، وهذا سبب أنّنا لم نعثر على شيء ذي قيمة في منزلكم الليلة ولم نأخذ شيئًا من أغراضكم، هذا كلّهُ لأنّ والديك طيبان لدرجة جعلتنا لا نقوى على الإساءة لهما، ومن أجل أبيك وأمك وعائلتك بأكملها قررنا مغادرة بيتكم بلا غنيمة، وقبلنا نصيحتك بسرقة المحرقة بدلًا من ذلك، ولكن

الآن، وبالنظر إلى الماضي، فقد قررنا من أجلك ومن أجل والديك ومن أجل كل مَنْ في البلدة أو خارجها ألا نسرق المحرقة، بل أن نذهب مباشرة إلى بيت خالك كي نسرقه؛ وبهذه الطريقة نخفف من العداوة التي يكنّها أبوك وأمك تجاه خالك، والتي يكنّها الجميع تجاه المحرقة، وبناءً عليه لن نحتاج إلى أن ترافقنا سواء إلى المحرقة أم إلى فيلا خالك لما فيه من إحراج لك. كل ما نريده منك في هذه المرحلة هو أن تخبرنا العنوان الدقيق لبيت خالك ونخبأ أمواله وممتلكاته الثمينة ومجوهرات زوجته. وبما أنني أعلم أن أباك لا يزور خالك كثيرًا وكذلك أمك التي تستصعب المشي، فهذا يعني أنك الوحيد في العائلة الذي يتردد إلى بيته، وإذا أخبرتنا بما نحتاج إليه فبوسعك أن تترجل من العربة بكل سرور وأن تعود إلى البيت حيث والداك بانتظارك، لا سيّما أننا لا نستطيع أن نتكبد مسؤولية اصطحابك معنا في عمليات سرقتنا المستمرة حتى الصباح؛ لأنّه إذا حدث مكروه لك فسنخيّب أملك وأمل والديك. بمجرد أن تخبرنا العنوان الدقيق للفيلا ومكان إخفاء ممتلكاته سنطلق سراحك وستعود إلى البيت لتخلد أنت ووالداك للنوم بعد أن تغلقا باب المتجر. ومع طلوع الصباح، مهما كان ما حدث، فلن نلومك أو نتنكر لك بل سنظهر امتناننا لك ولوالديك وسنزورك في بيتكم ونعطيك جزءًا من المسروقات الثمينة التي أخذناها من فيلا خالك لكيلا تشعر بالغبن أنت ووالداك اللذان ظلّا يدفعان ثمن خطايا خالك منذ أكثر من عشر سنوات دون جدوى... أخبرنا يا نيان نيان! لا نريد منك سوى بضع معلومات. من مصلحة عائلتك أن تخبرنا. انزل من

العربة وعد إلى البيت يا نيان نيان. إذا صادفت في طريقك مسرّمين أو يقظين إياك أن تتكلّم معهم أو تخبرهم بما نفعله». ترجلتُ من العربة.

شاهدتُ دا مينغ ومَن معه وهم يستديرون بعربتهم عند مفترق الطرق ويختفون في الليل. في الأفق لمحتُ ضوءًا قادمًا من جهة بيت خالي كأنّه الشمس الموشكة على الشروق. في القرى الأقرب هناك أيضًا أصوات وأضواء كأنّ الجميع قد استيقظوا وهموا بالنهوض من أسرّتهم. واقفًا عند مفترق الطرق، شعرتُ بأنني أغرق في بئر، في حفرة حفرتها بيدي، حفرة باردة. لم يداهمني النعاس على الإطلاق بل أحسستُ كأنّ أحدهم فتح الأبواب والنوافذ إيدانًا بشروق الشمس.

3. (5:10-4:51)

سرتُ نحو بيت خالي.
ركضتُ نحو بيت خالي.
عدوتُ نحو بيت خالي.
خالي خنزير لكنّه يظُلّ خالي. خالي كلب لكنّه يظُلّ خالي. أردتُ تحذيره من اللصوص الذين سينهبون بيته ولذلك عليه ألا ينام وألا يتسرّنم وألا يفتح بابه لأحد. للوصول إلى فيلا خالي الخلافة لا بُدّ من دوران العربة حول محرقة الجثث. عليها أن تعبر الطريق الواقع غربي السدّ. عليها أن تصل إلى الطرف الشرقيّ من السدّ قبل النزول والالتفاف حول

غابة وبركة. أما أنا فعليَّ الانطلاق من مفترق الطرق إلى البيت مباشرة مختصرًا مسافة مقدارها اثنين أو ثلاثة لي. كنت أعلم أنني إذا ركضتُ فسأصل إلى بيت خالي قبل الآخرين وهذا ما كان. في الطريق صادفتُ أشجارًا ورياحًا. صادفتُ زوجين عارين تمامًا تحت شجرة يفعلان شيئًا ما. لم يكن واضحًا إذا ما كانا مستيقظين أم مسرمنين، لكنَّ آهات النشوة كانت عالية بما يكفي لهُزَّ الأشجار الواقعة على جانب الطريق. وبينما كنت أراقبهما عن بعدٍ شعرتُ بالدم يغلي في عروقي وصار الشيء الذي بين فخذيّ قاسيًا كالحديد. وددتُ كثيرًا أن أدنو منهما كي أرى عن كثب، لكنني اضطررت للمضي قدمًا من أجل خالي. كان الفانوس الذي وضعاه تحت الشجرة يشعُّ ضوءًا أصفر خافتًا كشهابٍ يتلاشى.

ابتعدتُ أكثر فأكثر عن ذلك الضوء.

بين آهات نشوتهما، لم أفهم كلمة مما قالاه.

سرتُ في البراري، على امتداد النهر الواقع أسفل السدِّ. بدا نهر يي أشبه بشريط حريريّ عريض ومتشابك يتدلَّى من السماء. خرير الماء كأغنية، أو كعويل شبحٍ أو كآهات نشوة عاشقين. خطر ببالي لاحقًا أنَّهما يستغلَّان السرنة الكبرى لإمتاع بعضهما بعضًا. تساءلت في الوقت ذاته لماذا لا يفعلان ما يفعلانه في بيتهما حيث الخصوصية؟ لماذا لا يكونان في سريرهما؟ في أثناء سيرى تراءى لي ظلُّ عاتمٍ فارتعدتُ خوفًا لكنَّ خوفي تبدَّد عندما تذكَّرتُ الزوجين. حين سمعتُ نعيق الطيور المخيف شعرتُ بقشعريرة تسري في كياني فصرخت مثل الرجل المنتشي. وبهذا ما عدتُ خائفًا، شعرتُ بأنني بطلٌ صغيرٌ.

تراءت لي فيلا خالي. كان يقطن ضمن ما يعرف بمجمّع سكني صغير، لا في قرية. جيرانه أثرياء للغاية، منهم من افتتح منجماً وراح يبيع ويشحن الفحم لبلاد بعيدة ومنهم من افتتح سلاسل من المتاجر في البلدة، ومنهم من يشغل مناصب في حكومة المقاطعة. سمعتُ مرة أنَّ عمدة المقاطعة يسكن هناك أيضًا. إنَّه المجمّع السكني لأثرياء بلدتنا، مجمّعنا الأرستقراطي، مجمّع يُحرّم على العامة دخوله. منطقة مشمسة محاطة بمياه السدّ الغزيرة. جذوع الصنوبر بعرض السرو وجذوع السرو بعرض جذوع الصنوبر. جذوع السرو والصنوبر والصفيراء بعرض الدلاء. كلّ شجرة محاطة ببركة صغيرة مؤطرة بالحجارة، وأمام كل بيت حديقتا زهور. أمام كل بيت أربع درجات حجرية يعلوهما كلبان من الخزف، أحدهما مستلقٍ والآخر واقف. لسان كلّ منهما متدلّ كأنَّهما يكابدان الظمأ. أبواب المجمّع مغلقة دومًا ومقفولة بإحكام احترازًا من السرقة في أيّ وقت.

لكن خلال السنوات العشر الماضية لم يتعرّض أيّ بيت في المجمّع للسرقة.

لم يحاول أحد سرقة.

إلا أنَّ المجمّع، الليلة، على موعدٍ مع عملية سطو. كانت عربية دا مينغ مدجّجة بالبلطات وقضبان الحديد، وكان هو وأبناء عمومته متأهبين للقتال. إذا حدث قتل فسيموت شخصٌ وإذا مات شخصٌ فيتطلّب ذلك قتل شخص آخر انتقامًا، ربّما ليس شخصًا واحدًا أو اثنين، بل ثلاثة أو خمسة أو حتى سبعة أو ثمانية. ركضت فوق الجسر

القديم وصعدتُ التلّة. الضوء يتسرب من أشجار بستانٍ، حيث حوّلت الأوراقُ ضوءَ القمر إلى شظايا نور صغيرة. وبينما أسلك طريقاً معبّداً يقود إلى أحد المداخل الخلفية للمجمّع، أدركت أن العرق يبّل كامل جسدي وملابسي. كأنّ مسامي كلّها مفتوحة لأقصى اتساعها وداخل فرديّ حداثي تجمّعت بركتان من السائل. تنفّسي هادئ ومتسارع كالماء المتدفّق عبر بوّابة سدّ. لكنّي حين بلغت المجمّع السكنيّ أخيراً وشاهدتُ الوضع فيه شعرتُ أنّ الأمر لا يستحقّ العناء.

ما كان يجدر بي أن أفعل ذلك.

بدالي أن مجيئي لإبلاغ خالي وسكان هذا المجمع خطأ فادح. فعندما وصلتُ وجدتُ البوّابة الخلفية مفتوحة. عادةً كان خالي يغلقها كلّ ليلة لكن في تلك الليلة تحديداً كانت مفتوحة على مصراعيها. تسلّل الضوء من المدخل كأنّ لوح زجاج ضخماً ارتقى على الأرض مثل جدولٍ ذهبيّ يجري. بالداخل لا أحدٌ نائمٌ بل الجميع محتشدون وسط المجمّع. أنوار البيوت كلّها مضاءة وساطعة. في تلك الليلة كانت الفيلا تتوهّج بضوء ساطع كأنّها في أوج النهار. كأنّ الفيلا لم تدخل ظلمة ذلك العام أو ذلك الشهر أو تلك الليلة. أشجار الصنوبر التي تخترق عنان السماء مزينة بالأضواء كأنّ أغصانها تتلأأ بالألماس، وأشجار السرو المنتصبة بدت مكسوّة بالزئبق المشعّ. برك الزهور مضيئة كأنّها تحت شمس الظهيرة يفوح منها العطر. الناس يذرعون الطرق والممرّات الإسمتية والإسفلتية والمعبّدة بالحجارة حاملين أطباق الخضروات المطبوخة أو زجاجات وأقداحاً من النبيذ. شربوا وتمشّوا وأكلوا كأنّهم يحتفلون

برأس السنة أو بحفل زفاف ضخم تحضره مئات العائلات. لكنهم، بتجوّهم في أنحاء الفناء، بدت ابتسامات باهتة على وجوههم الشبيهة بالطوب اللامع المطلي حديثًا بالأحمر والأبيض والأصفر. كانوا جميعًا مسرّمين.

وفي أثناء سرّمتهم أكلوا وشربوا وتحدّثوا.

ساحات عديدة محاطة بالنوافير ذات الأضواء المتلائية. مع ارتفاع عمود الماء ينبعث ضوء أخضر ومع انخفاضه ينبعث ضوء أصفر. وفي بركة زهور مساحتها نصف مو، ثمّة مجموعة من المصابيح الصفر والخضر والبيض، تتوارى أسماك الزينة الذهبية فيها في ظلال الحجارة. على الموائد المستديرة التي يبلغ عددها عشرين تقريبًا وطاولات لعبة ماه جونغ⁽¹⁾، كان الناس يأكلون ويشربون فيما استغرق آخرون في اللعب. صوت قرع الأقداح يشبه موسيقى أوبرالية صاخبة. طاولات الماه جونغ مغطاة برزم النقود، كل رزمة مكوّنة من عشرة آلاف يوان؛ أي إن هناك عشرات بل مئات الآلاف من الحيوانات على تلك الطاولات. تلذّذ الشاربون بأجود أنواع البايجيوي في العالم كالماو تاي والوو ليانغ يه وقد تناثرت الزجاجات والأقداح في كلّ مكان. لم يكن واضحًا إذا ما كانوا مسرّمين أم ثملين فحسب، لكنهم بعد أن شربوا نخب بعضهم بعضًا استلقوا فوق الطاولات وغطّوا في النوم وهم يغمغمون: «اللعة! لقد أسرفتُ في الشرب! لقد شربتُ كثيرًا كثيرًا!». زوجاتهم والنساء الأخريات كنَّ يرتدين البيجامات التي تكشف عن بشراتٍ كاليشم

(1) لعبة صينية تشبه الدومينو.

الأبيض. وقفن بجانب الرجال يراقبنهم وهم يلعبون ويكسبون من أجلهنّ المزيد من المال. حين يفوزُ رجالهنّ تشرقُ أساريرهنّ كأزهارٍ تتفتّح، وعندما يخسرون تذوي وجوههن كخرق بالية. هناك أيضًا أطفال بدينون يركضون في الأنحاء، وجوههم شبيهة بألواح خشبية، لكن، بخلاف آبائهم، كانت وجوه الأطفال كالخشب المقطّع حديثًا، كالطوب الطازج. بعض الأطفال نائمون على السلام الأمامية لبيوتهم، أو على صدور أمهاتهم، أو في أحضان آبائهم. وجوههم وردية متعرّقة كأنهم مغمورون في مياهٍ ساخنة.

كانوا جميعًا نائمين.

كانوا جميعًا يحلمون.

كانهم مسرّمون مثل والديّ.

لشدّة الحرّ خرج سكّان هذا المجمعّ الأثرياء من بيوتهم وتبادلوا الحديث سعداء وعندما شعروا بالنعاس تسرّموا. ولأجل المتعة أخرجوا نبيذهم وسجائرهم وطلبت كلّ عائلة إلى خادمتها أن تعدّ بعض الأطباق وتأتي بها إلى الفناء. اتّضح أنّ هؤلاء يختلفون عن أهل القرية والبلدة حتى في سرّمتهم. فحين تسرّم القرويون ذهبوا إلى حقولهم للحصاد والدرس، أو سرقوا ونهبوا وقتلوا. أمّا بالنسبة لسكّان هذا المجمعّ فالسرّمة عبارة عن أكلٍ وشربٍ ولعبٍ. بعضهم مفتوح العينين وبعضهم الآخر مغمضها. بعضهم لعبوا الماء جونغ نيامًا كما لو كانوا يقظين. خلعوا قمصانهم واكتفوا بقميص داخليّ. من بينهم تاجر فحمٍ أعرفه، خلع قميصه وسرواله ولم يبق سوى على سرواله الداخليّ.

بدا كأنه قد نهض لتوّه من الفراش بعد أن قضى وقتاً ممتعاً مع زوجته وأمامه صفٌّ من زجاجات النبيذ الفارغة والأقداح. إحدى النساء اللواتي شربن برفقة الرجال خلعت قميصها فظهرت حمالة صدرها الوردية والبيضاء المطرّزة باللورود، ذات البطانة الذهبية. تحت الحمالة بدا ثدياها مكتنزين كـرغيفي خبز طازجين تغطيها طبقة من الدقيق. رائحة الكحول والعطور الأنثوية تفوح من كلّ مكان بالإضافة إلى رائحة المياه المتدفقة وصوت الشخير المنتشر في منتصف الليل. نام بعض الرجال على جانب الطريق، بجوار بدلاتهم وربطات عنقهم الأجنبية التي لا يرتديها سواهم. هناك رجل تجوّل داخل المجمع مثل شبح، مع كل خطوة كان يخفض قدمه بحذر شديد كأنه يخشى أن يدوس على إبرة أو مسمار أو حجر. «إنّهم مسرّمون! إنّهم مسرّمون! الجميع مسرّمون!»، قال وهو يمشي كأنه الوحيد المستيقظ. «لن أدع لنفسي مجالاً للنوم أو السرنة. ماذا سأفعل لو حاول أحدهم سرقتي؟». ثمّ واصل تجواله نحو خارج المجمع حتى وصل إلى المدخل الأساسي. «أين الحارس؟... أين الحارس؟... عليّ تحذير الحارس من النوم مهما بلغ به النعاس. لا ينبغي السماح لأحد بالدخول ولا للمربّيات أو أي غريب آخر بالخروج».

قال ذلك وهو يتجوّل ذهاباً وإياباً بين صفّي البيوت الأمامية والخلفية للمجمع. وبعد عدّة جولاتٍ اكتشف أنّه غير قادر على إيجاد المدخل الأساسي أو الحارس المكلف به.

سرتُ نحوه كي أدلّه على المدخل ومكان وجود الحارس وحين صرت على مقربة منه وجدت نفسي غير راغبٍ بأن أقول له شيئاً. رأيتُ

أنه رجلٌ لكَنه لسبب ما كان يحمل بيده حمالة صدرٍ مطرزة بالزهور، فبدا كخنزير غرس وردةً في فمه. حين التفت نحوي بدا كأنه لا يراني فنأيتُ بنفسي عنه كأنه جذع شجرة لا حياة فيه. وعندما توجهت إلى بيت خالي وهو البيت السادس في الصف الثالث، استدرتُ ورأيتُ الرجل قد اصطدم بشيء ما فسقط نائمًا على الأرض.

عجزت عن العثور على خالي بين الأكلين والشاربين واللاعبين كأنني أبحث عن خنزير بعينه وسط قطعٍ كبير. سلكتُ ممراً تصطفُ على جانبيه أشجار السرو حتى وصلتُ عند الصف الثالث، إلى بيتٍ ذي فناء، ورأيتُ مربية في منتصف العمر تفتح البوابة الحديدية لتخرج. كانت تحمل كيسًا وتجرُّ حقيبة كبيرة. وحين رأني تراجعت أول وهلة ثم أدركت أنه لا مفرَّ مني.

«من الواضح أنك لست من سكان المجمع... خذ شيئًا ما وغادر على الفور! إذا أمسك بك الحارس فستعاقب بدلًا من اللصوص الحقيقيين!».

قالت ذلك ثم غدَّت خطاها، متحاشية الأضواء، نحو المدخل الشمالي للمجمع. سارت بسرعة كبيرة كأنها حافية القدمين والأرض تحتها نار.

رأيتُ حارسًا يخبئ حقيبةً بين الأشجار وحين خرج راح يصفقُ يديه كي يبدو كأنه يُجري جولات التفقّد.

رأيتُ كلبًا واقفًا في طرف حديقة ينبح نباحًا شديدًا، فيما كان صاحبه نائمًا داخل الحديقة، شخيره يدوي كالرعد.

أسرعتُ حتى كدت أطيّر. كنت أعرف أنّ شيئاً خطيراً سيقع. فقد اعتزم أهل البلدة والقرى المجاورة سرقة المجمع، كأنّه بنكٌ من الكنوز، مدرّكين أنّ سكانه نائمون أو مسرّمون. دون أن أقول كلمة أو أن أتوقّف لحظة، ركضتُ إلى فيلا خالي. ركضت بسرعة كبيرة بدا معها الطريق الذي يتجاوز طوله مئات الأمتار قصيراً كعود تناول الطعام. المصابيح مضاءة في بعض البيوت وغير مضاءة في بعضها الآخر. بعض الأبواب الأمامية مغلقة وبعضها متروكة مفاتيحها في الأقفال، بحيث يمكن للسارقين وقطّاع الطرق والجيران فتحها بكل سهولة.

وصلتُ أخيراً إلى فيلا خالي.

توقفتُ أمام المنزل السادس في الصف الثالث، ومسحتُ العرق عن وجهي. وثبتُ فوق درجات السلم الأربع وسياجها الفولاذي حتى صرت أمام بوابة بيت خالي الأمامية وناديتُهُ ثم دفعتُ البوابة ودخلتُ كأنني أخطو في حلمٍ. لم يكن خالي في غرفة الطابق العلويّ التي يدعونها غرفة نوم. لم تكن زوجة خالي هناك أيضاً. وحده ابنهما نائمٌ في الغرفة التي يدعونها غرفة نومٍ بالطابق العلويّ. الصالة التي يدعونها غرفة معيشة كانت كبيرة بحجم ثلاث غرف عادية. النور ساطعٌ لدرجة تجعلك ترى النمل الذي يدبُّ على الأرضيّة مثل سيارات تمشي على طريق. التلفزيون قيد التشغيل والجدران بيضاء بياض الثلج. الأريكة فارغة والصوت المنبعث من التلفزيون يتردّد في أرجاء الغرفة. طاولة المائدة مكتظة كأنّها سوق. يبدو أنّ أصيص نبتة خيزران وأصيصي زهورٍ كانت تراقب الجالسين في غرفة المعيشة، ها هو خالي وزوجته اللذان لا

يرتديا سوى نعالٍ وملابس داخلية. لم يبدوا كشخصين ينحدران من عائلة ثرية، بل يشبهان إلى حدّ كبير فقراء البلدة. أعدّت زوجة خالي أربعة أطباق ووعاءين من الحساء، أحدهما حساء البيض المنكّه والآخر حساء القريدس واللحم المفروم والخضروات المخلّلة. أصناف الطعام مرتّبة على المائدة الشبيهة بكشكٍ في سوق. كان خالي طويل القامة، ضخّم البنية، حين يجلس القرفصاء يبدو كجدارٍ منهارٍ. أما زوجته فنحيلة، وحين تجلس بجانب ذلك الجدار تبدو أشبه بزهرة أو شجيرة مزروعة حديثاً. حين دخلتُ كانا يصبّان من زجاجةٍ ما على أطباق الخضار والحساء كأنّهما يرشّان الملح أو التوابل. خالي يسكب وزوجته تخلط بعيدان الطعام. حين سمعا صوت انفتاح الباب استدارا وحدّقا إليّ ذاهلين، وقد اصفرّ وجههما. لكنّ الاصفرار سرعان ما تلاشى لتعود سحنة النعاس. بدا وجه كلّ منهما مشدوهاً، لامعاً كالخزف حين يقع عليه الضوء. «ألم تقفلي الباب؟»، سأل خالي زوجته بنبرة إدانة لكنّه واصل السكب على الأطباق كمن ينثر بذور السمسم في حقل. «لقد قفلته لكن يبدو أنّ الريح فعلت فعلتها»، قال زوجته وهي تواصل خلط الأطباق بعيدانها. انهمكا فيما يفعلانه كأنّهما لم يرياني حتى، كأنّني محض هبةٍ ريحٍ أو شجرةٍ أو سرابٍ حلمٍ يتلاشى مع رقة الجفن.

«يا خالي! يا زوجة خالي! ماذا تفعلان؟ أليس لكما علم بما يجري في المجمع؟ العالم ينهار! أتعلمان بذلك؟».

الغرفة هادئة كأنّ أحداً ليس بها. كأنّني لم أطأها. واصل خالي برويّة صبّ ما بيده على الأطباق والحساء فيما واصلت زوجته التقليب. حين

نُثرت البلورات الشبيهة بالسكر على طبق البيض المخفوق وذابت، تلوّن البيض بلون رماديّ كأنّه قد احترق قليلاً. «لا تكثّر فتفسد طعمه!». «لا تقلقي من الإكثار! بهذه الطريقة ستكون لقمة واحدة كافية. بهذه الطريقة ستتقلّص احتمالية أن يستيقظوا إلا بعد ليلة طويلة ملأى بالأحلام». شرع خالي يضيف المزيد من ذلك الشيء إلى أحد أوعية الحساء. بعدها انتقل إلى زجاجة أخرى تحتوي على ما يشبه ماءً موحلاً. أضاف منها رشّة ثم أخرى. ثم أخرى وأخرى. «يكفي! لا تضيف المزيد! سيسوء الطعم...». «إذا أكثرنا فستكون لقمة واحدة كفيفة بجعل الجميع يسقطون أرضاً». بعد الرشّة الأخيرة رفع الزجاجة نحو الضوء ورأى أنّ الزجاجة فقدت نصف محتواها. تحت ضوء المصباح بدت الزجاجة صفراء داكنة والسائل بدا بنيّاً داكناً. حواف ملصق الزجاجة متقشرة بعض الشيء، تظهر على الجزء العلويّ منه جمجمة سوداء وعظمتان متصالبتان، كأنّ عليه ظفراً ملطّخاً بالدم. سرعان ما تعرّفت على الجمجمة والعظمتين وميّزت كلمة «ديكلورفوس» المكتوبة بالأسفل. عندها أدركت أنّ أخطر التطوّرات تجري الآن داخل فيلا خالي، لا بالخارج، في الفناء الرئيس للمجمّع السكنيّ. «ماذا تفعلان في هذا الوقت من الليل؟ لماذا لستمائمين؟». هبّت نسمة باردة تجاهي من الطاولة، حيث يجلس خالي وزوجته. في البداية ظننتها مجرد نسمة، لكنّها سرعان ما كبرت وصارت تيار ريح من البرودة بحيث جعلني أرتجف. بمجرد ارتجافي بدأتُ أتعرق. التصق قميصي بظهري، وامتلاّت عيناى وجبهتي بالعرق الساخن المالح. شممتُ رائحة حلوة

في الجوّ، كرائحة السكرين. أعرف أنّه كلّما كانت الرائحة شبيهة برائحة العرق، كان السمّ أقوى، وأنّ هذه الرائحة هي رائحة مبيد الحشرات ديكلورفوس. رائحة الحلاوة المتزايدة في الغرفة إنّما هي رائحة السمّ المدسوس في الطعام.

«خالي! زوجة خالي! الليل انتصف وأنتم لم تخلدا للنوم! ماذا تفعلان هنا؟».

«طالما أنت هنا فلتجلس ملتزمًا الصمت!».

«الناس يسرقون وينهبون في الخارج وسيأتون إلى بيتكم!».

«ماذا؟»، نظر خالي إلّيّ أخيرًا. «إذا جاؤوا للسرقة فسأدعوهم بكلّ بساطة لتناول البيض وشرب الحساء». قهقه ثمّ التفت لزوجته وهو يضيف مسحوق الديكلورفوس إلى الأطباق المتبقية. «هذه السرمنة التي تحدث مرّة في الألفيّة ليست إلا هدية من هدايا السماء! الليلة سيموت كلّ من كان يزدريني!». رأيت العيدان التي كانت زوجة خالي تقلّب بها الطعام قد اسودّت من جرّاء السمّ فيما ترتسم الابتسامة على وجه خالي مثل سحابة صفراء. دسّ السمّ كمن يذرو البذار.

«جيدٌ أنّك أتيت يا نيان نيان. أتيت في وقتك. ستساعدني بعد قليل في إخراج هذه الأطباق إلى الفناء. ستضعها حيث أطلب منك. ستضع الحساء على الطاولة التي أحدها لك. يقطن مياو، عمدة المقاطعة، في المجمع لكنّه لم يتحدّث إليّ أو إلى زوجة خالك قطّ. مدير الشؤون المدنية أيضًا يسكن هنا وقد زار بيوت الجميع باستثنائنا. جميعهم مستأوون من عملي في محرقة الجثث ويخشون أن يصيبهم جوّ الحزن والموت. حتى

مدير منجم الفحم اللعين، الوضع والقدر، يتحاشاني في الشارع!
 جميعهم ينظرون بازدراء إلى محرقة الجثث، ولكن هل بوسعهم تحاشي
 الموت؟ أحد جيراننا الأثرياء للغاية يقامر في المقاطعة وآخر سرق كثيرًا
 في لوي يانغ. وعلى الرغم من أنني لا أحتقرهما بسبب المقامرة والسرقة
 فإنهما يكرهانني ويريان في جيرتي شؤماً، ولذلك باعا بيتيهما وانتقلا
 إلى واجهة المجمع. ولكن لا بأس. طالما أتهما يكرهانني، فالوليمة على
 شرفهما الليلة... سأرسلهما إلى الجنة الغربية! وبعد أن ييكيا حتى تجفّ
 الجنة نفسها من الدموع ستضطرّ عائلة كلّ منهما إلى التضرّع إليّ لحرق
 جثتيهما... بعد أن أحرق الجثتين، سيظلّ أقاربهما يتردّدون إليّ ويقدمون
 الهدايا مؤكّدين على أننا جيران، نعيش في المجمع السكني ذاته. سيطلبون
 إليّ حرق الجثث تمامًا بحيث لا أبقى منها عظمة ذراعٍ أو ساقٍ... ترويتُ
 في انتقامي حتى يحين الوقت! الآن وقد آن الأوان فليس اسمي شاو
 دا تشنغ إذا لم أنتقم... تعال إلى هنا يا نيان نيان. خذ طبق الحساء هذا
 إلى الطاولة المحاذية للنافورة حيث يجلس العمدة. تعرف العمدة مياو،
 صحيح؟ رجل أصلع نحيل. لا تقل له شيئاً، ضع الوعاء على الطاولة
 فحسب واسكب منه لكلّ الجالسين. إذا سألك أحدٌ فقل له إنك من
 ثاني بيت في الصف الأوّل. لا يهمّ رقم البيت الذي تقوله لأنّ الجميع
 سيموتون حالما يشربون الحساء. عندها لن يدركوا شيئاً وستنتهي كلّ
 مشكلاتهم. الأمر ذاته ينطبق على لاعبي الماء جونغ. لا أحد يعرف
 بماذا يعملون لكنهم أثري مني بكثير! لا بأس من مجاملتهم قليلاً! خذ
 طبق الخضروات هذا لهم مع بعض العيدان والصحون. وبعد أن تراهم

تعبوا من اللعبِ قدّم لهم الحساء. لا تقل لهم شيئاً. سيشرعون في الأكل والشرب، وحينئذٍ سيقولون وداعاً لكلّ أموالهم وثرواتهم! هناك أيضاً هذا الطبق النباتيّ. قدّمه لمدير الثانوية فهو نباتيّ. وهذا الطبق.... نيان نيان... نيان نيان... نيان نيان... نيان نيان...».

ازداد الليل ظلمةً. صوت خالي يبذّر العتمة المتسربة إلى الغرفة. صوته يتدحرج على السّلم مثل ماءٍ يتدفّق. صوته يقتفي خطواتي كأنّه يحاول ابتلاعي.

4. (5:11-5:15)

فيما كان خالي يغمغم بينه وبين نفسه انتهزتُ الفرصة لمغادرة بيته. ركضتُ نحو المدخل الرئيس للمجمّع، وفي أثناء اقترابي سمعتُ وقع أقدام خلفي يدقّ كطبول الحرب. ركضتُ لا أفكر في شيءٍ. في ذهني فكرة واحدة فقط، مغروسة كشجرة: «ينبغي أن يصل دا مينغ ومن معه في أسرع وقت. على دا مينغ المجيء بسرعة لسرقة بيت خالي. فليسرخوا أمواله وممتلكاته. فليأخذوا ما يشاؤون. كلّ مجوهرات زوجة خالتي الموجودة في الخزانة عند رأس سريرها وكلّ أموال خالي المخبأة داخل الجدار في الجانب الآخر من غرفة نومه. أسرع يا دا مينغ. تعال بسرعة واسرق فيلاً خالي». كنتُ أركض وصوت قدميّ يتسلّل إلى حلقي كثعبان. السماء رمادية مزرقة والأرض رمادية قائمة. العالم يبدو كحلم، كأنّ سُمّ الأحلام قد دُسّ فيه. أضواء الشارع ساطعة كأنّ الشمس معلّقة هناك. كان ارتفاع جدار الطوب المحيط بالمنزل ثلاثة أمتار، أعلاه

مغطى بأسلاك شائكة وشظايا زجاج. بين عموديه الرخاميين ثمة بوابة حديدية مغلقة، بداخلها باب أصغر مغلق أيضًا. أحد الحارسين الليلين نائم عند المدخل والآخر لا أعرف أين هو. حين بلغت المدخل رأيت دا مينغ ورفاقه قد وصلوا. لم يتضح لي أين ركنوا عربتهم. الرجال الأربعة يحملون أكياسًا وقضبانًا حديدية وعصيًا خشبية. وقفوا عند المدخل مختارين في كيفية دخول المجمع. لما رأوني بدوا كأنهم رأوا قردًا فرّ من قفصه. حدّقوا إليّ بتشكّك.

حدّق بعضنا ببعض عبر البوابة الحديدية بضع ثوان.

ثم ذهبنا وضغطت زرًا بأحد الأعمدة فانفتحت البوابة وغدا العالمين عالمًا واحدًا.

«دامينغ يا أخي، خالي لا يسكن في الصف الثاني بل في البيت السادس من الصف الثالث... أموال خالي ليست في صندوق أو خزانة بل في مخبأ حديديّ ضمن جدار غرفة نومه بالطابق الثاني... مجوهرات زوجة خالي في كيس حريريّ أحمر داخل الدرج الثالث من الخزانة الموجودة بجوار رأس سريره... استعجل يا أخي دامينغ! اذهب إلى فيلا خالي الواقعة في الصف الثالث. فلتستغل كون خالي وزوجته مسرّمين، وقيدّهما إلى الكراسي كما فعلت بوالديّ ثم اسرق ما تشاء... هيّا! هيّا! بماذا تحدّق؟ لقد خشيتُ ألاّ تتمكّنوا من دخول المجمع فسلكتُ طريقًا مختصرًا وأتيت لأفتح لكم البوابة!».

تبدّت نظرة الدهشة والسرور على وجه دامينغ وأبناء عمومته مثل قطعة حرير. ما زالوا واقفين أمام البوابة. لم يدخلوا إلا بعد أن انتهيتُ

مَمَّا قَلْتُهُ وَخَرَجْتُ. وَحِينَ مَرَّوْا مِنْ أَمَامِي نَظَرْتُ مُجَدِّدًا إِلَى وَجْهِ دَا مِينِغٍ.
دَسَّ مَصْبَاحًا يَدَوِّيًّا فِي يَدَيَّ فَالْتَفَتُّ وَصَرَخْتُ:

«سَادِسْ بَيْتٍ فِي الصَّفِّ الثَّالِثِ! لَا تَقْصِدْ بَيْتًا آخَرَ غَيْرَ بَيْتِ خَالِي!
دَا مِينِغُ يَا أَخِي، لَا تَأْكُلْ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ الَّذِي أَعَدَّهُ خَالِي وَزَوْجَتُهُ! إِنْ
تَذَوَّقْتَهُ فَسَوْفَ تَمُوتُ!».»

حَامَتْ صِيحَاتِي مِثْلَ أَغْنِيَةٍ فِي هَوَاءِ اللَّيْلِ. تَرَامَنْتُ صِيحَاتِي مَعَ
وَقَعَ أَقْدَامُهُمْ كَمَوْسِقَى إِيقَاعِيَّةٍ. عَدْتُ إِلَى الْبَلَدَةِ فِيمَا دَخَلُوا الْمَجْمَعَ.
«مَهْمَا كَانَتْ غَنِيمَتُنَا فَلَكَ وَلِعَائِلَتِكَ نَصِيبٌ مِنْهَا! عَلَى ضِمَانَتِي! أَنَا سَوْنُ
دَا مِينِغُ! فَلْتَطْمَئِنَّ يَا نِيَانُ نِيَانُ!». كَانَ هَذَا آخِرَ مَا قَالَهُ دَا مِينِغُ وَهُوَ يَشُقُّ
طَرِيقَهُ إِلَى دَاخِلِ الْمَجْمَعِ، وَحَتَّى الْيَوْمِ، حِينَ أَتَذَكَّرُ هَذَا، تَغْمُرُنِي السَّعَادَةُ
وَالْبَهْجَةُ، كَأَنَّ صِيحَاتِ الْأَخِ دَا مِينِغٍ كَانَتْ دَلَوْا مِنْ مَاءٍ مِثْلَ ثَلْجٍ صُبَّ عَلَى
رَأْسِي فِي مُنْتَصَفِ صَيْفٍ قَائِظٍ.

الكتاب التاسع

ما بعد الهُزَع: كُلُّ الطيورِ ماتت في قَلْبِ الليلِ

1. (5:16-5:30)

اكفهرَ الليلُ أكثرَ فأكثرَ.

كُلُّ الطيورِ ماتت في قلب الليلِ.

بدا لي كأنني قضيتُ الليلةَ بأكملها أركضُ. انتابني فجأةً نعاسٌ خفيفٌ وشعرتُ بتورمٍ ساقِيٍّ. طريقُ الليلِ مظلمٌ، قدماي ضلَّتَا وجهتهما. حلَّت البرودة محلَّ حرِّ الحقولِ وتبدَّدت آخر آثار الدفءِ من الأرض شيئًا فشيئًا. الجوُّ أشبه بأعقابِ نوبة غضبٍ: مظاهر التلاشي تهيمن على القرى الغارقة في صمت مطبق.

تراءت لي مصابيح الشوارع من القرى البعيدة.

تناهى إلى مسمعي هدير السيارات من الشوارع البعيدة.

في تلك الليلة ظَلَّت رائحةُ القلق تعمُّ الأرجاء. لكن تلك الرائحة بدت أضعف وأقوى - في آنٍ - من ذي قبل. كنت أعلم أن الناس يشعرون بالنعاس قبل شروق الشمس مباشرةً، وفي تلك اللحظة تحديدًا يكونون أكثر عرضة للسير نيامًا. سرت مبتعدًا عن الجدار الغربي لهذا المجمع

الخلّاب. الطريق المعتاد لا يزال بانتظاري، وكذلك الظلام. عرّجت إلى ضفة النهر لأغسل وجهي وأشرب بعض الماء. حدّقت في النهر وأنا أعبُرُ الجسر، فرأيتُ تلالؤ الماء الساطع وسمعتُ خريره الصافي. تذكرتُ الزوجين اللذين كانا يفعلان أشياء تحت شجرة على الضفة المقابلة، وتذكّرتُ، على نحو غريب، حيوان تزي؛ الفتاة التي تنظّف المحرقة. ليتها كانت جميلة. ليت أسنانها كانت أقلّ بروزًا. ليتها تحبّ القراءة... أخذت أسير أسرع، أفكّر فيها وقد غادرني شعور النعاس. حيوان تزي قادرة على تبديد النعاس ومنح الطاقة إذا. تخيلتها في منطقة نائية. تخيلتنا نفعل ما كان يفعله الزوجان، نفعله في براري هذه الليلة الشاسعة. تخيلتُ ذلك حتى غطّى العرق يديّ وجهتي وجسدي كله، كأنني كنت أعانقها حقًا. لا أثر للزوجين حيث لمحتهما. ليسا على جانب الطريق ولا تحت الشجرة. اقتربتُ من ذلك المكان وأنصتُ. تسلّل إليّ صمتُ الليل ووقع خطاه. سلّطتُ مصباحي اليدويّ على العشب المتشابك حيث استلقيا. ثمّة علبة ثقاب ومشبك شعر.

تذكرتُ إحدى روايات يان ليانكه. رواية فظة، خشنة كبيوت الطين القديمة في قرية غاو تيان، لكنّها جميلة مثل تلك البيوت أيضًا. قرأتها عدة مرات وحفظت بعض مقاطعها.

ثم خلع ملابسه مجدّدًا وطواها ووضعها على عجلٍ في خزانتها، كأنّه ستركها هناك إلى الأبد. عارين تمامًا، أغلقا البوّابة الأمامية والبابين الأمامي والخلفيّ للبيت. كأنّهما دخلا عالمًا آخر. يخامرهما شعور بالاسترخاء أكثر من أي وقتٍ مضى، شعورٌ بالحرية والسعادة أكثر من

أي وقتٍ مضى. تعانقا. أرادت أن تداعب ذاك الموضع فيه، دونما خجل، مثل أم تداعب جسد طفلها. تركته يقبلها حيثما يشاء، كما لو كان يلثم تمثالا. طاردا شهواتِ فؤاديهما دون أي رادعٍ أو قيد. كلما شعرا بالتعب استراحا، فإما تضطجع عليه وإما يضع ساقيه على فخذيها. يجلسان على الأرض أو يستلقيان أو يسند رأسه إلى خصرها أو بطنها. كان قد قصَّ شعره للتو وكَلِّما لامست لحيته الحليقة باطنَ فخذيها الرقيقين، اللذين لم ترهما الشمس، شعرت بوخزٍ لذيدٍ لا وصف له، وكلما حرك رأسه أكثر زاد ذلك الوخز فتطلق ضحكات عذبة لا امرأة ناضجة. ضحكاتها تعلو ثم تخفت لتثير غريزته الذكورية الكامنة فيشرع بمداعبة جسدها من جديد. تتصرف كطفلة وتركض في أرجاء الحجرة، وحين تتعب يمسك بها، يضمها إليه، ويفعل بها ما يفعله الزوج بزوجته. تفسح المجال أمامه ليحرث غيومها ويزرع المطر على جسدها ويضاجعها بجنونٍ، منفلت الجراح، كراعٍ يركض مهتاجا في مرج.

فيما كنتُ أستحضر هذا المقطع خبت خطواتي. شعرت أنَّ الشمس على وشك الشروق، وأنَّ ليلة السرنة الكبرى على وشك الانتهاء. وبمجرد أن تشرق الشمس سيعود النظام الزمني إلى مجراه المعتاد. لكنَّ الشمس لم تشرق.

لم تشرق فعلا. الليل مظلم كبئر بلا قرار، وبقينا بعيدين عن بزوغ الفجر مقدار بعد سلالة تشينغ عن سلالة تانغ.

بدا أنَّ كارثة تلك الليلة لم تبدأ إلا لتوها. كأنَّ العالم قد دخل للتو في غياهب السرنة. ففي كلِّ القرى والبلدات على وجه الأرض، الفوضى

حلّت للتوّ. حين انعطفتُ إلى الطريق الرئيسِ رأيت عددًا من السيارات والجرّارات التي تقلّ الناس من الجبال إلى البلدة. أضواء مصابيحها تشبه أعمدة ممتدة في الفراغ وهديرها أشبه بمطارق تهشم الحجر. في الضوء رأيت الناس الموجودين داخل تلك السيارات يحملون المعاول والمجارف والمذاري والفؤوس، تتدلى من المعاول والمجارف مجموعة متنوعة من أكياس الخيش والقماش والملاءات والأغطية التي يمكن استعمالها لحمل الحزم، كما لو كانوا ذاهبين إلى مكانٍ ما لخوض معركة وهم على أتم الاستعداد لالتقاط أيّ شيءٍ قد يتبقّى في ساحة المعركة بعد النصر.

كانوا منتفضين.

كانوا مسرّمين.

قادوا سياراتهم نيامًا، قاصدين البلدة كما الأبطال. وجوههم حمراء زاهية ولا يبدو النعاس عليها إطلاقًا. معظم ركّاب السيارات شبانٌ أقوياء، بينهم بعض الشابات أيضًا. الشابات حملن سلاّلا وصناديق كأثمن سيتولّين تقسيم محصول الحبوب. كنت مدركًا الاضطراب الذي ألمّ بالعالم وجعله ينقلب رأسًا على عقبٍ في ليلة السرنمة الكبرى هذه. استغلّ اليقظون ذلك لإثارة المشكلات وكان المتظاهرون بالتسرنم أكثر عددًا من المسرّمين الحقيقيين. اتخذوا السرنمة ذريعة للسرقة والنهب، على النحو ذاته الذي قد يستغلّ فيه الناس انتفاضةً شعبيةً لشنّ حرب، أو حربًا لتحقيق ربح.

ظننتُ أنني على بعد خطوات من البلدة، من بيتي، لكنني شعرتُ

بثقل في ساقَيَّ كأثَهما من الرصاص، بعد أن حملتاني على مدار الليلة، قاطعًا هذا الطريق ذهابًا وإيابًا، لقد شعرت بأنَّ ساقَيَّ ميتتان. كابدت المشقة للعودة وعندما وصلتُ إلى مفترق الطرق على مشارف البلدة رأيتُ السيارات والجرارات والعربات الآلية متوقفة هناك. ترجَّل الناس من سياراتهم حاملين مصابيح يدوية وفوانيس. تجمَّعوا كلُّ حسب قريته أو سلالته، كلُّ مجموعة منهم تخوض نقاشات حامية وتنتظر التعليمات. بعضهم كان يخبط بقدميه الأرض وهم يشتمون الآخرين: «أسرعوا! أسرعوا! فلندخلِ البلدة قبل أن يستيقظ أهلها وتضيع منا الفرصة!». تدفَّقت أصواتهم تدفَّق الماء عبر نفقٍ آنَ فُتِحَ.

صوت المحتشدين المتمللملين يشبه صوت تدفَّق الماء عبر نفقٍ آنَ فُتِحَ.

تسلَّلْتُ بين السيارات والحشود كفأرٍ يهرب من بين أقدام الناس. رأيتُ الأسلحة التي بحوزتهم؛ لم تكن معدَّات زراعة عادِيَّة بل سكاكين حقيقية ومطارق ضخمة وحتى بنادق صيد. جاءت مجموعة كبيرة راكضة تتبعها أخرى. حين بلغتُ مدخل البلدة رأيتُ أنَّ أهلها خرجوا من سرنمتهم وغطَّوا في النوم. الشوارع هادئة، البيوت هادئة، حتى المتاجر المنهوبة، التي تُركت نوافذها وأبوابها مفتوحة على مصراعيها، كانت هادئة أيضًا. هناك شخص يسير في الشارع الرئيس، لم أعرف إذا ما كان مستيقظًا أم مسرَّنًا. سار ببطءٍ شديد، بخطى منتظمة، كأنه غير مدرك أنَّ البلدة على شفا كارثة كبرى، وأنَّ أهالي القرى المحيطة كلَّهم قد تجمَّعوا عند مدخل البلدة.

«البلدة محاصرة بمعركة نهب. معركة النهب ستحكم الخناق على البلدة».

«معركة شعواء ترتبص بفارغ الصبر على مدخل البلدة».

تبدد نعاسي وتبدد الثقل الذي لا يُطاق في جفنيّ. كأنني عدتُ من عالم الأحلام إلى حالة أستطيع فيها رؤية العالم بوضوح تامّ. استعادت عضلات ساقيّ عزمهما. مشيتُ بخفة حتى عبرت المدخل ثم بدأت الركض على الفور. حين وصلتُ إلى الشارع الرئيس كنت أركض بسرعة هائلة كأنني أطيّر في الهواء.

«لقد جاء الغرباء لسرقه بلدتنا! لقد جاء الغرباء لسرقه بلدتنا!».

بعد أن كرّرت الصراخ قررتُ أن أكفّ عنه. بالأحرى لم أستطع المواصلة. من متجرنا سمعتُ صوتًا يقول: «ما كلّ هذا الصراخ يا ابن العاهرة!» ثم ركلني أحدهم في مؤخرتي وكاد يرميني أرضًا. وفيما كنت لا أزال أترنّح من جرّاء الركلة سحبني أحدهم إلى بيتي حيث رأيت مجموعة من الرجال في هيئة ممثلة لتلك التي رأيت بها سون دا مينغ وأبناء عمومته. هناك عدة أكياس نصف ممتلئة والرجال يقفون عابسين في وسط الغرفة. كان والداي جاثيين وسط الغرفة، خلفهما شابان ضخمان. الأرض مغطاة بأكاليل الزهور الممزقة والزخارف النباتية. والداي جاثيان وسط كلّ تلك الأزهار والقصاصات الورقية كأنهما راكعان في قاعة جنازة. الرجلان الواقفان خلفهما جامدا الوجه مثل رجال مراسم الجناز، لا يظهر على ملامحهما أثرٌ للفرح ولا للحزن. بدوا مستيقظين، عيناها مفتوحتان. دخل إلى الغرفة شابٌ شرس

النظرة متجهّم. هو من ركلني في مؤخري وسحبني إلى الداخل. دفعني نحو والديّ: «هذا ابنك، أليس كذلك؟». حدّق والداي بفزع ثم أوما برأسيهما وقالا ما قالاه لسون دا مينغ: «إنّه طفلٌ يا دا مينغ! دعه وشأنه!».

أرادا التوسّل لكنّ الرجل بالخلفٍ قاطعهما.

«أين مقتنياتكم الثمينة؟».

«أين يخبئ والداك الأموال؟».

الأسئلة ذاتها من جديد.

ومثلما فعل سون دا مينغ، حاول الرجل ذو الشامة على كتفه اليسرى أن يخنقني، ممسكًا كتفي بيده الأخرى. «لن أتركك إلا إذا أخبرتني بمكان هذه الأشياء. سنأخذ بعضها ونغادر». بخلاف دا مينغ، لم يرتد هؤلاء الأقنعة، ولم يخنقوني وهم ينتظرون مني جوابًا ولم يقيّدوا والديّ إلى الكراسي. غرباء لا يخشون أن يتعرّف إليهم أحدٌ من أهل البلدة. منتظرين جوابًا مني، ربّتوا على كتفي مثل إخوة، على سبيل التحذير الوديّ.

تكلّمتُ.

لم يكن لديّ خيارٌ سوى الكلام.

ما قلته سرّهم، لكنّه أثار قلق والديّ.

«فيلا خالي كنزٌ كبيرٌ... فيلا خالي فيها المال والمجوهرات، لكنّ هناك من اعتزموا سرقتها بالفعل وربّما فعلوا... كلّ سكّان المجمع الذي

يقطن فيه خالي أثرياء، أثرياء جدًا. لكل عائلة أموال طائلة. هذا المجمع قريب جدًا من البلدة، وإذا لم تذهبوا إليه فقد فاتكم الكثير!».

حدّق الرجال في دهشة كأنني أيقظتهم من حلم. حدّق أبي وأمي إليّ أيضًا كما لو أنني أتكلّم نائمًا. تصاعد التوتر في الغرفة. دهشة الجميع جعلت ملامح البهجة على وجوههم تتحوّل إلى ملامح صدمة. «تبًا! أين هذا المكان الذي تتكلّم عنه؟»... «أتكلّم عن المجمع الخلاب. إن لم تسرقوه فكأنما ضيعتم وقتكم! خالي يعيش هناك. سادس بيت في الصف الثالث. أيّ شيء تقع يدكم عليه هناك هو أغلى بكثير من أيّ شيء قد تجدونه هنا. تلفزيونه كبير كطاولة. طاولاته وكراسيه كلّها مصنوعة من خشب الماهوجني المتين. تعرفون كم هو غالٍ هذا الخشب، أليس كذلك؟».

مكتبة

t.me/soramnqraa

لا جواب.

ولا حتى حرف واحد.

عمّ الهدوء في البيت حتى صار بالإمكان سماع أنفاس أزهار الجنازة. شحب وجه أبي شحوب أوراق الأكاليل. وجه أُمّي أيضًا كان شاحبًا شحوب أوراق الأكاليل. حدّق والداي إليّ كأنني لستُ ابناً من صلبهما، بل كأنني ابن عاق أو مجرد حفيد. أشار الرجل ذو الشامة إلى رفاقه فنظروا إليه يرتقبون ما سيقوله.

«لماذا لم نفكر في ذلك؟».

تمتم الرجل ذو الشامة بينه وبين نفسه راخياً حلقي وكتفي من قبضته ثم دفعني برفق إلى الأمام. كأنّه بفعله هذا يقول إنّ كل شيء على

ما يرام، إنَّ الأمر قد انتهى وسيغادرون. ثمَّ أوماً برأسه فحمل الآخرون حقائبهم واتجهوا نحو الباب. انتهى الأمر. لقد انتهى بالفعل. تمتَّ عملية السطو. في تلك اللحظة تذكّر الرجل ذو الشامة شيئاً ما فجأة فتوقّف والتفتَ إليّ.

«ما اسم خالك؟».

«شاو دا تشنغ».

ارتسمت على وجه الرجل نظرة قلق. وقف مقابل والديّ. «إذا فأنت صهر شاو دا تشنغ؟ وأنت شقيقته العرجاء؟».

أوماً أبي.

أومات أمي بدورها.

وهذا ما كان. لم يسر الأمر حسبما تبيّناً. فجأة اتخذ الوضع منحىً جديداً. ألقى الرجل الكيس الذي كان يحمله وركل أبي ركلةً هوجاء على صدره. «عثرْتُ عليك أخيراً يا ابن العاهرة!». داس على ساقي أبي. «أنتَ مَنْ أساء لأبي ولعائلتي بأكملها! بسببك أنتَ لم نشهد سوى المصائب طوال السنوات القليلة الماضية!». مزجراً، خبط الأرض بقدميه وانكبّ يصفع وجه أبي. وقبل أن يسمح لأبي باستيعاب ما يجري، صفع وجه أمي أيضاً. «أخوك خنزير! أخوك كلب! لا علاقة له بالبشر! ولأنك أخته تستحقّين الصفع عدة مرات!». .

صفعها صفعاً جنونياً.

شتمها شتمًا جنونياً.

حدّقتُ مشدوّها، وما إن هممتُ بالتوسّل إليه للكفّ عن ضربها،
حتى أمسك بي الآخرون كأنهم، حينئذٍ فحسب، قد استوعبوا ما
يجري. الخوفُ أجهض اندفاعي العاطفيّ فما كان مني إلا أن نظرتُ
فزعًا. ودون مقاومة تركّتهم يثبتونني على الأرض. حدث ذلك بسرعةٍ
خاطفة، بسرعة سيّارة تدعس رأس أحدهم وتهشّم جمجمته فيموت
دون أن يصدر عنه صوت. ظلّ الرجل ذو الشّامة يصفع أمي ويركل
أبي في صدره وبطنه. تكوّر أبي على الأرض ككيس سكر فيما كان الرجل
ينهاه عليه ضربًا وصفعًا. جسدُ أبي المنزلق على الأرض أزاح الأكاليل
الورقية التي تغطي الأرض حتى التصقت بالحائط. وبمجرّد أن صار
أبي ملاصقًا للحائط، مثل كيس سكر أو كومة ثيابٍ، أخذ الرجل يضربه
بشراسة أكبر.

«أيّ عاهرة هي التي أنجبتك! لقد أبلغتَ عن أبي بعد دفنه بثلاث
سنوات! أبوسعك أن تنكر؟».

انهالت اللكمات على وجه أبي كقطع البلاط التي تتساقط على
الأرض فتتحطّم.

«قبل ثلاث سنوات، حين أبلغتَ صهرك اللقيط فأرسل إلينا رجالًا
ينبشون قبر أبي. وبذريعة حملة الإصلاح التي وصلت إلى قريتنا النائية،
والتي تجبرنا على تغيير عاداتنا وطقوسنا، أحرقوا الجثة في العراء!».

داس على رأس أبي وصدره مرارًا، لاهثًا، وجهه يشبه زهرة بيضاء
ذات بتلات حمراء من تلك الأزهار المرميّة على الأرض.

«لقد أحرقوا جثة أبي في العراء وعدّوني معارضًا للإصلاح! حتى

إنهم عرضوا صورتي في الصحيفة وكتبوا عني! هل اطلعت على التقرير؟ كيف سمح لك ضميرك بالتغاضي عن كل ذلك؟ أنت بشرٌ أصلاً؟ لقد هجرتني زوجتي بعدما قرأت المقال واستمعت إلى البث. لقد استغلّت عائلتي وشاؤ موت الناس وحكمتنا على أهلهم بالشقاء مدى الحياة. كيف بوسعكم التعايش مع أنفسكم؟ بعد حرق جثمان أبي بفترة وجيزة توفيت والدتي قهراً، وبعد ثلاثة أشهر من وفاتها تركتني زوجتي. بعد نصف عام، أصيبت أختي بمرض نفسيّ فانتحرت. هكذا تمزّقت عائلتي التي كان تنعم بالاستقرار والهناء وأنتم ليس لديكم أدنى علم بما يجري بنا! ومع تقدمي في السنّ صار سلوكي أسوأ فأسوأ. ولولا إسرائي في الشرب لغرقتُ في القمار ربّما أو في السرقة. لقد أصبحتُ رجلاً طالحاً بسببكم. حين أطلقوا سراحني قبل ستة أشهر أخذت عهداً على نفسي بأن أكون صالحاً، لكن هذه الليلة جاءني الربّ في الحلم وقال لي: هذه فرصتك يا ما غوا تزي. اجمع أصدقاءك واذهبوا إلى البلدة واسرقوا ما شئتم. بعد استيقاظي، بقيت مصراً على عهدي بأن أكون صالحاً وقررت ألا أسرق. لكنني سمعتُ الربّ يهمس في أذني: اذهب! هيا! بسرعة! انهض من سريرك واذهب!». وإذا كان هذا ما أمرني به الربّ فلن أعصيه. لذا جئتُ برفقة مجموعة إلى البلدة، إلى متجركم. بدايةً، لم أتوسّم خيراً في دخول متجركم الجنائزيّ هذا، لا سيّما أنني لم أتصوّر أبداً أن يهتّب لي الرب فرصة الثأر عمّا كابדתه عائلتي على يدكم. إنَّ الربّ كتبَ عليك يا لي تيان باو أن تردّ لي الدين كاملاً، وعلى زوجتك العرجاء أن تردّ لي الدين نيابة عن أخيها. لقد تأقلمتُ بالفعل مع تشتّت عائلتي

وموت أحبائي، ولم أتوقع أن أعثر على غريمي إلا في الأحلام كي أقتصر منه وأجعله يدفع الثمن. لكنَّ ليلة السرنة هذه جعلتني أتذكر كلَّ ذلك وأواجهه».

صفع أُمي صفعة أخرى وركل أبي في صدره ووجهه ثم داس على ساقه وكاحليه. ظلَّ يدوس عليه برهة من الوقت وهو يبرطم بالكثير من الأشياء قبل أن يعاود صفعه. ضربه وقال شيئاً ثم داس عليه مرة أخرى. أمسك قضيب خيزران موجوداً في الغرفة وانهاه به على رأس أبي وأُمي. وبعد أن سئم من الضرب - ونفذ مخزونه من الشتائم والمتجر في فوضى عارمة حيث الأزهار الورقية والقصاصات والعصي والأعواد في كل مكان على الأرض - لاحظ أنَّ والديَّ طوال ضربه وشتمه لهما، لم يحركا ساكناً أو ينطقا بكلمة، لم يرفعا يديهما احتفاءً إلا حين انهاه على وجهيهما ضرباً بقضيب الخيزران أو دوساً بقدمه. بعد برهة، كفَّ أبي عن فعل ذلك حتى واستسلم استلاماً تاماً للضرب. كأنَّ الشخص الذي يتلقَّى الضرب ليس هو، وكأنَّ اللكمات والركلات التي انهاه على رأسه ووجهه لم تؤلمه على الإطلاق.

سال الدم من رأسه.

سال الدم من أنفه وفمه.

سال الدم على جسده وقيصه وتلطَّخ فخذه. استغرب الجميع من غياب ردة فعل أبي. جثوثُ - ظانّاً أنَّ أبي ربَّما مات - وحدّقت إليه وأنا تحت هول الصدمة وناديتُهُ كما ناديتُ أُمي. كلاهما كان ينظر إليَّ، كأنَّهما يحاولان التواصل معي بالأعين والنظرات. جثوثُ بلا حراك أو كلام.

الغرفة شديدة الحرّ وملابس ما غواتزي مبللة بالعرق. الغرفة شديدة البرودة والجميع يشعر بالصقيع.

«عليك اللعنة!»، داس ما غواتزي على ساقبي أبي مرة أخرى. رأيت توتر ساقيه كأنهما على وشك التشنّج. مدّ ساقيه وانتظر أن يُداس عليهما من جديد. وهذا ما جرى. ثمّ مدهما وانتظر.

«يبدو أنك تتحمّل الضرب! توّسل إليّ إذا أردتني أن أكفّ عن ضربك! توّسل فحسب وسيُنسى كلّ ما حدث في هذه الليلة».

ما غواتزي يدوس ويبرطم، يدوس ويبرطم.

«ألست من أبلغ عني حقًا ولهذا السبب تمتنع عن الكلام أو التألّم؟ اللعنة عليك! ما دمت لا تتألّم فهذا يعني أنّ الذنب ذنبك! ما دمت لا تتألّم فهذا يعني أنّك أنت من أبلغ عني!». صفع وركل، ركل وصفع. كان ما غواتزي ينتظر من أبي أن يتوسّل إليه ليتوقّف أو أن يحاول الدفاع عن نفسه على أقلّ تقدير. لكنّه بدا هو المتوسّل لا أبي. في تلك اللحظة، زحفت أُمي من جانب أبي وتوسّلت لما غواتزي وهي تضمّ ساقه بيديها. وفيما كانت ترنو إليه متوسّلة مدّ أبي يده وسحبها إلى الخلف.

تفوّه أبي.

لقد تفوّه أخيرًا.

«شكرًا لأنك ضربتني. في الحقيقة لست من أبلغ عن دفن أبيك وتسبّب في حرق جثمانه. لكنني فعلتُ هذا الشيء لأكثر من عشر سنوات مع سواك من الناس. لذا فحين تضربني الآن فأنت تسمح لي بسداد تلك الديون. بهذه الطريقة نظوي صفحات ديوننا مع الجميع إلى الأبد!».

ارتسمت على وجه أبي وهو يقول ذلك ابتسامة بائسة. كان صوته أشبه بطنين ذبابة تحوم حوله. وفي أثناء حديثه نظر إلى ما غوا تزي فازدادت سعة ابتسامته واحتلت سائر وجهه، مثل كومة من أزهار بيض وأوراق حمراء. لكنّ ما غوا تزي صفع أبي الذي كان يعرب عن امتنانه. «أطيب لك ذلك؟ سأجعلك تعيش أطيب لحظات حياتك!». لقد أدمى وجه أبي طامسًا الابتسامة. استدار وحدّق في رفاقه الواقفين يتفرّجون. «لماذا لا تضربونها! ألم يبلغا عن موتاكم خلال السنوات الماضية؟». ثم، بعد أن استنفد كلّ قواه في ركل أبي وأمي آخر ركلة، أعلن أنّه انتهى. انتهى بالفعل.

وقبل رحيله مع رفاقه التقط زهرة بيضاء كبيرة من الأرض ووضعها على رأس أمي ثم التقط نصف إكليل وعلّقه حول عنق أبي ثم غادر. غادر بالفعل. لم يتبقّ في الغرفة سوى أنا وأبي وأمي وكومة الأكاليل والزهور. تبادلنا النظرات. كان ضوءُ المصباح وضياءُ الغسق من لونِ الورق والأزهار المتناثرة على الأرض. تنهّدت أمي وأزالت الزهرة البيضاء عن رأسها ووضعتها على الأرض ثم مسحت وجهها. عثرت في مكانٍ ما على قطعة قماش تشبه خرقة فناولتها لأبي. كان قميصه مفتوح الأزرار كلّها، مدمّى كما صدره. استدار بحذر ليأخذ الخرقة كأنّ رقبته مكسورة ويخشى تحريكها. وحين تأكد من قدرته على تدوير رقبته وتحريك جسده مسح وجهه بالخرقة. كأنّه يتلمس وجهه كي يعرف إذا ما كان موجودًا أم لا، ولحسن الحظّ كان. تورّم الجانب الأيسر من وجهه مثل رغيف خبز طازج. وكما لو أنّه يخشى تساقط لحم وجهه فجأة، رفع

يده ببطءٍ إلى خده الأيسر. انتزع قطعة من الخرقَة التي تناولها من أمي ودكّها في أنفه النازف. كانت النتيجة مضحكة نوعًا ما. «الآن ما عادت عائلة لي تدين لأحدٍ بشيء. كلّي امتنانٌ لما غوا تزي أن سمح لعائلتنا بسداد ديونها»، قال ذلك لنفسه بصوت خافت. وبعد أن نزع إكليل الرجل الميت عن عنقه حاول النهوض. طقطقت مفاصله كأنّ عظامه قد انزاحت من مكانها لتعود إلى وضعها الصحيح.

تبيّن أنّ أبي بخير.

كنتُ أظنُّ أنّ عظام أبي قد تحطّمت كليًا لكنّه بخير كما تبيّن لي. لم أتصوّر يومًا أنّ أبي، على ضعفه، قد يتمتع بهذا المقدار من القوة. اقتربتُ كي أساعد أمي التي راحت تسقط كلّما حاولت الوقوف. بذلت قصارى جهدها حتى تمكنت أخيرًا من الوقوف. اطمأنّ قلبي حين رأيت ذلك. أخذ أبي يركل الأزهار والزينة الورقية والقصاصات والنقود الجنازريّة الملقاة على الأرض. ثم اتجه إلى المدخل متكئًا على كرسي ثم على الحائط. «الشمس على وشك أن تشرق وحينها سيكون كلّ شيء على ما يرام»، تتمم متنهّدًا. «علينا أن نرتّب هذه الفوضى. يا إلهي! إن كانوا لا يتورّعون عن سرقة متجر جنائز، فماذا تراهم أبقوا في بيوت الناس!».

قال ذلك وهو يخرج من المتجر كأنّه يريد أن يتفقد الحال في البيوت الأخرى التي تُهبت.

وقف أبي في الخارج يحدّق في الشارع. تصاعدت برودة السّحر من الشارع مثل ماء يتدفّق في غرفة. لم ترتّب أمي الفوضى بل تهادت إلى المطبخ كي تغسل وجهها، كي تمسح الدم عن وجهها وجروح ذراعيها

الدامية. «ستنال عائلة خالك عاقبة وخيمة. سيكابدون الليلة مصيرهم المأساوي»، تمتت بينها وبين نفسها وهي تمشي وقبل أن تجتاز السلم وتدخل المطبخ عاد أبي. سار بسرعة أكبر من التي خرج بها، وعلى الرغم من أنه ما يزال بحاجة للاتكاء على إطارات الأبواب والجدران، لكنه بدا في عجلة من أمره. عرفت أنه رأى الغرباء قد استغلّوا السرنة وجاؤوا بسياراتهم ومعاولهم وسلاحهم. شحب وجهه شحوب أوراق النعوة البيض. تصبّب العرق على وجهه كمطر غزير.

«ستشهد البلدة كارثة... ستشهد البلدة كارثة كبرى... لا مفرّ أمام البلدة من مواجهة مصيرها المحتوم»، هذرُم أبي في كلامه على نحو يستبعد أنه قد ضُرب للتوّ. بخطوة واحدة اجتاز الغرفة والسلم وصار بجانب أمي. «اذهبا بسرعة! ارحلا عن هذه البلدة! لا تغلقا المتجر عند خروجكما! كلّما كان الوضع أكثر فوضى كان ذلك أفضل! انثر الأكاليل الممزقة في المدخل يا نيان نيان! اترك الباب الأمامي مفتوحاً على مصراعيه! هكذا يبدو أن الآخرين قد سطوا على هذا المتجر ألف مرة!».

2. (5:31-5:50)

ذهبت لأفعل ما أمرني به أبي.

أخذت أكاليل الزهور الممزقة المتناثرة في أرجاء المتجر وكوّمتها في المدخل. أخذتُ التماثيل الصغيرة التي وُطئت بالأقدام ونثرتها على جانبي الباب. أخذتُ الزينة الجنازيّة الملطّخة بدماء والديّ ووضعتها في مكان ظاهر. تركت الباب مفتوحاً على مصراعيه ثم هربتُ مع والديّ.

لا أعرف أين عثر أبي على عربة آلية ذات ثلاث عجلات، تعمل على محرك ودوآساتٍ في آن. «هنا! هنا!»، كان أبي ينادي في الظلام فركضت نحو الصوت. قفزتُ على العربة التي قادها أبي نحو شارع في البلدة.

من ورائي تناهى وقع خطى عالٍ مضطرب إلى جانب أصوات أخرى عالية مضطربة. تهافتت الأصوات كسيل جارف يحتاج البلدة. الجلجلة أحكمت الخناق على البلدة؛ أمواج الصخبٍ لطمتها. انطلقت عائلتي في العربة ذات العجلات الثلاث من الشارع الشرقي إلى الغربي، من مدخل البلدة وصولاً إلى مركزها. صوت العربة يوحى بأنها على وشك الانهيار، كأنَّ سلسلتها قد تنكسر في أية لحظة. في صندوقها المعدني ثمة أكياس ومعاول وراديو محمول مقاوم للصدمات. عندنا في غاوة تيان، الناس -لا سيَّما كبار السن- يصطحبون معهم راديو في عرباتهم؛ راديو يعلو صوته حين يشتدُّ الضجيج في الشارع، ويخرس تمامًا عندما تصيح السمع إليه. لا أعرف لأيِّ عائلة هذه العربة، لا أعرف من هم أصحابها الذين جاؤوا كي يسرقوا، كل ما أعرفه أنَّ العربة الآن تقلّني وعائلتي على متنها.

متجر المعدات الزراعية مغلق الأبواب.

متجر الحبوب والزيوت القريب مغلق الأبواب أيضًا.

صالون الحلاقة مفتوح الأبواب.

متجر الزجاج بأبُه نصف مفتوح.

البلدة بأسرها ما تزال غارقة في النوم. استفاق بعضُ الناس من سرنمتهُم ثم غطّوا في النوم من جديد. نام آخرون نومًا عميقًا طوال

الليل، حتى إنهم لم يستيقظوا لدخول الحمام. أما الآن فثمة بعض الناس - لم أُميّز إذا ما كانوا مستيقظين أم مسرّمين - يترنحون في الشارع، لا يعلمون شيئاً عما جرى ويجري في هذه الليلة في هذه البلدة في هذا العالم. «جاء الناس من القرى الأخرى كي يسرقوا وينهبوا! جاء الناس من القرى الأخرى كي يسرقوا وينهبوا!».

حين سمع أبي هذه الصيحات القادمة من مفترق الطرق انعطف بالعربة واتجه شمالاً. أخذ يصرخ بأعلى صوته وطلب إليّ وأمي أن نفعل المثل. وقفنا جميعاً في العربة، أبدينا تحيط بأفواهنا وصرخنا: «استيقظوا! استيقظوا! لقد جاء الغرباء مدجّجين بالمعاول والمجارف كي يسرقوكم! استيقظوا! لقد وصل اللصوص إلى مدخل البلدة!».

صيحات أبي خشنة وعجولة مثل حجرٍ يتصدّع أو خيزران يتشقق، صيحات أمي رقيقة وخافتة مثل قطعة حرير ترفرف في مهبّ الريح. أما صيحاتي فكانت أشبه بغُصينٍ يتمايل جيئةً وذهاباً، وعلى الرغم من قصرها كانت أبعد مدىّ. خرج بعض الناس من بيوتهم ووقفوا على جانب الشارع وبعد قليل من الترقّب عادوا إلى الداخل وأغلقوا أبوابهم وحصّنها بالقضبان الخشبيّة. قاد أبي عربته مجدّداً وتردّد صدى صراخنا طوال الليل. كأنّ صراخ والديّ في تلك الليلة لا شيء بمقدوره أن يكبحه. كأنّهما عاشا حياتهما كلّها من أجل أن يتمكّنّا الليلة من التجوّل في شوارع البلدة وهما يهتفان ويصيحيان.

السّاحة، المدخل الشماليّ، الشارعان الجنوبيّ والغربيّ، ملأت صيحاتنا كلّ أرجاء البلدة وأزقتها. تصاعد الصوت كالريح. عندما

وصلنا إلى مدخل بيت زعيم القرية، كاد أبي يصرخ وهو يطرق الباب لكننا اضطررنا للهرب قبل ذلك. لقد امتلأ مدخل زقاق بيته فجأة بالأضواء ووقع الخطى. في ظلمة الليل لم نعد نسمع صوت كلام أو صراخ، لم نر سوى وميض الأضواء. تسارع صوت الخطى نحونا كزلزال أو كطوفان غمر البيوت وغمر العالم بأسره.

تجمع الغرباء وهم على أهبة الاستعداد للانقضاض على البلدة عندما يحين الوقت.

كماء يتراكم في الحوض حتى يفيض على السد.

أو كجنود يوحدون صفوفهم استعدادًا للحرب.

نظرت نحو مصدر الأصوات والأضواء. نظرت أُمي بدورها وصرخت: «لقد وصلوا! فلنهرب! هيا! فلنهرب بسرعة! بسرعة!». تجمدت قدم أبي الموشكة على ركل باب بيت الزعيم. حينها كان الشارع قد عجَّ بضجيج الراكضين؛ أينما نظرنا رأينا أناسًا يفرّون من البلدة حاملين أمتعتهم، مستضيئين بالفوانيس والمصابيح اليدوية على الرغم من أن الطريق المفضي إلى خارج البلدة ليس مظلمًا. كان الطريق الرئيس مضاءً بنور ساطع كأنه الغسق، وكل شيء واضحًا تمامًا ومرئيًا. حين ركض أبي رأى مفتاحًا معلقًا بمقبض عربية أخرى، رُبِطت فيه تعليقة متسخة بشكل قرد. أمسك بالمفتاح دون كثير تفكير وأداره فاشتغل المحرك. هذا ما حدث، على هذا النحو. وبعد أن ركبنا العربية، انطلق أبي شأنه شأن أيّ من أهل القرية الذين يركبون عربات ثلاثية العجلات، يده تضغط على دواسة الوقود والمحرك، يهدر بصوت أجش دافئ. «اللعة!

اللعة!». لم يكن واضحًا إن كانت النبرة نبرة حماسٍ أم انزعاجٍ أم غضب. شتم ولعن مرارًا واهتزّ مقود العربة مرارًا وتخبّط صندوقها مرارًا أيضًا. انطلقت العربة الآلية في الشارع بسرعة تفوق الركض، تفوق أيضًا سرعة عربات يجرّها حصان أو حمار. الفوضى غمرت الشوارع. قال شيوخ القرية إنّ المشهد شبيه بما حدث عندما اقتحمت القوات اليابانية البلدة، حينها فرّ الأهالي في كل اتجاه واختبئوا أينما كان وهم يصرخون، حاملين ما أمكنهم من متاع. هذا ما جرى في تلك الليلة تحديدًا، مع اقتراب شروق الشمس، كان الناس يصرخون ويركضون في كلّ اتجاه. بعضهم يحملون أطفالهم النائمين وبعضهم يحملون آباءهم وأمهاتهم المسنين. أحدهم استطاع جرّ عربة يدويّة حملها بالملابس والطعام والخطب والأرزّ بالإضافة إلى أطفال صغار وأقارب مسنين. عينا من يجرّ العربة نصف مغمضتين؛ ليس واضحًا إن كان مستيقظًا أم لا. أجساد الشيوخ والأطفال الراكبين في العربة تتأرجح وهم يغمغمون: «نحن في حلم؟ لا يعقل أن نكون مسرّمين!».

الشخص الذي ظننتُ أنه مسرّمنٌ كان عالقًا بين النوم واليقظة، لكن حتى في تلك الحالة الضبابية، لم يتوقّف وقع خطواته المسرّعة في الشارع، كأنه يخشى أن يتخلّف عن الآخرين. الضجيج ملأ كل مكان. والحركة عمّت كل زاوية. غرق العالم في تلك الأصوات، والناس يركضون بجنون كما لو أنهم عالقون في كابوس. بدأ الأمر بعائلة واحدة، ثم عشر، ثم عشرات، بل مئات. بدأ الأمر كأن البلدة بأكملها تتحرك في كابوس، كما لو أن الجميع في برزخٍ بين الغفوة واليقظة. أما نحن، عائلتي، فكنا

مستيقظين. وبعد أن راقبنا مجريات تلك الليلة، خُيِّلَ إلينا أننا قد فهمنا مسارها بالكامل. وهكذا، أصبحت عقولنا المستيقظة كأنها تمثل عقل البلدة كلها، بل روحها، وفانوسها الذي يضيء هذا العالم. كان أبي يخترق الحشود بعربته ذات المحرّك، وهو يصيح:

«لا تهربوا! لا تهربوا! أيقظوا النائمين، واطلبوا إلى الأهالي أن يحرسوا بيوتهم! إن لم تحرسوا بيوتكم، فكأنكم تدعون الناس إلى سرقتها».

عندها، توقّف الجميع فجأة ووقفوا جانب الطريق. أدرك الناس لحظتها أنهم بفرارهم، إنما يفتحون الباب للآخرين كي ينهبوا ممتلكاتهم بلا رادع. فوجود قفل على الباب، بلا أحد في الداخل، كان رسالة تقول: «تفضل، لا أحد هنا!». تراكض الناس عائدين إلى بيوتهم. كثيرون عادوا أدراجهم. ظلّ أبي يصرخ وينبه، يحث الناس على العودة وحراسة منازلهم حتى الصباح. لكن في تلك اللحظة بالذات، اندفع العشرات، بل المئات من الغرباء القادمين من الجنوب الشرقي -ربما سمعوا صياحنا، أو التقوا بعض أقاربنا الهاربين- فاتجهوا نحونا، مشهرين السكاكين والعصي. وحين لم يبق بيننا وبينهم سوى بضعة أمتار، رفعوا عصيهم ومناجلهم ومعاولهم كأنهم غابة تهتز في مهب الريح. وفي لحظة، انقلب المشهد كلياً. استدار أبي نحو الجنوب، ووقف في الشارع ينضح منه الخوف. أُمي أيضًا نظرت نحو الجنوب، واقفةً مشدوّهة. وكذلك أنا، التفتُّ نحو الجنوب، وفي ضوء المصابيح، رأيت شخصاً يركض ومفرقات تنفجر على الأرض، ورأيت أيضًا بريق الأسلحة المرفوعة يلمع. كان صوت «اقتلوه، اقتلوه!» يتردد في الهواء. عيون متّقدة، لامعة، متيقظة، لا أثر للنعاس فيها.

كانوا مستيقظين بحق، لا مسرئمين. رأيت أشخاصاً يركضون يطاردهم
حشدٌ كبير من غير المسرئمين. لم أكن أعلم إن كان الهاربون من أبناء البلدة
أم من الغرباء، ولا إن كان المطاردون غرباء أم من أبناء البلدة. وفي خضم
الفوضى، تعثر أحد الفارين وسقط أرضاً. ومن دون أن يمنحوه فرصة
للنهوض، عاجله أحد المطاردين بضربة جارحة بالمجرفة على ساقه، ثم
أتاه آخر بمعول هبط على رأسه ورقبته. صرخ الرجل: «يا ابن العاهرة!»
ثم هوى أرضاً، كفرخ سنونو يسقط من عشه. انطلقت صرخة حادة،
رفيعة، كالإبرة، سرعان ما انقطعت فجأة. توالى ضربات عصي ومعاول
إلى أن سكن جسده تماماً، وتحول إلى كتلة ساكنة، أشبه بكومة من الطين.
سمعت صوت العصي والمعاول والمجارف الهاوية على جسده. أحد
الفارين التفت وصرخ: «لقد قتلتموه! لقد قتلتموه!» لكن قبل أن يجيبه
أحد، أمطروه بالضرب، فاستدار وواصل جريه على الطريق.

كان يركض باتجاهنا.

كان صوت المطاردين يشبه هزيم الرعد أو دويّ المفرقات، داسوا
على جثة الرجل كما لو أنها ليست إلا طيناً تحت أقدامهم.
نظرت أُمي بفزع: «أسرعوا، اهربوا!».
صرخت أنا:

«بسرعة! إلى العربية! أبي، أسرع، إلى العربية!».

نظر أبي هو الآخر بذعر، ودفع العربية إلى جانب الطريق ليخفيها.
ولحسن الحظ، توقفت العربية عند مدخل زقاق ضيق معتم كبئر لا قرار
له. اندفعنا داخله، والحشود خلفنا تهيم في كل اتجاه.

«لقد دخلوا من هنا! من هنا!».

أطفأ أبي مصابيح العرب، وتسَلَّلنا جميعًا في الظلام، كأننا نغوص في مياه عميقة. صرنا كأشباح في حلم.

توقف المطاردون، وصرنا نسمع أصواتهم كما لو كانت أمواجًا تضرب شاطئًا بعيدًا. لا أدري كيف استطاع أبي أن يرى الطريق وسط تلك العتمة، أو كيف كان ينعطف من زقاق إلى آخر. لم يكن القتلة من خلفنا فحسب، بل من أمامنا، ومن الجانبين أيضًا. بدت البلدة كلها وكأنها قد استيقظت. وقبل بزوغ الفجر، بدا كأن العالم بأسره قد نهض من نومه. اجتاحت أصوات المطاردة والقتل البلدة كعاصفة، واندفع الناس في دوامة من الهروب والملاحقة. صرخات، ضربات، أنين، صارت تسود العالم كله. كأن الجميع قد استيقظوا فجأة لكنهم في الحقيقة كانوا لا يزالون يخلمون. كانوا مسرّنين، والركض والمطاردة مستمرة. أحيانًا كان عدد الهاربين لا يتجاوز العشرات، وأحيانًا يتجاوز المئة. ومع ازدياد عددهم، ازدادوا جرأة، فتوقّف بعضهم، وراحوا يلوّحون بعصيّهم ويلتقطون الحجارة والطوب من الأرض ليرموا بها مطاردتهم تحت ضوء مصابيح الشوارع.

وهكذا تحوّل الصياد إلى فريسة.

وصار الفارّ مُطارِدًا هو الآخر.

وبعد هدوء قصير، امتلأت البلدة من جديد بخطى تركض كالرعد. بدأ الضجيج من جديد، بدأ الركض، عاد الدويّ. كانت العصيّ تُرفع ثم تهبط، ثم تُرفع ثانية. أما أبي، فكأنه في عالمٍ آخر، قادنا من الطرف الجنوبي

للبلدة نحو وسطها، ومن الوسط إلى شهاها، ثم عبر زقاقًا إلى أطراف
البلدة. لاهنًا أخرجنا من البلدة كأنه ينتشلنا من يقظة إلى حلم، ومن
حلم إلى يقظة أصفى.

3. (6:00-5:51)

وقفتُ عند أسفل التل غرب البلدة، فرأيت أكثر من عشر نجحات
تومض في السماء مائية الزرقة، زرقة مغموسة في الضباب. بدت البلدة
كأنها تحتنا تمامًا. كانت الليلة قد أوغلت في آخرها حتى خيل إلينا أننا
قادرين على ملح بزوغ الفجر. فحتى في ليلة كهذه، مشبعة بالعنف
والموت، لا بدّ من أن تشرق الشمس. هبت نسمة باردة ومنعشة،
اندفعت من الجبل كالماء الجاري في قنوات الري. تدفق العرق من
أجسادنا، وبدأنا نرتخي قليلًا.

كنت أعلم أننا، بخروجنا من البلدة، قد أفلطنا من الموت.
ولكي أرى بوضوح ما حدث هناك، نزلتُ من العربة، وساعدت
أبي على دفعها إلى منتصف طريق التل. ركنّاها في مساحة مستوية عند
منعطف. من هناك، استطعنا أن نرى أضواء الشوارع والأزقة كلها،
وحتى أضواء الصفوف الدراسية في مدرسة البلدة. الأضواء تهتز وتخبو
تمامًا كما يتموّج ماء البحيرة في يوم صافٍ. ما زالت أصوات الصياح،
ووقع الأقدام القادمة من أسفل، تصل إلينا، كأنها تلاطم ماء البحيرة
في يوم عاصف. الأمواج تتداخل فلا تعرف متى تحتفي موجة ومتى
تنبتق أخرى. تطلّع أبي إلى البلدة بشرود، وكذلك أُمي. نظر بعضنا إلى

بعض، ثم ثبتنا أعيننا على البلدة الغارقة في الليل كما لو كنا ننظر إلى بحيرة تضربها الرياح. لم نستطع رؤية البيوت والأشجار في القرية الواقعة شرق البلدة، ولا تلك الواقعة داخل البلدة نفسها؛ فلم يكن الفجر قد بزغ بعد، ولا يزال العالم غارقاً في الظلمة. ذلك السكون الكثيف القادم من بعيد كان مخيفاً كأسراب من الإبر السوداء اللامرئية تمزق السماء. انتفض جسدي بقشعريرة، وعندما لمست ذراعيّ كانتا باردتين وقاسيتين كالحجارة. من الحقل القريب تناهت خشخشة خافتة. بدت أوراق العليق والعُتّاب على حافة الطريق خضراء داكنة في الظلام، وهناك ما يزحف فوقها. تدلّت ثمار برية من الأغصان كأطفال يمدّون أصابعهم. كان الليل مشبعاً بصرصرة الجداجد التي تصدح بجنون على جانبي الطريق، والجنادب المعششة في بعض أشجار العُتّاب، على طرف الجرف وعند حافة الساقية. في الليل، يصبح العالم ساكناً إلى حدٍ مخيف، كأن النهاية قد وقعت، ولم يتبقَّ سوى هواءٍ يسري في الفراغ. كأن الأرض قد صارت قبراً مهجوراً. وفي هذا السكون العميق، يمكن سماع أشياء لم تكن تُسمع في وضوح النهار. ثمة شعورٌ بالخوف والرعب يخترق سماء الليل كضوء قمرٍ ولمعان شهبٍ.

وقفتُ وأمي قرب العربة. أما أبي، فكان يسبقنا بخطوة، واقفاً في موضع أقرب للعالم، كما لو أنه واقف فيه تماماً. قالت أمي، وكأنها تحدث نفسها، أو تسأل أبي في الوقت ذاته: «كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف؟ حين كنت صغيرة، سمعت عمّن يسيرون نياماً، بل رأيت بعضهم، لكن من سمع يوماً عن مسرّمين لا يمكن إيقاظهم مهما

فعلت؟». ردّ أبي بحدة: «لا تقولي شيئاً. قلت لك لا تتكلمي، فلماذا لا تزالين تتكلمين؟».

صمتت أمي. جلست على الأرض كأن التعب أنهكها.

كان أبي ينظر إلى البلدة، كأنه يحاول التقاط صوت، أو تمييز حركة. يد على حاجز العربّة الحديدي، والأخرى تلامس أيسر وجهه الذي ما زال متنفخاً. ظلّ واقفاً، بلا حراك، يستمع. لكن، في النهاية، لم يلتقط صوتاً ولا شيئاً.

بدا عليه الإحباط، فاستدار ناظراً إلينا، ثم نظر صوب الجبال التي تحتضن البلدة.

«كم الساعة؟».

«لا أعرف».

قال أبي، كأنه يهذي، أو يحدث نفسه: «هذي السماء تبدو ميتة. وإن لم تشرق عليها الشمس قريباً فستغدو ميتة حقاً».

تذكّرت الراديو الشبيه بطوبة والموجود في العربّة، والذي يمكن أن يزودنا بالتوقيت. بدأت أفتّش داخل العربّة، أقلب الأكياس الفارغة، حتى عثرت عليه. وحين أدّرت المؤشر، انبعث صوت كخشخشة مجرّفة تُجرّ على طريق. اقشعرّ جسدي. عدّلت التردد، إلى أن وجدت محطة تبث الموسيقى: «دي... دي...» نغمتان، ثم خشخشة، ثم صوت مذيع شاب: «الساعة الآن السادسة صباحاً، في اليوم الأول من الشهر السابع». صوته نقيٌّ كأنه بذرة صوتٍ حسن.

«الساعة السادسة تماماً».

«الشمس على وشك الشروق».

قالها أبي وأمي في آنٍ واحد، وكأنهما يشكران الوقت. يشكران الساعة السادسة، ويشكران العالم لأنه على وشك أن يستيقظ. في الصيف، تشرق الشمس خلف الجبال الشرقية بعد السادسة بقليل. في الليالي الصافية، تطلع الشمس مع السادسة تمامًا، فيصحو الناس من أحلامهم. غير أنني، حين غيرتُ جلستي، تغيّرت زاوية الراديو، فخرج صوت مذيّع آخر من بين التشويش - صوت رجل هذه المرة، يقرأ نشرة الطقس:

إلى مستمعينا الأعزاء - جمهورنا الواسع من أصدقاء الراديو:

إلى كل الأصدقاء الذين فتحوا الآن أجهزة الراديو وضبطوها على موجة 127.1 ميغاهرتز للاستماع إلى نشرة الطقس، نرجو منكم الانتباه، نرجو الانتباه. في الساعة التاسعة والنصف تقريبًا من مساء البارحة، وبسبب حرارة الطقس وجفافه، مع ما تراكم من إرهاب موسمي مفرط، ظهرت في بعض مناطق مدينتنا حالة من السرنة الجماعية؛ وهي حالة قد تحدث مرة واحدة في القرن. لقد أرسلت الجهات الحكومية عددًا كبيرًا من الموظفين إلى المناطق المتأثرة جميعها، من قرى وبلدات وجبال، لتنفيذ إجراءات الإيقاظ والإنقاذ الذاتي، وللوقاية من السلوكيات المؤذية الناجمة عن السرنة. لكن، علينا الآن أن نولي عناية خاصة لما سيحدث بعد الساعة السادسة صباحًا وطوال اليوم، بسبب التغيرات الطبوغرافية والمناخية، لا سيّما مع قدوم جبهة هوائية باردة من الشمال الغربي، حيث ستدخل مدينتنا والمناطق المجاورة في ظروف حارة وغائمة طويلة الأمد، بلا شمس ولا مطر ولا ريح. تنجم حالة التغيّم

الحارة هذه عن غطاء سحابي كثيف مطبق، لا يتخلله مطر أو ريح، ما يؤدي إلى طقسٍ حارٍّ مظلمٍ يجعل النهار يبدو كالغسق، والغسق يبدو كالليل. بل إن بعض المناطق الجبلية ستصل فيها العتمة إلى درجة تشبه احتجاب الشمس التام فلا يمكن التمييز بين النهار ومنتصف الليل. وبكلام أبسط، ستشهد بعض المناطق ما يشبه كسوفًا شمسيًا كاملاً؛ ما قد يؤدي إلى انتشار السرمنة وتفاقمها أكثر فأكثر. حتى أولئك الذين أرهقهم التجوال مسرّمين طوال الليل قد يغطّون في النوم لكنهم سيعودون إلى سرنمتهم الآخذة بالتفاقم.

كان صوت المذيع هادئًا، بلا استعجال، كأنه يقرأ مقالًا في جريدة. نقيًا كجرس نحاسيٍّ، صافيًا مثل ضوء الفجر. لكن أبي، حين سمع البث، حدّق في الفراغ مذهولًا، كما فعلت أمي. أما أنا، فأمسكت بالراديو بحذر، خشية أن أحركه فينقطع الصوت. فجأة، بدا كأن فكرة خطرت في رأس أبي، فدفع يدي برفق وعدّل المؤشر. ثم أخذ الراديو وصعد إلى أعلى التل متسلّقًا بين شجيرات الشوك. كلما ابتعد ازداد صوت المذيع وضوحًا، تمامًا كخشخشة الحصى والرمل تحت قدميه.

صعد عاليًا، حتى اختفى ضجيج العالم من حوله.

وكان صوت النشرة يُعاد، كما لو أن التسجيل يُبث مرةً أخرى. وقف أبي بجانب شجيرة في الأعلى، رافعًا الراديو نحو أذنه. كل كلمة، كل حرف، يصدر من الراديو كان يهطل علينا مثل حبات مطرٍ سوداء أو كرات برّدة تتكسّر على أجسادنا. تكررت النشرة ثلاث مرات. اصطدم صوتها بنا ثلاث مرات. بقينا نصغي إلى كلّ تكرار.

كان العالم قد اختفى ولم يبق سوى هذه النشرة.

اختفى العالم ولم يبق إلا صوت البرد الأسود وهو يسقط ويتحطم.

ثم انطفأ الراديو. وقف أبي هناك، في الظلمة، كعمودٍ أسود، في مكانٍ كان من المفترض أن تشرق عليه الشمس.

«الشمس ماتت والبلدة هلكت. الشمس ماتت والبلدة هلكت. لقد هلكت البلدة حقًا». راح يردّد العبارتين مرارًا، حتى وهو يهبط من أعلى التل. لكن حين اقترب منا، توقّف عن التمتمة، وسكت تمامًا، كما لو أن الشمس قد ماتت فعلاً، أو أن العالم أمامه قد تلاشى واختفى. وقف هناك صامتًا، ينظر باتجاه البلدة، يصيح السمع. وفي تلك اللحظة، ظهر شخص عند أسفل التل، على مقربةٍ منا، ثم ثلاثة، ثم سبعة أو ثمانية. فارّون من الجحيم نفسه، يتوقّفون تحت بقعة ضوء، ثم يختفون في عتمة الليل. كانوا مرهقين مثلنا تمامًا. جلس بعضهم ليستريح. وفي تلك اللحظة، بدأت أضواء البلدة من جديد تومض وتلمع، كما تتلألأ بحيرة تحت أشعة الشمس. وفي صمت الصباح الباكر، باتت كل الأصوات مضخّمة، حتى حُيِّل إلينا أننا نسمع أنفاس النمل والحشرات الصغيرة. أصوات القتال التي كانت تتصاعد من البلدة بدت كخبر نبعٍ في جوف الأرض. وقع الأقدام الزاحف أشبه بنبذ زلزال قادم. البلدة ما زالت حية، ما زالت تتنفس، ما زالت تقتل. حتى بعد أن استيقظت، استمرّت البلدة في الضرب والقتل، كما كانت تفعل في أثناء سرنمتها. في مثل هذه الساعة -السادسة صباحًا- كان يفترض أن يطل نورٌ شاحب فوق الجبال الشرقية، وأن تنبج أشعة الشمس الحمراء من

بين التلال. وبعد قليل، تتحوّل تلك الأشعة إلى بحرٍ من الماء الورديّ، يتدفّق وينتشر تحت السماء. ثم تتحوّل السماء إلى لون أبيض ثم أحمر ثم أرجواني. وتتلوّن الأشجار والصخور والعشب بلون القرمز. تستيقظ الطيور بعد نوم الليل فتزقزق وتحمل الوهج الأحمر من أغصان الأشجار إلى أعالي السماء. هكذا يُفترض أن يبدأ يوم جديد. لكن في هذه الليلة، لم يأتِ ذلك الفجر. بل بقيت الجبال الشرقية مظلمة، كأنها هاوية بلا قرار. تبعت ظلمة النهار ظلمة الليل، وكأنّ الليل لم ينتهِ قط، ولن ينتهي أبدًا. كأنّ اليوم التالي لن يأتي أبدًا. كأنّ الليل البارح لم ينصرم، مثل كرة لانهائية من الخيوط السود.

عاد أبي ووقف بجانب العربة. نظر إلى البلدة كما لو أنه ينظر إلى بحيرة بلا قاع. نهضت أمي عن الأرض، وتشبّثت بحاجز العربة كأنها تمسك بمقدمة قارب.

قالت: «ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل؟».

فأجابها أبي: «سنعود. لماذا استيقظنا أساسًا؟ لا بد أن الربّ هو من أيقظنا كي نحذّر النائمين». ثم ناولني الراديو، وراح يدير العربة في الاتجاه المعاكس.

«سنعود حقًا. علينا أن نعود. عائلتنا في البلدة، وحتى لو كنا لا نبالي بالبلدة فلا يمكننا ألا نبالي بأهلنا».

وأخيرًا، قاد أبي أمي في ظلمة الفجر المؤجّل. خطوةً تلو أخرى، اتجهنا نحو بيتها في البلدة، عند أسفل التل.

الكتاب العاشر

اللاهزييم: ثمة طير

واحد لا يزال حيًا

1. (6:00-6:00)

لم نسلك الطريق الأصلي للعودة إلى البلدة. كانت المنطقة الواقعة شمالها فقيرة للغاية، ولم تتعرض بيوتها للنهب كما حدث في الجنوب والشرق. في هذه الليلة تحديدًا، كانت الأحياء الفقيرة أكثر أمنًا نسبيًا. توجهنا نحو النهر شمال البلدة، راغبين في دخولها من تلك الجهة. على الطريق، صادفنا مجموعة من الأشخاص ينامون على الضفة المجاورة للقناة، عند سفح التل. هناك فانوسان صغيران يتدليان من شجرة وكان أحدهم يوقظ الآخرين كي يتناوبوا على الحراسة. كأنهم يعتقدون أن الحراسة تمنع الآخرين من السرقة. وفي أثناء مرورنا تناهت إلى مسامعنا أصوات متقطعة من النائمين:

«الشمس ستشرق قريبًا».

«صبرًا، صبرًا، ستطلع الشمس قريبًا».

«كأنَّ النهار قد مات، وكأننا لن نرى ضوء الصباح مجددًا. حين هربنا لم نأخذ ساعات أو راديوهات! من يدري كم الساعة الآن!».

لم يُخبرهم أبي أن الوقت قد تجاوز السادسة صباحًا، وأنَّ الشمس -في يوم كهذا- ماتت، أنَّ الزمن مات، وأنَّ النهار نفسه مات أيضًا. بل قال: «عودوا للنوم. فقط تأكدوا أن أحدكم سيظلّ مستيقظًا كي لا يتسرنم الآخرون. بعد أن تناموا ستشرق الشمس. وعندما تشرق، سينتهي كل شيء». ثم واصل سيره.

أخيرًا، وصلنا إلى شمال البلدة.

بدت البيوت هناك معتمة، أشبه بأكوام ترابٍ داكنة في سفوح الجبال. أما الأشجار فكانت كتلالٍ من الحشائش تنمو على ضفة النهر. صوت الأقدام الضاجّة ذاب في جلبة الليل التي كانت تصلنا على شكل موجات قادمة من قلب البلدة ثم تختفي. ذلك السكون الناتج كان مربعًا، كأنَّ البلدة كلّها قد ماتت، ولم يتبقَّ فيها أحد، لا بشر ولا عصافير ولا حشرات. فقط بين الحين والآخر، كانت طيور الليل تصدح. أوقف أبي العربة عند المدخل الشمالي. ليس ثمة فوضى هنا ولا مسرّمون. بل كان الجميع غارقين في نوم عميق هادئ. من هذه النقطة فصاعدًا، بدا أن العالم في سلام، وأن البلدة أيضًا في سلام.

عدنا إلى البلدة بهدوء. وتحت ضوء مصابيحنا اليدوية الخافتة، استطعنا أن نرى الصخور والحفر تحت أقدامنا. استطعنا أن نلمح الأشجار والبيوت على جانبي الطريق، وأن نرى بشرًا وأشياء متوارية في العتمة. رأيت امرأتين شابتين، في الثلاثين من عمرهما، تقفان بجانب الطريق، وخلفهما بيت جديد بسقف من القرميد. وقفنا أمام المدخل مثل أختين، وهناك فوانيس معلقة على الأعمدة على جانبي الباب. تهادت تحت

الضوء، بعينين نصف مغمضتين وملامح ناعسة. وحين رأانا نقرب، تبسّمتا: «من أنتم؟ زوجي ليس في البيت، لم لا تدخلون وتستمتعون؟». تجاوزناهما بسرعة، لكن أصواتهن ظلّت تلاحقنا: «إن لم تغتنموا هذه الليلة، فلن تحظوا بهذه الفرصة بعد شروق الشمس!».

بعد مئة متر تقريبًا، رأينا خمس أو ست نساء يجلسن تحت فانوس، يتسلّين بأكل الفستق والجوز بينما يُروّحن عن أنفسهن بالمراوح. كنّ أمام بناءٍ حديث، في انتظار رجالٍ قد يعودون. كنّ قد اغتسلن وغسلن شعرهن، وبعضهن يرتدين حمّالات صدر وبعضهن لا، بعضهن حافيات وبعضهن ينتعلن شبشب، لكنّهن جميعًا رفعن أثوابهن إلى ما فوق الخصر. شابات قِدمن من القرى إلى البلدة خلال العامين الماضيين بصفتهم زوجات. الجميلات منهن والعاديات طلين وجوههن بطبقات من أحمر الخدود فبدّون كتماثيل لُوت حديدًا. النعاس يحوم فوق أعينهن كالسحاب. ذهب أزواجهن للعمل. عادةً، كنّ يتبادلن المزاح والأحاديث الخاصة. أما هذه الليلة، فقد تجمعن تحت شجرة الصفيراء عند مدخل البيت، يتسامرن في نسائم الليل، بانتظار عودة الرجال. يبدو أنّهن لم يسمعن شيئًا عن الفوضى التي عمّت جنوب البلدة وشرقها، وكأنّ هذا الجزء الشمالي لا ينتمي إلى بلدة غاوتيان الغارقة في العنف. في مقدّمتهم زوجة العمدة وهي أكبرهن سنًا، لا أحد يعلم كيف وصلت إلى هنا، أو لماذا عرّت، مثل الأخريات، صدرها الداكن بلون الباذنجان. كانت تصبّ الشاي للفتيات وتوزّع عليهن المراوح. صاحت بصوتٍ مضطرم كالنار:

«من أنتم؟ إن كنتم رجالاً تعالوا. من أراد النوم مع إحدى هؤلاء النساء فأهلاً وسهلاً، لن يطلبن أيّ مقابل. أما أنا، فإن أردتم النوم معي فسأعطيكم مئة يوان أو مئتي يوان. أو حتى ثلاثمئة، أربعمئة... تعالوا! أنا زوجة العمدة. العمدة -ذلك الخنزير- تركني ليلحق بتلك المرأة، وانغ إر شيانغ، فما كان لي إلا أن أبحث عن رجل بنفسي... من أنتم؟ تعالوا! إن أتيتم، سأفعل لكم كل شيء. كل ما تريدون. لم لا تأتون؟».

سرعان ما تجاوزنا أصواتها المتصاعدة.

وقفت أُمِّي أمامهن، وأطلقت وابلًا من الشتائم: «كيف يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟! كيف؟!». لكن قبل أن تُنهي عبارتها، خرج من زقاقٍ يساري رجلان ضخمان. كانا في الثلاثين من العمر، غير متزوجين. أحدهما أحق -أكثر مني حتى- وعلى وجهه ابتسامة فارغة. والآخر مريضٌ عُصابٍ، وخارج نوباته كان يسير دائماً برأسٍ مطأطأ، كأنَّ به دُلاً دفيناً. في الأحوال العادية ما كانا لينسجمان معاً، وإذا التقيا فسيبدو اختلافهما واضحاً كالفرق بين شجرة صفصاف وشجرة صفيراء. لكن هذه الليلة، كانا يسيران جنباً إلى جنب، ووجهما يلمعان كأنهما تذوقا العسل أو شرباً نبيذاً أو تزوّجا تَوْاً ودخلا حجرة الزوجية. كانا يتحدثان وهما يخرجان من الزقاق. «لم أكن أعلم أن بنت عائلة سون جذابة لهذه الدرجة. جسدها رقيق وعذب كالماء». توقّف الأحمق فجأة وحدّق إلى وجه العُصابيّ كأنّه لا يصدق ما يسمع: «حقاً؟ زوجة جارهم لم تتجاوب معي، ولم تدعني ألمسها إلا بعد أن ضربتها».

توقّف العصابي.

«هل اقتربت منها؟».

«نعم».

«إنها جميلة كالحلم».

«دعك من الأحلام فهي وهم! أحدثك عن الحقيقة! إذا غرقت في حلم فإن الاستيقاظ منه مؤلم وقاسٍ! الحقيقة التي أحدثك عنها تجعلني أرتعش من النشوة إذا تخيلتها!».

ضحك العصابي ضحكة تشبه شمس الصباح.

«إلى أين نحن ذاهبون الآن؟ علينا أن نعود للبيت وننام».

«بل علينا أن نستغل هذه الليلة ونبحث عن نساء أخريات قبل أن تطلع الشمس. من الآن فصاعدًا، سأفعل كل ما تقوله لي، دلّني على امرأة!». فكر العصابي قليلًا. «هذه الليلة خرج الناس الطيبون كلّهم كي يسرقوا وينهبوا ويقتلوا، وتركوا لنا نساء هم هنا. هذا الشارع هو حجرة الزوجية التي تخصّنا!». تحدّث الأحمق كما لو أنه كشف جوهر هذه الليلة. في أثناء حديثه، تابع التقدّم صاحبًا العصابي معه. هكذا تقدّما نحونا. وكان ضوء مصباحيهما اليدويان ساطعًا كضوء الصباح، سلّطاه علينا وهما يصيحان: «أنتم نائمون أم مستيقظون؟ لا يبدو أنكم لصوص!».

توقّفنا. «هل تعرفان ما الذي يحدث في مركز البلدة؟».

قال العصابي بصوت عالٍ بدا طبيعيًا تمامًا: «الجميع مرضى، الناس مسرّمون، يضربون بعضهم بعضًا حتى الموت. وقبل أن تطلع الشمس،

تخطّط حكومة البلدة لطرده الغرباء ودحرهم إلى بلداتهم». ثم تابع: «أخبروني بصدق؛ هل هناك نساء مسرّنات واقفات على ناصية الطريق أم لا؟ هل هناك نساء عاريات يرتقبن قدومي على عتبات أبوابهن أم لا؟». حدّق أبي مصدومًا وكذلك أمي. صاح أبي: «أيّ نساء أيّها العاهر! لو كنّ هناك أظنّ أنني سآقي إلى هنا؟!». صرخت أمي: «لم لا تذهب إلى الشارع الجنوبي؟ إنّه يعجّ بنساءٍ كالأجنبيّات!».

لكن قبل أن تكمل، سمعت وقع أقدام كأنّ جيشًا يركض نحوها. صرخات نساء يُستولى عليهن ويُضربن فيسمحن لمن يعتدي عليهن أن يفعل ما يحلو له. استدار أبي وكذلك أمي وأنا. رأينا مجموعة رجال يحتجزون النساء ويسحبونهن بعيدًا، ولم يتبقّ سوى أصوات صراخ النساء واصطفاف الأبواب بعنفٍ.

ثم... ثم لم يبقَ شيء سوى ظلام وسكون، تتخلّلها خطواتُ أحياءٍ تشقّ صمت الموت.

2. (6:00-6:00)

لقد ماتت البلدة حقًا عند السادسة صباحًا.

العالم أيضًا مات عند السادسة صباحًا.

في لحظةٍ كان من المفترض أن تكون الشمس فيها قد ارتفعت في السماء بمقدار عدّة أقدام، غرقت بلدتنا في ظلام دامس. اندلعت معركتها الدامية. الناس كثّر كالأشجار، كالنمل، كحبيبات الرمل في صحراء جوبي، بل كالجبال والبحار والنجوم والكواكب. اجتاحت

الحشود أحد شوارع البلدة ثم البلدة بأكملها. اكتسح العالم كله كابوس. عدددهم مئات، وربما ألف، بل ربما ألفان. معظمهم رجال. النساء حوالي الثلث. بدا أن كل من ساروا نيامًا تلك الليلة قد شاركوا في هذه المعركة. أما الذين لم يكونوا مسرمنين فقد اتخذوا من تلك الظاهرة ذريعة للمشاركة في حرب السلب والنهب هذه.

كانت هذه المعركة ذروة أحداث الليلة، ووجهة الجميع؛ مسرمنين ومستيقظين. في البداية، خرج المسرمنون ليحصدوا القمح، ثم ليسرقوا، ثم ليقتلوا. بدا الأمر كأنه مشهد من عهد سلالة قديمة. لكن هذه المعركة، التي اندلعت فيها الظلام يمحقُ الفجر، شكّلت ذروة المشي في أثناء النوم؛ مبدأه ومنتهاه. سارت عائلتنا نحو الجزء الجنوبي من البلدة، حيث كثافة السكّان والمباني في ذروتها. أردنا في البداية أن نجد ذلك الجرس البرونزي، لنقرعه حتى يستيقظ النائمون جميعهم. أردنا أيضًا أن نعود إلى البيت ونُخرج أوانينا وشايًا وقهوتنا وشرابنا الممزوج برهج الغار لكننا تراجعنا. شخص ما مرّ بجانبنا كظّل داكن. آخرون لمعوا كوميض نصل سكين. ارتدوا قمصانًا بيضاء، يحملون سكاكين وهراوات وأسلحة مختلفة. على أكتافهم بلطات وسواطير ومناجل وحِراب وخناجر. لم نستطع تمييز وجوههم، فقط ظلالهم وأسلحتهم، وخطاهم الخافتة كخريز نبع تحت الأرض. بعض الرجال خشوا من إصدار أي صوت فخلعوا أحذيتهم وتأبطوها. بعض النساء جَرَيْن خلف الرجال وهنّ يصحن: «انتظري! انتظري! إن كنت ستموت، فأريد أن أموت معك! إن كنت ستموت، فأريد أن

أموت معك!». ربطوا شرائط صفراء على جباههم، كل شريط بعرض إصبعين. عقدوها من الخلف فبدت كأقحوانٍ نبتَ من قُذُهم. تقدّموا بعجالة لا يتفوّهون بحرف. بدا تشانغ موتو، الذي كان يسكن قبالة بيتنا، شخصًا آخر تمامًا. مرّ من جانبي وقضيب حديديّ يتدلّى من خصره وفي يده بلطة. كان يربط شريطًا أصفر على جبهته، ثم قطع ما زاد منه بالبلطة. توقّف أمام أبي ولوّح بالقضيب الحديديّ ذاته الذي قتل به المدير وانغ.

قال بحدة: «أطفئ الضوء! إلا إذا كنت تريد الموت فسلّطه على وجهي أكثر!». لم يكن هذا مو تو الذي نعرفه. حدّقت فيه ثم أطفأت الضوء. تقدم أبي نصف خطوة وسأله بصوت خافت: «أأنت مستيقظ أم نائم؟ ماذا يجري في البلدة بحق الآلهة؟».

أجاب: «إن أردت أن تعيش فابحث عن شريط أصفر واربطه على جبهتك وإلا فتابع تجوالك هكذا». لم أر وجهه. كلُّ ما رأيته هو القضيب والبلطة ينتقلان من يد إلى أخرى. بعدها راح يلوّح بالقضيب حتّى سلّط أحدٌ من خلفه ضوء مصباح مُغطى بقطعة قماش، ثم اختفيا بلمح البصر كأنّهما على جناح الريح.

لم أعد أعرف ما الذي حدث للبلدة. حتّى مو تو ليس مو تو الذي أعرفه. هدير عربة بدّد السكون مثل مفرقات ناريّة. كلُّ من مرّ بنا حدّق إلى جباهنا. بينهم من بحوزته فانوس أو مصباح يدويّ يسلّطه على جباهنا فيصمّت مندهشًا قبل أن يواصل طريقه. نعرفهم لكنّهم لم يعرفونا. تشانغ يوان تيان، وانغ دا يو، وانغ إر غو، وحتى السيد غاو

صاحب دكان الشاي، الذي حثّ التجار في بداية الليل على عدم النوم. وقف بعضهم في محل فارغ سُرق كلّ ما فيه، ينظرون إلى أصحاب المحلّ، تشاغل مينغ وزوجته وابنيهما القويين. لم يجيبوا حين ناديناهم، بل حدّقوا إلى جباهنا وسألونا: «أتريدون الموت؟ أتريدون الموت؟». ظلّوا يسألوننا هذه الأسئلة فيما بقينا، على جانب الطريق، مذهولين، كأننا غنمٌ ضلت القطيع. عندها اقترب منا العم شيا وتوقف: «في النصف الأوّل من الليلة، كنتم مستيقظين وأنقذتم عائلتي. أما الآن أنا مستيقظٌ وسأنقذكم. نحن الآن متعادلون. لا دين بيننا». ثم أخرج قماشة صفراء وناولها لوالديّ: «إن أردتم أن تبقىوا أحياءً فقسموها إلى شرائط واربطوها على جباهكم. وإن أردتم الموت، فاذهبوا دونها وانتظروا ساطورًا يقطع رؤوسكم ويرميكم جثثًا هامدة. أو انتظروا إقامة ملكوت السماء حيث ستساقون إلى ميدان الإعدام».

«إلى أين أنتم ذاهبون؟».

«نريد العودة إلى سلالة مينغ! إلى مملكة السلام السماويّ العظيمة! مملكة تايبينغ!»⁽¹⁾.

(1) يدمج الكاتب هنا بين حدثين رئيسين في التاريخ السلاي الصيني: تمرد تايبينغ (1850-1864) وثورة لي تسي تشنغ (1644). تمرد تايبينغ، الذي قاده هونغ شيو تشوان، كان ثورة دينية واجتماعية استهدفت حكم المانشو لأسرة تشينغ، وأسست «المملكة السماوية» في مناطق شاسعة من جنوب الصين قبل أن تُهزم عام 1864. في المقابل، لي تسي تشنغ، الذي نشأ راعياً ثم أصبح مسؤول بريد، قاد ثورة ضد أسرة مينغ في 1644، مُعلنًا نفسه ملكًا لدولة شون العظمى، ودخل بكين بعد ثلاثة أشهر من انتصاره. لكن سرعان ما واجه هجوم المانشو الذين أسسوا بعدها أسرة تشينغ، ما أجبر لي على الهروب إلى الجنوب حيث قُتل في النهاية.

«عَمَّ تتحدّثون؟ أيّ مينغ؟ أيّ تايينغ؟ لقد بادتا منذ قرون. كيف لكم أن تعودوا إليهما؟».

«كيف تجرّو على هذا الكلام؟ ألا تريد الحياة؟ إن لم ترد الحياة فلا تجرّنا معك».

«أنت مسرّنم! أنت مسرّنم بلا شك!».

«لا مسرّنم إلا أنت وعائلتك! أنت وكلّ عائلتك!».

ابتعد العمّ شيا كأنّه يفرّ منا. وبغمضة عين اختفى في الظلام. التقطنا القماشة الصفراء التي رماها ووقفنا في ذهول. كان الجميع يتهامسون، والضجيج حولنا خليط من خطى محمومة وسريعة ورشيقة. عبّق الجوّ بنذر الشرّ مثل ريح لا مرئية، الجميع يسير في قلب هذه الريح فيترنحون. بدا النائمون حقّاً كالمستيقظين، فيما بدا المستيقظون كالنيام.

تركنا العربة على جانب الطريق.

وهناك ربطنا الأشرطة الصفراء على جباهنا. التفتنا مراراً للنظر إلى الناس من حولنا. الجميع كانوا نائمين، وفي هذا النوم أرادوا الانخراط في معركة البلدة الدامية. أرادوا أن يعيشوا ويموتوا وهم نائمون. بينما كانت أمي تربط الشريط على جبيني، نظرت إلى وجه أبي: «دع نيان نيان يعود إلى البيت؛ إنه طفل، لا تجعله يقاسي أهوال هذه الليلة». بعد أن أنهى أبي ربط شريطه تفحص الشرائط التي ربطناها أنا وأمي قائلاً: «من يعود إلى البيت سيمرّ بذلك المفترق، سيدخل ساحة القتال. علينا أن نواصل طريقنا هذا. وطالما أننا ربطنا هذه الأشرطة فهذا يعني أننا دخلنا المعركة. صرنا من أهل البلدة. صرنا كالمسرّنين. لن يشكّ أحد

بنا. حين يرون الشرائط سيظمئون ويواصلون السير في هذا الليل». كان الوقت وقت شروق الشمس. في الأيام العادية، كانت الشمس ستصبغ كل شيء بنورها الذهبي، البلدة والنهر والغابة والبيوت. كانت المتاجر ستفتح أبوابها. لكن في هذا الليل الممتد لم يستيقظ أحد من أحلامه. لم يخرج أحد من سرنمته. بل كانوا، في أعماق أحلامهم، ينزلون أعماق فأعمق في معركة البلدة الدامية. عند تقاطعٍ بعيدٍ عن الساحة، توقف الحلم واندلعت المعركة. تجمهر الناس كأنهم في اجتماع. كانت الأضواء تومض وتنطفئ وقد امتلأ الهواء بلبغط أصواتهم. انتشرت الأخبار بين الحشد مثل أسرارٍ حاميةٍ تنتقل من يدٍ إلى يدٍ ومن فمٍ إلى فم. الجميع واقفون في الشارع، متزاحمون كأعشابٍ تنمو في البرية. المصاييح تُضيء الأرض وأجساد الناس، لا وجوههم أو رؤوسهم. غطى كثيرٌ من الناس مصاييحهم بأيديهم، أو بقطعة قماش.

«ما الذي يجري هناك؟»... «المسؤولون يرتدون أثوابًا إمبراطورية»... «ما الذي يجري هناك؟»... «يقولون إننا على وشك بلوغ مملكة تايينغ السماوية»... «ما الذي يجري هناك؟»... «معركة المملكة السماوية الكبرى على وشك أن تبدأ. سيطردون الغرباء الذين يهاجمون مملكة البلدة السماوية ويقطعونهم إربًا إربًا». انتشرت هذه الأخبار كالريح أو كالسحب. كان الخبر كبذرة مدفونة في التربة على وشك أن تنبت. من المفترض أن يكون الصباح قد حلَّ إلا أن السماء ما تزال مظلمة كأنها سماء منتصف الليل. الهواء أسود حالك، وكذلك الأشجار والجدران والمباني. بعض مصاييح الشوارع في البلدة تنطفئ. رأينا زعيم القرية

يقود أرملة القرية، وانغ إر شيانغ، تلك الشابة الجذابة. كلاهما رأسه معصوب بشريط أصفر، يحملان ابنة وانغ إر شيانغ الصغيرة التي كانت نائمة بهدوء. استدارا وشقّا طريقهما نحو زقاق خلف الحشد. وجوههم نقية وصافية ولم يبدُ عليهما النعاس على الإطلاق. عينا كلّ منهما كبيرتان كحبتيّ جوز. ركضا بسرعة القروء أو الأسماك، محاولين قصارى الجهد للهروب من الحشد. قرّا إلى ظلمة الليل. قرّا كي يعيشا حياة هائلة معًا. نادى أبي: «أيها الزعيم! أيها الزعيم!» لكن زعيم القرية تجاهل النداء. خلّف زعيم القرية وإر شيانغ الحشد وراءهما. خلّفا العالم الغارق في الظلام. وجد الناس أنفسهم محاصرين بين بقع الضوء المتناثر على الأرض كجمرات متوهجة تومض وتختفي. الهواء حار وجاف، لكن ليس كحرارة موقدٍ مشتعل. هبّ نسيم صباحي عليل على البلدة وتغلغل بين الحشد والشوارع. كثير من الشرائط الحريرية المعصوبة حول الجباه غارقة في العرق الذي يقطر على الخدود والأنوف. وبينما كنا نشقّ طريقنا عبر الحشد بدت لي وجوه العديد من الناس كالطوب أو كألواح الخشب. متحمسون كأثهم يتقاسمون الغنائم أو كأثهم في حفل زفاف. أو هائجون كأحمق البلدة أو عُصايتها. عيون بعضهم نصف مغمضة، وكثيرٌ بدوا غير نعاسٍ على الإطلاق. بدوا تمامًا مثل زعيم القرية وإر شيانغ، غير أنّ عيونهم كانت محمّرة، كما لو أنهم مرهقون لكنهم غير قادرين على النوم. كان هناك زوجان لم أستطع تذكر اسميهما، وكانا يختبئان تحت عمود كهرباء على جانب الطريق. ثمة مصباح ذو غطاء زجاجي معلق بالعمود، على ارتفاع نحو قدم من الأرض. تحت المصباح مقبض بلطة،

وفي ضوء المصباح يمكنك أن ترى أن وجه كلٍّ منهما، الذي يطغى عليه عصبيةٌ وقلقٌ، قد تعرّض لركلٍ وحشيٍّ. الشرائط الحربية حول جبهتيهما غارقة في العرق كأنّها غُسلت للتو. «ما هو تزي وتساي غوي فن! أنتما هنا أيضًا؟». سحبني أبي وتبعتنا أُمي. غادرنا الحشد واقتربنا نحو الزوجين. «نرى أنكما مستيقظان، هلاً أخبرتما بما يجري في البلدة؟». حدّق ما هو تزي بي وبأبي وأُمي ثم خفض صوته حتى كاد لا يُسمع. «سمعت أنّ عمدة البلدة قد قُتل بالفعل، وكذلك بعض سكان البلدة ومسؤوليها الذين كانوا مستيقظين ولم يشاركوا في الانتفاضة. إياكم أن تقولوا إنّ شخصاً مستيقظاً أنقذكم. إياكم أن تكشفوا أننا مستيقظون». ثم نظر إلى النائمين والمسرّمين حوله. «ستدلع هناك معركة. كلُّ طرق البلدة مغلقة. حتى التقاطعات الواقعة أبعد ما يكون عن الشارع الشمالي سُدّت بالمتاريس. قبضوا على النساء الفقيرات في الشارع الشمالي وساقوهن كي يتمتع بهنّ المقاتلون، وسمعت أنّ زوجة زعيم القرية من بين هؤلاء النساء. يا للفضاعة! يا للفضاعة! لقد قرروا إقامة مملكة السلام السماويّ العظيمة وقاتل الغرباء باستماتة. أولئك الذين كانوا مستيقظين ورفضوا الذهاب إلى الحرب، اعتُقلوا قبل ساعات وأُعدموا في ساحة مبنى الحكومة. هناك قُتلوا جميعاً وامتلأت الأرض بجثثهم. ولولا أننا أبدينا استعدادنا للقتال لما بقينا على قيد الحياة ولما استطعنا الوصول إلى هنا!». صوتها ناعم كطنين ذبابة، يتحدثان كمن نجا من الموت بأعجوبة. مثل مسرّمين. «تيان باو! غادر أنت وعائلتك فوراً. يجب ألاّ نجتمع نحن المستيقظين لكيلا يعثروا علينا؛ إن فعلوا فهي نهايتنا الوخيمة». لوّح لنا بيده، بل دفع أبي برفق إلى الوراء.

لم يكن أمامنا خيار سوى التملّص من ثغرات الحشد والليل. وبينما كنا نبتعد، ركض ما هو تزي وجذب أبي جانبًا. «كم الساعة الآن؟ لماذا لم تشرق الشمس بعد؟»... «لا أعرف الوقت بالتحديد لكنني أعتقد أنه حان وقت شروق الشمس». قال أبي هذا ممسكًا بيدي، وأمي تمسك بملابسنا من الخلف، وشققنا طريقنا عبر الحشد متبعين ذوي الشرائط الصفراء. سرنا في حلم شخص آخر كأننا نسلك دربًا ضيقًا عبر الأدغال الشائكة. استطعت أن أرى لون أحلام الآخرين، مزيجًا من الأسود والأبيض، كأنّ حبرًا أسود انسكب في طلاء أبيض واختلط به. دوائر سود وأخرى بيض، مع دوامات من اللونين الممتزجين. انتشرت رائحة العرق وأنفاس الفم الصباحية الكريهة مختلطة بهمسات النائمين. صوت تنفسهم يشبه لهاث شخص على وشك الموت يتحسّج بكابوس. دُرنّا حول أطراف الحشد نحاول التسلّل تحت ضوء المصابيح. في هذا الضوء الخافت، استطعت أن ألمح الآخرين بصورة ضبابية، لكنهم لم ينظروا إلينا، بل ركزوا فقط على بلوغ الساحة وسط البلدة على أطراف أصابعهم، أعناقهم ممدودة كأشرطة مطاطية.

وصلنا إلى الساحة.

وصلنا إلى مركز المعركة.

هناك جماهير غفيرة من الناس.

أنصاف المستيقظين على أطراف الحشد، وفي الداخل أنصاف النائمين، وفي العمق أولئك الغارقون في النوم تمامًا، بالإضافة إلى المسرّنين الذين يستطيعون الكلام والتصرف كأنهم مستيقظون. بدأ

المسرّمون تمرّدهم، مدججين بسكاكينهم وعصيّهم، وحدّقوا بعيون
 ناعسة، وتجمعوا تحت المنصة. كانت المنصة مبنية من عشرات الطاولات
 المجتمعة، وعلى الجانبين عمودان خشبيان. تدلّت من الأعمدة مصابيح
 ليست ساطعة ولا خافتة. تحت المصابيح وقف حوالي عشرة من رجال
 شرطة البلدة، مع بعض شباب البلدة المولعين بالعراك. سواء ارتدوا
 زيّ الشرطة أو جلابيب بيضاً أم كانوا عراة الصدر، فقد ربطوا جميعاً
 شريطاً أصفر حول الجبين. الاستثناء الوحيد كان الرجل الواقف في
 مركز المنصة تماماً. إنّهُ الملك لي تشوانغ - المعروف سابقاً باسم لي تشوانغ
 نائب رئيس الجيش - الذي ما زال يرتدي زيّ الحاكم العسكري الذي
 ارتداه في النصف الأوّل من الليلة عندما كان عمدة البلدة يرتدي
 ملابسه الإمبراطورية. تلطّخ زيّه بالدماء من الأمام والخلف كأنّه قتل
 شخصاً للتو. نُزعت الحلقات الخشبية التي كانت تتدلّى من زيّ القائد
 لي تشوانغ وعلى المنصة أمامه تناثرت حبات كثيرة. انحلّ تطريز كُميّه
 وانفكّت اللآلئ البيض عن خيوط جلبابه. لم يكن لي تشوانغ يربط
 شريطاً أصفر حول جبينه فحسب مثل الجميع، بل ربط شريطاً آخر
 على صدر زيّه الرسمي. لون بشرته من لون الدم المتخثر، وتحت ضوء
 المصباح بدا شعره منتصباً. كان وسيماً وبشرته كالرخام في بهائها. عيناه
 واسعتان لكن فيهما نظرة حائرة. لم تبدُ عيناه وديعتين على الإطلاق، بل
 بدتا مشعّتين بضوء بارد. في هذه اللحظة، اقترب أحدهم وهمس في أذنه،
 بينما قدّم له آخرُ مكبرَ صوت يعمل بالبطارية. الرجل الذي همس في
 أذنه بدا كأنه أخطأ في التعرّف على أبي، إذ ظنّه يانغ غوانغ تشو - عدوّ لي
 تشوانغ - الذي توفي والده وجدته سابقاً، بينما توفيت أمه في تلك الليلة.

بعد أن انتهى الرجل من الهمس وتسليم الأشياء، تراجع ليقف خلف لي تشوانغ. ثم تقدم لي تشوانغ إلى مقدمة المنصة، مرتدياً زيه الرسمي وحاملاً الميكروفون، يتأمل الحشد المتجمع وقد تلاّأت أعينهم في ضوء المصابيح. تنحنح، فساد الصمت بين الصفوف الأمامية للحشد. تنحنح ثانية، فامتد الصمت ليشمل الجميع. بعد أن عمّ الهدوء وضع مكبر الصوت على طاولة. «أعلن الآن أننا سنشنّ انتفاضةً. هذه هي مملكة السلام السماويّ العظيمة! لقد عدنا إلى عهد الملك توشانغ في مملكة تاييينغ السماوية!». بعد توقّف رفع صوته: «الآن، وخذ جيش سلالة شون صفوفه واحتلنا مبنى حكومة البلدة. معركتنا الأخيرة قبل شروق الشمس ستقرّر مصير مملكتنا السماوية. ستحدد إذا ما كنا سنستعيد عهد سلالة مينغ العظيمة أم لا. أعلم...». صوته ارتفع أكثر، دون مكبر الصوت بدا كأنه يستخدم واحداً:

«أنّ أهالي القرى الأخرى، مثل وو سانغ وي، قد تجمعوا خارج البلدة لسرقة غاو تيان. يريدون احتلال المنازل والطرق والسطو على كل الممتلكات والماشية في عاصمة مملكتنا السماوية المستقبلية. لكنهم...». رفع ذيل جلبابه العسكري وضحك ضحكة باردة: «هؤلاء الخاسرون بأسلحتهم البدائية لا يتجاوزون بضع عشرات، بينما لدينا مئات بل آلاف الجنود. إذا هجمنا فسنقتلهم بكل سهولة، سنبيدهم، سنقطع أيديهم وأرجلهم ونعلقها على أشجار البلدة وأعمدتها. حالما تشرق الشمس ويرون هذا، سيتقهقرون، وسيترفون بالهزيمة وسيستسلمون لنا، عندها سننتقل من أسرة مينغ إلى أسرة شون. حينئذٍ ستحظى سلالة

شون العظيمة بما تستحقه. وأنا، الملك لي تشوانغ، أقضي بأنَّ كلَّ من يقتل غريبًا سيصبح ضابطًا من الدرجة السابعة في مملكة شون السماوية العظيمة. مَنْ يقتل غريبين سيرقى إلى الدرجة السادسة. من يقتل ثلاثة أو أربعة سيصبح ضابطًا من الدرجة الرابعة أو الخامسة. ومن يقتل ثمانية أو عشرة غرباء سيعامل كمن حقق أعلى الدرجات في امتحانات جيش شون العسكرية. أما الذين لا يقتلون أحدًا، لكن يكسرون ذراعًا أو ساقًا للعدو، أو يقطعون أنفًا أو أذنانًا، فسنمنحهم بيوتًا وأراضيً وحريرًا بناءً على عدد الأطراف المكسورة والأنوف والآذان المقطوعة. مكافأة كسر ساق عدو تبلغ واحد مو وخمسة من الأرض. مكافأة كسر ذراع عدو تبلغ واحد مو وثلاثًا. لمن يقطع أنوفًا أو آذانًا: عشر لفائف من الحرير أو خمس سبائك فضة عن كلِّ أنف أو أذن. مئة لفة حرير، ثمانمئة حصان، عشرة قضبان ذهب أو خمسة قوالب ذهب صغيرة لمن يأتي بعشرة منها». عندما وصل الملك تشوانغ إلى هذه النقطة في خطابه، أصبح صوته أعمق وأقوى، كما لو كان يصيح من خلال شق في الباب: «سواء عدنا إلى عهد سلالة شون العظيمة أم بقينا في الحاضر، فإنَّ هذه المعركة معركة حاسمة... كلَّ الناس وكلَّ الأشياء، أبطالًا كانوا أم أعشابًا تافهة، سيشهدون معركة البلدة قبيل الفجر... الآن، اسمعوني جميعًا. يجب على الجميع إطفاء المصابيح. يجب على الجميع أن يصمتوا، ويختبئوا في شوارع البلدة وأزقتها، خلف الجدران وفي المراحض الخارجية وفي محلات الجنائز والمطاعم وصالونات الحلاقة ومتاجر العطارة والبيوت المجاورة والساحات. فلنجعل العدو يصدّق أن البلدة كلها نائمة، حتى يتجرّؤوا على الدخول إلى متاجر البلدة وبيوتها للسرقة. ثم، يجب على الجميع أن

يبقوا مختبئين، ويراقبوا المصباح الكبير في الساحة». تناول الملك تشوانغ المصباح من العمود حيث كان معلقاً، ورفعهُ عاليًا: «سنستخدم هذا الضوء إشارة. عندما ترون هذا المصباح مضاءً ومعلقاً على قمة العمود، يجب أن تخرجوا من مخابئكم. وعندما ترون غرباء بلا شرائط صفراء على رؤوسهم، فاقتلوهم بلا رحمة. من يقتل غريباً واحداً سيصبح ضابطاً من الدرجة السابعة في مملكة شون السماوية. ومن يقتل عشرة غرباء سينال تقديراً لتفانيه... الآن، فلتعودوا جميعاً أنفسكم على انطفاء المصابيح... فليبلغ القريبُ البعيدَ أوأمري ... اذهبوا جميعكم بهدوء وابحثوا عن مكان للاختباء. عندما تروني أطفئ هذا المصباح، يجب عليكم جميعاً إطفاء فوانيسكم، ومصابيحكم وكشافاتكم وشموعكم. حينما يدخل الغرباء البلدة ويشرعون في سرقة منازلنا ومتاجرنا، حذارٍ من أن تأتوا بحركة... وحالما ترون مصباح الساحة قد أضاء وتسمعون ضجيجاً في الشوارع، اخرجوا من مخابئكم... اقتلوا كلَّ من لا يضع شريطاً أصفر على رأسه... اقتلوا كل غريب عن هذه البلدة... اقتلوا كلَّ من لا يريد العودة إلى عهدة سلالة مينغ العظيمة والمساعدة في إقامة عهد سلالة شون العظيمة... هل تسمعونني؟... هل ستذكرون ما قلته؟... هل نقلتم كلَّ ما قلته إلى الناس في مؤخرة الحشد؟».

وقف لي تشوانغ في مقدمة المنصة يصيح. اجتاح صوته الليل والحشد كعاصفة هوجاء. هاجَّ الناس تحت المنصة كحزمة عشب في مهبِّ الريح، وهم يلتفتون لنقل أوامر الملك تشوانغ لمن خلفهم. بدا الليل كأنه طلي باللون الأسود، وبدا الفجر كبركة من الوحل الأسود.

تصاعد دويٌّ كأن آلاف الأقدام تركض على أرض رملية. ثم انطفأت
الأضواء، كبحيرة تفيض ببطء لتغطي الضفاف من كل اتجاه. كنا راقفين
عند تقاطع يبعد حوالي عشر خطوات عن المنصة. شاهدنا الحشد
يتفرق إلى أزقة مظلمة. «شون تزي! أتريد أن تكون ضابطاً من الدرجة
السادسة أم السابعة؟ إذا كنت ستقتل أحداً، فلماذا لا تقتل مسؤولاً
رفيع المستوى؟» ... «ما تشوانغ! أتريد أن تكون عمدة مقاطعة أم حاكم
إقليم؟» ... «لا أريد منصباً. أريد نساءً والكثير من الأراضي!» ... «وماذا
عنك يا وانغ يي لي؟» ... «لا أريد منصباً ولا أراضي. قضيت حياتي
جزّاراً أذبح الماشية والخنازير، لكنني لا أعرف مذاق قتل إنسان. أريد
العودة إلى سلالتي مينغ وشون العظيمة، كي أجرب قتل إنسانٍ وقطع
أنفه وأذنيه». صوت الهمس صاحب حفيف الخطى. كان هناك أيضاً
صوت شحد السكاكين، وصوت استبدال السكاكين الكبرى بالصغيرة.
صوت المطر. كوقع أقدام تركض للأمام. ثم صوت أناس في منتصف
الشارع ينقلون الأوامر: «الملك تشوانغ يأمركم بخفض أصواتكم.
الملك تشوانغ يأمركم بالسكوت». كانت الأصوات مجرد همسات،
لكن قوتها كانت كتلك التي لا تراها إلا مرة كل مئة عام. كالمصر على
رصيف حار، أو كزخات منتصف النهار على حقل. الضباب يتدحرج
في الشوارع، وموجة حر تعم الأرض كلها. كان أبي هادئاً في البداية،
لكن هذه الحرارة سرعان ما جعلته مرتبكاً. عندما رأت أمي هدوء أبي،
حافظت على رباطة جأشها إلا أن العرق غطى يديها ووجهها؛ لكنها
حين رأت ارتباكها، امتقع وجهها وبدأت يداها ترتعشان. «لماذا لا يذهب

أحد لا يقاط لي تشوانغ؟ إذا لم يستيقظ عند هز كتفه فاضربوه أو اسكبوا الماء البارد على رأسه». وقبل أن يتكلم أبي، أقدم يانغ غوانغ تشو وتشانغ موتو في الساحة على قطع رأس أحدهم فجأة. قبل أن يتمكن الرجل من الصراخ «آه!» سقط رأسه كالبطيخة. «يا ابن العاهرة! من يخوننا سيلقى هذا المصير. هذا هو مصيره»، قال يانغ غوانغ تشو وموتو بحنق. رفسا الرأس الذي كان لا يزال ينزف كنافورة، ثم الجسد الذي تهاوى كوتد خشبي. صرخ والدادي بصوت خافت، ثم غطى كل منهما فمه وعينه بكلتا يديه. بعد ذلك، ساد العالم صمت عميق. المصابيح المنطفئة أغرقت البلدة بالظلام في حين عجت الشوارع بالحركة والتوجس ونتانة الدم. في خضم ذلك سُمعت فجأة صرخة قتيل: «آه يا أماء!». بعد هذه الصرخة، ساد الشوارع والبلدة كلها صمت كصمت المقابر. انطفأت كل الأضواء، وسكنت كل الأصوات. وفي هذا الليل المظلم الساكن كالموت، سُمع مجددًا صوت يانغ غوانغ تشو وهو يجرُّ شيئًا ويغمغم: «يا ابن العاهرة! تجرأت على الوشاية بنا! تجرأت على القول إن انتفاضتنا ليست ثورة بل مجرد سرنمة جماعية! كائنًا من كان يجرؤ على القول إننا مسرمنون سأجعله يستيقظ على صوت سكين ينغرس في قلبه». ثم لم يبق سوى الصمت المطبق. عاد كل شيء إلى الهدوء الذي لم يخترقه سوى نتانة الدم ووقع خطوات المختبئين المتسارعة.

أطفأ أبي مصباحه.

تجمعنا تحت شجرة في زاوية الشارع. بعد أن شاهدنا يانغ غوانغ تشو وتشانغ موتو وبقية الحشد يبتعدون، هرع أبي نحو الشخص الذي

كان لا يزال يصرخ وهو يحتضر. لكنه سرعان ما عاد مغطياً أنفه وفمه. لم ينطق بكلمة، ولم ينظر حوله. بل أمسك بيدي وييد أمي، وركضنا كمن ينجو بحياته. على الرغم من أن لا أحد وراءنا فقد هربنا كأن آلاف المشهرين سكاكينهم يطاردوننا.

3. (6:00-6:00)

مركز البلدة يبعد خمسمئة متر فقط عن المنطقة الصاخبة في الشرق. قطعنا تلك المسافة كما لو كانت خمسمئة لي. استغرقنا قدرًا ضئيلاً من الوقت لكننا شعرنا بأنه يومٌ كامل أو ربّما عام كامل. كأننا ركضنا بلا توقف يوماً كاملاً أو عامّاً كاملاً. كأننا نعدو، نركض، بل نظير أحياناً. تارة أكون في المقدمة وتارة يكون أبي. أما أمي فكانت دومًا خلفنا، تتخبّط كسمكة مقلوبة على وشك الموت. مثلت تلك الليلة أسوأ كوابيس أمي. كلّمّا صرّت في المقدمة عدت كي أساعد أمي، وكذلك أبي. في النهاية وضعنا ذراعي أمي على أكتافنا وواصلنا الجري. في هذه الأثناء أخذ أبي يسبّ ويلعن ساق أمي. «هذه الساق العرجاء نغصت حياتي! نغصت حياتي وحياة نيان نيان!». أمي أيضًا أخذت تسبّ وتلعن ساقها: «لقد نغصت عليّ حياتي أيضًا. فلولاها ما تزوّجتك قط يا لي تيان باو!». اللعنات الحانقة أخرجتنا من الحلم.

ثم دخلنا في حلم جديد.

في النهاية، لم يلاحظنا أحد ولم يطاردنا أحد إذ نهرب إلى حلم جديد.

شاهدنا كل أهل البلدة يخبثون في الزوايا والأزقة والظلال
وتحت الأشجار وفي تلك المتاجر التي نُهبَت. اختبأ الجميع حتى باتت
الشوارع خاوية وصامتة، كأن لم يبق غيرنا. «من هناك؟» ... «نحن! ها
هي الشرائط الصفراء على جباهنا» ... «تعالوا اختبئوا هنا! بسرعة هيا!
أريدون مواصلة التسكع لتصبحوا شهداء تأسيس سلالة شون العظيمة
والمملكة السماوية؟!» ... «لا، بيتنا ليس بعيداً ونحن نعرف المنطقة
جيداً. لذا سيكون من الأسهل لنا أن نتربّص للقتل!». بينما كان والدي
يتحدث مع المخبثين على جانب الطريق، تعرّف أحدهم على عائلتنا.
صرخة مدوية شقّت الظلام: «أيها الأحمق لي تيان باو! زوجتك عرجاء
وتتوقع منها أن تقتل؟ أنت أيضاً مسرّنم وتزعم العودة إلى عهد سلالة
شون العظيمة والملك لي تشوانغ؟». ردّ أبي أو ربما لم يفعل. ركّز فقط على
مساعدة أمي كأنه يجرّ كيس حبوب. لاهثاً كافح للوصول إلى البيت.
أمي استمرت في المشي والتوقف، تمسح العرق عن وجهها وتكرر:
«ليس بوسعي أن أخطو خطوة أخرى! ليس بوسعي أن أخطو خطوة
أخرى!». واصل والدي دفعها مكرراً: «تبقى بضع خطوات أخرى
وسنصل إلى البيت. هل ستقتلك بضع خطوات؟». في نهاية المطاف،
اجتزنا نصف طريق الشارع الشرقي، حيث اختفت الأصوات واختفى
المخبثون على جانب الطريق. بدا الأمر كأننا غادرنا عالم لي تشوانغ لنجد
أنفسنا في تلك الليلة من ذلك اليوم من ذلك العام.

عاد الهدوء.

ليس هناك من يطاردنا.

تلاشت أصوات المختبئين تدريجيًّا، وحين تباطأنا لالتقاط أنفاسنا، رأينا جثة عند مدخل مطعم «عبق السماء». كان الرجل الميت غريبًا في الثلاثينيات أو الأربعينيات من عمره، بوجه مربع وشعر أسود قاتم. أمعاؤه تتدلى من بطنه، وجسده العاري تلقى أربع أو خمس طعنات. بجانبه بلطة كان يحملها، نصلها ملطخ بدماءٍ وبقايا لحمٍ. لا شك أنه مات وهو يقاتل شخصًا ما. أبعد قليلًا، أمام محل الخياطة الذي نُهبَت منه حتى الخزائن وعلاقات الملابس، هناك جثة في مجرى الصرف. الوجه مقلوب للأسفل، الرأس داخل المجرى والقدمان مرفوعتان في الهواء. حاول أبي سحب الجثة لكنه لم يستطع تحريكها. «إنه ميت»، قال لنا أبي كأنه يصف غصن شجرة يابس انقلع من شجرة. «لا أثر للحياة في الجثة. يبدو أن معركة جرت هنا وهذه هي مخلفاتها. ليست سرقة أو نهبًا بل معركة!». صممتنا من الصدمة وواصلنا سيرنا شرقًا. في صمت الموت دوى رنين خطواتنا. كلما تقدمنا بضع خطوات كان أبي يتمتم مع نفسه. أمي لم تنطق بكلمة، لكنها بدأت تمشي أسرع منا. فجأة بدت أقل عجزًا من ذي قبل، قادرة على المشي كأني شخص عادي. أخيرًا، تراءى مدخل متجرنا الجنائزي «العالم الجديد». عندما رأَت أمي المدخل حثت خطاها كأنها تعود أخيرًا إلى البيت بعد غياب دام أيامًا لا تحصى، بل سنوات. وحين كادت تبلغ المدخل، توقفت فجأة في منتصف الشارع، كأنها أدركت أنها انعطفت منعطفًا خاطئًا ووقفت أمام المنزل الخطأ. كان مدخل متجرنا مفتوحًا على مصراعيه. أحد البابين سقط، نصفه داخل المتجر والآخر خارجه. أكاليل الزهور الممزقة متناثرة على الأرض وفي المدخل. حتى في هذه الظلمة الدامسة التي يفترض أن تكون نهارًا،

استطعت تمييز بقع الدم على تلك الزهور الورقية والأوراق. بدا الدم الأحمر على الزهور البيض مغرياً، كثيفاً، بنفسجياً مسوداً. الدم على الأوراق الخضراء بدا داكناً، قائماً، بنفسجياً مزرقاً. رائحة الدم النفاذة عشعشت في الأرض وفي مدخل بيتنا. لقد دارت معركة عنيفة هنا. بين الدم والورق سكين مطبخ وفأس. هناك أيضاً عصا خشبية استخدمت سلاحاً وتركزت في بركة دم كعظم ساق طويل. كل شيء كان ساكناً. في هذا السكون، في الليل، في الليل الساكن، توارى صوتُ خافت. أضواء والدي المصباح أمامه، وقرر أن يتوقف عن حجب الضوء. أمامه رأى مجرفة وبعض الملابس والأحذية المرمية. بطاريات مصباحه أوشكت على النفاد، ضوءه خافت كقطعة قماش صفراء رقيقة. سمعنا ضجة صاحبة على بعد مئتي متر، قرب المدخل الشرقي للبلدة، كصوت جبل ينتقل من الطرف الآخر للعالم. «هل ستشرق الشمس قريباً؟»، هذا السؤال كان من أمي، الواقفة في المدخل، تحديق في ذهول. «لن تشرق الشمس». هذه الإجابة كانت من أبي المحدث في فوضى المدخل الدامية. ثم عاد الصمت. في السكون، كادت تُسمع أنفاس الجثث. هذا الصوت الضئيل البارد سرى في دماغي ومفاصلي. وقفنا أمام بركة الدم وتلك الزهور الورقية. عند عتبة متجرنا زهوراً ملطخة بالدماء، وقميص ملطخ، وزوج جديد من «أحذية التحرير» التي يتتعلها جنود جيش التحرير الشعبي. لم نصرخ من الدهشة، بل حدّقنا فحسب، غير آبهين، في المشهد أمامنا.

هذا الشارع، على امتداده، شهد معركة فتّاقة.

«ادخلي! أمّا أنا، وما دمتُ مستيقظًا، فعليّ أن أذهب وأستطلع ما يجري في الشارع الشرقي».

بدا صوت أبي غير متناسب مع الموقف. مدّ المصباح إلى أمي، محدّدًا فيها كمن يُحدّق في شيء يرغب في إبعاده عن نظره لكنه يعجز عن ذلك. «ادخلي! هل تسمعينني؟ ادخلي! أتريدين الموت؟ لا تخرجي حتى تحت تهديد الموت! اقفلي الباب ولا تخرجي تحت أي ظرف من الظروف!». لم تأخذ أمي المصباح، كأنه شيء بلا جدوى.

«أتريد الذهاب حقًا؟ إذا كنت مصمّمًا فاذهب وألقِ نظرة وعدّ على الفور!».

قالت ذلك صراخًا. قالت أمي ذلك بصوتٍ كالصراخ، لكنها في الوقت ذاته بدت كأنها تودّع أبي الذاهب للعمل في الحقل في نهارٍ عاديّ. لم يفكر أيُّ منهما بي. لم يخبرني أحد ماذا ينبغي أن أفعل، تهتُّ، تاهت أفكاري في ظلمة الليل وشعرتُ بأنني فردٌّ زائدٌ في العائلة. رأيتُ أبي يتجه شرقًا فيما عادت أمي إلى البيت، تتحاشى الأزهار الورقية في طريقها وبقع الدم. أمام الباب المخلوع التفتت أمي وقالت شيئًا كالتوبيخ الملطف: «نيان نيان! لماذا أنت واقف هناك! لماذا لم تذهب مع أهلك؟».

لحقتُ بأبي فوبّخني بلطفٍ أيضًا:

«لماذا تبعتنني يا نيان نيان! لماذا لم تبقي مع أمك؟».

غير أنّه أمسك بيدي. شعرتُ بأنني أحلق على جناح نسِر. كان الطريق مليئًا بمخلفات المعارك الضارية، من مناجل وفؤوس ومعاول ومجارف وعصي. كانت هناك أيضًا أعلام حمراء وسواطير وكلّ أنواع

الأحذية: أحذية قماشية ورياضية وجلدية وصنادل بلاستيكية رخيصة. بدا العالم كأنه قد اجتبح. إعصارٌ ضرب البلدة. وفي الصمتِ تناهت إلينا أصواتٌ تتصاعد شيئاً فشيئاً. في العادة، لم يكن عند المدخل الشرقي للبلدة سوى عدد قليل من المصابيح، ولكن حين وصلنا وجدنا أن عددها قد تضاعف. ضوءٌ باهر، كأنَّ النهار قد أشرق. وفي ضوء النهارِ هذا، رأينا أنَّ كلَّ الرجال يربطون شريطاً أبيض حول الذراع اليسرى. هناك شاحنة كبيرة متوقفة عند مدخل البلدة، محملة بحزم من الأعلام الحمر وأقمشة الحرير الأحمر. ثمة مصباح معلق على كل عمود من أعمدة لافتات الشاحنة، وكانت هناك لافتتان كبيرتان على جانبي صندوق الشاحنة، كلتاهما عليها كتابة، لكننا -أبي وأنا لم نستطع قراءتها. كل ما رأيناه هو أنَّ هناك شابين في الشاحنة، يعصبان شريطاً أبيض حول ذراعهما اليسرى، وثمة ضمادات بيض ملطخة بالدم ملفوفة حول رأسيهما. أحدهما يرتدي نظارات، والآخر كان يرتدي قميصاً قصير الكمّين. تناوبا على رفع مكبر الصوت والصراخ.

«أيها الإخوة والأخوات... أيها الكبار والصغار... لقد بدأ الهجوم العام قبيل الفجر... بحلول نهاية الليل سنكون قد استولينا على بلدة غاو تيان... من الآن فصاعداً لن نعود قرويين بدائيين ومتخلفين. من الآن فصاعداً سنصبح سادة المستقبل! أهل المدن! سوف نعيش في رخاء! سنحصل على كل ما نريده! سنستطيع الذهاب إلى المتاجر وشراء ما يحلو لنا دون الحاجة للاستيقاظ قبل الفجر والذهاب إلى البلدة للتسوق! سنطرد أهل غاو تيان الحاليين! سنطردهم إلى الريف والجبال كي يعملوا

في حراثة الأرض وتربية الحيوانات! سيذوقون تلك الحياة المريرة! حياة من يستيقظ قبل الفجر للقدوم إلى البلدة لتسوّق حاجاته! للقدوم إلى بلدتنا. أيّها الإخوة والأخوات! يا أبناء الريف! من أجل الغد ومن أجل مستقبلنا، فلنخض المعركة! أيّها الإخوة والأخوات! يا أبناء الريف! من أجل الغد ومن أجل مستقبلنا، فلنخض المعركة! من يستول على مطعم فهو له! من يستول على دكان فهو له! اقتلوا كلّ من يحول بيننا وبين التوزيع العادل للثروة والأرض! اقتلوا كلّ من لا يضع شريطاً أبيض على ذراعه اليسرى! اقتلوهم حتى تحظوا ببيت في البلدة! اضربوهم بالمطارق! ففي المستقبل حين تغدو هذه البلدة مدينة، ستحظون بمبنى قرب الساحة! اقتلوا واضربوا واسفكوا دماءهم! لن تكونوا مجرمين بل أبطالاً! غداً ستصبح هذه البلدة بلدتنا! وهذه الشوارع شوارعنا! وكلّ ما فيها لنا! هذه الشوارع وهذه البيوت والمتاجر ومحطات القطار ومكاتب البريد والبنوك والمحلات وكذا وكذا... كلّ هذا سيكون لنا! حينها سيحظى كلّ منا بما يستحقّه! سيحظى بما يريده! من يرد الرخاء فله الرخاء! هيّا نفتك بهم من أجل أحفادنا! أيّها الرفاق والإخوة! هجوم! هجوم! من أجل الغد والمستقبل! من أجل أحفادنا! فلنقض على غاو تيان! فلنبذ أهلها عن بكرة أبيهم! هجوم! هجوم!».

قفز الشابان من الشاحنة وتقدما للأمام يحملان المصباح والعلم الأحمر. الحشد بالمثل رفعوا الأعلام الحمر والسيوف والرماح والمصابيح والعصي وتبعوهما نحو البلدة. عددهم ربما مئات، أو حتى أكثر من ألف، أو ربما أكثر من عشرة آلاف. اندفعوا جميعاً في الشوارع يلوّحون

بعضيهم وعدّتهم في الهواء. «نريد متجر البقالة هذا»... «نريد متجر الأدوات المنزلية هذا»... «أعيننا على محلّ الجزارة هذا منذ سنوات»... انقضّوا على البلدة يصرخون وينهبون. هرعوا إلى المتاجر على جانبي الشارع. لم يكن واضحاً إذا ما كانوا مستيقظين أم نائمين، حاملين أم مسرّمين. في ضوء المصابيح، بدت الشرائط البيضاء المربوطة حول أذرعهم كأزهار بيضاء تفتّح في الليل الدامس، أزهار بيضاء تتطاير في الهواء. وقع الخطى الراكضة بدا كأنّ عدداً لا يحصى من المطارق تدقّ على عدد لا يحصى من طبول الحرب الجلديّة. كأنّ عاصفة برّد تقرع الطبول. «هؤلاء لا يضعون شرائط بيضاء حول أذرعهم... هؤلاء لا يضعون شرائط بيضاء حول أذرعهم». اندلعت الصيحات كأنّ الحشد وقع على خزانة بنك، أو كأنّهم عثروا على مفتاح باب مغلق. أمسك أبي بيدي وسحبني إلى مرحاض خارجيّ بجانب الطريق. لم أعرف إذا ما كان هذا المرحاض للرجال أم للنساء، لكنه غير مسقوف، وعرضه عرض نصف غرفة عادية. لم أدخل هذا المرحاض العموميّ من قبل، فقد بناه أحد شيوخ البلدة، والذي كان يأتي كل مساء لتنظيف الفضلات التي يخلفها الناس يومياً في طريقهم إلى السوق. لكن الآن، أصبح هذا المرحاض حصناً سينقذ حياتنا. جدران مبنية من الحجر والطين، وكان الجدار مكتلاً غير مستوٍ مثل وجه البلدة المتورم والمكدم. دفعني أبي إلى الزاوية وبحركة سريعة فكّ الأشرطة الصفراء المعصوبة حول رأسينا وألقاها في المرحاض. «لا تخف يا نيان نيان. إذا جاء أحد فقل إننا غرباء. لا تقل أبداً إننا من هذه البلدة». رأى أبي أنني أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي، فاحتضنني بقوة مثل أرنب صغير. ضممت ذراعيه بكلتا يديّ

غارسًا أظافري في جلده، ريشًا هدأت وبدأت أصغي لما يحدث بالخارج. خطوات الناس الذين يركضون بجوار المرحاض أشبه بدبيب جيش أو موكب فرسان. كجيش من ألف مقاتل أو موكب من عشرة آلاف فارس. موجة تلو موجة من الخيول والناس تجري، وسحب من غبار تُثار، رائحتها أقوى من رائحة المرحاض. رائحة الغبار غطت على نتن المرحاض، وغطت أيضًا على رائحة عتمة قبيل الفجر. «لو أنَّ لدينا قطعة قماش لكان الأمر على ما يرام. لكنَّا في مأمن لا نخشى شيئًا»، تتمم أبي بينه وبين نفسه، وبدأ أنه يفكر في شيء ما. ربَّت على جيوبه بلا وعي، وفي تلك اللحظة أضاء مصباحٌ في الشارع بالخارج. اشتعل الضوء الباهر فجأة كأنَّ شمسًا طلعت من الشارع الغربي. هناك عمّ دويٌّ صاخِبٌ تبعه صوت صياح وهجوم مضاد. «من أجل مملكتنا العظيمة اقتلوهم كلَّهم! من أجل مملكتنا العظيمة اقتلوهم كلَّهم!». صيحات متزامنة أتت من الشارع الشرقي: «من أجل الغد! من أجل المستقبل! من أجل أبنائنا وأحفادنا! اقتلوهم!». ... «من أجل أن تكون غاو تيان لنا اقتلوهم!». الشيء الغريب هو أنَّ أحدًا لم يتحدَّث عن الحاضر. لا أحد يريد الحاضر. هذه حربٌ حول الماضي والمستقبل. وبشكل أكثر تحديدًا، فهذا المستقبل هو المستقبل الذي كُتب عنه في الكتب، والماضي هو تاريخ البلدة. هذه الحرب الشعواء اندلعت بسبب المستقبل والماضي. أمَّا حاضرُ هذه الليلة من هذا الشهر من هذا العام فإمَّا نسي نسيانًا تامًّا، أو تحوَّل إلى كابوس. ليس ثمة حاضر. الحاضر اختفى. كان الأمر كما وصفه يان ليانكه في إحدى رواياته: إِنَّه زمنُ الماضي والمستقبل وتاريخُ الماضي والمستقبل. وأوشكنا على الموت في هذا الكابوس الآن. أومضت مصابيحُ السماء

وتأرجحت كسيف يلوح في الهواء. وقع الخطى في الشارع تسارع
فتراکمت أصواتها حتى غمرت رأسينا وامتدت في الهواء. أصبح
الصوت جبلاً، أصبح محيطاً، أصبح سلسلة من جبال ومحيطاً وعالماً
بأكمله. أحدهم كان يشتم: «يا ابن العاهرة! يا ابن العاهرة!». آخر
كان يصرخ بأعلى صوته: «يا أماء! يا أماء! الدم يسيل من رأسي! الدم
يسيل من رأسي!». كأن أهل البلدة وفلاحها كلهم قد تجمعوا بالقرب
من المرحاض للقتال. تجمعوا لقتال مستميت. طارت سكين في الهواء
وسقطت قرب قدمينا. طار حذاء في الهواء وسقط على رأسي. احتضني
أبي بقوة. ضممته بقوة وغرزت أصابعي في خصره. الناس يتقاتلون
ويصرخون في الخارج ونحن في المرحاض نرتجف حاسبين أنفاسنا.
اهتزت جدران المرحاض اهتزازاً عنيفاً حتى كادت تنهار. بالمثل اهتزَّ
الشارع والأرض حتى التصدّع. نفدت بطاريات المصباح أخيراً فانطفأ.
انحدر المشهد الخارجي في ظلام أعتى، مثل بركة حبر، في حين ظلَّ
المرحاض مضاءً مثل بركة نور. الضوء ساطع لدرجة تستطيع معه رؤية
الحفرة في الأسفل وآلاف اليرقات المتنوعة بحرّ هذه الليلة من الشهر
القمرى السادس. زحفت اليرقات البيض على جدران المرحاض،
تشقّ طريقها إلى غاو تيان. الاهتزازات الناجمة عن القتال المستعر في
الخارج جعلتها تندفع للأسفل وتسقط في المرحاض. هذا ما جرى. بدا
صوت القتال يبتعد غرباً. كأن الغرباء وقعوا في كمين نصبه أهل البلدة.
سطعت الأضواء من الجانبين على الساحة وتحرك صوت القتال غرباً
فيما كان وقع الخطى والصراخ ينزاح شرقاً. كأن أهل البلدة يدحرون

الغرباء ويطردونهم وينكلّون بهم. لكن بعد وقت -وقت قصير- تبين أنّ الغرباء تقدّموا حتى بلغوا ساحة البلدة. هجوم ثم تراجع، هجوم ثم تراجع، مثل منشار يدويّ. انهالت الصرخات والصيحات كحبات البرد على المرحاض وعلى البلدة بأسرها. ما زلتُ في حضن أبي، أنفاسي متسارعة، أكافح كي أتحرك. شعرتُ بأنّ هناك شيئاً على الأرض يلتصق بقدمي، بحذائي، كأنني أحاول المشي في حوض من المطاط. تسرّب الدم إلى المرحاض عبر الشقوق بين حجارة الأرض كأنه ماء المطر. في البداية كانت خيوط قليلة ما لبثت أن صارت بركة كبيرة. بركة دم بحجم نصف حصيرة أو باب. دم أحمر مسودّ أرجوانيّ تدفق إلى المرحاض حاملاً معه ما في طريقه من أوساخ وأعشاب برية. طغت رائحة الدم على رائحة المرحاض. وسال الدم الأسود الكثيف اللزج نحو الحفرة.

عندئذٍ لاحظ أبي تسرّب الدم. رأى تياراً من الدم يتعرّج حول قدمه. حدّق في الأرضية الملطخة بالدم ذاهلاً ثم رفعني وحملني إلى منطقة نظيفة.

«كم الساعة؟ ألن تشرق الشمس؟ هل ماتت الشمس حقاً؟».

تذكّرت الراديو المتدلّي من خصري فأمسكته بسرعة. وبعد أن ضغطتُ زر التشغيل رفعته إلى أذني ثم خفضته وضربته عدة مرات. أخيراً صدر منه صوت. بدا صوت المذيع محمومًا بعض الشيء وهو يقرأ النشرة الرتيبة مثل شريط يُعاد تشغيله مرارًا. أما الآن فأكثر ما ينبغي لنا أن نتوخّى الحذر بشأنه هو أنّه... أمسك أبي الراديو وأخفض الصوت إلى أدنى حدٍّ يمكن سماعه.

نتيجة التضاريس وتيارات الهواء، فضلاً عن الجبهة الباردة القادمة من الشمال الغربي، ستعرض بعض مناطق مدينتنا إلى ظروف حارة وغائمة طويلة الأمد، بلا شمس ولا مطر ولا ريح. هذا يعني أن غطاءً سحابياً كثيفاً لا يتخلله مطر أو ريح سيطبق عليها. سينجم عن ذلك مناخ حار وغائم يجعل النهار مظلماً كالغسق. علاوة على ذلك، قد تشهد بعض المناطق ظلاماً نهاريًا يشبه كسوف الشمس، حيث سيبدو النهار كأنه منتصف الليل.

عند هذه النقطة أطفأ أبي الراديو.

فكر قليلاً قبل أن يقول شيئين غريبين تماماً؛ كلاماً مسرناً: «كيف آتي بشمسٍ توقظني؟».

«حالما تطلع الشمس سينجلي الليل وسيستفيق الجميع».

بعدئذٍ قوّم ظهره. وقف، في حالة من الألم والذهول، يصيح السمع لصرخات المقتلة الجارية في الخارج. تسلّل بعيداً عني نحو باب المرحاض مثل لصّ. وقف هناك كأنه على عتبة حلمه. خطوة واحدة تفصله عن حلمه، بخطوة يستطيع أن يدخل حلمه، بخطوة أخرى يستطيع أن يخرج من حلمه ويستيقظ. وقف أبي عند مدخل المرحاض، ماذا رقبته كحبلٍ راقب خلسة القتال الدائر في الخارج تحت جناح الليل. انتظر حتى هدا الضجيج وسحبني للخارج. ركضنا شرقاً، على امتداد الجدران المجاورة للطريق، هارين إلى خارج البلدة.

كأننا نركض مسرّمين.

كأننا نركض فراراً من السرنة نحو التيقّظ.

الكتاب الحادي عشر

البزوغ: أخِرُ الطيور

يحلّق بعيدًا

1. (6:00-6:00)

هربنا من البلدة مرة أخرى.

امتلأت شوارع البلدة بالجرحى. في النور وفي الظل كانوا يصرخون: «أنقذوني! أنقذوني! كلُّنا قرويون! أنقذوني! أنقذوني!». الجرعى ينزفون. كانوا مستيقظين، تبدو عليهم تعابير الندم. «لقد كنتُ مسرّنًا! لقد كنتُ مسرّنًا! حينها جاء أحدهم وهمس في أذني أن اذهب إلى البلدة كي تسرق! قال لي إنَّ الجميع سيذهبون إلى البلدة الليلة كي يسرقوا! ولا أعرف ما حدث بعدها. وجدتُ نفسي أتبع ذلك الرجل! وجدت نفسي وسط معركة!». هذا ما قاله رجلٌ نحيلٌ في منتصف العمر يغطّي وجهه النازف بيديه. «رأيتُ أناسًا يسرقون أجهزة تلفزيون وألحفة وماكينات خياطة لكنني لم أسرق شيئًا! على الرغم من ذلك فقد تلقيتُ طعنة في وجهي!». ضاغطًا على جرحه، أزال شريطًا حول ذراعه وناوله لأبي قائلاً: «أيمكنك أن تعصب رأسي به؟». أخذ أبي الشريط وراح يمزّق القميص الذي يرتديه ولفَّ به رأس الرجل. وفيما كان يفعل ذلك تتمم

بينه وبين نفسه متذمراً: «أنا في غاية النعاس وأنت تطلب مني أن أعصب رأسك! أشعر كأنني مسرّنمٌ وأنت تطلب مني أن أعصب رأسك!». لفَّ أبي رأس الرجلِ بقماش قميصه دون شرائط الذراع، ثم جعلناه يتكئ علينا مثل جنديٍّ جريحٍ يُجرّ من ساحة المعركة.

كان القرويون الجرحى جميعاً قد تجمّعوا بالقرب من شاحنة كبيرة، يدعم بعضهم بعضاً ويتحدّثون. حين استيقظوا، ركضوا في كل اتجاه، يريدون العودة إلى بيوتهم. «يا لفظاعة هذه السرنمة! يا لفداحة هذه السرنمة!». أولئك الذين ماتوا وجفّ نزيّفهم لم يستيقظوا، أما المسرّنمون فقد واصلوا تهافتهم إلى البلدة وانضمَّ إليهم المستيقظون الذين تظاهروا بالتسرّنم. سار القادمون بثقةٍ وسط الطريق، بينما سار المستيقظون، العائدون إلى بيوتهم، على جانب الطريق كاللصوص. وحين مرّ بعضهم ببعض اكتفوا بالصمت أو تبادلوا بعض الكلمات على سبيل المجاملة: «مرحباً! كيف تسير الأمور في البلدة؟».

«حثوا الخطى! إن تأخرتم فلن يتبقى شيء في المتاجر! لن تتبقى أية بضائع!».

عاد المستيقظون إلى بيوتهم فارغي الأيدي بعدما شجّعوا المسرّنمين على الإسراع نحو البلدة. توجّه الناس إلى البلدة بعرباتهم الفارغة وسياراتهم الفارغة ودلائهم الفارغة رافعين الأعلام الحمر وشتى أشكال الفوانيس. بدوا مثل موكبٍ لسلاح الفرسان، أضواؤهم تنير الشارع بأكمله. لقد أوشكت البلدة على ملاقة حتفها لأنّه -مهما حدث- فلن يتبقى لدى أهل البلدة أية وسيلة يصدّون بها هذه الموجات

المتعاقبة من أهل الريف. عصبنا أنا وأبي الشرائط البيض حول ساعدينا. أوصلنا الرجل النحيل، جريحَ الرأسِ، إلى الجهة الشرقية من البلدة حيث فرَّ هاربًا. راح يركض على امتداد الحافة الخارجية للطريق متجهًا إلى جنوب البلدة، عكس تيار الناس المتدفقين إليها. وطوال الطريق كان أبي يمسك بيدي، تتناهى إلى أذني غمغمته:

«أبوك مسرئم على ما يبدو يا نيان نيان! أبوك على وشك أن يرتكب شيئًا خطيرًا!».

«أبوك مسرئم على ما يبدو يا نيان نيان! أبوك على وشك أن يرتكب شيئًا خطيرًا!».

تبين لي أنه مسرئم بالفعل. تبين لي أنه كان متعبًا فغطَّ في النوم وحينها أصابته السرنمة الهيستيرية التي اجتاحت البلدة بأسرها. ولأنني أحق لم أحاول إيقاظه من حلمه. بل تبعته فحسب، تبعته وهو يغادر البلدة مسرئمًا. من شرق البلدة اتجهنا جنوبًا حتى وصلنا إلى تقاطع طرقٍ وانتظرنا عنده. مرَّ أمامنا فوج تلو آخر من سكان الريف الذاهبين إلى البلدة. ومن البلدة لا تزال صرخات القتل تصل إلينا وتشقُّ السماء فوق رأسينا. رائحة الدم النفاذة تملأ الهواء، كرائحة تنبعث من قدر يغلي. هناك أيضًا الرائحة الخشبية الآتية من شجرة الصفيراء العتيقة خلفنا كأبخرة خشب محترق. المكان الذي وقفنا فيه كان كشكًا يبيع المثلجات. جسدانا يتعرقان، لا نشمُّ إلا رائحة الخوف. وليس في السماء القابعة فوق البلدة سوى وميض المصابيح وصرخات قتلٍ يرتدُّ صداها.

لقد بلغت تلك الليلة نهايتها.

برودة الليل ولّت منذ وقت طويل.

كانت الحرارة تُشير بوضوح إلى أنَّ النهار قد بزغ بالفعل، وأنَّه الوقت التي تغمر فيه الشمس الأرض بوهجها. لا بدَّ أن الساعة كانت بين الثامنة أو التاسعة؛ وقت الفطور المعتاد. لكن النهار كان قد مات منذ السادسة. مات النهار قبل أن يبزغ، مات في الليل. الطقس كما وصفه مذيع الراديو: غائمٌ وحارٌّ. وكما قال المذيع فقد حلَّت ظلمةٌ كسوف الشمس التام. فحتى في وضوح النهار لم يكن المرء يرى أمامه سوى الظلال، لم يكن يرى أبعد من خمسة أمتار، حيث كلُّ شيء يغدو أسودَّ ضبابيًا بعدها. وفي غمار هذه العتمة، في غمار القتال المستميت والفوضى التي مات فيها النهار، جلس أبي متكئًا على شجرة الصفيراء ليستریح قليلاً. عندئذٍ، وبفضل شعاع ضوء عابر، رأيتُ بياضَ عينيه. بدا بياضهما متسخًا. عينه اليسرى كاليمنى حجماً. حدقته مزيجٌ من اصفرار وسواد كقطرتين من ماء عكر لطختا ثوباً أبيض. بدا كأنَّ النوم قد غلبه. من شدة الإعياء غطَّ في النوم، لكنّه لم يكفَّ عن الكلام: «علينا أن نعثر على الشمس ونجعلها تشرق! إذا وجدناها استطعنا إنقاذ القرية والبلدة والمنطقة كلها. إذا جلبناها استطعنا إنقاذ القرية والبلدة والمنطقة كلها». وشوشة في أذني، وشوشة في العالم. رفع عينيه نحو السماء: «هذه الومضات تعني أنَّ المعركة لا تزال مستمرة». التفت لي ثم عاد ونظر إلى السماء: «علينا أن نعثر على الشمس. علينا أن نجد طريقة لجعلها تشرق! أحسُّ بأنَّ الشمس بداخلي، مخبأة في مكانٍ ما، لكنني لا أتذكّر أين. الأمر يشبه تمامًا عندما تنسى فجأة اسم

شخص تريد أن تناديه على الرغم من أنه على طرف لسانك!». نهض ببطء من مكان جلوسه تحت الشجرة. ذهلت وأنا أراه يقف وهو نائم كأنه مستيقظ وواع. كأنه يريد أن يقول شيئاً أو يفعل شيئاً. لكنّ دهشتي سرعان ما تلاشت حين تذكرتُ أنّ هذا هو حال الجميع في ليلة السرمنة هذه، والشيء الغريب الوحيد هو ألا يكون كذلك. وقف أبي يحدق في الأرض ثم بدأ يفتش في جيوبه. شرع يدور حول شجرة الصفيراء، وبعد نصف دورة توقّف وطرق على الجذع مرتين قبل أن يضرب رأسه بعنف. كأنّ الشمس مخبأة داخل رأسه. كأنّ ضربة قوية كفيلة بإخراجها منه! وفجأة صار يقفز ويصيح في غمرة الليل:

«لقد عرفتُ كيف أجعل الشمس تشرق! لقد عرفتُ كيف أحوّل الليل المظلم إلى نهار!».

2. (6:00-6:00)

هذا ما جرى.

هذا ما جرى. ولولا حماقتي، لولا حماقتي لوجدتُ طريقة كي أُخرج أبي من حلمه. لولا حماقتي لوجدتُ طريقة كي أُخرج أبي من جنون أحلامه. لكنني فعلاً أحمق. أحمق بعض الشيء. فقد فعلتُ ما أُراده؛ قال لي اتبعني فتبعته وقال لي لا توقظني فتركته في أحلامه. في أثناء سيرنا ظلّ أبي يكرّر أنّه عرف كيف يجلب الشمس، كيف يجعل الشمس تشرق. توجّهنا جنوباً نحو السدّ، حيث المحرقة. وبعد بضعة خطوات التفت أبي كي يرى إذا ما كنت أتبعه أم لا، ثم صاح في غمرة الظلام:

«تعال معي يا نيان نيان! ألا تريد إنقاذ البلدة؟ ألا تريد إنقاذ العالم؟».

اقتفيتُ خطاه. شعرتُ بأنني أتبعه لا لأجل إنقاذ البلدة بل لأرى كيف سيتمكن من ذلك. «عليّ أن أخرج براميل زيت الجثث من الكهف. عليّ أن أخرجها جميعاً إلى الطرف الشرقي للسدّ، حيث تشرق الشمس دائماً. هناك سنضرم النار. من بعيدٍ، سيبدو أنّ ثمة كرة كبيرة من النار على قمة التلّ، كما لو أنّ الشمس تشرق. وحين يرى الناس طلوع الشمس سيستيقظون من أحلامهم»، واصل أبي التحدّث بينه وبين نفسه في ذلك اليوم الذي بدا كأنّ الشفق فيه قد تحوّل إلى ليل. أنصتُ إليه وهو يحدث نفسه فيما نسير إلى السدّ. أردتُ أن أقدرَ عمقَ نومه لكنّ الظلام حجب وجهه. لقد أخفاه كلياً. تقدّمتُ عدة مرات واقتربتُ لأرى وجهه كمن ينظر إلى شجرة باحثاً عن عشّ فلم يرَ عشّاً ولا أغصاناً. كلّ ما رأيته هو خيالٌ عاتمٌ يحومُ في الهواء ويمضي قدماً. تصبّب العرق من وجه أبي على وجهي. طعمه مرٌّ ومالحٌ وله رائحة خفيفة كريهة. بسبب هذا العرق توقّفت عن النظر إليه. قوّة يده المطبقة على يدي وهو يقودني إلى الأمام أقنعتني بأنّه قادر على تنفيذ ما يصبو إليه. ولذلك لم أشكّ فيما قاله ولم أحاول الوقوف في طريقه. كيف لي أن أقف في وجه أبي؟ كيف لي أن أشكّ في قدرته على إخراج الشمس وتحويل الليل المظلم إلى نهار وهو أبي؟ كانت خطانا سريعة كزخات المطر التي تذرّوها الرياح. خطوتان منه مقابل ثلاث خطوات مني. إذا حتّ خطاه بسرعة أكبر كان عليّ أن أركض للحاق به. هذا النهارُ المظلمُ

مثل بحيرة من الحبر الأسود، وكان سيرنا على الطريق أشبه بالخوض في نهر من الحبر.

كانت ثالث مرة نذرع فيها هذا الطريق على امتداده في تلك الليلة. حين وصلنا إلى المفرق الذي نسلكه عادة للتوجه إلى فيلا خالي في المجمع السكني توقّف أبي.

حدثت هناك المعجزة بكل هدوء.

في تلك اللحظة تيقّنت أنّ بوسع أبي إخراج الشمس. تيقّنت من قدرته على ردّ النهار. ظهر أحدهم عند التقاطع. يجرّ عربة علّق بمقبضها مصباح. نادى عليه أبي فتوقف الرجل. «يبدو أنّك ذاهب إلى البلدة للسرقة». التفت الرجل، عيناه نصف مغمضتين. «لقد نُهبت البلدة عن بكرة أبيها! تعال معي إلى الجسر وساعدني لنقل براميل زيت من الجانب الغربي إلى الشرقي. سأعطيك عشرة يوانات عن كل برميل تنقله».

ظَلَّ عاجزًا عن الكلام.

«عشرين يوانًا».

وقف بلا حراك.

«سأعطيك خمسين يوانًا عن كلّ برميل. إذا كنت غير موافق، فأكمل طريقك إلى البلدة واسرق ما يمكنك سرقة. ولكن احذر من أهل البلدة الذين يعصبون رؤوسهم بشرائط صفر لأنهم لن يرحموك إن أمسكوا بك».

طأطأ الرجل رأسه وتبعنا. رأينا بضعة مسرّمين يتجولون بلا هدف، ورأينا بعضًا آخر أراد استغلال السرّنة للشراء. قال لهم أبي

ما قاله للرجل، ثم قرّر أن يزيد الإغراءات: «مقابل كلّ برميل تنقله سأعطيك جزءًا من بيت... إذا نقلت برميلين سأعطيك بيتًا بأكمله... إذا نقلت ثلاثة سأعطيك بيتًا يطلّ على الشارع... إذا نقلت عشرة براميل سأمنحك متجر العالم الجديد بكلّ ما فيه...». فأتى الرجال معنا. تبعونا. كان المسرّمون أشبه بمتشردين بلا مأوى أو بأغنام بلا راعٍ. ولأجل أن يتبعوك فهم لا يريدون سوى شخص يقودهم ومكان يأكلون فيه وينامون ويكسبون المال. في غمضة عينٍ تبعنا خمسة رجال أو ستة، ثم خمسة أو ستة آخرون. بعضهم فارغي اليدين وبعضهم يجرون عربات. عددهم في تزايد. صاروا حشدًا. تجمّعوا على نحوٍ عشوائيٍّ، كما تتجمّع الدجاجات والبطات والخنازير والكلاب خلف صاحبها. هكذا سارت الأمور وهكذا سار العالم. صحيح أنّ أبي كان مسرّمًا لكنّه لم يكن مثل البقيّة، كان في حلمه سيّدًا. كان في حلمه إمبراطورًا لا محض سائر. وفي غضون برهةٍ لحق به مزيد من المسرّمين. وكلّما صادف أحدًا نادى عليه وأغراه بالمكافات: «إذا أردتَ مالًا فسأعطيك مالًا... إذا أردتَ بيتًا فستنال بيتًا... إذا أردت امرأةً فسأدّلك على امرأة أحلامك إن نقلت معي الزيت!». تجاهله البعض وواصلوا طريقهم إلى البلدة فيما انضمّ إلينا آخرون في طريقنا إلى مخزن الزيت.

صار العدد كبيرًا، صرنا جيشًا. حين وصلنا إلى السدّ ركض أبي كالمستيقظ. قاد المسرّمين إلى الكهف. «عرفتُ كيف أجعل الناس ينقلون هذه البراميل! كلما زاد عددنا أنجزنا الأمر قبل فوات الأوان! كلما عجلنا في جعل الشمس تشرق أنقذنا البلدة وأهلها قبل فوات

الأوان!». سمعتُ ذلك وأنا أسير إلى السدِّ. كلما تقدمت رأيتُ أناسًا يتجولون ويذرعون الطريق ذهبًا وإيابًا. «أتريد المال؟ مقابل كل برميل تنقله من جانب السدِّ الغربي إلى الشرقي سأعطيك خمسين يوانًا... أنت نائم أم لا؟ إذا كنت تريد للشمس أن تشرق فتعال ساعدنا لنقل البراميل! وإذا كنت تريد أن يبقى الظلام مخيمًا على السماء إلى الأبد فابق هنا تتسكع في العتمة ولا تلقِ بالآل شيء!». وقفتُ على حافة الطريق غربي السدِّ. الطريق الموحد أشبه بقماش رمادي مفروش تحت أقدامنا. من هناك بدا كلُّ شيء غارقًا في الظلام؛ القرية والبلدة والأشجار. ضوء خافت يجوب سماء البلدة، كأنَّ نيرانًا اندلعت فيها. تصادمت الصيحات والصرخات في الفضاء ما يوحى بأنَّ جيشًا قادمًا لا أحد يعلم من أين. الصراخ اخترق ظلمة الليل اختراق السهام. كانت مياه البحيرة التي تصبُّ في السدِّ زرقاء صافية تتلألأ بوهج أخضر داكن ما لبث أن ذاب في عتمة الليل. بدا الليل ساحرًا. والسماء بدت ساحرة أيضًا. شعرتُ بأنني شجرة بين الأرض والسماء، أو حفنة عيدان عشبية. سحرُ السماء والليل غمر كلَّ شيء. لكنَّ هذه السماء ما ارتفعت لولا تلك الشجرة ولولا تلك الحفنة من العيدان. أضواء متألثة في كلِّ مكان كأنَّ الليل طافحُ بالأشباح والأرواح. وكلِّما لمحتُ وميضًا يقترب من الجسر وقفتُ وناديت: «أنت نائم أم لا؟... إذا كنتَ يقظًا فهل تريد بيتًا وقطعة أرض؟ هل تريد للشمس أن تشرق؟... إذا كنتَ نائمًا فهل تريد أن تكسب المزيد من المال أم تريد دخول البلدة كي تسرق منها بعض الأشياء وتعرض نفسك للخطر والضرب والموت؟... لقد هربنا بأعجوبة من تلك البلدة ورأينا ما رأيناه... كثيرون جاؤوا ولم يسرقوا شيئًا لكنهم

تعرضوا للضرب المبرح، رأينا أنوفًا مكدومة ووجوهًا متورمة وأطرافًا مكسورة، وشوارع البلدة بدت كأنهار من الدماء... خارج البلدة هناك أكوام فوق أكوام من المصابين والمشوهين، ليس فيهم إلا النادمون، ليس فيهم إلا الذين يكون ويصرخون، بجراحهم النازفة، يحلمون بالعودة إلى بيوتهم...».

مكتبة

t.me/soramnqraa

بعضهم أتى.

بعضهم لا.

أحد المستيقظين جاء وسألني عما إذا كنتُ مسرنيًا، فأخبرته أنني على العكس تمامًا والدليل هو صراخي على هذا النحو. «يا لها من نكتة! كيف لمستيقظ أن يدعي قدرته على جعل الشمس تشرق؟ هل كنت لتدعي أن بوسعك ردّ ضوء النهار؟»، انصرف المستهزئ متبخترًا. فصرختُ في وجه ظلّه المبتعد: «لن أجادل ذلك... انتظر تر... انتظر فحسب تر!». وقف الحالمون حولي. عددهم عشرة أو أكثر، بل عشرات، جميعهم واقفون، واقفون وقوف الأبطال. على أهبة الاستعداد لمرافقتي إلى الكهف للمساعدة على نقل براميل الزيت. كانوا سيساعدوننا على جعل الشمس تشرق، على ردّ الليل نهارًا.

عشرات المسرمنين كانوا. قدّتهم جميعًا إلى الكهف.

3. (6:00-6:00)

بينما كنتُ أجنّد المسرمنين وصل جارنا. وصل العمّ يان؛ الكاتب. لقد سمع صرخاتي من بيته. يا له من رجل استثنائيّ، لكنّه بدا تائهاً

في حلمه مثل خروفٍ ضلَّ قطيعه أو مثل قطٍّ أو خنزير أو كلب ضلَّ مأواه. بطوله البالغ مترًا وسبعين سنتيمترًا، في الليل الحالك، بدا كسمكة شبوط جريحة. كان يرتدي صندلًا جلدًا وسروالًا فضفاضًا وقميصًا مجعدًا. وجهه مسطح بسبب وضعية النوم، كأنه ضرب بمطرقة. وجهه وجسمه كانا مسطحين. حتى قلبه كان مسطحًا.

سلك الطريق من الجانب الغربي للسدِّ. في يده مصباحٌ أشبه بعيني سمكة ميتة تحدّقان في العالم. «ما خطبك؟... لماذا كنت تصرخ في هذا الوقت من الليل؟». سلَّط المصباح على وجهي وجسدي. سلَّط الضوء على كلماتي، كأنه يتفحص حجرًا قد يكون ثمينًا. حدّقتُ في ضوئه دون أن يرفَّ جفناي: «أيها العم يان! أنت نائم أم مستيقظ؟ هل تريد أن تشرق الشمس أم تريد أن يبقى هذا الظلام مخيمًا إلى الأبد؟ البلدة غارقة في فوضى الجنون أصاب الجميع. البيوت والمتاجر مُهبت. أتعلم ذلك؟ الشوارع ملأى بالدماء والصراخ! الأرض مغطاة بالأشلاء! أتعلم بذلك؟».

اقترب. ثم توقف. راح يحدّق إلى البلدة، إلى السماء الحارقة؛ إلى أعماق السماء.

«كم الساعة الآن؟ لماذا طال الليل إلى هذا الحدِّ وكأنَّ الشمس ماتت؟ هل تحوّلت البلدة حقًا إلى ساحة معركة؟ هل بوسعك حقًا جعل الشمس تشرق؟ هل يمكنك حقًا أن تستبدل بالليل المظلم النهار المشرق؟».

رنا إلى السماء، ثم إلى الأرض. أخيرًا، نظر إلى قرية غاوتيان، القابعة في الأسفل. لم أعرف كيف استطاع أبي، وهو يحلم، أن يحشد كل هؤلاء

المسرمنين لنقل البراميل من الكهف. كيف استطاع ذلك؟ خرجت أول مجموعة من المسرمنين يدحرجون براميل زيت الجثث، وتلتها مجموعة أخرى. تبعوا أبي، الذي كان يحمل فانوسًا ويرشداهم إلى الطريق. تصاعد هديرُ البراميل المتدحرجة التي جرَّت في أعقابها سوادًا غطَّى أرضَ ذلك اليوم الصيفيَّ وسماؤه. كان الهديرُ أشبه بريح تعصفُ بالظلام، ريح باردة أو ساخنة. في أثناء صعود المنحدر كان تنفّس الرجال خشنًا ولاهثًا، ثقیلاً وفيه صرير كصرير حبالِ القنّب. ولكن عندما وصلوا إلى القمة المستوية، قلَّ الجهد المبذول وصارت أنفاسهم منتظمة. وحين تدحرجت البراميل على الطريق الموحد تلاشت قرقة البراميل المعدنية وحلّت مكانها جلبة خفيفة. في هذه الأثناء، كان الزيت داخل البراميل سميكًا ولزجًا في البداية، ولكن بعد دحرجتها برهة، زادت سيولته وصار بالإمكان سماع صوت ارتطامه في الداخل. كان هناك موكب طويل من عشرات البراميل التي يدفعها عشرات المسرمنين. «اتبعوني! هيا!». كان أبي في المقدّمة، يصرخ في حلمه، مثل رجلٍ يقود سيارته في الظلام وعينه مفتوحتان على مصراعيهما، أو كأنّه جنرالٌ يقود قواته في حملة ليلية. خلفه كان المسرمنون والبراميل مثل عربات خلف قاطرة. مثل موكب هادرٍ يسير بلا التواء. سرعان ما صعدوا المنحدر الأخير ووصلوا إلينا. «دحرجوا هذه البراميل إلى شرق السدِّ وسأعطيكم ما تريدونه من مال... عندما يیزغ الفجر سيكون كلّ من ساعد في نقل هذه البراميل بطلاً حقيقياً! هيا! أسرعوا! كلّما عجلنا في جعل الشمس تشرق خفّفنا إراقة الدماء في غاوتيان! يا أنت! عجل! أنت تعرقل الذين خلفك! بسبك قد يُذبح رجلٌ آخر في شوارع غاوتيان!».

كان أبي في المقدمة يصيح بالمسرّنين، وبالسّماء. مرّوا أماناً وهم يدحرجون براميل الزيت. تبعوا أبي، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، ودحرجوا برميلاً تلو آخر من زيت الجثث من الجانب الغربي للسّدّ إلى الجانب الشرقي. كأنّ قطاراً من عربات السكك الحديدية المحملة بالزيت يمرّ مدوّياً. كان هذا الليل النهاريّ حالك السواد، والماء بين صافٍ وعكر. كان الجوّ خانقاً ولكن به بعض النسيم. للزيت رائحة كريهة دهنية امتزجت برائحة الصيف الدافئ، كما لو أن دهناً سُخّن على موقد وذاب. لم ينبس أحد بكلمة، ولم يتوقف أحد للراحة. لا شيء سوى المسرّنين الذين انشغلوا بدحرجة البراميل، أعينهم تحدّق في الفراغ. مرّوا بنا يضحّجون مثل قطع من الثيران والخيول الخشبيّة⁽¹⁾ المدججة بكميات هائلة من الزيت. الصوت الذي كانوا يصدرونه تلاشى تدريجيّاً، بهدوء، كما تتغيّر الفصول.

«أي نوع من الزيت هذا؟»، سألني العمّ يان.

«مجرّد زيت».

«زيت ماذا؟»

«زيت التشحيم الذي يستخدم في السّدّ وزيت الطهو أيضاً».

«آه... حسنٌ...».

اختتم كلامه على هذا النحو وهو يشاهد موكب المسرّنين الذين يدحرجون البراميل. كان بينهم رجل في الستينيات من عمره بدا كمن

(1) إشارة إلى قصة أسطورية عن تشوغ ليانغ، الذي خدع بدهائه جيوش العدو عبر ثيران وخيول خشبية استخدمها لنقل الإمدادات.

يحاول زحزحة جبل بأكمله. اندفع العمّ يان لمساعدة الرجل العجوز وبذلك انضمّ هو أيضًا إلى موكب المسرّمين، موكب من سيجعلون الشمس تشرق. حين وضع يده على البرميل بدا كأنه يتلمّس حلمًا، يتحمّس ملمسه ودرجة حرارته، كأنّه يتأكّد بيده من حقيقة هذه الأشياء. كانت السماء سوداء عابقة.

كان العالم صامتًا على الرغم مما فيه من ضجيج كامن. شكّل السدّ والجبال والقرى والأشجار كتلاً سودًا في الظلام. أشعة الضوء القادمة من البلدة تتلألأ هنا وهناك. استمرّ رنينُ صرخات القتل، تشقّ الهواء وتخرق آذاننا، في حين كانت القرقة المتلاشية للبراميل المتدحرجة تشبه صوتَ صرير الأسنان في أثناء النوم.

4. (9:01-9:30)

على هذا النحو، نقل المسرّمون براميل زيت الجثث كلّها إلى شرق السدّ. أنجزوا سبعة أشواطٍ أو ثمانية، لا أتذكّر العدد بالضبط. ربّما ثمانية أو تسعة. ومهما يكن فقد دحرجوا البراميل كلّها إلى القمّة هناك. وبعد أن وضعوا البراميل هناك، استدأروا ووجّهوا أنظارهم للأسفل، نحو غاو تيان، ثم أنصتوا. رأوا الأضواء الواضحة. بدا أنّ المعركة تتراءى لهم، كأنّهم رأوا وقوع الجرحى وتصبّب الدماء. سمعوا صرخات الغضب والأنين. امتقعت وجوه المسرّمين، صارت شاحبة كالزهور البيض التي يبيعهها متجر العالم الجديد لأهل الفقيد. أعينهم الناعسة غزاها القلق. عضلات وجوههم ارتعشت وتشنجت. العرق غطّاها،

وغطى تعابير الرعب عليها. بدا عليهم الذهول والحيرة وهم يحدقون إلى الأمام. تبعوا أبي وقلدوه وهم يتمتمون:

«هل ستشرق الشمس؟ هل ستشرق الشمس؟».

«فلنجعل الشمس تشرق بسرعة! فلنجعل الشمس تشرق بسرعة!». اندفعوا وراء أبي يدحجرون براميل الزيت إلى القمة. كلهم توقُّ لجعل الشمس تشرق. لم يعد أبي مضطراً إلى الصراخ. من تلقاء أنفسهم دفعوا البراميل بسرعة الريح وسهولة الآلات. كانوا كسرب إوز بري؛ إذا وثبت الإوزة التي في المقدّمة تبعها البقية لا محالة. كانوا كقطيع البهائم الراكضة بلا توقّف.

على القمة الشمالية الشرقية فوق السدّ ترسبت طبقات التربة على نحو كثيف يكفي لدفن أجيال وأجيال من أهالي القرى المجاورة. في الأصل كانت تلك البقعة حفرة. حفرة بحجم واحد مو. ولكنها رُدمت تدريجياً مع مرور الوقت واستوطنتها الأشجار والأعشاب البرية والحيوانات كالقطط والكلاب. لم يكن أحد يقصد ذلك المكان إلا حين يموت خنزير فيرمونه هناك. أمّا في هذه الأيام فموت الخنازير بسبب المرض صار نادراً ولم تعد تلك الحفرة ذات فائدة. كان أبي يعلم بأمورها، لا أعرف كيف. في الماضي، حين تشاهد شروق الشمس في غاو تيان، كان يبدو لك أنّ الشمس تخرج من تلك الحفرة. كان انبثاق النهار يبدأ منها. في الشتاء تخرج الشمس من أحد جانبي الحفرة وفي الصيف من جانبها الآخر. لذا طلب أبي إليهم أن يُدحرجوا براميل الزيت ويضعوها حول تلك الحفرة. وفي أثناء انهماك المسرّنين بجلب المزيد من البراميل،

كان أبي يفتح الأغطية بكمّاشة ويسكب كلّ ذلك الزيت الأسود مباشرة في الحفرة. برمّيل تلو برمّيل. حتى صاروا مئة برمّيل أو أكثر. صُبَّت محتوياتها كلّها في الحفرة. في بادئ الأمر كان السائل أسود عكرًا فبدت الحفرة ملأى بالوحل الأسود، ولكن مع إضافة المزيد من الزيت، اكتسب السائل الأسود وهجًا بنيًا، وتحت ضوء المصباح ظهرت الحفرة أشبه ببحيرة زرقاء مخضرة. البراميل المجلوبة أحاطت بالحفرة، حتى إن بعضها سقط فيها مُصدرًا صوت خرخرة وكأنّ مئات النوافير تتدفّق داخل الحفرة. قُذفت البراميل الفارغة جانبًا وبدت كجذوع أشجار مقطوعة لا حصر لها. بدا الأمر كأن حقلًا من الفطر العملاق غزا الجبل بين عشية وضحاها. وهكذا تبين أن بوسع الحلم أن يحقق أحداثًا خارقة. وأنّ بوسع الناس، خلال الحلم، أن ينجزوا إنجازات هائلة.

نُقلت البراميل كلّها.

صُبَّ الزيت كلّهُ في الحفرة.

كان طول الطريق المفضي من الجانب الغربي للسدّ إلى قمة التلّ يبلغ عشرات الأمتار، وقد سُحقت كل النباتات النامية على جانبيه بفعل سيل البراميل التي تدرجت فوقه. تُلطخ العشب بالزيت، ما جعله يبدو امتدادًا من الإسفلت. تبين تحت ضوء المصباح أنّ مسار العشب والإسفلت هذا، الممتدّ نحو القمة الشمالية للسدّ، أشبه بخصلات الشعر المُمشطة للخلف. رائحة العشب المسحوق امتزجت برائحة زيت الجثث وملأنا الأرض. كان العالم بأسره عابقًا برائحة الزيت وعرق الرجال وفوضى الظلام. عاد الجوُّ حارًّا مرة أخرى. الظلام

الدامس استثار الرجال إلى نقطة الغليان. تلتطّخ زجاج الفوانيس المعلقة على الأشجار المحيطة بالحفرة بآثار الماء والرماد، وكان الضوء الصادر عنها يخفت تدريجيًّا كأنَّ العتمة تزداد تشبّعًا. بجانب الحفرة ثمة عدة أشجار صفراء وزنزلخت. هناك أيضًا شجرتا توت بجذوعٍ ثخينة. في ضوء الفوانيس، بدت أوراق هذه الأشجار سوداء ذابلة. وبدت الحشرات التي ما تزال متشبّثة بهذه الأوراق كأنّها تمدُّ رؤوسها للنظر إلى الرجال والفوانيس.

ضوء الفوانيس هذا جعل ظلال الأشجار تمتدُّ بعيدًا في الأفق. كما ظلال الرجال أيضًا.

وفي الحفرة الشبيهة بحقل، كان عمقُ الزيت يغمر فخذ رجلٍ أو ربّما يصل إلى خصره. تنبعثُ من الزيت الأملس واللزج، المتألّئ بومضات سود، رائحة حمضية. إذا انحنيت قليلًا للأمام رأيتَ بريقًا شبيهًا بحراشف السمك. استغرق نقل البراميل ساعتين أو ثلاث. بعدها استلقى الجميع بجانب الحفرة وغطّوا في النوم. أحد الرجال تهاوى بجانب آخر برميليٍّ دحرجه ونام. وآخر توقّف في طريقه إلى الحفرة ونام قبل أن يبلغها وكان شخيره كقرقعة البراميل إذ تتدحرج على الطريق. أحد الرجال ثرثر قليلًا حين انتهى ثم فرك يديه بأوراق العشب. لم ينسَ أنّه جاء لأجل المال، «أين الخمسون يوانًا عن كلّ برميليٍّ؟!... أين البيت الذي وعدتني به؟!...». تدلّت هذه الأسئلة من شفّتيه كأوراق الشجر أو كأعشاب برية تغزو الأرض. لكنّ النعاس غلبه حتى وهو يسأل. خفت صوته حتى اختفى،

غطّ في نوم عميق. وحول حفرة الزيت ركض أبي يخبر الجميع عن التعويض الذي سيتلقونه. «سأعطيكم أموالكم على الفور... بمجرد أن تشرق الشمس سأعطيكم أموالكم...». حين أجاب عددًا من الأشخاص على ذلك النحو، لم يجرؤ أحد على سؤاله عما وعدهم به من مال وبيوت. بل استلقوا واحدًا تلو الآخر وناموا. عادوا من حالة السرنة إلى حالة الأحلام العادية. أمّا أبي فظلّ مسرّنًا. كان مسرّنًا حالمًا على الرغم من أنه يجري ذهابًا وإيابًا بين هذا الحشد، يمسك البراميل الفارغة ويرميها بعيدًا. لم يعد يلقي بالًا لهؤلاء الذين نقلوا البراميل ولم يعد بحاجة لتكرار وعده بالخمسين يوانًا عن كل برميل. أو بأنّه سيمنح بيتًا لمن ينقل ثلاثة براميل أو متجرًا على جانب الطريق لمن ينقل عشرة. راح يدفع البراميل الفارغة وهو يركض ويتحدّث إلى نفسه. بدت حماسه أشبه بشيء من أوبرا مجنونة.

«بوسعنا إشعال نار! وحينها ستشرق الشمس!».

«بوسعنا إشعال نار! وحينها ستشرق الشمس!».

في تلك اللحظة أدركتُ أن أبي غارق في حلم عميق. كان مستيقظًا طوال الليل يركض ويصرخ، ولا بدّ أنّه منهك وعلى وشك النوم حالمًا يجد متكأً لرأسه. على الرغم من أنّه نائم فقد بقي رأسه منتصبًا وظلّ يركض بلا توقف. خيّل لي أنه بمجرد إشعاله الزيت في الحفرة، سينتهي كلّ شيء، وسيستلقي وينام، وحتى لو كانت النار تلامس جسده وتحرقه بلهبها المميت، فلن يستيقظ من نومه.

ركضتُ خلفه كي أحميه من الاحتراق حيًّا.

خشيت أن يسقط في النار بعد أن يوقدها.

في تلك اللحظة حدث شيءٌ أذهل المسرّنين والحالمين. فما إن نقل أبي آخر برميل فارغ من حافة الحفرة وفرك يديه ببعض العشب الجاف حتى التفت وصرخ: «الشمس على وشك أن تشرق!... الشمس على وشك أن تشرق!...». كاد أبي يمسك فانوسًا معلقًا على شجرة كي يشعل بناره الزيت، وإذا بيان ليانكه يخرج من بين الحشد ويقف أمام أبي وقد تلوث كامل جسده بالزيت وبات وجهه يلمع. هل كان يدرج برميلًا حتى بات بهذه الحالة؟ أم إنه ساعد أبي على إفراغ البراميل في الحفرة؟ لا أعرف. مهما يكن فقد كان يان واقفًا أمام أبي مثل سحابة مظلمة تحجب شمسًا على وشك الإشراق. وقف على بعد خطوة واحدة من أبي وقال بعض الأشياء، أشياء مزلّلة حقًا.

«إذا أوقدت النار في هذه الحفرة فسيظهر اللهب فحسب. أما إذا كنت تريد للنار أن تبدو مثل الشمس فعليك أن تحول هذا السطح المستوي إلى كرة، كرة عملاقة من النار. لقد فكرتُ في الأمر مليًا، وعثرت على الحلّ الوحيد: دُقّ وتدًا وسط الحفرة وضع عليه كومة من القشّ المنقوع بالزيت، بحيث يشتعل القشّ حين تضرم النار في الحفرة فيبدو من بعيد ككرة من نار؛ كشمس مشرقة».

وقف أبي بجوار حفرة الزيت. كان الآخرون بين مقرصي أو راقدي على العشب. تمدّدوا كحزم القشّ أو كبراميل مقلوبة. تحت ضوء المصباح بدا كلّ شيءٍ مظلمًا وضبابيًا؛ ظلال الأشجار والعالم بأسره. وقفتُ في بقعة مرتفعة من الأرض، بجانب العمّ يان، وتمنّعت في ملامح وجهه.

ثم نظرتُ إلى كتفه فبدت لي ترقوته كضلع أصفر ذابل. وجهه أشبه بضوء المصباح الأصفر، يتلألأ كشعلة حمراء ويموجُ كقطعة حرير، كأنه يخفي شمسًا وراء هذا الوجه. حدّقتُ إليه وفكرتُ فيما قاله. تحرّكت عنياه مثل كرتين ناريتين تحترقان وتدوران داخل وجهه. راح أبي يبحث عن شيء ما بين النائمين. جلب بعض القشّ ووقف أمام يان. لاحظ فجأة أن النائمين الغارقين في أحلامهم خلعوا ملابسهم الملطخة بالزيت وبعثروها هنا وهناك. ابتسم أبي سعيدًا، كمن عثر على مفاتيح بيته أو كطفل يجد شيئًا فقدّه غيره. أو كما حدث ذات مرة حين وجدت محفظة أسقطها أحدهم في طريقي إلى السوق فالتقطتها وأخفيتُها بعد شيء من التردد.

بقي أبي صامتًا، صمتٌ طويلًا، صمتٌ دهرًا. أخيرًا حوّل نظره عن جسد يان نحو حفرة الزيت. كان سطحها هادئًا مستويًا، كقطعة حرير سوداء كبيرة تتلألأ في الضوء. ارتمت ظلال الأشجار والناس على سطح الزيت. وفي البداية كانت رائحة الزيت خانقة، ولكن بمرور الوقت باتت مألوفة. ليس في علم أحدٍ أن هذا الزيت جاء من البشر، من حرق الجثث في المحرقة على مدار أكثر من عشر سنوات. كنت الوحيد الذي يعلم ذلك. أنا وأبي فحسب. لكني لا أتذكر إن كنت في تلك اللحظة مستيقظًا أو نائمًا أو مسرّنًا كأبي. أعتقد أنني كنتُ مستيقظًا، ولكن إن صحَّ ذلك فكيف سمحت لأبي بارتكاب هذه الحماقة؟ فالحق والكلاب والخنازير والطيور والدجاجات وكلّ الحيوانات الأليفة الأخرى تعلم أن ما فعله أبي لا يصحّ. لقد كنت طفلًا أحمق في نهاية المطاف. وعلى

الرغم من يقظتي تركت أبي يكمل خطته. تركته يفعل الشيء الذي كان بأمر الحاجة لأن يفعله، والذي، في الوقت ذاته، ما كان ينبغي له فعله. في غاو تيان الواقعة عند سفح التلّ ظلّت الأضواء تومض عشوائياً. الصوت المنبعث من هناك بدا ملحاً وفوضوياً ومُبهمًا. حوض مياه من جانب والقرية من جانب آخر. من خلفنا المجمع السكني الخلاب حيث بيت خالي، المضاء بنور ساطع لكنّه صامت. ماذا يحدث فيه يا ترى؟ من يلقي بالآل لذلك أصلاً؟ من يدري عن ذلك المجمع؟ من لديه الطاقة للتفكير فيه حتى؟

الحفرة الممتلئة بالزيت كانت على وشك الاشتعال.

ستشرق الشمس من هذه الحفرة.

ضوء النهار سيبدّد الظلام.

نظرت إلى أبي وإلى كتف يان الذابل. كان يرتدي قميصاً لكنني لم أعرف أين اختفى. مهما يكن فقد بات عاري الصدر، ملطّخاً بالزيت، ولم يكن أحد ليخمن من مظهره أنه كاتب بارز. كان مسرناً أيضًا.

لم تختلف حاله عن أي شخص آخر. شعره شائب وعينه نصف مغمضتين، يتنفس عبر فمه لا أنفه. «كم الساعة الآن؟». «لا أذكر أين تركت الراديو». لو أنّ هذا اليوم يومٌ عاديٌّ لكان الصباح قد أشرق منذ فترة ولكانت الشمس قد شارفت على بلوغ ذروتها. ولكن لم يكن من الممكن رؤية أي شيء، كما هو الحال عندما ننظر إلى البحر في منتصف الليل. لقد مات الزمن، ماتت الشمس. لكن الشمس ستعود لها الحياة

الآن. وقف أبي ويان يتبادلان النظرات، وبدأ أُنهما لا يريان بعضهما بعضًا حقًا. كلاهما حالمٌ، كلاهما مسرّنٌ، كلاهما غارقٌ في أحلامه، يفكران في هواجسهما. أحاط بهما صوت أنفاس النائمين وتثاؤبهم. من الأمام ومن الخلف، عمّ صوت الشخير وصوت الذين يتحدثون إلى أنفسهم. وبمعزل عن هذه الأصوات فقد كان العالم ساكنًا للغاية؛ كلّ ما تحت السماء ساكنٌ سكونًا مطبقًا. وعلى بعد عشرات الأمتار من الحفرة ثمة حقلٌ ينبعث منه فحيح. ربّما كان ثعبانًا تسلّل من الأجراس. أو ربّما كان الصوت ضُباحَ أرنب بريّ. كان للصوت وقع حجرٍ يسقط في حفرة الزيت. تغلغل صوت الشخير والهدرمة في الليل المظلم وانسلّ إلى حفرة الزيت التي يبلغ حجمها واحد مو تقريبًا. حفرة الزيت ساكنة للغاية. الجبال والحقول والقرى المحيطة بالحفرة في سكون تامٍّ يوحي بأنّ الشمس والزمن قد ماتا. بجوار هذه الحفرة، كان صوتُ أنفاس أبي، عبر أنفه، كطين يعسوب يحوم في الجوّ. أما يان فتتنفّس عبر فمه الذي يشبه الجزء العلوي لزوجاة صلصة صويا أو بثرًا مكشوفًا بجوار الطريق. وظلّا واقفين هناك، صامتين، فترة طويلة جدًا؛ فصلًا كاملاً، سنة كاملة، لكنّها كانت ومضة خاطفة فحسب. فجأةً احمرّ وجهُ أبي وتبيّس. وتحت احمراره القاسي، نبض أحد أوردته على نحو مرئيّ.

«أيّها الأخ يان، هل تنوي كتابة رواية عما حدث طوال هذه الليلة؟».

همّ يان بالردّ لكنه تراجع.

«أعلمُ أنك ستفعل ذلك. قصة كهذه تحدث مرة واحدة خلال ألف

عام!».

ابتسم أبي دون أن يعقب. ثم اقترب من الشجرة ورفع عددًا من الفوانيس المعلقة عليها كأنه يحاول تقدير مدى ثقل كل منها. اختار فانوسًا ثقيلًا وأحضره. ومثل طفلٍ ركل حذائيهِ في حفرة الزيت، واحدًا تلو الآخر، ولاحظ أنها غرقا دون صوتٍ أو طرطشة كما يحدث حين ترمي حجرًا في بركة ماء. بل على العكس تمامًا، ابتلعها الزيت الكثيف اللزج بسرعة خاطفة. ثمّ قطف أبي بعض الشيح ولفّه إلى جانب حزمة كبيرة من أغصان الشجر وشيءٍ من ملابس المسرنمين وضمّ كلّ هذه الأشياء إلى صدره. وكمن ينتقل إلى بيت جديد، حمل كلّ هذا مع الفانوس وجاء به إلى حافة الحفرة.

ولسببٍ ما، إمّا لأنني أحق وإما لأنني غفوت في تلك اللحظة تحديدًا، راقبتُ أبي كما يراقب المرء مشهّدًا في حلم. كما يراقب المرء شخصًا مسرنمًا. لقد سيطر عليّ الحلم. بثّ ذلك المسرنم فيّ رعب الموت. بدا الأمر كأنني في سريري أحلم ويدي على صدري. أردت أن أحرّك يدي لكنني لم أقو وفشلت محاولاتي. أردتُ أن أحذر أبي لئلا يقترب من تلك الحفرة لكنني لم أستطع فتح فمي على الرغم من محاولاتي. كان أبي على وشك القيام بإنجاز عظيم. كأنّ بوسع الحلم أن يحقق أشياء عظيمة. كأنّ بوسع المسرنمين تحقيق المستحيل. نزل أبي إلى الحفرة حاملاً كلّ تلك الأشياء. هبط خطوة خطوة، كان زيت الجثث لا يبلغ مستوى ركبتيه في بعض الأماكن في حين يغطي فخذيه في أماكن أخرى. أيقظت الأغصان التي تحدش سطح الزيت رائحةً نفاذة كريهة فاحت نحو الجبال، وملأت العالم. لم أعرف ما الذي أراد أبي فعله. حتى يان الغارق في دھولٍ حالمٍ لم

يعرف ماذا يفعل أبي. في الواقع لم يكن أحد -بمن فيهم أولئك النائمون والمستيقظون والحالمون- يعلم ما ينوي أبي فعله. كانت السماء رمادية وقائمة وملبّدة، كذلك الأرض، وكذلك الناس.

«ماذا تفعل يا أبي؟».

صرخت كأنني قضيت اليوم بأكمله أركض كي أصل إلى البيت، وحين صرت عند الباب لم أرَ والديّ.

التفت أبي نحوي وقال شيئاً ليس بمقدور أحد في العالم أن يفهمه. «الآن نسدّ ديوننا يا نيان نيان! وحين تكبر أنتَ فستكون عائلتنا غير مدينة بشيءٍ قط لكائني من: كان!». كان صوته خشناً وسعيداً مثل نعوة بيضاء فوق قبر، ترفرف بسعادة في مهب الريح.

حدّق يان إلى أبي المبتعد أكثر فأكثر.

«ماذا تفعل؟ أتظنّ أنك ستفلح في مسعاك مع كل هذه الأشياء التي تحملها بين ذراعيك؟».

لا جواب.

كان العالم صامتاً للغاية كأنّه غير موجود. خاض أبي في الزيت حتى منتصف الحفرة. وقف هناك ثم أخذ الأعشاب والأغصان والياب التي بحوزته وغمسها في الزيت. أخيراً، كما لو أنّه يستحمّ، انحنى وأخذ يرشّ الزيت على كامل جسده. بعدئذٍ انتقل إلى مكان يصل فيه الزيت إلى مستوى فخذه فجلس القرفصاء حتى غمر الزيت رقبته ثم وقف من جديد. سار جيئةً وذهاباً في الزيت حتى صار رجلاً من زيت. بدا كأنه يبحث عن شيء ما، يحاول العثور على شيء ما في

الزيت بقدميه. وأخيرًا، نجح في العثور عليه -ربما حجارة أو كومة تراب- فصعد عليها ببطء حتى وصل الزيت الآن مستوى قدميه. وضع الأعشاب والأغصان المغموسة بالزيت من حوله، ثم انتصب ونظر في اتجاهنا.

نظر إلينا برهة من الوقت ثم فتح غطاء الفانوس.

«حين تكتب روايتك أيها الأخ يان، فأرجو منك، على الرغم من كل شيء، أن تجعلني شخصية خيرة!».

هذا ما صرخ به أبي. كأنه مستيقظ تمامًا. بعدها راح يصبُّ زيت الفانوس على الأغصان والأعشاب المشبعة بزيت الجثث أمامه، ثم وضع الفانوس هناك. لم تُسمع فرقة إذ إنَّ النيران اندلعت فجأة، مثل ستار كبير من حرير أحمر يحجب وجه أبي. لم أعِ ما كان يقوم به والدي، لكن يان ليانكه كان على دراية بذلك، فصرخ مرتعدًا، كأنه استيقظ فجأة من حلمه.

«هل جُننت يا تيان باو! أنت مسرّنٌ أم مستيقظ؟».

قفز يان إلى حفرة الزيت.

لكنه لم يخطُ سوى خطواتٍ قليلةٍ حتى انفجرَ لهيبٌ هائلٌ وسط الحفرة. توقّف يان ونظر مشدوّهًا. رأى أبي الذي كان جسده مغطى بالعشب والأغصان والثياب كأنه كرة نارٍ حيّة، رآه وسط الحفرة يتهايل للأمام والخلف، يحاول الاقترابَ من الحافة، متظاهرًا بالهربِ من اللهيب. وسمع أبي يصرخ في عذاب:

«أنا مستيقظ!... أنا مستيقظ!...».

وبعد هذه الصيحات، توقّفت كرة النار التي هي أبي عن تقدّمها. توقّفت لحظة؛ لحظة تعادل عمر أبي بأكمله. ثم عاد فصعد فوق ذلك المرتفع الصغير في أرضية البركة، فتكوّر اللهب من جديد وارتفع أكثر فأكثر. لم يتحرّك أبي ولم يصرخ. وقف هناك، صامتًا، يحفّ به اللهب، ملتهماً الأغصان والأعشاب والملابس من حوله. ترك النار تلتهم ما في طريقها إليه. اضطربت نارٌ هائلةٌ وسط الحفرة، كانت في البداية بحجم حصيرة ثم امتدّت وأصبحت بحجم بيت كبير. وفي لمح البصر، غطّت الأغصانَ والوالدي، كعمودٍ ملتهبٍ، يرتفع نحو السماء وينتشر في الأرجاء. لهبٌ أزرق وأحمر، ما إن اخترق الزيت حتى اصفرّ، مشكّلاً كرةً ذهبيةً ضخمةً. وفي قلب تلك الكرة وقفَ والدي، كبرج متوهّج في مركز العالم، يتمايل، يترنّح، لكنه لم يسقط.

«لقد طلعت الشمس! اذكرني في روايتك ذكرًا حميدًا!».

أذكرُ أن هذا آخر ما صرخ به أبي بينَ السنة اللهب. لا أعرفُ إن كان يقظًا أم يتكلّم في نومه. اخترق ذلك الصراخُ الهواءَ كسكينٍ، وطعنني طعنةً أخرجتني من ذهولي. حينَ هممتُ بالقفزِ إلى البركة أيضًا، دفعني يان -الذي كان قد تراجعَ خوفًا من النيران- بعيدًا عن الحافة. لقد كان مستيقظًا تمامًا، في حالة صدمة شديدة، مدهوشًا ممّا يجري. كوّر يديه حول فمه وأخذَ يصرخُ في الناس الذين تجمعوا حول البركة: «يا إلهي!... يا إلهي!...». ثمّ نظرَ إلى النارِ التي كانت تتمدّد، وانفجر بصراخ مبحوح، كالمجنون، تمامًا كما فعل والدي من قبل:

«اركضوا إلى السدّ!... بسرعةٍ إلى السدّ!».

أولئك الذين كانوا نائمين على الضفة استيقظوا فجأةً. نهضوا وتسمّروا يشاهدون اللهيب. نصفُ البركة أصبحَ كرةً من نار، ثمّ صارتِ البركةُ بأكملها شعلةً هائلةً. ومن أعماقها، كانت تندفعُ موجاتٌ من الهواءِ الحارّ كأمواجِ التسونامي.

«اركضوا إلى السدّ!... بسرعةٍ إلى السدّ!».

اندفع الجميع يركضون امتثالاً ليان. انهمرت الخطى والصرخات المذعورة كالطرر على عشب المنحدر. وفي الهواء طفت تلك الرائحةُ الصفراءُ اللاذعةُ للاحتراق مثل رمالٍ تصطدمُ بوجهي وتُركم أنوف الآخرين. فرقة احتراق الزيت البارد امتزجت بصراخ المستيقظين وتردّد صداها إلى أعالي الجبل. تراءى لي وهجُ النار القرمزيّ وقد تسلّل إلى مياه الحوضِ وانعكس على سطح مياهه كانعكاس أشعة الشمس عند الفجر. رماذُ كريشٍ عصافيرٍ أو طيورٍ فينيقٍ يتطاير من حولنا ويهبُّ على رؤوسِ الفارّين وشعرهم ووجوههم. فرَّ الجميعُ إلى السدّ، بكل ما أوتوا من سرعة، كهاريين من موت. ولم يتوقفوا حتى بلغوا الناحية الخلفية من التلّ، حيث لم تصل النار بعد. حين التفتوا أدركوا أن ما خلفهم لم يكن حريقاً، بل شمساً تحوم شرق السدّ، كأنها على وشك الشروق. لألسنة لهيها ارتفاع الأشجار، ارتفاع المباني ذات الطوابق. بدت كنصفِ كرة ملتهبةٍ تحوم عند القمة، كأنها تستعدُّ للقفز نحو السماء، لكنّ التلّ والبركة أمسكا بها بقوة، ولم يدعاها ترتفع أو تغادر تلك القمة.

كانت تلك اللحظةُ كلحظةٍ اقترابِ شمس الشتاء من الشروق.

كانت تلك اللحظةُ كلحظةٍ اقترابِ شمس الصيف من الغروب.

العالمُ يتوهجُ أحمر.

كُلُّ الأرضِ تشعُّ بدرجاتِ الأحمر الساطع.

غُمرت الأشجارُ والأنهارُ والقرى والبيوت والماشية بالضوءِ الساطع، كأثنا كلها من عقيق. ركضنا إلى السدِّ يقودنا يان. فجأةً أحسستُ بالعطش. جسدي جفَّ تمامًا. وددتُ لو أقفز من السدِّ البالغ ارتفاعه مئتي مترٍ، لأشرب ماءً وأغرق. رأيتُ انعكاسَ اللهيبِ على الماء، وتمنيتُ أن يخرجَ أبي قافراً كسمكة. الباقون كانوا يتأملونَ النارَ؛ الشمسَ، أما أنا فلم أرفعَ نظري عن الحوض اللامحدود. لا أعرفُ بماذا كانَ الآخرونَ يفكرون. كنتُ أموتُ عطشاً. جسدي يحترقُ، وأريدُ أن أرميَ بنفسِي في الماءِ لأغرق. شفَتاي تشققتا وحلقتي تشقق وقلبي تشقق أيضاً. أريدُ أن أرميَ بنفسِي في الماءِ وأموت.

عندها انبعثت الصرخات؛ صرخاتٌ عاليةٌ مضطربة.

«لقد أشرقت الشمس!».

«لقد أشرقت الشمس!».

«لقد لاح الصباح! لقد طلعت الشمس من الشرق!».

أتت الصرخات من غرب السدِّ. التفت الجميع نحو ذلك الاتجاه. فإذا بالشمس تضيءُ كلَّ شيءٍ كأنَّه النهار. الضوء يغمر كل شيءٍ؛ القرى والأنهار والجبال والأشجار والمحاصيل والعشب والأزهار والحقول المحصودة وتلك التي لما تُحصد؛ حقول القمح والبقوليات. كلُّ شيءٍ مضاءٌ ومرئيٌّ. في القرية غرب السد، تجمع الناس في الشوارع، يحدقون نحو القمة الشرقية والبحيرة المتوهجة هناك. «لقد أشرقت الشمس!»... «لقد

انقشع الظلام!»... «لقد أشرقت الشمس!»... «لقد انقشع الظلام!»... كانوا يصرخون ويقفزون ويصفقون كالأطفال كأنَّ القرية كلّها، بل العالم بأسره، ليس فيه سوى أطفال يحتفلون برأس السنة الجديدة. في القرى الواقعة عند سفح السد، خرج الناس من بيوتهم وتجمعوا عند مدخل القرية، المغمورة بضياء النهار، وراحوا يقرعون الطبول والأجراس ويهتفون للشمس المشتعلة على القمة الشرقية: «لقد أشرقت الشمس!»... «لقد انقشع الظلام!»... «لقد أشرقت الشمس!»... «لقد انقشع الظلام!»... كانت الصرخات تأتي أمواجًا، كما سنابل القمح التي تتمايل في الحقول في هذا الوقت من العام، أو كزخات المطر حين يُستجاب دعاء المزارعين في أوج القحط والجفاف. غمر الوهج الأحمر للشمس المشرقة فوق الجبال الشرقية العالم كله. انتشر هذا الضوء الصافي الساطع في كلّ مكان.

بعد هذه الصيحات، بدأت ديوك إحدى القرى بالصياح، وسرعان ما انتشر صياحها في كلّ القرى.

ومن مكان ما، تنهى خوار أبقار استيقظت لتوّها، وسرعان ما انتشر خوارها في كلّ القرى.

حينئذٍ عادت الشمس للحياة. عاد الوقت لمجرأه. وصل صياح الديوك وخوار الأبقار إلى بلدة غاو تيان نابضًا بالحياة. وفي الجهة الشرقية كان الناس يقرعون الطبول والأجراس ويهتفون: «لقد أشرقت الشمس!»... «لقد انقشع الظلام!»... «لقد أشرقت الشمس!»... «لقد انقشع الظلام!»... وفجأة اختفى القتال من البلدة وانطفأت المصابيح

فيها. أشرق ضوء الشمس على البلدة، مبدِّدًا كلَّ الظلام الذي عاشته غاو تيان في ليلتها الأخيرة، ذلك الظلام الذي جعل صمت الموت يُخَيِّم على كل شيء. عاد كلُّ شيءٍ للحياة الآن. لقد كابدت غاو تيان حالة أشبه بالموت امتدَّت فترة طويلة من الوقت، غارقة في السكون الذي يسبق انبلاج الفجر. لكنه كان سكونًا غير مألوف؛ ذلك السكون الذي يمتدُّ قبيل الغسق، بعد أن يتلاشى ضجيج النهار. كان سكونًا مختلفًا يشبه ذلك الصمت المميت الذي يعيشه المرء حين يتبادل النهار والليل مكانيهما. عقب ذلك الصمتِ دَوَّت الأصوات؛ أصواتُ عودة العالم والزمن إلى الحياة. لا أعلم ما هو أوَّل صوت كسر الصمت المطبق في غاو تيان؛ ففي البداية سمعت دويًا ثقيلًا خشنًا فحسب، تلاه تهافت الناس وهم يصرخون بجنون نحو التلِّ الشرقيّ:

«تعالوا انظروا! هناك حريق كبير على التلِّ!».

«بسرعة! تعالوا انظروا! الشمس تبدو مثل نار كبيرة!».

خرج بعض الناس من بيوتهم ووقفوا في شوارع البلدة. من السدِّ استطعتُ رؤية الشوارع وقد اكتظت بالناس. الأراضي الواقعة خارج البلدة أيضًا اكتظت بالناس. قرع أجراس ودويّ مفرقات نارية. موجات من التصفيق وصيحات الفرح.

بين حشود البلدة، تراءت لي أُمِّي أيضًا وهي تصرخ وتقفز. كانت أبطأ ممَّن حولها بطبيعة الحال، وكلَّمَا قفزت مالت إلى جانب وكادت تسقط. لكنها سرعان ما تقف من جديد لتقفز وتصرخ.

«لقد لاح الصباح!... لقد عادت الشمس للحياة وأشرقت علينا!».

«لقد لاح الصباح!... لقد عادت الشمس للحياة وأشرقت علينا!». أما الغرباء فقد خرجوا يركضون من البلدة في كل اتجاه، عائدين إلى قراهم. بعضهم بالسيارات وبعضهم بالعربات، مجموعة تلو أخرى، كجيشٍ مهزوم أعزل. كلّ العربات كانت فارغة، كل الأيدي كانت خاوية. ليس في العربات سوى رفاقهم الموتى أو الجرحى. غادروا في وضح النهار، بسياراتهم الفارغة وجرحاهم، يتأملون الشمس الطالعة من الشرق. من بعيد رأينا يأسهم وإحباطهم. رأينا كيف يطاردهم أهل غاوتيان بالعصي والحجارة. لم يدافعوا عن أنفسهم، كأنهم يعرفون أنهم يستحقون ذلك. انسحبوا وهم يحمون رؤوسهم ووجوههم بأيديهم وأذرعهم، عائدين إلى بيوتهم وقراهم بأقصى سرعة.

عاد كلٌّ إلى قريته.

عاد كلٌّ إلى نهار يومٍ جديد.

مكتبة

t.me/soramnqraa

خاتمة: ماذا بعد؟

1

ماذا بعد؟ هذا كُلُّ ما جرى ببساطة.

هذا ما جرى في ذلك اليوم، من ذلك الشهر، من ذلك العام.

أيها المستنيرون... أيّتها الآلهة... أيّها البوذيّون الصينيّون... أيّتها المعابد... يا تشوانغ تري... يا لا وتري... يا كونفوشيوس... لا أعلم كم عدد الذين ماتوا مسرّمين في تلك الليلة ولا عدد الذين ماتوا في العالم. كلّ ما أعرفه هو أن عدد الموتى في بلدة غاو تيان بلغ 539 شخصًا في تلك الليلة. لقد رأيتُ القائمة الكاملة لكنني لا أتذكّر منها إلا هذه الأسماء:

(1) شن تشيوان ده، ذكر، 36 عامًا، ذهب إلى حقله مسرّئًا لدرس القمح، لكنه لمس شريطًا كهربائيًا فضُعِق ومات.

(2) وانغ إر غو، ذكر، 42 عامًا، انخرط في معركة البلدة مسرّئًا فقتل.

(3) هو بينغ تشيوان، ذكر، 80 عامًا، قفز في النهر مسرّئًا فغرق.

(4) يوي رونغ جيوان، أنثى، 67 عامًا. قفزت في النهر مسرّنة فماتت.

(5) تشانغ مو تو، ذكر، 37 عامًا، قضى فداءً لمملكة شون العظيمة وهو مسرنمٌ.

(6) هو ده تشيوان، ذكر، 68 عامًا، شعر بالعطش مسرنمًا فسقط في خزان مياه بيته وغرق.

(7) ما هو تزي، ذكر، 27 عامًا، انخرط في معركة البلدة مسرنمًا فُقُتل.

(8) يانغ غوانغ تشو، ذكر، 45 عامًا، قضى فداءً لمملكة شون العظيمة وهو مسرنمٌ.

(9) نيو دا فنج، ذكر، 30 عامًا، حاول مسرنمًا أن يسرق فُقُتل.

(10) نيو شيوه شيوه، أنثى، 26 عامًا، حاولت مسرنمةً أن تسرق فُقُتلت.

(11) يوي شياو شن، أنثى، 65 عامًا، لسببٍ ما شنتقت نفسها مسرنمةً فهاتت.

(12) ما مينغ مينغ، ذكر، 80 عامًا، اغتصب امرأةً وهو مسرنمٌ فُقُتل.

(13) تشانغ تساي، ذكر، 41 عامًا، تشاجر مع زوجته وهو مسرنمٌ فشنتق نفسه.

(14) غو لينغ لينغ، أنثى، 23 عامًا، ضاجعت مسرنمةً وحين أفاقت دفعها العار إلى أن ترمي نفسها في بئر.

(15) يوي غوه شي، ذكر، 38 عامًا، انخرط في معركة البلدة مسرنمًا فُقُتل.

(16) يانغ دا شان، ذكر، 26 عامًا، انخرط في معركة البلدة مسرئاً فُقُتل.

(17) يانغ شياو جيوآن، شقيقة يانغ دا شان، 16 عامًا، انتحرت حين حاول رجل أن يغتصبها.

(18) ليو دا تانغ، ذكر، 35 عامًا، انخرط في معركة البلدة مسرئاً فُقُتل.

(19) لي تيان باو، أبي، 40 عامًا، أحرق نفسه مسرئاً كي يجعل الشمس تشرق.

(37) ما بينغ، أنثى، 30 عامًا، بعدما مات زوجها مسرئاً قفزت في بئر فغرقت.

(47) تشيان فين، أنثى، 30 عامًا، بعدما غرق ابنها ذو الثلاث سنوات من عمره، قفزت في نهر فغرقت.

(77) لي دا هوا، أنثى، 36 عامًا، عُرفت بلطافتها وكدها، تعرّضت للضرب حتى الموت بعدما حاولت السرقة مسرمة.

(78) سون لاو هان، ذكر، 91 عامًا، في حين كان يحاول إيقاظ المسرمنين، دفعه واحدٌ منهم فمات.

(79) تشوه وانغ تزي، ذكر، 49 عامًا، مدرّس، فجأة بكى بكاءً شديداً وهو مسرّم فمات دون أن يعرف أحد السبب.

(99) تيان تشنغ تشين، ذكر، 52 عامًا، عمدة البلدة، قُتل مسرئاً في أثناء الانتفاضة الشعبية التي قادها لي تشوانغ.

(100) غوه دا غانغ، 48 عامًا، نائب لعمدة البلدة، قُتل مسرئًا في أثناء الانتفاضة الشعبية التي قادها لي تشوانغ.

(101) لي شياو هوا، أنثى، 4 أعوام، دُهِست حتى الموت في معركة البلدة بعدما سقطت من حضن أبيها المسرئم.

(202) سيما لينغ شياو، 48 عامًا، نائب لعمدة البلدة، قُتل مسرئًا في أثناء الانتفاضة الشعبية التي قادها لي تشوانغ.

(303) لي تشوانغ، ذكر، 31 عامًا، كان في الأصل نائب رئيس الجيش، سليل المتمرّد لي تزي تشنغ، قاد انتفاضة شعبية وهو مسرئم وأسس سلالة شون ثم شُنق.

(404) هاو جيون، 27 عامًا، صاحب بقالية، قُتل وهو يمنع المسرئمين من سرقة دكانه.

(505) هاو جيون ون، 67 عامًا، انتحر بعدما رأى موت ابنه.

(506) غاو تشانغ تزي، ذكر، 47 عامًا، صاحب متجر أدوات زراعية، مات مسرئًا لسبب غير معروف.

(507) بلا اسم، طفلة صغيرة، عمرها حوالي ثلاثة أشهر، حملتها أمها حين خرجت للحصاد ووضعتها في ركنٍ من الحقل حيث ماتت الطفلة لسبب غير معروف.

(508) ماو شياو تياو، 12 عامًا، دهسه المقاتلون في معركة البلدة حتى مات مسرئًا.

(538) تشنغ شيو جيوي، أنثى، 80 عامًا، ماتت رعبًا من أفعال المسرئمين.

(539) تشنغ جيون جيون، انتحر بعدما قُتل أفراد عائلته كلهم.

يا بوذا... أيها المستنيرون... أيها الآلهة... أيها الكهنة... يا أباطرة
اليشم... هؤلاء بعض ممن لقوا حتفهم في بلدتنا في أثناء السرنة الكبرى.
لا أعرف كم شخصًا مات في القرى المجاورة أو كيف. كل ما أعرفه
هو أن قائمة موتى غاو تيان، التي أعدتها الحكومة، كانت بطول خمس
وتسعين صفحة. كانت بطول كتاب، كإحدى روايات يان ليانكه تقريبًا.
كأن كل عائلة فقدت واحدًا من أفرادها، وكل بيت فيه جريح، والجثث
تناثرت في الشوارع كأوراق الخريف المتساقطة أو كحبوب قمح ذرتها
الريح. في غضون بضعة أيام نبتت القبور كالفطر في الحقول المهجورة
على مشارف البلدة. وبعد أيام شكلت الحكومة لجنة للوقاية من الأوبئة
التي قد تحملها الجثث المتعفنة. أحضرت اللجنة عشرين عربة محملة
بأربعمئة وعشرين برميلًا من المطهرات، أي ما يعادل تقريبًا كمية زيت
الجثث الذي أحرقه أبي في تلك الليلة. من مجمّع خالي مات تسعة وتسعون
شخصًا أيضًا. مات خالي وزوجته بعد أن ضُربا ضربًا مبرحًا في أثناء
إطعامهما للمسرمنين. سُرقت ممتلكاتها جميعها بما في ذلك الطاولات
والكراسي وأواني المطبخ وعيدان الطعام والستائر والمصابيح. حتى
الزهور والشتلات في فناء بيتها اقتُلعت وسُرقت. في كل بلدة كان هناك
العشرات والعشرات من المسرمنين، وقيل إن الذين في عاصمة المقاطعة
كانوا الأشد فتكًا وترويعًا. لقد امتدت تلك اللية أكثر من ست وثلاثين
ساعة وقُتل فيها ما لا يقلّ عن ألف شخص في المجمال. وحين أشرقت
الشمس أخيرًا، وأنهت فترة الظلام تلك، التي تحدث مرة كل ألف عام،

بثّت محطات التلفزيون والراديو كلّها في المقاطعة والمدينة والإقليم الخبر نفسه في وقت واحد، مشيرة إلى أنّ مناطق معينة في جبال مقاطعة خنان شهدت حوادث مأساوية محدودة سببها عدد من المسرّمين. أما صحف المدينة فنشرت في عمود «غرائب محلية»، في أسفل الزاوية اليمنى من صفحاتها الأولى، إعلاناً مماثلاً جاء فيه:

في بعض قرانا الجبلية؛ حالات متفرقة من السرمنة

في الآونة الأخيرة، أدّت حرارة الصيف القاتظ وانشغال الناس بموسم حصاد القمح، إلى جانب عوامل جويّة وجغرافيّة استثنائيّة إلى ظاهرة من الظلام الموسميّ. ونتيجة لذلك حدثت حالات متفرقة من السرمنة في عدد من القرى الجبلية التابعة لمدينتنا. فعلى الرغم من الإرهاق تمتّع المسرّمون بنشاط فريد دفع بعضهم لحصاد القمح ودرسه، بينما بقي آخرون يقضين طوال الليل، ينادون على النائمين لإيقاظهم، في مشهد يعكس متانة النسيج الاجتماعي ودفع العلاقات الإنسانية.

وفي بلدة «غاو تيان» التابعة لمقاطعة «تشاو نان»، وقعت بعض المشاجرات وذاعت إشاعات كاذبة عن أعداد مبالغ فيها للضحايا. وحرصاً على كبح انتشار هذه الإشاعات وتحقيق الاستتباب المجتمعيّ، كلّفت الحكومة عدداً كبيراً من الموظفين المدنيين وضباط الشرطة لإجراء التحقيقات اللازمة، وفرض الإجراءات المناسبة، وتقديم المساعدة للسكان، سعياً لإعادة الأوضاع إلى طبيعتها في أقرب وقت ممكن.

أيها المستنيرون... أيتها الآلهة... هناك شيء آخر أريد أن أقوله. مات في بلدتنا 539 شخصًا وأصيب أكثر من 490 شخصًا بجروح خطيرة، ناهيك عن حجم الأضرار التي لحقت بالممتلكات. لقد عانت كل عائلة إما من وفاة وإما من إصابة خطيرة، كما تعرّضت جميعها للنهب وتخريب الأرزاق. في كل بيت كان هناك مسرّمون وهناك أناس استغلوا السرّنة لإحداث الفوضى. ولكن بعد انتهاء الكارثة، لم يُظهر أحدٌ منهم أيّ حزن. لم يبك أحدٌ. لم أستوعب ذلك. ففي العادة، حين يموت أحدٌ في البلدة، كنتَ تشعر بأنّ السماء قد انهارت من هول الفاجعة؛ كانت عائلة الميت وجيرانها ونصف أهل البلدة على الأقلّ ينتحبون ويبكون. حتى إن هناك من ماتوا قهراً على شخصٍ فقدوه؛ ماتوا مختنقين بدموعهم. أحياناً، حين كان يموت شخصان في اليوم ذاته أو خمسة أشخاص في غضون ثلاثة أيام مثلاً، كانت البلدة تدخل في حدادٍ عميقٍ؛ فلا يحفُّ البكاء مدة أسبوعين أو ربما شهر كامل. غير أنّ ما حدث في ذلك اليوم الذي استطال فيه الليل بلا انتهاء، حيث مات 539 شخصًا من أهل البلدة وتأثّر كلُّ بيت فيها بالمصاب، كان غريباً؛ فقد تحلّى الجميع بالهدوء وانتظروا إلى فجر اليوم التالي. حين طلعت الشمس خرج سكان البلدة من بيوتهم بهدوء وراحوا يجمعون الجثث.

لم تُذرف دُمعة واحدة.

بدايةً، لاحت في الأفق الغربي سحابةٌ من لَهَبٍ أشبه بجثة محترقة، تشبه تلك التي توجت قمة التلّ الشرقي عند السدّ في الصباح السابق.

ثم أخذ الوهج الشمسي يخترق الغرب، طارداً السحب والظلام. وهكذا تبدد الظلام كنسيم عابر. تاركاً وراءه شوارع مليئة بأبواب ونوافذ محطمة، وملابس وأحذية مبعثرة، ومراوح وعربات متهاكة. وبقايا دماء متخثرة وخصلات شعر وأطرافاً مبتورة وأسلحة ومعاول ومناجل وبلطات. وحتى عندما نظّف الناس هذه الشوارع بقي صمت الموت مخيماً عليها.

انتهى الظلام أخيراً.

طلعت الشمس من الغرب.

ولكن مع بزوغ الفجر، وانتهاء الكارثة والظلام، لم يُسمع في القرية أي هتاف فرح، ولا ظهرت أي مظاهر ابتهاج. أرسلت الحكومة موظفين نصبوا طاولات في أربع نقاط رئيسة بالقرية: شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. وباشر الموظفون فوراً جمع معلومات عن القتل والخسائر المادية لكل أسرة، وسط تردّد الأهالي في الإبلاغ. قوبلت معظم الأسئلة بإجابات تدفقت كالماء، بلا مبالاة.

«هل ستقدم الحكومة مساعدات لعائلات القتلى؟».

«لم يتضح بعد».

«فلماذا تجمعون المعلومات إذًا؟».

«لحصّر الأعداد».

لم يُطرح المزيد من الأسئلة بعد ذلك. عاد الذين أبلغوا عن قتلهم وخسائرهم إلى بيوتهم ببطء تحت الشمس المشرقة. فجأة نهض أحد المسؤولين عن التسجيل وصاح: «الجو حار جداً، ادفنوا الموتى دون

تأخير! الحكومة لا تهتم إن دفتموهم أو أحرقتموهم! ادفنوههم بأسرع ما يمكن».

لم يلتفت بعض المغادرين، أما الآخرون فردّوا: «وماذا عسانا نفعل غير الدفن؟ لا يمكننا ترك الجثث في البيوت!».

ليست القضية، في الواقع، أن الحكومة غير مكترثة سواء دفنوا موتاهم أم أحرقوهم، فالمحرقة قد دُمرت وباتت كومة من أنقاض. لا أعرف من فعل ذلك؛ المسرّمون أم اليقظون الذين استغلوا الفوضى. ألقوا القرن أسفل المنحدر وأغرقوه في مياه الحوض. فجّروا قاعة الحرق حتى صارت تلة من الطوب والبلاط المحطم في فناء المنشأة. سُرق كلُّ ما له قيمة، وحتى ما لا قيمة له. بقي المبنى الجانبي خاويًا، إلى جانب بعض الأشجار والنباتات، ومزيد من النباتات والأزهار، والعصافير والأرانب البرية والظرابين والغُريرات. حقلٌ من أطلال؛ ركامٌ وبريّة. لم أدر أين جِوان تزي. هل عادت إلى قريتها؟ لا أعرف أين تفرّق عمال المحرقة. لعلهم أيضًا عادوا إلى ديارهم.

المحرقة غارقة في سكون.

السدُّ والتلّ غارقان في سكون.

العالم بأسره ساكن. قريتنا غاوتيان ساكنة أيضًا، جدًّا.

مرّ نصف شهر. بدأت القرية تستعيد شيئًا فشيئًا ملامحها القديمة. عادت الشوارع كما كانت. باع من باع واشترى من اشترى. كأن شيئًا لم يكن. الشمس تشرق في موعدها وتغرب في موعدها. تطلع من المشرق وتغرب في المغرب. بعد حصاد القمح، هطل مطر غزير في الحقول. ثم

بعد المطر، اخضوضرت الأرض حتى بدا لون العشب أقرب إلى السواد. التربة فوق القبور الجديدة كستها الأعشاب البرية واختلط الحديث منها بالقديم، إلا أن عشب القبور الحديثة كان أكثر طراوةً وبهاءً. ساحة درس القمح التي كانت خالية تمامًا من أية حبة، امتلأت فجأةً بشتلات صغيرة وكأنها زُرعت عمدًا.

هكذا سارت الأمور.

هكذا كان العالم.

أصلح متجر الملابس أبوابه وواجهاته، وجلب بضائع جديدة وعاود البيع. تكبّد متجر الأجهزة الكهربائية خسائر فادحة، لكن صاحبه اقترض المال واستأنف عمله فجنى أرباحًا أكثر من السابق، أكثر بكثير؛ فقد توافد عليه الزبائن من القرية والقرى المجاورة.

باعة اللحوم والأغذية وباعة الخضروات والفاكهة على الأرصفة، وأهل الريف الذين يأتون للتسوّق، جميعهم عادوا كما كانوا. ازدحام الماضي ذاته عاد من جديد. لكن متجر أدوات الزراعة المقابل لنا ظل مغلقًا ليل نهار بعد أن مات صاحبه تلك الليلة واختفت زوجته. ربما عادت إلى أهلها فهي ليست من أهل البلدة. وسرعان ما نسجت العناكب شباكها على لافتته.

في تلك الليلة، أطاعت أمي أمر أبي، حين أغلقت الباب من الداخل لتنجو بنفسها من المعركة. لكن على الرغم من تلك الحوادث المأساوية، حيث تساقط الموتى، في البلدة وما حولها، كالثمار التي تغزوها الحشرات، أو كالمحاصيل التي يدمرها إعصارٌ عاتٍ، فإن متجرنا، متجر

«العالم الجديد» الجنائزيّ، لم يزدهر. لم يتحسّن ولو قيد أنملة في الحقيقة. توقفت أُمّي عن خياطة الأكفان وقصّ الأوراق لصنع أكاليل الزهور. لا أعرف السبب الذي جعلها تتوقف، ولكن في تلك الأيام التي جمع فيها الناس جثث موتاهم، صعدنا إلى بركة زيت الجثث المحترقة عند قمة السدّ الشرقية، وجمعنا التراب المحروق لدفنه، على اعتباره رفات أبي لي تيان باو. عندما وصلنا إلى القمة، رأينا شيئاً غريباً جداً. بحيرة الزيت، التي باحتراقها أشرقت الشمس، بدت كجوفٍ أتون. التراب محترق ومتفحّم. كل شيء تفوح منه رائحة الاحتراق. وفي الأرض المتشقة، كان شخصٌ ما - لا أعرف من - قد زرع مجموعة من الزهور، حمراء وصفراء وخضراء، كاميليا وأقحوان بري، باقات خزامي مرقطة باللون الأحمر، زهور عرف الديك والأوركيد. ولكي تصل جذور هذه النباتات إلى التربة الغضة تحت الطبقة العليا المتفحمة، عمد الزارع إلى كشف التراب المحروق كأنّه يرفع الغطاء عن قدر، وحفر ثقباً صغيراً بحيث لا تظهر سوى الأجزاء العلوية من سوق الأزهار. بدت كأنها قد زرعت هناك منذ ثلاثة أيام فحسب. لم تكن حية تماماً، بل شبه ذابلة، بأعناق منحنية ورؤوس متدلّية. أخذتُ أنا وأُمّي حفنات من تراب هذه الزهور، كما لو كان رماد أبي، ووضعناه في متجرنا، وقد ظننا أنه عندما يرى أهل البلدة رماد أبي، سيشعرون بامتنان عميق تجاهه. وسيلقون علينا التحايا مبتهمين. لكن الأمر لم يكن كذلك. ففي الأيام التي تلت المأساة، أعرب الجيران الذين قابلناهم أنا وأُمّي عن شكرهم وامتنانهم، لكنهم كفّوا عن ذلك لاحقاً. بات معظمهم إذا صادفوها في الشارع يستوقفونها قائلين: «ألم يُصب أحدٌ في بيتكم بالسرّنة تلك الليلة؟... ألم يكن زوجك

مسرّناً في تلك الليلة؟ كيف لا وقد خطر بباله أن يجعل الشمس تشرق بتلك الطريقة؟ كيف لا وقد تجرّأ على القفز في بحيرة الزيت المحترقة؟». وفي غضون شهرٍ توقّفوا عن طرح تلك الأسئلة.

جرت حادثة صغيرة لا بدّ من ذكرها؛ ففي أحد الأيام، كانت أمي ترتّب الطاولات من بقايا الحطام المتناثر عندما دخل عليها شخص ما؛ كان شعره أشيب، متوسط الطول، يجرّ حقيبة سفر وفي يده بعض الحاجيات. بعدما دخل إلى البيت، ترك حقيبته عند المدخل وأعطى أمي بعض البيض والحليب والمعجنات. هذا ما اعتاد الناس هنا على تقديمه كهدايا حين يزور بعضهم بعضاً. بعدئذٍ نظر إلى صورة أبي دون أن ينبس بكلمة. ظلّ صامتاً وقتاً طويلاً، بدا كأنّه يوم كامل أو شهر كامل أو عام كامل أو حتى دهر بأكمله. وفي نهاية المطاف، راح يُخرج بعض الكتب من حقيبته، حتى تراكت أمامه كومة كبيرة منها. من بين عناوين هذه الكتب كان: قُبَلات إلى لينين، قصائد وترانيم وأغانٍ، قرية حلم دينغ، الكتب الميتة، وأيضاً: سنوات وشهور وأيام، وغاوتيان قرיתי وقرية آبائي. وضع الزائر الكتب أمام صورة أبي ثم أوقد بها النار. لم يَحْثُ ولم يشعل أيّ عود من أعواد البخور، بل كان واقفاً يحدّق إلى النار وإلى صورة أبي الملونة بالأبيض والأسود. وبعد أن خبت النار، ألقي الرجل نظرة إلى أمي ثم داعب وجهي وربّت على رأسي.

«إن لم أستطع كتابة الرواية التي أرادها أبوك -رواية أشبه بموقدٍ يدفئ في الشتاء أو بمروحة تنعش في الصيف- فلن أعود إلى هذه البلدة ما حييت».

قال ذلك بصوت هادئ، صوت بارد وغير مبالٍ. ثمَّ غادر. سحب حقييته ذات العجلات وغادر بيتنا. رافقناه أنا وأمي إلى المدخل. ظننا أنه ذاهب إلى المحطة كي يستقل القطار إلى بكين، ولكن بعد أيام عديدة علمنا أن عائلته في بكين لا تزال تعتقد أنه في غاو تيان، مشغول بكتابة روايته في بيته القديم. مَنْ يعلم أين ذهب؟ لقد اختفى. اختفى بلا أثر، مثل الكتب التي أحرقتها أمام صورة أبي ولم يبقَ منها شيء. انقطعت أخباره. كان آخر ما قاله لي قبل اختفائه: «اذهب إلى تلك الحفرة المحترقة وابحث عن جيوآن تزي. إنها تنتظرك هناك كلَّ يوم».

لم أذهب.

لم أصدّق أنّ جيوآن تزي تذهب إلى هناك كلَّ يوم لانتظاري. لماذا تفعل ذلك؟ ما الذي يجعلها تفعل ذلك من أجلي؟ لكنّي لم أستطع منع نفسي فذهبت. أردتُ أن أتحقّق من ذلك. كما أردتُ أن أعرف -إن صحَّ ذلك- ماذا كانت تفعل هناك؟ كان يومًا من أيام التسوّق والشمس ملتهبة كنار الشتاء. الشمس في أوج سطوعها وليس في الجوّ ذرة غبار أو تلوّث. اكتظَّ الشارع بحشود الناس. شمس الخريف تشعُّ على البيوت والجدران والشوارع وتجعلها متلألئة. الأشجار بدت متلألئة. كذلك الدكاكين والأبواب والنوافذ والبضائع المعروضة والملابس والخضروات والمكانس والمجارف؛ كلّ شيءٍ بدا متلألئًا في ضوء الشمس الساطع. بدت رؤوس المتسوقين وأكتافهم شفافة كحجارة اليشم، حتى لتستطيع أن ترى من خلال الملابس، من خلال الجلد واللحم، قلوبهم وعروقهم. كنت أمشي بملل وثاقل، أفكّر فيما قاله العمّ يان لي قبل

رحيله. تذكرت أن عائلة جيوآن تزي تقطن في قرية قريبة من تلك الحفرة المحترقة. فجأة، اخترقتني ذكرى الصغيرة جيوآن تزي كإبرة حامية. كإبرة انغrust في قلبي. قررت الذهاب إلى الحفرة بحثاً عنها. غادرت البلدة وصعدت إلى السد، أركض مثل هارب. من بعيد رأيت بناءً شُيد مكان المحرقة. كأنَّ عجوزاً بنى مذبحاً هناك. أو ربما ليس مذبحاً، ربما كان معبدًا. وحده المعبد يستقبل موتى الحاضر والماضي، بخلاف المذبح. لكنني لم ألقِ بالآ في تلك اللحظة، سواء كان معبدًا أم مذبحاً. لم أفكر إلا في جيوآن تزي. لقد كانت معبدي ومذبحي. حين وصلتُ وقفتُ أحدق ذاهلاً. الطريق الذي دحرج عليه أبي والمسرّمون براميل الزيت في تلك الليلة غداً مغطى بالعشب الذي يبلغ ارتفاعه الركبتين، وبين العشب تبرّعت أزهار صفراء صغيرة تمتدُّ نحو السماء. نحل الخريف يحوم حول الأزهار بلا كللٍ، مع المئات والمئات من روائح الزهور العطرة التي تتلألأ أمامي كقطع من حرير أحمر وأصفر. اقتربتُ من الحفرة، أمشي بين الزهور وعبيرها، لكنني لم أجِد جيوآن تزي. ولكن فجأة، عندما نظرتُ إلى الأرض المتفحمة، شعرتُ بأنَّها خرجت من الأرض وألقت بنفسها في حضني. كانت تلك الزهور النامية من بين الشقوق في التراب المحترق تتفتح حيّة! في حين كانت الزهور من قبل تنمو متقرّفة، باتت الآن كثيفة، مترابطة ساقًا بساقٍ. اختفت الأرض السوداء المحترقة تمامًا تحت غطاء من الزهور، ولم يعد بالإمكان رؤية أدنى بصيصٍ من التربة. تفتحت زهور الأقحوان الأحمر والصففر حول الحفرة، بأوراق وبتلات مختلفة الأحجام، وفاح عبيرها النفاذ لدرجةٍ بدا معها أنَّ الريح عاجزة

عن تبديده. حامت فراشات الخريف ونحلاته حول تلك الزهور كأنه الربيع. ظلالها مع ظلال العصافير المحلقة في الأعلى تنساب فوق الزهور كقوارب تطفو على سطح بحيرة. كان ضوء الشمس ساطعًا للغاية، حتى تظهر لك أنفاس الزهور والطيور إذ تتشابك في الهواء، مصدرًا صوتًا خفيًا كصوت احتكاك ذرات الغبار بأشعة الشمس. وفي الوقت ذاته كان هذا الصوت واضحًا وضوح النجوم المتألثة في السماء. أظن أن هذا الوصف ورد في رواية «سنوات وشهور وأيام». ربما ورد في خاتمتها وربما لا! كنت ما أزال مترددًا بشأن مصدر هذا النص وإذا بجيوان تزي تظهر على الجانب الآخر من الحفرة، تحمل عصا على كتفها يتدلّ منها دلوان من الماء لسقاية الزهور. تلالأت ضفیرتاها والعصا تحت ضوء الشمس كجناحي فراشة أو يعسوب.

«أوه! أوه!»

«أيا معبدي! أيا مذبحي! أيا فتاتي الصغيرة!».

مكتبة

t.me/soramnqraa

وبعد هذه الصيحات، توقفت كرة النار التي هي أبي عن تقدّمها. توقفت لحظة؛ لحظة تعادل عمر أبي بأكمله. ثم عاد فصعد فوق ذلك المرتفع الصغير في أرضية البركة، فتكوّر اللهب من جديد وارتفع أكثر فأكثر. لم يتحرك أبي ولم يصرخ. وقف هناك، صامتاً، يحفّ به اللهب، ملتهباً الأغصان والأعشاب والملابس من حوله. ترك النار تلتهم ما في طريقها إليه. اضطربت نارٌ هائلةٌ وسط الحفرة، كانت في البداية بحجم حصيرة ثم امتدّت وأصبحت بحجم بيت كبير. وفي لمح البصر، غطّت الأغصانُ والودي، كعمودٍ ملتهبٍ، يرتفع نحو السماء وينتشر في الأرجاء. لبّ أزرق وأحمر، ما إن احترق الزيت حتى اصفرّ، مشكلاً كرةً ذهبيةً ضخمة. وفي قلب تلك الكرة وقفَ والدي، كبرج متوهج في مركز العالم، يتأيل، يترنّح، لكنه لم يسقط.



ليلةً بلا فجر، ساعاتها أطول من أن تُحصى، فيها تبدّى أحلك رغبات الإنسان وهواجسه وأنانياته. ملحمة قائمة ينصهر فيها الواقع بالأسطورة، ويخبو فيها بصيصُ النور الأخير. إنّا حكاية "ليلة السرمنة الكبرى"، يروي مجرباتها الفتى لي نيان نيان ذو الأربعة عشر عاماً. نرافق الفتى ووالده، صاحب متجر «العالم الجديد» الجنائزي، الذي يجد نفسه أمام مهمة كالمعجزة؛ فهل سيستطيع إحياء الشمس الميتة؟ هل سينجح في محاولته الياسته لإنقاذ البلدة من الفوضى والجنون؟

عبر رواية هو أحد أبطالها، يعود إلينا يان ليانكه بعوالمه السوداوية، ويضعنا مجدداً أمام أسئلة كبرى ومزعزعة؛ عن توحش السلطة وتدهور الأخلاق والظلمات التي لا تنجلي. يان ليانكه، الحائز على جائزة فرانز كافكا عام ٢٠١٤ عن مجمل أعماله، أحد أهم وأبرز الأصوات في الأدب الصيني المعاصر. تُرجمت أعماله إلى عشرات اللغات وحظيت باهتمام النقاد والقراء.

المرجم

مكتبة

t.me/soramnqraa

يان ليانكه

يوم ماتت الشمس



9

789921

775228

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

